



أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان:

المنهج القرآني في التنمية البشرية

إشراف الأستاذ:

الدكتور عبد الرحمن العضاوي

إعداد الطالب:

عبد اللطيف طوبى

الرقم الوطني: 9191502902

السنة الجامعية

2019/2018



أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان:

المنهج القرآني في التنمية البشرية

إشراف الأستاذ:

الدكتور عبد الرحمن العضاوي

إعداد الطالب:

عبد اللطيف طوب

الرقم الوطني: 9191502902

السنة الجامعية

2019/2018

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع لي والدي العزيزين، ولي ألسني الصغيرة؛

زواجتي الفاضلة فوزية عمدي

وأبنائي آية وأسمية وعمر وعلي

شكر و تقدير

أتوجه في بداية هذا العمل بالشكر والامتنان لفضيلة الدكتور:

عبد الرحمن العضاوي

على كل ما بذله في تأطير هذا البحث ، من ملاحظات
توجيهية للارتقاء بهذا العمل، مع جميل الصبر وكرم النصح،
فله مني كل الشكر والتقدير والاحترام.

مقدمة

يتناول هذا البحث موضوع "المنهج القرآني في التنمية البشرية"، وأقصد بالتنمية البشرية هنا؛ تلك الموجة من الأفكار التي اجتاحت مجتمعاتنا العربية الإسلامية في العقدين الماضيين، و تدور موضوعاتها حول تطوير الذات و تحسين نمط الحياة الخاصة، بما يحقق طموحات الإنسان في النجاح والتفوق، ويضمن له قدرا من "السعادة" في الحياة، مع ما يستلزمه ذلك من إتقان لمهارات التخطيط والتواصل والتأثير والإقناع وبناء الثقة في النفس، و ممارسة "التأمل" و رياضات "الاسترخاء"، إلى غير ذلك من الأفكار التي انتظمت تحت إطار ما عُرف بـ : التنمية البشرية، و ما يعبر عنه أحيانا بـ : "التنمية الذاتية"، والتي كان انتشارها في مجتمعاتنا العربية الإسلامية مُدويا ولافتا، انخرط فيه مثقفون ومربون ودعاة وخطباء دين...إلخ.

تعتمد التنمية البشرية في معظم نشاطاتها على تسويق تجاري يعمل على ضخ عناوين جذابة في دنيا الناس وواقعهم المتغير، تغري من خلاله الإنسان بامتلاك مفاتيح نجاحه في الحياة، وحل إشكالاته فيها، سواء تلك المرتبطة بصميم كينونته - أي فهمه لذاته ولمعنى وجوده ورؤيته في الحياة، ومعايير وقيم نجاحه.. - أو تلك المرتبطة بما يُفترض اكتسابه من مهارات عملية أو تقنية؛ تمكنه من تطوير قدراته لاغتنام فرص الحياة، واستثمارها على أفضل نحو ممكن. وهي بذلك تقوم على دعامتين أساسيتين: مركزية الاهتمام بالإنسان إنماء لذاته وتطويرا لمهاراته في الحياة من جهة، ومركزية الاهتمام بغايات الإنسان بحثا عن نمط الحياة الأنسب لتحقيق "النجاح" و"السعادة".

وقد استطاعت التنمية البشرية في وطننا العربي أن تتمكن من جذب قطاعات عريضة من أفراد المجتمع؛ و خلق انبهار كبير بأدبياتها ونشاطاتها العملية، لتصبح من المحطات الأساسية التي تُلتَمَس عندها الحلول الناجعة لأزمات المسلم المعاصر في حياته الشخصية والعلمية والمهنية والأسرية...إلخ. لاسيما، وأن المواطن العربي المسلم يعيش منذ عقود، حالة من التيه والتردد وفقدان البوصلة، تكررست باعتماد أنظمة تعليمية وتربوية قائمة

على ازدواجية الجمع بين الرؤيتين: الحداثية "المعاصرة"، والإسلامية "الموروثة"، بما ينقل الأزمة المترتبة عن تلك الازدواجية إلى عالمه الداخلي، ليعيش صراعا بين ما يؤمن به من أفكار تقليدية وقيم موروثة، وهي في الغالب غير مؤثرة في الواقع الحياتي، ولا دافعة له أو محركا لنشاطاته ودينامياته.. وبين ما ينبغي عليه التسلح به من ثقافة عصره المهيمنة، وقيمها السائدة في مجتمعه، حتى يستطيع مواكبة عصره وامتلاك مفاتيح النجاح فيه، فجاءت التنمية البشرية لتمثل الإطار الأنسب للبحث عن تلك المفاتيح. مما يثير إشكالا حول مدى صلاحية التنمية البشرية بمرجعيتها الغربية لتقديم حلول كلية أو جزئية للإنسان المسلم في موضوعات تتعلق أساسا بإدارة كينونته الخاصة، وبنمط الحياة أخذا بعين الاعتبار اختلاف المرجعيات.

لقد تنبّه المروجون لـ : التنمية البشرية في عالما العربي - بشكل ما - لطبيعة هذا الإشكال، فبدأوا يقدمون نوعا من التنمية البشرية، الممزوجة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأحيانا من خلال الاستعانة بالسيرة النبوية كنوع من إضفاء الشرعية. ولكن مثل هذه المحاولات كشفت عن ضعف منهجي مزدوج؛ ضعف في الوعي بالمنهج الذي أطر العلوم الإنسانية في التجربة الغربية، والتي تعتبر التنمية البشرية جزءا منها، و ضعف كذلك في الوعي بالمنهج الإسلامي والقرآني خاصة، وما ينبغي أن يكون له من دور في تأطير الحياة الإنسانية.

تزداد أهمية الوعي بالمنهج؛ حين ندرك حقيقة برامج التنمية البشرية ذائعة الصيت في عالما العربي الإسلامي، ونقف على خلفياتها النظرية ومرجعياتها الفكرية المؤطرة لظهورها، و نرصد سياقات تطورها الفكرية والثقافية. ليتكشف أنها تعبر في حقيقة الأمر عن فلسفة للحياة، وليست قاصرة على مجرد تطوير لتدابير ومهارات كما يعتقد معظم العاملين في هذا المجال، وذلك بما تنطوي عليه من نماذج وأطر معرفية تم إنضاجها في سياق حضاري مختلف لتشكل معايير أساسية في نوعية الحياة والنجاح والسعادة...إلخ.

في هذا السياق، يصبح انتقال هذا النوع من مناهج الحياة إلى بيئتنا العربية مثار إشكالات. لا سيما في ظل حالة الاستتباع الثقافي، التي تتم بطرق واعية أحيانا ولاواعية في الغالب، وتقود إلى التعامل مع المعارف والعلوم الوافدة وما تحمله من تصورات وجودية بمنطق استلابي واستهلاكي محض؛ يقوي من عزلة المسلم المعاصر عن أصوله المعرفية والتربوية، التي يفترض أن تكون المصدر الأساس لهدايته وتنويره في شأنه الحياتي. وعلامة ذلك، ما آلت إليه مكانة القرآن - المرجعية العليا للمسلمين - حين بات حضوره - في الغالب الأعم - حضورا شكليا في حياة المسلم الذي يركز جل اهتمامه به على العناية بحفظه وبتعلم تجويد حروفه.. لكنه حين يضع المصحف من يديه، يتوجه إلى حياة يرى في الغالب أن لا علاقة لها بما كان يقرأ، أو يحفظ، أو يوجد.. حياة لها أفكارها وتوجيهاتها وقوانينها، وهي مناقضة - على نحو ما - لثقافته الموروثة، التي لا يقرأ القرآن إلا بوساطتها ومن خلالها. وقد وقر ذلك البيئة النموذجية لمسلم اليوم، حتى ينخرط في عملية استيراد نمط حياتي يكاد يبدو "متكاملا" أو "شاملا". إذ لم يعد يشعر - مجرد شعور - بكبير مشكلة حين يعتمد إلى استيراد مناهج حياتية تُعلمه كيف يحقق كينونته؟ بل وتُعلمه، كيف يجد معنى لحياته؟ قبل أن يتعلم منها فنون التواصل ومهارات التفكير والتخطيط والقيادة...

في هذا السياق، تبرز أهمية توفر الإطار المعرفي الإسلامي للتنمية البشرية - مع التأكيد في الآن ذاته؛ على عدم وجود أي مانع في الاستفادة من منجزات العقل البشري سواء منها القديمة أو الحديثة، إذا كانت مفيدة ولا تتعارض مع المرجعية العليا للمسلمين -. وبذلك يمكن تحديد إشكاليتنا ضمن الإطار الاستفهامي الآتي:

إلى أي مدى يمكننا الحديث عن وجود منهج قرآني في التنمية البشرية، في ظل خُلُو القرآن من أي ذكر لهذا المصطلح - التنمية البشرية - الذي تمتد جذوره إلى رؤية كونية خاصة ومنهج حضاري مختلف؟ وهل من راهنية لهذا السؤال في واقعنا العربي المعاصر؟

❖ منطلقات البحث:

ينطلق هذا البحث من المسلّمات الآتيتين:

- القرآن كتاب محوره الإنسان، وهو مصدر الحقائق عن هذا الإنسان، تحدّدت الغاية من تنزيله في كونه الهدى والنور والبرهان والشفاء والرشاد.. و تحدّد مقصده في تزكية حياة الأفراد بما يسهم في عمران المجتمع. وهو بذلك منهج حياة، تحقّق تاريخيا بما أحدثه لحظة تنزله من تغيير حقيقي في تصورات وقيم وسلوكات الأفراد المؤمنين به، انعكست تمدنا حضاريا وإنسانيا شخّ نوره العالم. فأثبت سنته القائمة على : "تغيير ما بالقوم نتيجة مباشرة لتغيير ما بالنفوس".
- كل فكر أو اجتهاد إنساني، قديم أو معاصر؛ يصدر عن نسق منظومي من التصورات تشكل إطاره المرجعي، ويكرس من خلاله سلطة ذلك الإطار الذي نصطلح عليه هنا بالمنهج؛ فلا وجود لعلوم أو معارف محايدة أو مستقلة عن منهج كلي يؤطرها.

❖ أهداف البحث :

نسعى في هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- التعريف بالمنهج القرآني وبيان أهميته ومقوماته في إدارة حياة الأفراد بما يحقق تتميتهم الخاصة ليكونوا لبنة لأي تنمية مجتمعية ممكنة.
- تحديد الموقف من مدى صلاحية المنهج الوضعي للعلوم الإنسانية الحديثة برؤيته المادية لتأطير الظواهر الإنسانية عموما، بله استخدامه كنموذج معرفي للإنسان المسلم.
- الكشف عن مكامن الخلل المنهجي التي عطّلت وظيفة المنهج القرآني – تاريخيا – في حياة المسلم.

- إبراز وكشف معالم المنهج القرآني انطلاقاً من إعادة تعريف القرآن قرآنياً، وبيان أوجه استخلاص مصدريته مما شابها من خلال التجربة التراثية للمسلمين، حتى يكون مصدراً مباشراً للرؤية الكونية ومقاصدها في التنمية البشرية وأدوات تفعيلها في حياة الإنسان، مما يفتح النظر على آفاق تطبيقاتها العملية في الواقع.

❖ الدراسات السابقة في الموضوع

بالرغم من حداثة موضوع التنمية البشرية في الساحة العربية الإسلامية، والتي ترجع إلى حوالي عقدين من الزمن. فإن هذه الفترة كانت كافية لظهور دراسات و أبحاث عن الموضوع، ومما رصدناه في ذلك:

1- "المصطلح القرآني والتنمية الذاتية: قراءة في مفهوم التزكية نموذجاً"، وهو دراسة للدكتور جميلة زيان.

نُشرت ضمن أعمال المؤتمر العالمي الرابع للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع " المصطلح القرآني وعلاقته بمختلف العلوم" الذي أقامته مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)، بالتعاون مع الرابطة المحمدية للعلماء، وجامعة القرويين، والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، والمجلس العلمي المحلي بفاس، ومركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض، وجمعية الثقافة الإسلامية بتطوان، بمدينة فاس -المملكة المغربية، أيام 13-14-15 أبريل 2017م.

تنطلق الباحثة في هذه الدراسة من القول أن: التنمية البشرية و"تنمية الذات" هي موضوعة العصر، وفلسفة الحياة، بما تحمله من معارف وأفكار وقيم تصورية وعملية، تحمل كوامن فلسفة العولمة والليبرالية العالمية.. " والباحثة تعبر بذلك عن وعي بالنموذج الإدراكي، الذي يقف خلف هذا المفهوم، وتركز بالدرجة الأولى على الجانب المتعلق بالمصطلح. وقد

تصدت في بحثها لإبراز تميز المصطلح القرآني "التركية" وبيان قدرته الفائقة على الاستيعاب والدمج والتجاوز لمضامين مصطلح " التنمية البشرية"، وتوسيعه انطلاقاً من قراءة مفهوم التركية، معتبرةً هدفها تأصيل المفهوم الغربي للتنمية البشرية.

غير أنها وقعت في خلط مفهومي حين عمدت إلى تعريف التنمية البشرية وفق تقارير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، معتبرة "التنمية الذاتية" مصطلحاً ينتمي إلى مجال التنمية البشرية المعتمدة في تلك التقارير، وهو استنتاج صحيح إلى حد ما، إذا أخذنا بعين الاعتبار التقاطعات بين المجالين، أما من حيث البناء الذي اعتمدته الباحثة للوصول إلى ذلك، فقد جانبها الصواب حين جمعت في إطار واحد بين تعريف مترجمة عن حقلين مختلفين؛ يتقاسمان الحديث عن التنمية البشرية اليوم في المجال التداولي العربي.. وسنثبت في هذا البحث اختلاف المسارين، ونوضح ما بينهما من تقاطعات.

2- "التنمية البشرية في السنة النبوية: دراسة موضوعية" للباحثة سماح طه أحمد الغندور، وهي رسالة لنيل شهادة الماجستير في الحديث الشريف وعلومه، بإشراف الدكتور : طالب حماد أبوشعر، من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة، عام 2011م.

تتعلق الباحثة في هذه الدراسة من تعريف للـ"تنمية البشرية" يروم بيان أصول مفرداتها لغوياً، ثم تنتقل إلى الحديث عن مفهوم للتنمية البشرية، تذكر فيه ما يدل على وقوعها في خلط مفاهيمي أيضاً، حيث انطلقت من تعريف عام للتنمية البشرية يشمل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حين عمدت إلى بناء وتصميم بحثها وفق عناصر ومعطيات تنتمي إلى المفهوم الخاص للتنمية البشرية، والذي يعبر عنه بالتنمية الذاتية أو التطوير الشخصي؛ فهي تتحدث عن موضوعات العصف الذهني، والمهارات القيادية، ومهارات إدارة الوقت، والتواصل. ثم تتناول بعد ذلك موضوع التنمية الاقتصادية، بما يجعلها تجمع بي مجالين مختلفين. وقد عبّرت الباحثة في مقدمة كتابها عن ما وجدته من صعوبة في العثور على تعريف شامل وكامل للتنمية البشرية، معللة ذلك بجدة الموضوع. ويبدو لي أنها كانت ضحية الخضوع للائحة الدراسات السابقة، ففي الوقت الذي

حددت فيه الباحثة هدفها من البحث في إبراز عناية السنة النبوية بالطاقات البشرية، وهو مجال التنمية البشرية "الذاتية"، أوردت بالمقابل لائحة من كتب الدراسات السابقة التي تتناول التنمية البشرية في عمومها؛ اقتصاديا وسياسيا وفكريا وفلسفيا.. وهو ما أدى إلى ظهور ذلك الخط على مستوى تصميمها لعناصر الموضوع..

الملاحظة الثانية بخصوص هذه الدراسة، تتعلق بالمنهج الذي اعتمدته الباحثة في موضوعها، وجعلت في مقدمته؛ "البحث في كتب السنة عن الأحاديث المتعلقة بالتنمية البشرية، وإيراد الشواهد اللازمة، وتصنيفها موضوعياً وفق مباحث الرسالة." فهي تعتمد إلى اعتبار موضوعات التنمية البشرية هي الأصل، ثم تبحث لها عن شواهد من السنة النبوية، فتتحول السنة النبوية - وفق هذا المنهج - إلى مجرد استشهادات على موضوعات التنمية البشرية كما تقررت عند أصحابها ووفق سياقاتها الثقافية، الأمر الذي نعتبره تعبيراً عن فقدان الوعي بالمنهج الكلي الذي يؤطر مباحث التنمية البشرية والعلوم الإنسانية عموماً. وهو ما يكرس التبعية الثقافية والفكرية من حيث لم تقصد صاحبة الدراسة.

3- "معالم التنمية البشرية في الفكر الإسلامي" لمحمد اليعقوبي، ويمثل هذا الكتاب أساساً للمرجعية الشيعية في موضوع التنمية البشرية، مشفوعة بنصوص من القرآن والمرويات الشيعية.. وباستثناء هذا المعطى المتعلق بالتمثيل المذهبي الشيعي، تسري على هذه الدراسة نفس الملاحظات التي تم تسجيلها بخصوص الدراسة السابقة. فهو يخط موضوعات التنمية البشرية العامة والخاصة، ومثال الأول؛ حديثه عن الإكثار من النسل في الفصل الأول، ومثال الثاني؛ تخصيصه الفصل الثاني للتفكير الإيجابي ودوره في حياة الإنسان. وهو أيضاً يجعل من نصوص القرآن والمرويات الحديثية عند الشيعة شواهد لما يذكره من موضوعات في دراسته.

4- "حقيقة البرمجة اللغوية العصبية" للدكتورة فوز بنت عبد اللطيف كردي، الباحثة في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية، والمتخصصة في

موضوعات "الفكر العقدي الوافد، ومنهجية التعامل معه"، والمؤسسة لموقع إنترنت خاص بذلك. والكتاب المنوّه به هنا مجرد واحد من كتب عديدة أصدرتها الباحثة في هذا المجال.

تتصدى الباحثة لمعالجة موضوع التنمية البشرية في إطار دراساتها العقدية من منطلق تخصصها في علم العقائد والمذاهب، وهي تُرجع ما ظهر من أفكار التنمية البشرية بما فيها البرمجة اللغوية العصبية إلى ما عُرف بـ "حركة العصر الجديد" (New Age Movement)، وهو اسم لطائفة تأسست في معهد "إيسلان" بكاليفورنيا سنة 1961، وتشير في غير واحد من كتبها إلى خطورة هذه الطائفة بقولها : "من أهم ما يميزها أنها ترى أن عصر التلقي من مصدر خارجي "الله" والتطبيق لأوامر خارجية «الدين» قد انتهى، وأن العصر الجديد يستطيع الإنسان فيه مع الطبيعة والعقل والقدرات غير المحدودة له أن يكفل صناعة حياته السعيدة". وتذكر الباحثة أن في معهد إيسلان ظهرت عشرات الطرق والتقنيات والتدريبات من بينها البرمجة اللغوية العصبية. وتبين أن هذه الحركة "تسعى لتقديم منهج حياة متكامل وأسلوب يومي عملي ظاهره المعاصرة والتجديد، وباطنه بعث العقائد الفلسفية الإلحادية، ومشابهة لطقوس وممارسات الديانات الشرقية والفرق الباطنية في جميع الأديان. وتبين الباحثة أن هذه الحركة اختلفت عن الحركات الباطنية في تاريخ الأمة بأنها: "أخذت طابع الثقافة المحايدة والفكر الجديد، ورُوج لها تحت اسم التنمية البشرية، وسوّقت برامجها عبر مؤسسات التدريب والتطبيب كبرامج حيوية عامة لا تقدم فكرا أو فلسفة ولا تتعلق بدين أو مذهب"

تُظهر الباحثة الدكتورة فوز؛ امتلاكها لوعي منهجي بحقيقة هذه العلوم الوافدة على مجتمعاتنا العربية الإسلامية، وذلك من خلال إشارتها إلى ما تقتحمه هذه العلوم من مساحات خطير جدا لتصورات الإنسان وعقائده، ومنهجه في الحياة. وقد خاضت في كتاباتها نضالا محمودا لبيان هذه العقائد المتسللة لحياة الناس في صورة عصرية تحت مسمى " التنمية البشرية"، وتحذير الناس منها بكل الوسائل الممكنة. لكنها لم تطرح سؤالا يستتبع ما تقوم به من جهد على هذا الصعيد؛ وهو: لماذا يلجأ المسلم المعاصر لهذه العلوم

والتقنيات، ويبذل في سبيل ذلك جهده ووقته وماله؟ فلم يعد القول بوجود منهج واضح في الكتاب والسنة مجدياً في السياق الثقافي والفكري المعاصر، لأن ما بين المسلم المعاصر وبين مرجعية الوحي، ليست ذات المسافة التي كانت في الأجيال الأولى من تاريخ المسلمين. وعليه فإن الإشكالية اليوم مركبة وأكثر تعقيداً مما قد نظن. وقد حاولنا في هذا البحث قدر المستطاع تناول هذا الشق من الإشكالية المرتبطة بعلاقة المسلم بمرجعياته الأولى من خلال البحث. تراثياً. بالكشف عن أوجه الخلل المنهجية في التعامل مع القرآن الكريم مصدراً للمعرفة والمنهج. وهي خطوة ضرورية قبل أي حديث عن منهج قرآني في أي مجال كان.

❖ خطة البحث:

اقتضى مني العمل الإجرائي لمعالجة إشكالية هذا البحث تقسيم موضوعه إلى بابين رئيسيين؛ الأول بعنوان: التنمية البشرية بين المنهج الوضعي والمنهج القرآني. وقسمته إلى فصلين؛ الأول جاء بعنوان: المنهج الوضعي وإشكالياته من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية، تناولته من خلال مبحثين، خصصت المبحث الأول لتحديد المفاهيم الأساسية للبحث، فجاء بعنوان: مفاهيم حول المنهج والمنهج القرآني والتنمية البشرية، وجعلته في مطلبين، تناولت في المطلب الأول مفهوم المنهج والمنهج القرآني، وتناولت في المطلب الثاني مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالقرآن الكريم. وتم تخصيص المبحث الثاني من الفصل الأول للبحث عن جذور المنهج الوضعي في العلوم الإنسانية، وهو ما شكل المطلب الأول منه، في حين خصصت المطلب الثاني لإبراز آثار المنهج الوضعي في التنمية البشرية باعتبارها من فروع العلوم الإنسانية.

أما الفصل الثاني من هذا الباب، فجاء بعنوان: التنمية البشرية في الواقع العربي المعاصر وأسباب تعطيل المنهج القرآني. و تناولته من خلال مبحثين. إذ تم تخصيص المبحث الأول للحديث عن الواقع العربي المعاصر وإشكالية المنهج من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية، وقسمته إلى مطلبين، تناولت في المطلب الأول الواقع العربي المعاصر

وأزمة المنهج في العلوم الإنسانية، وتناولت في المطلب الثاني الواقع العربي وأزمة المنهج في التنمية البشرية. وفي المبحث الثاني من هذا الفصل، تطرقت إلى جذور أزمة تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية وأثرها في تشويه الرؤية الكونية القرآنية، فجعلت المطلب الأول مخصصا للحديث عن تقسيم العلوم الإسلامية وأثرها في تعطيل المنهج القرآني تطرقت فيه لمباحث من صميم التراث الإسلامي في العقيدة والفقه والتصوف، ثم بينت في المطلب الثاني أثر تقسيم العلوم الإسلامية في تحريف وتشويه الرؤية القرآنية.

أما الباب الثاني من هذا البحث فقد جاء بعنوان: معالم المنهج القرآني في التنمية البشرية، وتناولته في ثلاثة فصول:

الفصل الأول بعنوان: المنهج القرآني في التنمية البشرية؛ مداخل معرفية ومنهجية، و تناولته في مبحثين: الأول بعنوان: القرآن الكريم؛ مداخل منهجية، تحدثت في مطلبه الأول عن أهمية المصدرية القرآنية من حيث المفهوم والسياق، وخصصت مطلبه الثاني لإبراز المداخل المنهجية في التعامل مع القرآن. وجاء المبحث الثاني بعنوان : مقومات وخصائص المنهج القرآني في التنمية البشرية، تناولت في مطلبه الأول خصوصية المعجم القرآني في التنمية البشرية، وخصصت المطلب الثاني لبيان بعض معالم الخصائص العامة للمنهج القرآني في التنمية البشرية. فكان هذا الفصل بمثابة مدخل لما تم تناوله في الفصل الموالي، والذي عنونته ب : الرؤية الكونية القرآنية ومقاصدها في التنمية البشرية، وتناولته في ثلاثة مباحث؛ تطرقت في المبحث الأول لمقدمة حول الرؤية الكونية القرآنية، وخصصت مطلبه الأول لبيان أهمية الرؤية الكونية القرآنية، و مطلبه الثاني لقراءة في سورة الفاتحة باعتبارها خلاصة منهج الحياة والرؤية الكونية القرآنية. وفي المبحث الثاني تناولت مرتكزات الرؤية الكونية القرآنية من خلال أربعة مطالب، توزعت فيها عناصر الرؤية الكونية بالترتيب الآتي، الله تعالى، الإنسان، الحياة، و الكون.. ثم خصصت المبحث الثالث للحديث عن مقاصد الرؤية القرآنية في التنمية البشرية ضمن مطلبين: تناولت في الأول المقصد العام للرؤية

القرآنية وأثره في تشكيل نمط الحياة، أما الثاني فخصصته لبيان المقاصد الخاصة للرؤية القرآنية في التنمية البشرية.

وخصصت الفصل الثالث من الباب الثاني لموضوع أدوات المنهج القرآني وأثرها في تزكية الإنسان، وقد ضم مبحثين، الأول؛ بعنوان: أدوات تفعيل القرآن في حياة الإنسان، وتناولته في مطلبين، خصصت الأول لموضوع القرآن تلاوة وتعلّما، والثاني لموضوع: القرآن تدبرا ومجاهدة.. أما المبحث الثاني فخصصته لإبراز أثر استثمار أدوات المنهج القرآني في تزكية حياة الإنسان، وقسمته بدوره إلى مطلبين؛ تحدثت في الأول عن التزكية بالصلاة وذكر الله وتناولت في الثاني موضوع التزكية بالقراءة. ثم ختمت البحث بذكر أهم النتائج والخلاصات التي توصلت إليها، وما تقضي إليه من آفاق بحثية قادمة بإذن الله.

❖ منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي لدراسة منهج العلوم الإنسانية الغربية ونتائجها في علوم التنمية البشرية، ولدراسة مناهج علماء المسلمين في التراث الإسلامي بحثا عن سبب تعطيل المنهج القرآني في حياة المسلمين. وفي كلا الموضوعين، عمدت إلى تفكيك المقولات وردّها إلى أصولها وكشف نسق تطورها، وكذلك اعتمدت المنهج النقدي في دراسة أدبيات التنمية البشرية المنجزة في الواقع العربي الإسلامي الحديث لإبراز مدى أصالتها أو تبعيتها.

كما استعنت بالمنهج التاريخي في تتبع السياقات الثقافية والفكرية التي صاحبت بزوغ المنهج الوضعي في العلوم الإنسانية وتتبع ملامح انعكاساته في التنمية البشرية، واعتمدته أيضا في تتبع مدارس التراث الإسلامي الأساسية في تعاملها مع النص القرآني.

وفي التعامل مع القرآن الكريم، اعتمدت المنهج النسقي القرآني القائم على الوحدة البنائية الموضوعية لآيات القرآن الكريم وسوره، وذلك لأهمية هذا المنهج في اعتماد نسق

الوحدة الكلية للقرآن الكريم وما تحققه من إدراك مقاصدي لآيات القرآن الكريم وسوره. كما أشرت إلى أهمية اعتماد مدخل السور القرآنية، الذي يساعد في تحقيق أكبر قدر ممكن من الالتحام بمنهج القرآن وطريقته تعليمًا وتزكية، مع استخدام محدود لبعض أدوات الدراسة المصطلحية في التعامل مع القرآن. والاستعانة بأبرز المفسرين الذين يعتمدون هذا النوع من المنهج في التعامل مع القرآن.

❖ الصعوبات المنهجية في البحث:

عرف العمل في هذا البحث بعض الصعوبات لعل أبرزها، ما أثير من استفهام حول صعوبة الحديث عن منهج قرآني في التنمية البشرية بالمفهوم الذي اخترنا معالجته هنا، وهو التنمية المتعلقة بالإنسان - الفرد - . فقد يرى البعض في ذلك نوعا من الاعتساف في فرض موضوع يعنى بالذات الفردانية على كتاب - أي القرآن - يرى الكثيرون أن غايته بناء أمة ومجتمع. فنكون من حيث أردنا المنهج القرآني معيارا نتسلح به في هذا الموضوع قد استلبتنا النزعة الفردانية "Individualism" للتنمية البشرية الغربية، التي عرفت هذا النزوع في سياق تطورها التاريخي الخاص. وقد قدمنا الجواب عن ذلك ضمن ثنايا البحث، بما يمكن تلخيصه؛ في تأكيد الخطاب القرآني على البعدين الفردي والجماعي بتوازن وترابط بينهما، وتأكيديه أيضا على المسؤولية الفردية للإنسان. و أن التغيير العام الذي يريد القرآن إحداثه في الناس لا يمر إلا عبر قناة التغيير الفردي، فمن سنن القرآن أن لا يتغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وهو ما يبرر القيام بهذا الاختيار الإجرائي حصرا للموضوع المراد بحثه.

كما برزت صعوبة الحديث عن منهج قرآني يدور حول مصطلح التنمية البشرية الذي لم يرد في القرآن، وقدمنا الجواب عن ذلك في ثنايا البحث بما يوضح أن فكرة المنهج القرآني تحمل في ذاتها وعيا بأهمية استعادة القرآن في حياتنا منهجا ورؤية، بما يتطلبه ذلك من اجتهاد في إحياء مصطلحاته ومفاهيمه، وإعادة قدح زناد تشغيلها ضمن النسق الكلي الإسلامي تصورا واعتقادا وسلوكا. الأمر الذي يتطلب جهدا جماعيا ومكثفا.

الباب الأول

التنمية البشرية بين المنهج الوضعي والمنهج القرآني

الفصل الأول

المنهج الوضعي وإشكالياته من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية

المبحث الأول: مفاهيم حول المنهج والمنهج القرآني والتنمية البشرية

المطلب الأول: مفهوم المنهج والمنهج القرآني

1 - مفهوم "المنهج" في اللغة والاصطلاح:

ترجع القواميس العربية كلمة منهج إلى مادة (نهج)، ففي تاج العروس: (" النَّهْجُ " بفتح فسكون : الطَّرِيقُ الواضِحُ البَيِّنُ .. وفي التنزيل : " لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا " . و الْمِنْهَاجُ : الطَّرِيقُ الواضح .. و " نَهَجَ " الطَّرِيقَ : سَلَكَه .. " وَاسْتَنْهَجَ الطَّرِيقُ : صَارَ نَهْجًا " وَاضِحًا بَيِّنًا " كَأَنَّهَجَ " الطَّرِيقُ : إِذَا وَضَحَ وَاسْتَبَانَ)¹، وفي مفردات ألفاظ القرآن : (النهج: الطريق الواضح، ونهج الأمر ونهج : وضح، ومنهج الطريق ومنهاجه. قال تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا")². أما ابن منظور في لسانه فقد أورد: (طريق نَهَجَ بَيِّنٌ واضحٌ وهو النَّهْجُ.. والجمع نَهَجَاتٌ ونُهْجٌ ونُهْجٌ ... وَمِنْهَجُ الطريقِ وَضَحُهُ وَالْمِنْهَاجُ كَالْمَنْهَجِ، وفي التنزيل "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" وَأَنْهَجَ الطريقُ وَضَحَ وَاسْتَبَانَ وصار نَهْجًا واضحًا بَيِّنًا ..وَالْمِنْهَاجُ الطريقُ الواضِحُ وَاسْتَنْهَجَ الطريقُ صار نَهْجًا .. وَالنَّهْجُ الطريقُ المستقيمُ)³. وفي عمدة الحفاظ للحلي، ذكر في مادة "نهج": (قوله تعالى: "شرعة ومنهاجا". المنهاج: الطريق الواضح، وكذلك المنهج. ويستعار ذلك للدين والأمر كاستعارة الطريق والمذهب لذلك.)⁴

يتبين أن مفهوم المنهج في اللغة العربية يفيد الطريق الواضح والمستقيم، وهذا المعنى الذي بنى اللغويون على أساسه مفهوم المنهج، يستند في أساسه إلى قوله تعالى في سورة

¹ المرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي، مراجعة عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2001، مادة نهج.

² الراغب الأصفهاني، الحسين بن الفضل، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوا عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط4، 2009، ص825

³ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (دم)، (د.ت) مادة نهج.

⁴ السمين الحلي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996، ج 4، باب النون، ص224

المائدة { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة: 48]. أما "المنهاج" فهو صيغة تشير لذات المعنى اللغوي للمنهج، فقد رأينا ابن منظور والفيروزآبادي والسمين الحلبي يعتبرون المنهاج كالمنهج. إذ يعبر بدوره عن: الطريق الواضح والبيّن، والذي يؤدي إلى غاية أو مقصد. قال الطبري تعليقا على الآية السابقة: (وأما "المنهاج"، فإن أصله: الطريق البين الواضح، يقال منه: "هو طريق نهج، ومنهج"، بين، كما قال الراجز: مَنْ يَكُ فِي شَكِّ فَهَذَا فَلُجٌ... ماءً رَوَاءَ وَطَرِيقٌ نَهْجٌ ثم يستعمل في كل شيء كان بينا واضحا سهلا. فمعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقا إلى الحق يؤمّه، وسبيلا واضحا يعمل به.)¹

ولا تكاد تخرج بقية المصادر اللغوية عن هذا الإطار من المعاني، فينتبين إذن، أن معنى المنهج يدور حول أمرين أساسيين: الأول، وجود طريق أو سبيل أو صراط... والأمر الثاني: الوضوح والاستقامة؛ أي، اتضاح معالم السير على ذاك الطريق.

وفي تاريخنا العربي الإسلامي، نجد استعمالا لكلمة "المنهج" بصيغة الجمع في كتاب ابن رشد الذي جاء بعنوان: { الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة والتعريف بما وقع فيها من الزيغ والبدع المضلة }، يقول الدكتور حسن حنفي: (ولفظ المنهج ليس غريبا على الحضارة الإسلامية، فقد ظهر في كتاب ابن رشد الشهير في صيغة الجمع - الكشف عن مناهج الأدلة ... ف"المنهج" هنا يعني الطريق، و"مناهج" طرق الاستدلال في فهم العقائد...) ². كما نجد في التراث الإسلامي كتابا للإمام ناصر الدين البيضاوي بعنوان {منهاج الوصول إلى علم الأصول}.. غير أن مصطلح المنهج كما هو متداول اليوم؛ يتأطر ضمن سياقات الثقافة الغربية المعاصرة، يقول الدكتور فتحي حسن ملكاوي: (فإن الغربيين يفضلون التأريخ للمنهج ابتداء من الفلسفة اليونانية، ثم يقفزون إلى تطورات عصر النهضة، وينتهون إلى الحديث عن أزمة المنهج في مقولات ما بعد الحداثة...) ³. فيكون الاستعمال الشائع لهذا المصطلح اليوم، ينتمي إلى دائرة الحضارة الغربية المعاصرة، التي عرفت قلعا

¹ أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل أي القرآن، تحقيق محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط2000، ج1، ص10، ص384.

² حنفي، حسن، "المنهج الفلسفي"، ضمن أعمال: قضايا العلوم الإنسانية: إشكالية المنهج، تحرير يوسف زيدان، سلسلة الفلسفة والعلم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص44-45.

³ ملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي، ص 141.

منهجيا ترتب عنه القطيعة مع المناهج الموروثة، وإعادة ترتيب مصادر المعرفة، وطرق استخدامها، الأمر الذي جعل البعض يسم الحضارة الغربية المعاصرة اليوم بكونها حضارة المنهج¹.

بالرجوع إلى أصل اللفظ في اللغة الأجنبية، نجد أن المقابل لمصطلح " المنهج " في اللغة الانجليزية كلمة method، وله مقابل في اللغة اليونانية أيضا بلفظ " methodos " وهي عبارة مكونة من كلمتين، " meta " وتعني "ما وراء"، و " ما بعد". و " hodos " وتعني الطريق. و يرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن قدماء الفلاسفة استخدموه بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، إلا أنه أخذ أبعادا أخرى في العصور الحديثة، يقول: (ولكنه لم يأخذ معناه الحالي، أي بمعنى طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم إلا ابتداء من عصر النهضة الأوروبية)²، ثم يضيف قائلا: (في القرن السابع عشر، تمت الخطوة الحاسمة في سبيل تكوين المنهج. فبيكون في كتابه {الأورغانون الجديد}..صاغ قواعد المنهج التجريبي بكل وضوح. وديكارت حاول أن يكتشف المنهج المؤدي إلى حسن السير بالعقل، والبحث عن الحقيقة في العلوم كما يدل على ذلك نفس عنوان كتابه {مقال في المنهج}³. ثم شاع هذا المصطلح بعد ذلك، للتعبير عن أي عمل منظم في أي مجال ينتهي بتحقيق غايات أو نتائج معينة. جاء في معجم {العقل والمعايير}: (المنهج طريق تصل عبرها لنتيجة ما، وإن لم يتم تحديد هذه الطريق مسبقا بكيفية إرادية ومفكر فيها)⁴. كما يخلص عبد الرحمن بدوي في دراسته إلى أن المنهج هو : (الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيم على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة)⁵

¹ حنان قصبي و محمد الهلالي، في المنهج، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2015، ص5

² بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1977، ص3

³ بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي ص4

⁴ أندري لاند ، نقلا عن : حنان قصبي و محمد الهلالي، في المنهج، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2015، ص10

⁵ ، بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي ص5

غير أن الكشف عن الحقيقة لا يعني ارتباط المنهج بمجالات العلوم البحتة فقط، ذلك أن الحقيقة التي كانت أوربا تبحث عنها منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وإن كانت قد انطلقت في مجالات علمية جزئية ومتفرقة.. إلا أن نتائجها انتهت إلى إعادة بناء صورة العالم في الأذهان، وإلى بلورة رؤى جديدة تتعلق بالذات والواقع والعالم والله.. لاسيما وأن نجاح تجربتها "العلمية" في المجالات المادية؛ أفقدتها الثقة فيما كانت تقدمه الكنيسة من تصورات وجودية. فتطورت العلوم منذ عصر النهضة الأوربي في اتجاه يجعل منها وقودا لنقض التصور الكنسي القديم. والعمل في الآن ذاته على بلورة تصور كوني بديل له. حيث برزت حاجة ماسة إلى منهج كلي يشكل نسقا فكريا عاما، قادرا على الاستيعاب النظري للعلوم المختلفة، وتأطير المفاهيم والتصورات الذهنية التي تشكل سلطة مرجعية عليا، أو ما يعبر عنه أحيانا بعبارة "ما قبل المنهج"¹. ثم الامتداد عمليا في كافة النشاطات والعمليات أو الخطوات والبرامج التطبيقية في مجالات المعرفة المختلفة، وما تتطلبه من نشاطات وإجراءات وأدوات بحثية. وهكذا، فمناهج العلوم الجزئية في كل المجالات البحثية لا تنفك في ارتباطاتها عن المنهج الكلي أو الحياتي، وفي هذا الصدد يقول الدكتور سيف عبد الفتاح: (والمنهج ودراسته لا يمكن أن يكتمل إلا بالفطنة لما يمكن تسميته بما قبل المنهج، أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه)².

وتتعدد استعمالات هذا المصطلح اليوم بتعدد مجالات العلوم، وتختلف دلالاته بحسب استعماله داخل كل مجال. وأكثر ما يكون استعماله في الفلسفة، وفلسفة العلوم، وعلوم التربية ومجالات البحث العلمي في سياق اعتماد أنواع من "المناهج" في البحوث والدراسات العلمية، فيتم الحديث مثلا عن استخدام "المنهج الوصفي" أو "المنهج التحليلي" أو "المنهج الاستدلالي"... إلخ. ويمكن القول، أن ما اصطلح عليه بمناهج العلوم في المجالات العلمية الطبيعية والإنسانية بالرغم مما تضيفه على معارفها من مواصفات "العلمية" والموضوعية

¹ شاكر، محمود محمد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م)، (د.ت)، ص26
² عبد الفتاح، سيف الدين، المنهجية وأدواتها من منظور إسلامي، ضمن أعمال "المنهجية الإسلامية"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط1، 2010، ص 647.

تبقى خاضعة لمنهج أكبر، يؤطرها ويشكل ما يمكن اعتباره "عقيدها". وسوف يساعدنا استصحاب السياق التاريخي لظهور هذه المفاهيم خلال المبحث القادم على استجلاء هذه الحقيقة.

في المجال التداولي العربي الإسلامي، نشأ عن الترجمة الدلالية لمصطلح المنهج وتعدد اشتقاقاته الكثير من الخلط والالتباس في تحديد المعنى المراد منه؛ يقول نصر عارف : (هناك تعدد في الدلالة العربية لمفهوم المنهج، خصوصا في الاستخدام المعاصر، حيث نجد أنه يستخدم بدلالات متنوعة، فتارة يكون مرادفا للنموذج المعرفي والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة فيقال المنهج الإسلامي، وأخرى يرادف موضوعا أو تخصصا علميا فيقال المنهج الاقتصادي في الإسلام، أو المنهج السياسي في الإسلام، ويقصد به علم الاقتصاد أو علم السياسة عند المسلمين، وثالثة يرادف المذهبية، فيقال منهج المعتزلة أو الأحناف أو الحنابلة، ورابعة يرادف أسلوب البحث الذي يتبعه فرد معين فيقال منهج ابن تيمية في كذا، ونادرا ما يستخدم في دلالة تقترب من المعنى الذي يركز على وسائل أو طرائق البحث العلمي...) ¹. وذلك ما أكدته أيضا الدكتورة فتحي ملكاوي في سعيه للتمييز بين المنهج والمنهجية، حين قال: (ترد هذه الألفاظ في كثير من الأحيان بصورة مترادفة، فيستعمل أحدها في موقع الآخر دون تغيير في الدلالة، كما تستعمل بدلالات متعددة؛ فيقال: المنهج الإسلامي أو المنهج الماركسي للإشارة إلى النظام المعرفي أو الرؤية الكلية - الفلسفة - للكون والحياة والإنسان...) ثم ذكر أيضا استخدامات أخرى قريبة مما ذكره الدكتور "نصر عارف". ونحن اكتفينا بهذا المعنى الذي تواطأ كل من الدكتور نصر عارف والدكتور ملكاوي على إيلائه الأسبقية في حديثهما عن الدلالات المرتبطة بهذا اللفظ في فضاءنا التداولي العربي الإسلامي، والذي يؤكد على استعمال مفهوم المنهج نظيرا للنموذج المعرفي والرؤية الكلية أو الرؤية الكونية.. يقول طه جابر العلواني حين قال : (المعنى الفلسفي للمنهج هو الذي ينبغي النظر إليه - باستمرار - على أنه المعنى الحقيقي للمنهج، أو المعنى المراد عند

¹ محمد عارف، نصر، (تحرير) قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، مجموعة مؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (د.ط)، 1996، ص9

الإطلاق عل الأقل)¹، وبهذا المعنى استخدم الدكتور محمد عمارة مصطلح المنهج في كتابه { معالم المنهج الإسلامي} حين قال: (والمنهج هو: الطريق المستقيم والنظام والإطار الحاكم والناظم للمعالم التي تحدد مكانة الإنسان في هذا الكون ورسالته في الكون)².

في هذا السياق، نبين أننا نستخدم هذا المصطلح - المنهج - في دراستنا باعتباره منظومة الاعتقادات والمعايير و التصورات التي تنبثق من مصادر معرفة معينة، وتشكل في سياق حضاري ما رؤية كونية و مرجعية حاکمة لأوجه النشاط الإنساني في الحياة.

ولتقريب أوجه استعمالنا لهذا المفهوم؛ ارتأينا تعريف كل من مفهومي النموذج المعرفي والرؤية الكونية، بما يسمح لنا بتكوين فكرة متكاملة عن مفهوم المنهج و إمكانيات استخدامه في التعبير عن موضوع بحثنا.

- البراديغم المعرفي/ النموذج المعرفي: مصطلح اشتهر من خلال أعمال "توماس كون" في كتابه الشهير { بنية الثورات المعرفية}، ويترجم في لغتنا العربية أحيانا بـ "النموذج الإرشادي" وأخرى بـ "النموذج المعرفي"؛ والذي يقصد به "كون": (الإنجازات العلمية المعترف بها عالميا والتي تمثل في عصر بذاته نماذج للمشكلات والحلول بالنسبة لجماعة من الباحثين العلميين)³.

وينطلق الباحث توماس كون في أطروحته التي أنتجت هذا المفهوم من أهمية تتبع مسار تطور العلم في التاريخ، للوقوف على التمايز الذي يفصل مراحل تطوره، مشيرا إلى أن النظرية العلمية تبقى سائدة ما لم تتصدع باكتشافات أو معطيات جديدة تنزلها عن عرشها، وتنتقل إلى أخرى أكثر صلاحية وأفضل من حيث القدرة التفسيرية، وفي لحظة الثورة العلمية يتم استبدال نموذج إرشادي جديد بآخر فقد قدرته التفسيرية للظواهر المدروسة. فتكون الغلبة للمنهج الجديد في تحديد المعايير والمبادئ والقواعد.. وتبنى من خلاله الرؤية الكلية التي

¹ العلواني، طه جابر، معالم المنهج القرآني، دار السلام، القاهرة، ط2010، ص72

² عمارة، محمد، معالم المنهج الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991، ص2

³ كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع168، 1992، ص22

تؤطر الممارسة العلمية ضمن قالب شمولي، يرى من خلاله الباحثون العالم بصورة مختلفة. يقول "توماس كون": (عندما تتغير النماذج الإرشادية يتغير معها العالم ذاته، وانقيادا للنماذج الإرشادية الجديدة يتبنى العلماء أدوات جديدة..¹)

ويرى "كون" أن الكلاسيكيات العلمية الشهيرة لأرسطو وبطليموس ونيوتن.. أفادت أجيالا متعاقبة من المشتغلين بالعلم لتوفرها على خاصيتين جوهريتين: أولاها، تحقيق إنجازات عظيمة تؤهلها لكسب أنصار دائمين، وثانيهما، القدرة على فتح الباب لمعالجة كل أنواع المشكلات. ومن ثم يعتبر أن هاتين الخاصيتين شرطان لإطلاق صفة "نموذج إرشادي"²

إن حالة الانتقال من نموذج معرفي/إرشادي (paradigm) إلى آخر لا تتحقق إلا حين يكثر الخرق في النموذج الأول المتعارف عليه، ويصبح غير قادر على تأطير المشكلات المطروحة وملء الفراغات الناتجة عن نوع من العجز التفسيري هنا وهناك. لذلك اعتبرها "كون" بمثابة ثورات تحدث في مسار تطور العلم، فتغير مفهوم العلم ذاته، ومشكلاته، وأدواته، وأسئلته و نتائجها، و التفسيرات المقدمة بخصوصها، أي تغير النموذج المعرفي ذاته.

- الرؤية الكونية (رؤية العالم worldview): "رؤية العالم" مفهوم ينسب ظهوره إلى المدرسة الفلسفية الألمانية من خلال أعمال "كانط" و"ديلتاي"، فالأول؛ اهتم بموضوع تمثيلات العقل للأفكار مشيرا إلى دوره في استقبال المعلومات الخارجية وتنظيم بياناتها وفق نظام العقل الداخلي، وهكذا تكون معرفتنا بالعالم عملية تفسير وتأويل مستمرة تشكل تمثلاتا له وليست تعبيراً عن حقيقته. ولا شك أن الاختلاف في تمثل الواقع يحدث أنماطا مختلفة من الوعي والسلوك. وقد تطور مفهوم الرؤية كتمثلات في الدراسات الاجتماعية خاصة مع "ماكس فيبر" و "دوركايم"، وفي الدراسات التربوية مع "جان بياجيه"..¹

¹ كون، توماس، بنية الثورات العلمية ص151

² كون، توماس، بنية الثورات العلمية 40

وأما الثاني وهو "ولهام ديلتاي"؛ فقد استخدم هذا المفهوم في إطار التمييز بين العلم الطبيعي والعلوم الإنسانية، يقول الدكتور الطيب بوعزة: (وحتى فيلهلم ديلتاي (w.dilthey) الذي يعزى إليه تأسيس مفهوم "الرؤية إلى العالم"، لم يقترحه إلا على أساس التمييز بين العلم الطبيعي والعلوم الإنسانية، وذلك ضد هيمنة براديغم (نموذج) العلوم الطبيعية، إذ نادى بتأسيس العلوم الإنسانية.. على نموذج متميز ومغاير لما يتأسس عليه العلم الطبيعي)¹

وباختصار، يشير مفهوم "رؤية العالم" إلى ما يستبطنه الإنسان من رؤى تجاه نفسه والعالم من حوله، استبطان يقع في جانبه الأكبر على الجزء اللاواعي من الإنسان. وتتشكل هذه الرؤية تلقائياً عبر عوامل التنشئة والتربية والتعليم والإعلام، وغيرها من المؤسسات التي تساهم في تأطير الإدراك و التمثلات لدى الإنسان. وهي (تعبر عن حاجة أصيلة لدى الإنسان، في مختلف مراحل تطوره الحضاري، إلى تمثل العالم من حوله، سعياً إلى فهمه وتفسير مختلف ظواهره، وسبر أغواره حتى يغدو معقولا ومنسجما ومنظما ومستوعبا بالنسبة إلى قواه الإدراكية)²

وقد اتسع هذا المفهوم وتطور في سياق انتقاله إلى مجالات معرفية عديدة، ومنها مجال الدراسات الانترولوجية؛ حيث استخدم في سياق تحديد ما يعتنقه الأفراد والجماعات من الأفكار من داخل منظومة ثقافية بعينها. كما ظهرت اصطلاحات متعددة للتعبير عن ذات مدلول رؤية العالم، ومنها الخرائط المعرفية، والنظام المعرفي وصورة العالم وروح العصر، والرؤية الكونية، وكلها اصطلاحات تتداخل معانيها للتعبير عن ذات المضمون. لكن من أشهر استخداماتها مصطلح " الرؤية الكونية"، أو "الرؤية الكلية"، وهو المصطلح الذي شاع في أدبيات فكرية حديثة العهد في المجال التداولي الإسلامي، يقول عبد الحميد أبو سليمان : (لكل منظومة حضارية رؤية كونية، تخدمها وتفعّلها منهجية في التفكير. كما

¹ بوعزة، الطيب، " مفهوم "الرؤية إلى العالم" بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي"، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، ع8، مجلد2، ربيع 2014، ص27

² العبادي، أحمد، التأويل ورؤى العالم، مجلة التأويل ، ع2016، 3، الرابطة العنيدة للعلماء، ص12

أن لكل منهجية مبادئ تهتدي بها وتحدد لها مخرجات هذا الفكر. وكلما كانت المنهجية على شاكلة رؤيتها الحضارية واضحة إيجابية كونية مفتوحة تعبر عن جوهر هذه المنظومة الحضارية ورؤيتها الكونية، كانت هذه المنهجية فعالة ومنتجة¹. ويتشكل قوام هذه الرؤية من الإجابات عن الأسئلة الوجودية الكبرى حول المبدأ والمصير والغاية من الحياة، وهي الرؤية التي تنعكس في تفاصيل الحياة اليومية من خلال تصرفات الناس وسلوكياتهم، وكذلك تصوراتهم حول القضايا الجزئية، إذ يمكن القول، أيضا، أن هذه السلوكيات والتصرفات الجزئية في واقع الناس تعكس رؤية كونية أو تصورا للعالم، يقول علي شريعتي: (كل شخص يعمل على ضوء رؤيته للكون، أي أن الصورة المنعكسة في أذهاننا عن الوجود لها تأثير مباشر في عملنا وسلوكنا الاجتماعي وحياتنا الفردية والاجتماعية؛ أي أن كل شخص يعيش وفق رؤيته للكون)²

وغني عن البيان، أن الأسئلة الوجودية التي تشكل إجاباتها رؤية كونية، هي ذاتها التي حاولت أن تجيب عنها الفلسفة القديمة، ولكنها في العصر الحديث أصبحت في مواقع أقرب إلى مفهوم المنهج، و فلسفة العلم، والبراديغم، وذلك بعد سحب البساط من تحت أقدام الفلسفة، وإعادة تصنيف العلوم وفق مخرجات عصر النهضة بأوروبا. الذي كان عصر ثورة في العلم والمنهج على حد سواء.

وكما رأينا مع "توماس كون"، فإن النموذج الإرشادي (البراديغم) يتحقق حين تحدث ثورة في العلم تؤثر في تغيير التصورات و التمثلات حول العالم. وقع ذلك في سياق تجربة عصر النهضة الأوربي، حين أحدثت الثورة العلمية، مع أعمال "كوپيرنكوس" و"جاليليو" و"نيوتن"، انقلابا شاملا في تصور الإنسان للكون، ثم تعززت بأعمال "داروين" و"فرويد" و"نيتشه" وغيرهم ممن أعادوا بناء تصور الإنسان ضمن رؤية تُغيب وجود الإله... فخلال عصر النهضة الأوربي، تغيرت الرؤية الكونية من رؤية لاهوتية (مسيحية) تقوم على عقيدة وجود إله أوكل سلطته لأرباب الكنائس، إلى رؤية تقوم على وجود العالم باعتباره مادة

¹ أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط2009، ص23
² شريعتي، علي، الإنسان والإسلام، ترجمة عباس الترحمان، مراجعة علي حسين شعيب، دار الأمير، ط2، 2007، ص38

واعتبار المنهج "العلمي" "التجريبي" وسيلة لاكتشافها واستثمارها لصالح الإنسان مع غياب تام للإله في هذه الرؤية التي اصطبغت بصبغة "المادية".. لذلك يكون مفهوم "الرؤية الكونية" هذا منتجا ضمن سياق تفاعلي يعبر عن تجربة حضارية خاصة، يترابط فيها التصور النظري بالواقع العملي ترابطا جدليا. يقول الدكتور الطيب بوعزة: (إن ضرورة اعتماد مفهوم "الرؤية إلى العالم" آتية من محورية المعنى الكلي في حياة الكائن الإنساني من جهة، وعمقه الوظيفي كبعد نظري شارط للوعي والسلوك من جهة ثانية، الأمر الذي يؤكد أن فهم الظاهرة الإنسانية - والظاهرة الفكرية على وجه أخص، ومن باب أولى - مرهون بشروط أهمها فهم ذاك المعنى الناظم للوعي والفعل الإنسانيين)¹.

لذلك، رأينا أهمية الوقوف على موضوع الرؤية الكونية في بحثنا؛ باعتبارها منظومة تفسير شامل للوجود الكوني بما تتضمن من غائية الحياة الإنسانية فيه، وما يترتب عن ذلك من نوعية نظام ونمط الحياة، سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات أو الأمم.

وتبقى الإشارة إلى أن بعض الباحثين في العالم العربي قدموا اجتهادات حول مفاهيم مقارنة لما رأيناه في النموذج المعرفي والرؤية الكونية، وهي تتقاطع معها في العموم، مثل مفهوم "النموذج التفسيري" لدى عبد الوهاب المسيري، الذي استخدمه كأداة تحليلية في موسوعته عن اليهودية والصهيونية، وفي معظم كتاباته المتأخرة، ليعبر من خلاله على أن النماذج الإدراكية الكامنة فينا، تقيدنا بشكل متحيز، وتوجهنا في طريقة إدراكنا للواقع. وهو ما يتطلب نوعا من التفكير وإعادة التركيب.. وكذلك مفهوم "النموذج" عند الدكتور طه عبد الرحمن - حفظه الله - حيث عرفه في كتابه {بؤس الدهرانية} بقوله: (نقصد بالنموذج على وجه الإجمال، منهجية متبعة ورؤية محددة للعالم، ومقابله الانجليزي هو paradigm)².

¹ بوعزة، الطيب، "مفهوم "الرؤية إلى العالم" بوصفه أداة إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي"، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، ع8، مجلد2، ربيع 2014، ص24

² عبد الرحمن، طه، بؤس الدهرانية: النقد الانتقائي لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014، ص30

وحيث أن هذه المفاهيم تعرف شيئاً من التداخل والتكامل في الآن ذاته، بسبب التعدد والتنوع في المقاربات والمداخل المتعلقة بموضوع المنهج، فإننا في نهاية هذا المطلب يمكننا الحديث عن بعض الدوائر للتوضيح، فالدائرة الأصل والأساس التي تمثل جذور المنهج هي مصادر المعرفة الأساسية، التي تنبثق منها الرؤية الكونية التي مدارها حول الله والإنسان والكون والحياة، فما لم تتغير مصادر المعرفة أو على الأقل طرق التعامل معها، لن تتغير الرؤية الكونية. وعلى أساس تلك الرؤية تتحدد الأنظمة والبرامج العملية في المعرفة والقيم وتفاصيل السلوك في الحياة. أي، أن الرؤية الكونية هي وسيط بين مصادر المعرفة وأصولها وبين النظام التعليمي والتربوي والقيمي والسلوكي المستمد منها. و"المنهج" يشمل كل ذلك.

2 - المنهج القرآني:

يأتي اختيارنا لهذا المفهوم للمنهج، ليتصادى مع مفهوم المنهج القرآني، وذلك باعتماد أصله اللغوي في القرآن باعتباره الطريق الواضح والبيّن. وكذلك، باعتباره يناظر اصطلاحاً ويستوعب ضمن دلالاته مفاهيم الرؤية الكونية و النموذج الإدراكي. ذلك ما يتأكد حين نتعرف على منظومة المفاهيم القرآنية التي تغني مضمون عبارة المنهاج في قوله تعالى: {الْكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: 48] فهناك من يرى بوجود شبكة من المفاهيم تتعالق بمفهوم المنهاج وتشترك بمضمونه، وفي ذلك يقول طه جابر العلواني: ("مفهوم المنهاج" القرآني أهم المفاهيم القرآنية بعد التوحيد، ولذلك لا ينبغي أن تكون آية سورة المائدة هي المنبع الوحيد لصياغة المفهوم قرآنياً، بل ينبغي قراءة جميع الآيات التي أوردت شبكة من المفاهيم الفرعية والمصطلحات القرآنية الإلهية التي أحاطت بمفهوم "المنهاج" كما تحيط حبات العقد بواسطته؛ ليزداد بينها تألقاً وبريقاً ولمعانا وتزداد به ترابطاً، ومن هذه المفاهيم والاصطلاحات القرآنية؛ الصراط المستقيم والسبيل الأهدى والسبيل السوي وسبيل الله والهدى والنور والاتباع والاقتداء والشفاء والأسوة الحسنة والطريق الواضح البين الذي لا يخشى سالكه تيهها أو ضلالاً)¹

¹ العلواني، طه جابر، العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل، ص68

وعلى المنوال نفسه سار الدكتور فتحي حسن ملكاوي إذ يقول: (ثمة دلالات مشتركة في ألفاظ: المنهاج، والطريق، والصراط، والسنة، والهداية، والنور، فجميعها تختص بسعي الإنسان لسلوك الطريق المستقيم، الواضح، المستمر، الميسر، الموصل إلى الغاية المقصودة والهدف المراد. وإذا كانت غاية الإنسان في الدنيا هي عبادة الله سبحانه، بمعناها العام، وتحقيق الاستخلاف في الأرض، وإقامة العمران البشري، فإن المنهاج، وهو طريق الوصول إلى الغاية، سوف يقع في مستويات مختلفة، تبعا لسعي الإنسان نحو الغاية النهائية وهي المصير، أو الغايات المرحلية).¹

نعم، القرآن منهج عام للحياة، وشامل لتفاصيلها الضرورية للإنسان. ومعنى ذلك أن شموليته تحيط بالتصورات الاعتقادية وبناء الموازين والمعايير، التي تنعكس على مختلف أنظمة الحياة ونشاطاتها.. إنه المنهج الذي شمل خلاصة تعاليم الأنبياء وهدايات الرسل لتنظيم حياة الإنسان وتوجيهها الوجهة الصحيحة؛ فهو يشمل تنظيم الحياة العامة للناس كما يشمل تأطير حياتهم الخاصة. وقد نال البعد الأول قسطا لا بأس به من الاهتمام في الدراسات القرآنية المعاصرة، أبرزت في العموم، تميز الطرح القرآني في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. أما العمران الإنساني المتعلق بالفرد، فقد بقي باهت الحضور، ولم يحظ بالاهتمام المفترض أو المطلوب. ومن علامات ذلك، أن الدارسين في الإعجاز القرآني أسرفوا في بيان أوجه القرآن الإعجازية في المجالات اللغوية والتشريعية والعلمية خاصة. لكنهم، قلما التفتوا إلى الإعجاز القرآني المرتبط ببناء الإنسان وتنميته، بما ساهم في إخراج ذلك الجيل القرآني الفريد، غير المسبوق في التاريخ. لا سيما أننا نملك اليوم؛ إلى جانب الإعلان الذي قدم به القرآن نفسه كمنهج حياة، واقعة التحول الحضاري التي أحدثها هذا الكتاب حين نزل أول مرة على إنسان الجزيرة العربية، وحجم التأثير الذي أحدثه في النفوس وإعادة صياغته للعنصر البشري بما أفضى إلى تحقيق ذلك التغيير الحضاري الذي ظهرت علاماته على مختلف الصعد والمجالات.

¹ الملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي، ص 67-68

وهذا الإعجاز القرآني في تنمية الإنسان وترقيته، باق ومستمر ببقاء القرآن واستمرارية وجوده مرجعا في الحياة. يتأكد هذا المعنى من خلال حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ، حين أرشد أمته إلى الاعتصام بكتاب الله سبيلا إلى النجاة من الفتن، فقال: (أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ مَا الْمَخْرُجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَرِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" ¹.

فالصراط المستقيم هنا؛ هو المنهاج المرشد للمؤمنين به إلى الحياة الطيبة ابتداءً، وإلى سعادة الحياة الآخرة استكمالاً.. يقول فتحي حسن ملكاوي: (والمنهج والسبيل والصراط يعني الطريق الموصل لتحقيق هدف محدد من أهداف السعي للحصول على معرفة أو منفعة، أو الوصول إلى هدف، ولكن المعنى يتسع ليكون طريق السير في الحياة للوصول إلى الآخرة؛ أي منهج حياة كاملة، وأكثر ما ورد في القرآن هو من هذا الباب) ²

و قد بين القرآن غير ما مرة؛ أهمية اعتماد الإنسان على منهج إلهي في حياته؛ ومن ذلك، ما ذكره القرآن في تجربة نبي الله آدم عليه السلام وزوجه حين تعرضا للغواية من الشيطان، فعجّلت المعصية بطردهما من الجنة، ثم أعقب الله سبحانه ذلك بقوله : {فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 123، 124]. فهذا التعبير القرآني أجلى من أي شرح أو تفسير لبيان عظمة دور الوحي الإلهي عموما في حياة الإنسان، والقرآن على وجه أخص، ففي السورة ذاتها يرد توصيف عاقبة من يعرض عن الاستئارة بنور هذا الوحي في

¹ سنن الترمذي، باب ما جاء في فضل القرآن، ح 2831
² الملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي، ص 68

الدنيا والآخرة، قال تعالى: { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 125-126]

ويتأكد توصيف القرآن بمنهج الحياة في آيات عديدة منها؛ قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: 9] وهي آية عامة في أن القرآن سبيل لاستقامة طريق الحياة، والاعتصام به من الضلال، وبذلك تكون كل تشريعات القرآن وتوجيهاته التربوية خادمة لهذا المقصد الجليل، بما في ذلك من قصص وأمثال، وغيرها من الأساليب التي تتضافر لتقديم منهج حياة شامل للإنسان، يقول سيد قطب: (ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها. وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها. فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق. جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة. جاء لينفذ حرفا حرفا وكلمة كلمة، وتكليفا تكليفا. جاء لتكون آياته هي «الأوامر اليومية» التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في تكتته أو في الميدان «الأمر اليومي» مع التأثير والفهم والرغبة في التنفيذ ومع الانطباع والتكليف وفق ما يتلقاه..)¹

وبذلك، نخلص إلى تعريفنا للمنهج القرآني في هذا البحث؛ وهو: ذلك المنهج الذي يتأسس على القرآن كمصدر أساسي للمعرفة، تتحدد على أساسه الرؤية الكونية التي تؤطر مقاصد الوجود الإنساني وتزوده بأدوات تفعيل تلك الرؤية في الواقع العملي للحياة.

¹ قطب، سيد، في ضلال القرآن، ج5، ص2562

المطلب الثاني: مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالقرآن الكريم

1 - مفهوم التنمية البشرية

التنمية البشرية مصطلح شاع استعماله في العقدين الأخيرين خاصة؛ فهو من المصطلحات التي تتعدد دلالاتها بحسب السياقات ومجال الاستعمال؛ إذ تخطئ معظم الدراسات المتداولة في وسطنا العربي والإسلامي حين تعتمد إلى ترجمة المصطلح دونما تحقق بالمفهوم الذي يحمله داخل كل مجال أو تخصص. حيث نجد من يهدف إلى التأصيل لهذا المفهوم باعتماد القواميس العربية ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية بحثاً عن الدلالات اللغوية لاشتقاقات مفردة - نما، ينمو، نما - لتتطلق بعد ذلك عمليات التأصيل من النصوص الشرعية. فيعمل على ترجمة المصطلح لا المفهوم؛ الذي يقتضي التعامل معه؛ مراعاة حمولته الثقافية، و الإلمام بأصل ظهوره، وتطوره ضمن سياقه الحضاري، وبيئته التاريخية والاجتماعية.. وفي مثل ما نشهده من سياقات ثقافية متغايرة؛ ينبغي أن يتجه الاهتمام إلى المفهوم الذي يحمله المصطلح، حيث يحتل "المصدق الدلالي" الأولوية على التعبير اللغوي أو البنية اللفظية المستخدمة للتعبير عنه، مع التأكيد على وجود جسر بين اللفظ والمعنى، تبنى على أساسه ترجمة المفاهيم والدلالات من لغة إلى أخرى.

في مثل هذا السياق، يكون من الصواب اعتماد قاعدة لغوية من صميم التراث العربي، وهي: " العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني". فباعتماد هذه القاعدة، يتجه اهتمامنا في التعامل مع هذا المصطلح إلى المدلول بالدرجة الأولى، قبل البحث في مقابله اللفظي في معاجمنا.

عملياً؛ يتحدد استخدام هذا المصطلح اليوم في عالمنا العربي الإسلامي وفق معنيين أساسيين: الأول؛ ويفيد التنمية البشرية كما هي متعارف عليها دولياً من خلال التقارير الدولية لمنظمات الأمم المتحدة والمؤسسات العالمية المختلفة. أما الثاني، فهو استعمال عربي خالص، واستخدم ليعكس مضامين ودلالات لما يقابل التعبير الأجنبي: " personal devlopment" أو "self development". والمعنيان؛ الأول والثاني: يعتبران مسارين

مختلفين من حيث البناء والسياق والموضوعات الأساسية في كل منهما.. صحيح أن هناك قدرا من الاشتراك بينهما، وهو ما سنوضحه في حينه؛ لكن ذلك لا يجعل منهما مجالا واحدا؛ وهو الأمر الذي التبس على البعض حين أراد تعريف التنمية البشرية، كما أفصحنا عن ذلك في مقدمة هذا البحث. ومن أجل فك هذا اللبس، ارتأينا توضيح هذين المعنيين بما يلي:

المعنى الأول: لفظ "التنمية" من المفاهيم الحديثة التي ظهرت في بداية الخمسينات من القرن الماضي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمجال الاقتصادي، وكان من مؤشرات تقييمه مستوى الدخل الفردي. غير أن تطور أدبيات "التنمية" اللاحقة بعد ذلك، ساهم في تحويل الاهتمام نحو الإنسان، باعتباره الأداة المثلى للكسب وتحقيق الربح الاقتصادي. وتبعاً لذلك، بدأ الاهتمام بتلبية حاجات الإنسان الاجتماعية مثل الصحة والتعليم والسكن، ليؤدي دوراً أفضل في التنمية. وهو ما ساهم في ظهور مفهوم رأس المال البشري، والذي تقوم فكرته على اعتبار الإنسان مورداً يمكن الاستثمار فيه، لينتج أكثر من رأس المال المادي. وقد أثبتت تجارب دول حديثة نجاح هذا التوجه في تحقيق التنمية بالرغم من الافتقار للثروات الطبيعية التي يعبر عنها بـ"الرأس المال المادي"، كما هو الحال في اليابان مثلاً، حيث تم الاعتماد على برامج التعليم وتطويرها من أجل تنمية كفاءة العنصر البشري وتطوير مهاراته، لترتفع مساهمته في الإنتاج وتحقيق الربح والرفع من المستوى الاقتصادي للبلاد... ثم تطور مفهوم الرأس المال البشري هذا إلى ما يعرف اليوم بالتنمية البشرية، حيث ازداد التركيز على محورية الإنسان في العملية التنموية، فلم تعد التنمية مجرد موضوع اقتصادي يهدف إلى الزيادة في الإنتاج ورأس المال فحسب، ولم تعد كذلك مسألة اجتماعية تهتم بتحسين أوضاع الإنسان الاجتماعية للمساهمة في الإنتاج فقط، بل توسعت لتشمل خيارات الناس وقيمهم في الحياة، وفي هذه المرحلة فقط؛ أخذت مسمى التنمية البشرية.. وأصبحت تقارير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي مرجعها الأساس. ومن تلك التقارير؛ ما يؤكد على ذلك المفهوم الذي أرساه الباحث الهندي "أمارتيا صن"، من أن التنمية البشرية المراد تحقيقها، لا يمكن الوصول إليها

إلا من خلال الإنسان، وأنها لا تكون إلا من أجل الإنسان ذاته أيضا. أي أن الإنسان هو العنصر الحاسم في صناعة التنمية البشرية وفي الاستفادة منها. (فمنذ زمن طويل والعالم منشغل عن الإنسان بالثراء المادي. أما إطار التنمية البشرية، الذي يعتمد نهجا محوره الإنسان، فغير النظرة إلى الاحتياجات الإنمائية، لتصير حياة الإنسان هي الأولوية)¹. وقد انعكست هذه الرؤية الشمولية للتنمية على كافة مجالات الحياة الإنسانية المعاصرة، وصدرت في شأنها بداية من تسعينيات القرن الماضي، تقارير دورية من منظمات دولية على رأسها الأمم المتحدة، لترتيب الدول على سلم مؤشرات التنمية التي تخص التعليم والصحة والبيئة وحقوق الإنسان والحريات... وأكدت هذه التقارير في المجمل على أن الناس هم الثروة الحقيقية للأمم، وأصبح رهان التنمية البشرية طبقا لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي وتقاريره الصادرة منذ 1990 يتطور باستمرار في اتجاه توسيع خيارات الناس في الحياة بما يضمن لهم عيشا كريما يساعدهم على تحقيق متطلباتهم والوصول إلى مستوى من الرفاهية...

المعنى الثاني : بالموازاة مع هذا الاتجاه، نرصد تطور مفهوم آخر في الحضارة الغربية المعاصرة تحت مسمى "personal development"، يتقاطع مع السابق في صيغة الرأسمال البشري، وذلك من حيث الاستثمار في الإنسان وقدراته و العمل على تطوير معارفه ومهاراته، لتحسين حياة الإنسان على المستوى الشخصي والمهني والأسري... المفهوم الجديد اهتم ببناء الشخصية والمهارات الذاتية لإرساء قواعد حياة أفضل للإنسان، و دفعه إلى بلوغ أكبر النجاحات الممكنة، التي تساعد على تحقيق الأفضلية والسعادة في الحياة. أي، الاهتمام عموما بما يطلق عليه المهارات الحياتية، والتي تحاول أن تجيب عن سؤال محوري وهو: كيف يحيا الإنسان أفضل حياة ممكنة؟ وكيف يمكن له أن يحقق أفضل النجاحات في حياته؟ وكيف له أن يكون أكثر سعادة؟.. ومصطلح التنمية البشرية في هذا المجال، هو الصيغة العربية التي تم بموجبها ترجمة المصطلح الأجنبي "self development"، والذي يعني حرفيا "التنمية الذاتية"، وله تعبيرات رديفة أيضا مثل

¹برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية 2015، ص1

"personal development". وتُداول في الساحة العربية ترجمات أخرى من قبيل: "التطوير الشخصي"، لكنها محدودة الانتشار. وفي السياق ذاته؛ ظهر تعبير "life style"، ويترجم بـ "نمط الحياة" أو "أسلوب الحياة"، للتعبير عن مهارات تطوير الحياة و نماذجها العملية في الواقع لدى المشاهير في المجالات الفنية والرياضية وغيرها..

وإذا كان مفهوم التنمية البشرية وفق المعنى الأول؛ مشروعاً من مشاريع المجتمعات والدول، وتعنى برصده منظمات ومؤسسات دولية، فإن التنمية البشرية وفق المعنى الثاني مشروع فردي خاص بكل إنسان، وهو مشروع له جاذبيته لدى الإنسان - الفرد - عموماً، الطموح بفطرته للارتقاء والنجاح وتغيير حياته نحو الأفضل. وقد نما هذا التيار في الغرب، ضمن سياق التوجه العام نحو الليبرالية، والتي تعتبر النزعة "الفردانية" من مرتكزاتها الكبرى؛ ثم حقق نمواً سريعاً في العقود الماضية، حيث الطلب المتزايد على اكتساب مهارات بناء الشخصية وتطوير القدرات والبحث الدؤوب عن نمط الحياة الأكثر ملاءمة. لاسيما في ظل واقع متسارع الحركة والتغير، تسيطر التكنولوجيا على معظم جوانبه، وتتعكس آثاره؛ تغيرات هائلة في أسلوب الحياة الذي ينعكس بدوره في العلاقات مع الذات والغير والعمل والأسرة... واقع يبدو فيه الإنسان أكثر تعطشا لوصفات وصيغ جديدة، تعينه على فهم الحياة، وحسن تدبير الوجود فيها، سعياً إلى الاستفادة من فرصها وتجنب مشاكلها وآثارها السلبية.

فالتنمية البشرية وفق هذا المنظور؛ تتجه إلى البحث عن الحلول الخاصة بتنمية الإنسان - الفرد - ، وهي خطوة لا بد منها لتحقيق التنمية البشرية على المستوى العام. ولذلك نعتبر أن هذا المفهوم للتنمية البشرية، هو مفهوم خاص، مقابل المفهوم العام الذي أشرنا إليه في المعنى الأول، والذي يعنى بتحقيق التنمية على مستوى الأمم والشعوب. انطلاقاً من وحدة البناء ذاتها - "الإنسان"-. فإذا كان التغيير والتنمية سنة في المجتمعات البشرية كما يشهد بذلك تاريخها، فإنه كذلك، و بطريق أولى، بالنسبة لحياة البشر الفردية.

إن ارتباط البعد الخاص بالتنمية البشرية بالبعد العام هو ارتباط الجزء بالكل، والإنسان هو محور هذا الارتباط. فتحقيق تنمية بشرية عامة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية

والسياسية و الحقوقية... لا يمر إلا عبر التركيز على تطوير قدرات الإنسان ومهاراته الذاتية.

والموضوع الذي نتناوله في هذه الدراسة يقع ضمن التحديد الثاني، أي، المفهوم الخاص للتنمية البشرية، ويأتي اختيارنا لهذا المصطلح في كونه الاختيار الذي اعتمده رواد التنمية البشرية في عالمنا العربي منذ بدايات ظهوره نهاية القرن الماضي، وفي مقدمتهم؛ الدكتور صلاح الراشد والدكتور ابراهيم الفقي. ويبقى لهذا المفهوم - التنمية البشرية - أهمية أخرى ترجح استعماله عن غيره فضلا عن ما تم ذكره؛ وهو أن موضوعات "تنمية الذات"؛ نمت بمرور السنوات وتطورت لتستخدم معارف وعلوم متعددة أفرزت مدارس وتيارات مختلفة، وكلها تستخدم في عالمنا العربي تحت المسمى ذاته: التنمية البشرية، فأصبح هذا المفهوم يختزل كل تلك المذاهب والاتجاهات التي ظهرت تبشر بتنمية أفضل للإنسان وتحقيق سعادته ونجاحه. مما يبرر الإبقاء على هذا المصطلح؛ كونه يغطي مختلف المدارس والاتجاهات التي اشتهرت في هذا الباب.

من جهة أخرى. استبعدنا توصيف "التنمية الذاتية" لأنه يحيل على الغاية فقط لا الموضوع، فغاية تلك التنمية هي ذات الفرد، لكن موضوعها يتحقق جزء منه بإصلاح كينونة الذات كما سنوضحه في حينه، ويقع جزؤه الآخر في جانب اجتماعي حين تتصدى التنمية البشرية لمهارات التواصل الاجتماعي وإدارة العلاقات الجيدة مع الآخرين، و فن القيادة وبناء فرق العمل، وممارسة العصف الذهني الجماعي في التفكير... فالتنمية وإن كانت تبدأ بالذات وتنتهي إليها؛ إلا أنها لا تعني شيئا خارج سياق المجتمع، حيث لا يكون معنى للنجاح والتفوق والسعادة، دون الارتباط بمقارنات في سياق اجتماعي.

وغني عن الذكر، أن التنمية البشرية وفق هذا المفهوم - باعتبار موضوعه و غايته - فكرة قديمة جدا، فالاهتمام بالسعادة وتدبير خطة الحياة أو منهج الحياة تجاذبته فضلا عن ما جاءت به رسالات الأنبياء؛ نظريات ورؤى فلسفية عديدة على مر التاريخ. وذلك قبل أن يستقل في العصر الحديث، ضمن أحد فروع العلوم الإنسانية. حيث تطور ضمن سياق

مجتمعي تحكمه أفكار الصراع والتنافس، وانتعاش النزوع الفردي، الذي يرى بأولوية تحقيق المصلحة الشخصية على حساب أية مصالح أخرى، وذلك في ظل الأفكار المؤسسة لليبرالية السوق أو حرية النشاط الاقتصادي؛ التي تقوم على فكرة "المجالات المفتوحة" من أجل إثبات الذات في حلبة الصراع المجتمعي. ومن تم، تحقيق النجاح والتفوق على الغير.. كما عزز ظهور التيار الإنساني في علم النفس من التأكيد على جوهر الفرد باعتباره ينطوي على دافع رئيسي للنمو والارتقاء والإبداع وتحقيق الذات، فكانت أعمال "كارل يونغ" و"ألفرد أدلر" و"أبراهام ماسلو" مؤسسة لهذا الاتجاه في علم النفس، الذي شكل - إلى جانب علوم أخرى - قاعدة مهمة بعد ذلك لظهور توجه التنمية البشرية. ذلك التوجه الذي يضع تطوير شخصية الإنسان وقيادته نحو النجاح والسعادة في حياته الخاصة في بؤرة اهتمامه. والذي تظاهرت على تقاسم حلبته أفكار ورؤى ونظريات متعددة، لذلك، يحسن بنا الوقوف على أبرز المدارس والاتجاهات التي مثلت أبرز توجهات التنمية البشرية، بشيء من التفصيل يستدعيه المقام، الأمر الذي سيساعدنا بلا شك، في التوسيع من دائرة الإحاطة بالموضوع الذي نحن بصدد.

2 - اتجاهات التنمية البشرية

في عصر عرف انفجارا معلوماتيا، وطغى عليه تعدد الفروع والتخصصات الجزئية ضمن التخصص الواحد، أغرت جاذبية موضوع السعادة والنجاح متخصصين من علوم مختلفة بدمج معارفهم، وصولا إلى تكوين صياغات ورؤى جديدة، تساعد الإنسان على تطوير حياته وتحقيق نجاحه وسعادته.

وكما ألمحنا إلى ذلك آنفا، فقد كان من المفترض أن يكون علم النفس الحاضنة الطبيعية للتنمية البشرية بالمفهوم الخاص الذي اخترنا معالجته في هذا البحث، إلا أن اختلاف النظريات النفسية وتضارب توجهاتها وتفسيراتها، إلى درجة عدم الاتفاق على

موضوع علم النفس ذاته، أنبأ عن بعض الصعوبات في هذا المجال¹. ويبدو أن الاختلافات العلمية بين علماء النفس، وتركيزها على الجانب النفسي المرضي (السلبى) من الإنسان بدل الجانب الصحي (الإيجابى) كما سنرى في أسباب ظهور علم النفس الإيجابى، ساهم في ظهور مدارس واتجاهات، تعنى بتلبية هذا الجانب الأخير بشكل عملي وتطبيقي في حياة الإنسان. وأشهرها، تلك التي عرفت باسم " البرمجة اللغوية العصبية"، التي كسبت شهرة واسعة بسبب اعتمادها تقنيات ومعادلات مبسطة، قامت فيها على المزج بين معطيات بعض المدارس النفسية كالسلوكية والمعرفية، والإفادة من برامج التكنولوجيا الحديثة وعلوم اللسانيات، لتخرج بخلاصات عملية في تطوير حياة الإنسان، والارتقاء بمهاراته و مستوى قدراته. وهي مدرسة ذات بعد عملي وتطبيقي لمبادئ وفرضيات في النفس والحياة، وكونها عملية جعلها أكثر نجاحا وانتشارا لدى الناس، وإن أفقدها ذلك أحيانا الاعتراف العلمي والأكاديمي لما تطبقه في هذا المجال.

وبالموازاة مع هذا التوجه، ظهرت مدارس متعددة؛ تعنى بتغذية الجانب الروحاني الذي افتقدته الحياة الغربية المعاصرة، وهي في غالبها مدراس الديانات الشرقية القديمة، المعتمدة على "اليوغا" و"الريكي"، وغيرها من الاتجاهات الروحية التي غزت السوق الأمريكية للتنمية البشرية، تحت مسمياتها الأصلية، أو ضمن مسميات مستحدثة في الغالب؛ مثل "التأمل" أو "رياضة التنفس" أو "قانون الجذب".. ثم ظهر "علم النفس الإيجابى" مع نهايات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، باعتباره النسخة الأكثر تطورا في مسار علم النفس الحديث، ويركز في موضوعاته الأساسية على سبل التمكين من السعادة والحياة الفضلى.

وفي الأخير، يمكن القول بوجود اتجاه عام في التنمية البشرية يجمع بين كل المدارس السابقة. ويقوده في معظم الأحيان "شخصيات ناجحة" في المجتمعات الغربية والأمريكية بالخصوص، ارتأت أن تتقاسم تجربتها مع الآخرين. أو كتاب متخصصون في هذا المجال،

¹ جاء في الموسوعة العالمية للفلسفة (ليس من السهل وضع تحديد دقيق لما يغطيه اليوم تعبير "علم النفس"... إن علم النفس يبدو متنوعا، مقسما ومهتزا تحت تأثير اضطرابات التعارض) الموسوعة الشاملة للفلسفة الصادرة عام 1989، نقلا عن أليكس موكيالي في كتابه علم النفس الجديد، تعريب حسين حيدر، منشورات عويدات، ط، 1997، ص 18

يعتمدون في الغالب على المزج بين ما يعتبر قواعد ومبادئ للنجاح في الحياة المعاصرة، وبين ذكر قصص و تجارب عملية وخبرات ميدانية في بعض مجالات الحياة. ولقيت كتب هذا النوع رواجاً منقطع النظير، في الوقت الذي لا يزال فيه علم النفس الإيجابي، نخبوا إلى حد ما. والملاحظ أن معظم هذه المدارس ظهرت في الغرب وفي الولايات المتحدة الأمريكية تحديداً، طليعة الرأسمالية والمنجزات المادية في عالم المال وإدارة الأعمال والمؤسسات... وقد يكون هذا هو السر في الاهتمام الكبير الذي حظيت به التنمية البشرية في وطننا العربي والإسلامي، استناداً إلى مقولة ابن خلدون في ولع المغلوب بتقليد الغالب، فضلاً عن جاذبية الموضوع الذاتية، فمن من الناس؛ من لا يريد النجاح والتفوق وتطوير حياته وتحقيق التكيف والسعادة؟ وعليه، فإن التنمية البشرية وفق هذا التحديد؛ موجودة أينما وجد الإنسان، مهما اختلفت المصطلحات في التعبير عن هذا المفهوم. لذلك نرى أهمية عرض المدارس و الاتجاهات التي تشكل ما يعرف حالياً عندنا بالتنمية البشرية، لعله يقربنا أكثر من إدراك موضوعاتها وغاياتها.

أ - البرمجة اللغوية العصبية

يرجع ظهور "البرمجة اللغوية العصبية" إلى بداية السبعينات من القرن الماضي، وتتقاسم معظم كتب التعريف بالبرمجة اللغوية العصبية، الحديث عن قصة هذه البداية، و ملخصها أن تعاوناً مشتركاً جمع بين "ريتشارد باندلر" و "جون جريندر" في جامعة كاليفورنيا. الأول طالب في قسم الرياضيات مهتم بالحاسوب، والثاني مدرس مساعد في علم اللغة، وفي التفاصيل تقول القصة: (ساهم "باندلر" في نقل بعض الأشرطة السمعية والمصورات لندوات "فريتز بيرلز"، مؤسس العلاج بالجشتالت و "فرجينيا ساتير"، مؤسسة علاج الأسرة. وقد اكتشف "باندلر" أن محاكاة بعض جوانب السلوك واللغة التي كانا يستخدمانها، قد مكنته من تحقيق نتائج مماثلة، ومن ثم شرع على الفور في إقامة علاج جماعي قائم على العلاج بالجشتالت.

أثارت قدرات "باندلر" إعجاب وانبهار " جون جريندر " ، الذي كان مدرسا مساعدا في علم اللغة في الجامعة...لم يمض وقت طويل إلا ونجح " جريندر " في تحقيق نفس النتائج العلاجية التي حققها "باندلر" و"بيرلز" ...بعد أن أدرك "باندلر" و"جريندر" أنهما بصدد إنجاز عظيم، حشد الاثنان جهودهما وألغا كتابا عن البرمجة اللغوية العصبية بعنوان جذاب ومثير {بنية السحر} / the structure of magic ونشر عام 1975)¹

والفكرة المحورية التي يمكن تسجيلها من هذا النص، وتفيد أيضا في فهم حقيقة البرمجة اللغوية العصبية، أنها قائمة على النمذجة أو المحاكاة للنماذج البشرية الناجحة في المجتمع، أي أننا من خلال التعرف الدقيق على مواصفات المتفوقين في أي مجال من الناحية الفكرية والشعورية والسلوكية والتخيلية ...نستطيع أن نبرمج عليها آخرين اعتمادا على اللغة والجهاز العصبي(الدماغ)، وقد عرفت فكرة صياغة النماذج اعتمادا على تقنيات محاكاة المتفوقين في كل مجال، نجاحات مشهودة، وتعتبر من الأسباب الأساسية في اعتماد كتب التنمية البشرية ودوراتها التدريبية التي تقوم على سرد قصص الناجحين في ميادين الحياة المختلفة، التي باتت تأخذ حيزا لا يستهان به. وهي قصص ذات جاذبية كبيرة للناس، كون معظمها مرتبط بالنجاح في تحقيق الطموحات والأهداف المرتبطة بالثراء وتطوير إدارة الأعمال، والارتقاء في المناصب... إذ يغدو النجاح والتفوق، هنا ، عملية يمكن صناعتها والتحكم في نتائجها. لذلك ارتبط تسويق معظم كتب ودورات التنمية البشرية، بإرفاق صورة/رسم للدماغ تتوسطه قطع ميكانيكية دائرية مستوحاة من المحركات الصناعية الحديثة. والقصد، أن دماغ الإنسان هو محور عملية التنمية داخل الكيان الإنساني، وأنه يمكن العمل على إدارته أو تدويره كما يتم تدوير المحركات الصناعية لتعطينا ما نريده منها. ومن هنا، انتشرت الفكرة القائلة أن تغيير أي شيء في حياة الإنسان يبدأ من الدماغ، وأن هذا الدماغ بالإمكان برمجته وفق ما نريد اعتمادا على اللغة، وبذلك تكتمل الثلاثية التي شكلت مرتكزات البرمجة اللغوية العصبية وهي: - البرمجة - اللغة - الجهاز العصبي/الدماغ. وقد تطورت

¹ستيف بافيستر وأماندا فيكرز ، علم نفسك البرمجة اللغوية العصبية، ص6-7، مكتبة جرير، الطبعة 3، 2008

هذه المدرسة بعد أعمال "باندلر" و"جريندر" التأسيسية لتستقر على مجموعة من الفرضيات¹ اعتبرت بمثابة الإطار النظري لها، والمتمثلة في مجموعة من المنطلقات على رأسها ومن أهمها مقولة: الخريطة ليست هي المنطقة، وتعني أن لكل حقيقة الخاصة به، انطلاقاً من تصويره الخاص للأحداث والمواقف والأشخاص.. ومن ثم، فلا وجود لحقيقة مطلقة. يؤكد ذلك "ماكريم موت" و "جاجو" بالقول: " الحقيقة ليست شيئاً موجوداً بالخارج، وإنما هي شيء يقوم به كل شخص منفرداً بالفعل ببذل الجهد لكي يشيده داخل عقله"².

كما نلاحظ أن البرمجة والتحكم، مفهومان أساسيان في هذه المدرسة، وهي ذات وجهين: إنها من جهة برمجة الذات والتحكم فيها بما يحقق نتائج أفضل في الحياة، ومن جهة أخرى برمجة الآخر وصولاً إلى التأثير فيه، أو بالأحرى في الاستجابة المطلوبة منه. ويكفي تأمل سريع لعناوين كتب البرمجة اللغوية العصبية ليتضح هذا التوجه³.

إن البرمجة اللغوية العصبية مدرسة تقول أن النجاح صناعة ممكنة لأي شخص، يمكن البرمجة عليه قياساً إلى برامج الحاسوب الإلكتروني وبالتالي التحكم في النتائج والاستجابات السلوكية. وأنه بالإمكان برمجة الدماغ بأفضل الصفات المستخرجة من سير أفضل وأكبر الناجحين في العالم. كما تؤكد البرمجة اللغوية العصبية على أن النجاح يشمل القيام بعمليتين؛ التغيير والتأثير، تغيير النفس من جهة، والتأثير في الآخرين من جهة أخرى.

ب- علوم الطاقة الحيوية:

علوم الطاقة هي تلك العلوم المستمدة من حضارات الشرق القديم؛ الصينية والهندية بالخصوص، يطلق عليها في الصين (تشي) وفي الهند (برانا). وتقوم في مجملها على نظرة للإنسان تعتبر الطاقة فيه هي شرط حياته، وأن جسم الإنسان يكون صحيحاً ومعافى طالما تدفقت فيه الطاقة عبر مساراتها بسلاسة وانتظام وتوازن، وأن أي اختلال في ذلك

¹ يصل عدد الفرضيات النظرية للبرمجة اللغوية العصبية إلى 13 عند البعض و 16 عند البعض الآخر. وليس هنا محل التفصيل في ذلك.

² إيان ماكديرموت، ويندي جاجو، مدرب البرمجة اللغوية العصبية، مكتبة جرير، الرياض، ط2008، 4، ص 11

³ من ذلك، كتاب المحفزات السبع للحصول على نعم، وكتاب علم التأثير: كيف نجعل أي شخص يقول لك نعم في 8 دقائق أو أقل لكيفين كوجان.. وكتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس لدليل كارنيجي.

يترتب عنه اعتلال في الجسم، حيث الاعتقاد بوجود جسم غير مرئي محيط بجسد الكائنات، ومنها الإنسان، و يسمى ب"الهالة". وأن هذا الجسم غير المرئي يمتص الطاقة من الخارج ليمد بها الجسم المادي. وتعتبر اليوغا واحدة من الرياضات التي تعنى بتوزيع الطاقة الحيوية في الجسم وكيفية السيطرة عليه، وذلك باعتماد أنواع من التنفس والاسترخاء، وأساليب في التأمل تدعى ب "MEDITATION"، بالإضافة إلى وضع الجسم في أوضاع عديدة لمدد تطول وتقتصر بحسب درجة الممارس وأقدميته. غير أن استخدام هذه الطقوس الروحية بمفاهيم مستحدثة لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقتها، في كونها طقوس دينية صرفة؛ يتضح ذلك فقط من خلال الوقوف عند تعريفين لليوغا؛ الأول، يرى أن: (اليوغا هي رياضة جسدية نفسية فكرية فيها يخضع الإنسان جسده بوظائفه الإرادية واللاإرادية إلى محض إرادته.. بواسطتها تتصل روحه بروح الرب مسير الكون العظيم)¹. أما الثاني؛ فيعرف اليوغا بقوله: (اليوغا كلمة تعني اللقاء بين الإنسان والإله)²، ولوصل الإنسان بالإله تعتمد اليوغا أنواعا من الرياضات البدنية والفكرية والصامتة، مع الحرص على نظام غذائي نباتي يستبعد اللحوم ويعنى بالخضر الطازجة والمقطوفة حديثا، وشرب الماء النقي الصافي وتجنب الأكل الاصطناعي بالإضافة إلى أنها تتطلب قدرا عاليا من التركيز في أداء التمارين، وهي متعددة وكلها ترجع إلى أصول طقوسية تعبدية. وكمثال على ذلك تمرين يسمى ب{السورياناماسكار}، وهي عبارة تعني السجود للشمس أو الصلاة للشمس³. ويهدف ممارس اليوغا من خلال ممارسته لها إلى التمكن من السيطرة على النفس والتحكم فيها؛ يقول مؤلف كتاب "أسرار اليوغا الصينية والهندية" خليل حنا تادرس: (اليوغا مدرسة عجيبة تعلمنا الصبر والسيطرة على النفس وتتطلب التحرر من الشعور بالخصام والعداء تجاه أنفسنا والتحرر من التعقيد والتفوق على الغير)⁴ وعن سر هذه الأبعاد الروحية أو التعبدية في اليوغا يضيف قائلا: (يفتش الشرقي عن خلاص نفسه بواسطة اليوغا حيثما وجدها على

¹ حنا تادرس، خليل، أسرار اليوغا الصينية والهندية، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص135

² ب.ك.ناريان، فلسفة اليوغا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1986، ص5

³ أبو حجاج، يوسف، حقيقة وأسرار العلاج باليوغا، دار الكتاب العربي، ط1، 2009، ص11

⁴ حنا تادرس، خليل، أسرار اليوغا الصينية والهندية، ص142

الأرض أو في غير مكان. كما أن الشرقي يسعى أن يتجنب انبعائه ثانية وذلك بحصوله على أعظم كمال في حياته الأرضية الحالية¹

و يعتبر كتاب الأمريكي "روبن شورما" بعنوان: { الراهب الذي باع سيارته الفيراري}² ملهما لرواد التنمية البشرية في هذا الباب، فقد حظي بشهرة وانتشار واسعين. و يحكي سيرة ذاتية لمؤلفه الذي كان محاميا مشهورا وثرىا بحكم ترافعه في أشهر القضايا في المحاكم الأمريكية.. ورغم تمتعه بقدر عال من الثراء والشهرة، إلا أن حياته بسبب اللهث الدائم وراء مجد الشهرة والغنى أصبحت شديدة الضغط عليه، وسببت له عديد الأمراض انتهت بانتهائه بأزمة قلبية كادت تؤدي بحياته، لينصحه الطبيب على إثرها بضرورة الابتعاد عن العمل نهائيا. وهنا دخل الرجل في أزمة حياتية طرح فيها أهم الأسئلة للعثور على السعادة والرضا، فما كان منه إلا أن باع أملاكه وسيارته وقصد بلاد الهند ليتعرف هناك على طائفة من الرهبان ويعيش معهم وفق نمطهم الحياتي، ويكتشف خلال تلك التجربة أن أولئك الرهبان يعيشون أعمارا مديدة في سلام دائم.. فعاد إلى بلاده بتجربة أهم ما فيها أن هناك أشياء أهم من الأمور المادية في الحياة، وهي الجوانب الروحية. وبدأ ينشر هذه الأفكار الجديدة على الأمريكيين.

كما يعتبر "واين داير" أحد أشهر الخبراء والمؤلفين الأمريكيين في مجال التنمية البشرية والتطوير الذاتي، وأبرز من تأثر بعلوم الطاقة وروحانيات الشرق القديم، إلى الدرجة التي أحدثت تحولا في رؤيته الحياتية والتي انعكست على أعماله اللاحقة، وقد وصف بنفسه هذا التحول، بالقول: (انتقل تركيزي من الجانب النفسي، والنمو الشخصي، إلى التوجه الروحاني في مجال الشفاء، وتحقيق المعجزات، والإبداع، ومعرفة الحكمة الإلهية. لم يكن هذا التحول محاولة مقصودة للانفصال عن خلفيتي المهنية والأكاديمية وإنما كان تطورا طبيعيا نتج بشكل تلقائي لتواصلي الواعي بالروحانيات)³

¹ حنا تادرس، خليل، أسرار اليوغا الصينية، ص140

² شارما، روبن، الراهب الذي باع سيارته الفيراري، مكتبة جرير، الرياض، ط2011، ص5

³ دبليو داير، واين، قوة العزيمة: تعلم كيف تحقق رغباتك بطريقة خاصة، مكتبة جرير، الطبعة 2، 2008، ص6

وقد توسع هذا التوجه المتأثر بالديانات الشرقية القديمة ليكون تيارا يقود مؤسسات ومعاهد تدريب.. وعلى رأسه ما عرف باسم "حركة العصر الجديد new age movement/" وهي حركة تعرف نفسها بكونها تشكل منظومة موحدة من الفكر اللاهوتي والطبيعة والفلسفة، وأنها متأثرة بنظم الفكر الشرقي الميتافيزيقي¹

ولم يكن ممكنا أن ينتقل تأثير هذه الممارسات الشرقية لليوغا والطاقة الحيوية، إلى الغرب، دون أن تصطبغ بألوانه وتتشكل وفق قوالبه، فالحضارة الغالبة لها بصمتها بدورها؛ رغم ما بها من مكامن الضعف والقصور التي هيأت الإنسان الغربي نحو الانجراف إلى هذه العلوم والنهل منها. وهي بصمة لم تقتصر فقط على إضفاء البعد التسويقي التجاري المنمق على هذه الممارسات الروحية تحت عناوين جذابة مثل "التأمل" و"الاسترخاء"، بل تم إعادة استيعابها من منطلق ما يميز هذه الحضارة منذ صعودها، وهو المنهج العلمي "التجريبي"، وذلك باعتماد مفاهيم مستوحاة من العلم الحديث في علوم الفيزياء خاصة، هكذا بدأت تظهر مصطلحات جديدة لتبينة المفاهيم الشرقية لهذه "الرياضات الروحية"، فظهر الحديث عن وجود ذبذبات للأفكار والأجسام، وأن للأفكار قوة مغناطيسية تعمل على التقاط ما يشبهها وتتجذب إليه في الوقت نفسه. وقد تواصل هذا المسار الذي عمل على إضفاء الطابع العلمي على علوم الطاقة واليوغا، إلى أن استقر أخيرا على ما سمي بـ"قانون الجذب"، وهي عبارة توظف مصطلحات المرجعية الغربية النقيضة لهذا النوع من "الممارسة الروحانية"، فعبارة "قانون" مأخوذة من التجربة الغربية المعاصرة في التعامل مع الطبيعة وإخضاعها للإنسان بامتلاك قوانين اشتغالها ومن تم السيطرة عليها والتحكم فيها. والجذب الذي هو تعبير فيزيائي علمي خالص عن تجاذب الأجسام من خلال الإلكترونات التي هي أجسام غير مرئية، تم اقتباسه لصالح التعبير عن فكرة انتشار الطاقة - اللامرئية - وانجذابها وتدفعها وتأثيرها..

¹ <https://www.allaboutspirituality.org/new-age.htm>

لقد أحدث "قانون الجذب" هزة كبيرة في الأوساط المهتمة بالتنمية البشرية، عكسته تلك الشهرة الواسعة التي نالها كتاب {السر} الصادر عام 2006 الذي أعدته الباحثة الأسترالية "روندا بايرن"، وهو كتاب بيع منه 19 مليون نسخة في السنة الأولى فقط من نشره. والسر الذي تكشف عنه الكاتبة في صلب الكتاب ليس سوى "قانون الجذب" الذي يعتبر هذا الكتاب تلخيصا وافيا له. والنص الآتي منه ؛ يوضح جانبا من طبيعة هذا الكتاب، الذي يؤكد ما ذكرناه آنفا؛ من تبيئة المفاهيم الشرقية للطاقة في قالب علمي جذاب، تقول روندا بايرن: (يقول قانون الجذب إن الشبيه يجذب شبيهه، إنك مغناطيس طاقة، فإنك تفعل كل شيء ترغبه كهربيا وتشحن نفسك كهربيا نحو كل شيء تريده. ينظم الإنسان طاقته المغناطيسية لأنه ما من أحد غيره يستطيع أن يفكر أو يحس نيابة عنه، والأفكار والمشاعر هي التي تخلق تردداتنا)¹ ولفهم هذا القانون أكثر من طرف أصحابه، نستعين بمثال من الكتاب ذاته، فحين يتحدث عن كيفية جذب المال إلى حياة الإنسان مثلا، يقول ما نصه: (لكي تجذب المال، ركز على الثروة. من المستحيل أن تجذب المزيد من المال إلى حياتك حين تركز على الافتقار له)².

توسعت تطبيقات قانون الجذب لتشمل مجالات عديدة للتنمية البشرية، تمتد من جذب الثروة والمال والصحة إلى حياة الإنسان، إلى الحصول على الوظائف وكسب المناصب والترقي فيها... ولذلك نجد تأثيرا لافتا لهذا القانون في ممارسة التأثير على الآخرين وجذب اهتمامهم وحبهم، ومثاله كتاب { كيف تجذب الناس كالمغناطيس: اكتساب الأصدقاء والأحباء والاحتفاظ بهم طوال الحياة} للكاتب "ليل لاوندس"، و كتاب {المال وقانون الجذب: تعلم كيف تجذب الثروة والصحة والسعادة} لصاحبيه "إستر" و"جيرى هيكس"، وغيرها كثير، ويهمننا من خلال هذه العناوين، رصد التوجه الذي يعبر عن الثقافة السائدة في هذا الموضوع، إذ تعبر مضامين هذه الكتب عن الحاجة الملحة للتأثير في الآخرين، خصوصا

¹ بايرن، روندا، كتاب السر، ص157

² بايرن، روندا، كتاب السر، ص111

في عالم تتسيده التجارة ونماذج الثراء المادي، ما يجعل الحاجة إلى كسب الأصدقاء/الزبناء/الأسواق.. وكذا التأثير فيهم وإقناعهم أمراً ذا أهمية بالغة.

ج- علم النفس الإيجابي:

ركز علماء النفس منذ القرن الماضي على دراسة المشاكل النفسية، من أجل معالجتها، ثم انتبهوا في الآونة الأخيرة، إلى أهمية السواء النفسي أو الصحة النفسية في بعدها الإيجابي، أي، أن يستثمر الإنسان قدراته ونقط قوته وصولاً إلى تحقيق النجاح والسعادة في حياته، تلك هي المقولة الأساسية لفرع جديد في علم النفس يعرف اليوم بعلم النفس الإيجابي. ومما جاء في تعريفه: (الدراسة العلمية لمكامن القوة، وللفضائل التي تمكن الأفراد والمؤسسات والمجتمعات من الازدهار، وأسس هذا المجال على اعتقاد مؤداه؛ أن البشر يرغبون في أن يحيوا حياة إنسانية مليئة بالقيمة، والمعنى، يحققون فيها طموحاتهم ويوظفون فيها قدراتهم الإنسانية للوصول إلى الرضا والسعادة الحقيقية، وتحسين خبراتهم الإنسانية العامة في كافة المجالات الإنسانية ذات القيمة)¹. ويعتبر "مارتن سليغمان" المؤسس المباشر لهذا العلم، وإن كانت جذوره تمتد إلى علم النفس الإنساني.

يرى مارتن سليغمان أن علم النفس أضاع الكثير من الجهد في دراسة الأمراض النفسية ومحاولات علاجها، فهو بذلك كان يركز على نقط الضعف عند الإنسان، في حين، أن التركيز على نقط القوة يحقق نتائج إيجابية أكبر، ففي كتابه الصادر عام 2002م بعنوان {السعادة الحقيقية/ استخدام علم النفس الإيجابي الحديث لتحقيق أقصى ما يمكنك من الإشباع الدائم}، يتساءل مارتن سليغمان: (فهل يمكن أن يوجد فرع لعلم النفس يعنى بأفضل ما في الحياة؟ هل يمكن أن يكون هناك تبويب للقدرات والفضائل التي تجعل الحياة تستحق أن تعاش؟ وهل يستطيع الآباء والمدرسون استخدام هذا العلم لتنشئة أطفال أقوياء ومرنين على استعداد لأن يتبوؤوا مكانتهم في عالم تتزايد فيه فرص الإشباع؟ وهل يستطيع

¹، عبد الجواد أبو حلاوة، محمد السعيد، علم النفس الإيجابي: ماهيته ومنطلقاته النظرية وأفاقه المستقبلية، إصدارات المؤسسة العربية للعلوم النفسية، ع 34 ، 2014

الناضجون تعليم أنفسهم وسائل أفضل للسعادة والإشباع)¹. ولكن، قبل لإجابة عن هذه الأسئلة، ارتأى سليغمان في أولى صفحات كتابه أن يجيب عن سؤال أهم بالنسبة إليه، وهو عن سبب فشل نظرية المتعة/السعادة وعدم إمكانية ظهورها من قبل في علم النفس. إذ يرى أن انشغال علم النفس بموضوع المرض النفسي، والبحث عن حالة السواء. جعلته يخطئ الاتجاه نحو تحقيق السعادة، التي تعتمد على ترقية الفضائل النفسية وليس معالجة الأمراض وآفاتهما.. ذلك أن ترقية فضائل النفس سيحول دون ظهور هذه الأمراض في الأصل. وهو ما جعله يدعو إلى ضرورة التحرر من الدين الذي يقوم على مبدأ الخطيئة الأصلية في بني البشر، في حين يرى "سليغمان" أن السعادة هي الأصل في الإنسان، وليست أمراً طارئاً، وهو التعبير الصريح الذي جعله عنواناً لكتابه "authentic happiness" والذي يمكن ترجمته حرفياً بالسعادة الأصلية. ومثلما يوضحه عنوان الكتاب، فإن "سليغمان" يعتبر السعادة غاية علم النفس الإيجابي. وقد بنى رؤيته في هذا العلم على دراسة المشاعر الإيجابية، ودراسة السمات الإيجابية لاسيما القوى والفضائل، وكذلك دراسة القدرات مثل الذكاء والنشاط. وتتميز أيضاً عن قرنائها في علم النفس بالاهتمام بموضوع معنى الحياة، الذي يقود إلى الحياة الطيبة؛ يقول: (وقد آن الأوان لعلم النفس أن يسعى لفهم الانفعالات الإيجابية، ويبني جوانب القوة والفضيلة، ويزود البشر بما يساعدهم على أن يجدوا ما يسميه أرسطو "الحياة الطيبة")².

د - الاتجاه العام في التنمية البشرية

لا تقتأ مدراس التنمية البشرية الحديثة؛ تطور اتجاهات مختلفة، بهدف تحقيق النجاح والسعادة للإنسان، معتمدة في ذلك آخر نتائج وأبحاث الدراسات والعلوم في معرفة الإنسان، خاصة تلك المتعلقة بأبحاث الدماغ وما يحدث داخله في علاقة بسلوك الإنسان وعواطفه وميوله. مما يعتبر من صميم مباحث علم النفس المعرفي. لكن موضوعات التنمية البشرية

¹ سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، مكتبة جرير الطبعة الأولى 2006، ص28
² سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، مكتبة جرير الطبعة الأولى 2006، ص9

جذبت اهتمام الكثيرين من مشارب واتجاهات مختلفة، أولئك الذين لا نستطيع تصنيفهم ضمن مدرسة بعينها، أو اتجاه خاص. إذ تصدر معظم كتابات التنمية البشرية الرائدة في الغرب - حالياً - عن رجال أعمال ناجحين في المجتمع الغربي خاصة منه الأمريكي، أو من باحثين قاموا بدراسات ميدانية وإحصائية حول هذه الفئات من الناجحين في أعمالهم وقياداتهم. أو من أشخاص عاشوا لحظات اليأس القصوى في الحياة فدخلوا غمار البحث عن السعادة والنجاح، وسجلوا خلاصات تجاربهم في ذلك. ويقدم معظمهم عصارة تجاربه وتجارب الآخرين في النجاح لتتحول جميعها إلى مصدر للتحفيز والتنمية؛ تروي - في الغالب - كيف تحول أشخاص من مراتب دنيا مالياً إلى دائرة الثراء، ومثال ذلك كتاب (فكر تصبح غنياً) "لنابليون هيل"؛ درس فيه سير 500 شخصية ناجحة من منظوره ومن أشهر الكتب المعبرة عن هذا التوجه العام؛ كتاب (قوة عقلك الباطن) لجوزيف ميرفي الذي تم تذييل عنوانه بالعبارة الآتية: " لا توجد حدود للرخاء والسعادة وراحة البال التي تستطيع تحقيقها ببساطة من خلال قوة عقلك الباطن". كما يلخص لنا غلاف كتابه، نوع الموضوعات التي صارت تشملها كتب التنمية البشرية بصفة عامة (إطلاق العنان للقوى العقلية من أجل بناء الثقة بالنفس وتكوين علاقات اجتماعية منسجمة، وتحقيق النجاح المهني، وجني الثروة، والتغلب على الخوف الطبيعي والمرض والتخلص من العادات السيئة وحتى التأثير في عمليات الشفاء الجسدية، وتحسين الحالة العامة وزيادة السعادة)¹. وهذه العبارة تعكس نوع الاهتمام الذي تبرزه هذه الكتب وطرقها في تسويق ذلك. وبالرغم من الاختلافات الصارخة بين اتجاهات مختلفة في وصفات التنمية البشرية، إلا أن كلا منها يعمد إلى تقديم وصفاته باعتبارها منهج حياة شامل، أو إسباغ طابع كوني على نتائجها في محاولة لتعميم نمط الحياة الذي تُبشّر به وتُسوّق له. ففي مقدمة كتاب "العقل الباطن" جاء: (وحيث أن الدكتور "ميرفي" كان رجل دين، فإنه كثيراً ما يشير إلى مواضع في الكتب السماوية ويقتبس منها ما يتماشى مع موضوع الكتاب. ورغم ذلك، فهو يبين أن المبادئ التي يشرحها ليست حكراً على

¹ ميرفي، جوزيف، قوة عقلك الباطن، مكتبة جرير، ط8، 2013،

أي معتقد أو ديانة بذاتها، ولكنها حقائق كونية لا تقبل الشك. ويبني الدكتور "ميرفي" أعماله على أفكار ومفاهيم ذكرت على لسان الرسل، وعلماء الدين، والفلاسفة من كل الأديان والدول، سواء في العصور القديمة أو الحديثة. وكل هذه الأفكار والمفاهيم قابلة للتطبيق على قراء العصر الحالي، مهما اختلفت خلفيتهم الروحية)¹

يتبين مما سبق إذن، أن التنمية البشرية أصبحت تعبر عن فسيفساء ضخم من العلوم والنظريات والمعتقدات الروحية والمذاهب الفلسفية، مقرونة في معظمها بتطبيقات البرمجة اللغوية العصبية. وتجد هذه الخلطة مبرراتها من نواح عدة، ففي بلد المنشأ - أمريكا - تتوفر بيئة ليبرالية تسمح بهذا النوع من "النفعية" في تصيّد نتائج العلوم خاصة منها علم النفس المعرفي وعلم النفس الإنساني، وبلورتها في معادلات مبسطة جاذبة ضمن سياق تسويقي تجاري صرف. وذلك دون التقيد بالمقدمات النظرية والعُدّة المفاهيمية لتلك العلوم. فأصحاب التنمية البشرية في عجلة من أمرهم، وليس لديهم صبر للاستيعاب النظري للعلوم وتطبيقاتها، ضمن سياقاتها الرئيسية، وإنما يبحثون بعجالة عن بعض التطبيقات البسيطة في تعلمها، من هنا وهناك، مع التركيز على الجوانب التطبيقية، القادرة على إحداث تأثيرات سريعة على مستوى المعيش اليومي للإنسان، والمسايرة إلى مواكبة التغير المتزايد في المجتمعات التي انتقلت من المرحلة الصناعية إلى المرحلة التكنولوجية الأكثر تسارعا ونموا، بالإضافة إلى استخدام أساليب تسويقية أكثر جاذبية، تقوم على مخاطبة الحاجات النفسية الملحة للإنسان المعاصر، مع مراعاة بيئته المضطربة وعالمه المتسارع في نموه، و تغير أنماط الحياة فيه.

ويمكن القول؛ أن التنمية البشرية أصبحت تشكل تخصصا، أو فرعا مستقلا عن كل المصادر التي أخذت منها، غير أنها لا تحظى حاليا بما يمكن تسميته الاعتراف العلمي أو الأكاديمي، باستثناءات قليلة تخص تدريسها في الدراسات العليا ببعض الجامعات الأمريكية. لكن، وفي الوقت الذي قد لا تتجاوز فيه قرارات الأكاديميين حول الاعتراف بالتنمية البشرية

¹ ميرفي، جوزيف، قوة عقلك الباطن، مكتبة جرير، ط8، 2013، ص12

جدران غرفهم الأكاديمية، تكون التنمية البشرية بما حددت من موضوعات وغايات من صميم حياة الإنسان قد اجتاحت عقول الناس، وداعبت أحلامهم، فاستطاعت من خلال ارتباطها بالواقع المعاصر واستيعابها لمعطياته، أن تخاطب طموحات الإنسان الفطرية نحو تحقيق نمط الحياة الأفضل، وتقديم إمكانيات البرمجة على التفوق البشري من أجل بلوغ النجاحات ذات النزوعات الفردية في الحياة و الوصول إلى السعادة المنشودة، وباتت اليوم عنصرا لا غنى عنه في رسم نمط الحياة الفعال، القادر على تحقيق النموذج البشري الأفضل والأغنى والأكثر سعادة.. جاء في كتاب {السعادة رحلة فلسفية}: (أظهرت الإيديولوجيات السياسية الكبرى عدم أهليتها لجعل العالم أفضل وسقط، بسقوطها، الإيمان بالتقدم - وهو الأسطورة المؤسسة للحدث - فقد طفت مسألة السعادة على السطح من جديد. ظهر ذلك أولا خلال سنوات الستينات من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية في خضم حركة الثقافة المضادة. وعبر العرض الشامل لمختلف عناصر الروحانيات الشرقية وعلم النفس الحديث، تضاعفت وقتها التجارب الأولى لما سيدعى لاحقا "التطور الشخصي"=التنمية البشرية، والذي يهدف إلى زيادة المقدرة الإبداعية للفرد ليحظى بأكبر سعادة ممكنة)¹

وبذلك، أصبحت التنمية البشرية تعبر عن منهج حياة شامل، ويظهر ذلك الشمول حين اكتمل التصور المأخوذ من فسيفساء متشعب - كما رأينا - من علم النفس وعلوم الطاقة الروحية والبرمجة اللغوية العصبية، فضلا عن الاتجاهات العامة التي تعتمد التجارب الشخصية "النموذجية" الناجحة في الحياة، وتشكل في المجمل؛ برنامجا حياتيا شموليا لكل جوانب حياة الإنسان الروحية والصحية والفكرية والمهنية والأسرية... وتهدف عمليا إلى إكساب الإنسان وعيا بذاته وطاقاته وقدراته، وبدوره في الحياة وآفاق وجوده وارتقائه فيها. وما يعينه على ذلك، من اكتساب ثقة بالنفس، وسلام مع الذات، وقيم ومعتقدات داعمة لتوجهه في الحياة؛ وكلها موضوعات يمكن إدخالها تحت عنوان الكينونة؛ أو ما يمكن اعتباره إجابة

¹فريديريك، لونوار، السعادة رحلة فلسفية، ترجمة خلدون النبواتي، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس ، ط1، 2016 ، ص13

لسؤال؛ كيف يكون الإنسان؟ الذي يعبر عنه في اللغة الفرنسية بتعبير (le savoir être)
(. تليها موضوعات تتعلق بتطوير كيفية التواصل مع الغير، و إتقان فنون المحادثة
والإقناع، ومهارات بناء فرق العمل، ومهارات القيادة وإدارة الوقت... وكل ما يمكن إدخاله
ضمن إطار تطوير الجانب المهاري أو ما يعبر عنه في الفرنسية ب (le savoir faire).

في مستوى الكينونة؛ تتحدد المعايير التي تؤسس لمعاني الأفضلية أو الذكاء أو
النجاح أو السعادة؟ ... وهو ما لم تغفله أدبيات التنمية البشرية التي اعتمدت مقولة (ما
تؤمن به يصنعك) ، فجعلت نجاح الإنسان في الحياة مرتبطا ارتباطا وثيقا بمعنى النجاح
لديه ومعتقدده فيه. وحين تتحدث كتب التنمية البشرية عن المعتقدات فغالبا ما تقصد بها
المعتقدات الشخصية، سواء كانت دينية أو غير دينية، لأن الضابط فيها - بحسب التنمية
البشرية - أن تكون إيجابية وداعمة، بصرف النظر عن مصدريتها..

و أما الجانب المهاري، مثل إدارة الوقت وفن التواصل ومهارات الإقناع وغيرها فهو
يخضع بدوره للنموذج الإدراكي الذي تصدر عنه الكينونة، بل إن نجاحه متوقف على مدى
تناغمه معها وانسجامه مع مبادئها وافتراضاتها.. و إن لم تظهر تلك العلاقة بصفة مباشرة.

3 - التنمية البشرية والقرآن الكريم

سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الدراسة وجود صعوبات منهجية في التعامل مع
موضوع البحث من حيث مسمى التنمية البشرية ذاته، والذي لا نجد له أصلا لفظيا في
القرآن. ولكن بعد استعراض مفهوم التنمية البشرية وتبيين موضوعاته وأهدافه، يصبح من
السهولة واليسر؛ إيجاد المساحة المشتركة التي بنينا على أساسها موضوعنا. فقد عرضنا في
ما سبق من فقرات هذا المطلب، خلاصة موضوعات التنمية البشرية بمدارسها المختلفة، وما
تقدمه من وصفات حياتية، قائمة على معادلات مبسطة، تهدف إلى الارتقاء بحياة الإنسان
نحو الرفاهية الدنيوية مع اكتساب قدر من "الطاقة الروحية" التي تجلب سلاما داخليا واتزاناً
في مواجهة تحديات الحياة ومشكلاتها. وتعتمد في ذلك جملة مبادئ ووسائل وأفكار نهلت
من علوم إنسانية وفلسفية مختلفة. كما وقفنا على أن الإنسان هو مادة التنمية البشرية

ومحورها الأساس، وأن إكسابه أساليب الحياة الناجعة، التي تجعله أكثر فهما لكيونته، وأكثر قدرة على تدبير إمكاناته، وتجاوز نقائصه وصولاً إلى كمالات في الحياة تسمى أحياناً بالسعادة وأخرى بالرفاهية أو الحياة الطيبة... إلخ، من أولويات التنمية البشرية وغاياتها الكبرى. وكما سبق التأكيد أيضاً؛ فإن موضوع التنمية البشرية وغايتها مشترك بين مذاهب فلسفية وعقائد دينية منذ القديم. و نؤكد هنا، أن القرآن الكريم ليس استثناء في ذلك.

يقتضي منا الحديث عن علاقة ما بين القرآن والتنمية البشرية، التعرف إلى القرآن أولاً، وذلك قبل البحث عن دلالات المعنى المركب في مصطلح التنمية البشرية والنظر في صلته بالقرآن الكريم.

القرآن مصدر من الفعل الماضي قرأ، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً لكلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه. جاء في الصحاح: (قَرَأْتُ الشيء قرأنا، جمعته وضممت بعضه إلى بعض. وقرأت الكتاب قراءة وقرأنا، ومنه سمي القرآن. وقال أبو عبيدة: سمي القرآن لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: " إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ " أي قراءته)¹.

أمّا القرآن الكريم في الاصطلاح، فقد وردت فيه تعريفات متعددة في كتب علوم القرآن وغيرها، وتعرفه في الغالب بمميزاته وخصائصه؛ اعتماداً على أوصافه الواردة في القرآن مثل الذكر والفرقان والهدى والكتاب الحكيم والمبارك... وقد انتهت كتب علوم القرآن عموماً إلى تعريف يكاد يحظى بالإجماع مع بعض الاختلاف زيادة أو نقصاً؛ فمن ذلك ما ذكره صبحي الصالح في كتابه {مباحث في علوم القرآن}: (والقرآن -بأي اسم سميت- هو الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، وتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية)². وتنحو كتب علوم القرآن عموماً في تعريفاتها للقرآن نحو معالجة القضايا التاريخية التي ناقش فيها

¹ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990. مادة قرأ

² الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط2000، 24، ص21

علماء المسلمين طبيعة الوحي وكيفية تلقيه.. كما فعل الزرقاني حين أطنب الكلام في تعريفه للقرآن حول الخلافات الكلامية وقضية خلق القرآن و مسألة الوحي والكلام النفسي... إلخ.¹

والخلاصة في ذلك، أن القرآن صار اسم علم على كلام الله تعالى، الموحى به إلى رسوله محمد ﷺ، الذي نجده اليوم مكتوباً بين دفتي المصحف مبتدئاً بسورة الفاتحة ومختتماً بسورة الناس، وعدد سوره 114. وهو الحلقة الأخيرة في سلسلة الكتب السماوية المنزلة قبله. فهل يمكن الحديث عن وجود تنمية بشرية في القرآن؟

أما مفردة "التنمية" فترجع في اللغة العربية إلى فعل نما ينمو نمواً، وتعني الزيادة والتكثير. ولا يوجد استعمال لهذه المفردة في القرآن الكريم. بيد أن هناك مفردات تناظر مضمون هذا المصطلح، أو تعبر عن طبيعة الموضوع ذاته. وأبرز تلك المفردات مصطلح "التزكية" الذي يعني أيضاً الزيادة و الكثرة. جاء في القاموس المحيط (زَكَاَ يَزْكُو زَكَاءً وَزَكُوءاً نَمَاءً، كَأَزْكَى)،² . فالزكاة في اللغة تعني الطهارة والنماء. يقول الفراهيدي: (كل شيء ازداد ونما فهو يزكو زكاءً)³. وورد في لسان العرب : (الزَّكَاةُ الزِّيَادَةُ مِنْ قَوْلِكَ زَكَاَ يَزْكُو زَكَاءً، وَهَذَا مَمْدُودٌ... وَالزَّرْعُ يَزْكُو زَكَاءً، مَمْدُودٌ، أَي نَمَاءً. وَأَزْكَاهُ اللَّهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَزْدَادُ وَيَنْمِي فَهُوَ يَزْكُو زَكَاءً)⁴. فيتضح أن مدار القول المعجمي للغة في هذا اللفظ حول معنى التطهير والتنمية بالزيادة والبركة.. ويذهب بعض المفسرين قديماً وحديثاً إلى اعتبار مصطلح التزكية مرادفاً للتنمية، فقد أورد الرازي في تفسيره أن التزكية من معاني التنمية، يقول في ذلك: (التَّزْكِيَةُ عِبَارَةٌ عَنِ التَّنْمِيَةِ)⁵ . وكذلك القول في زكاة المال، أن المقصود بها تطهيره وتنميته، ففي تفسير البحر المحيط ذكر أبو حيان الأندلسي: (وَمَعْنَى الزَّكَاةِ لَا تَخْرُجُ عَنِ التَّطْهِيرِ أَوْ التَّنْمِيَةِ).⁶

¹ انظر : الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، ط5، 1995، ج1، ص17
² الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996، ج3، ص429.
³ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط1، 2003، ج5، ص394.
⁴ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (د.م)، (د.ت)، مادة زكى
⁵ فخر الدين الرازي، محمد بن عمر التيمي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ، ج4، ص123.
⁶ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، ج1، ص627.

وأما تفاسير المعاصرين، فنذكر منهم صاحب تفسير المنار الذي فصل في مقتضيات التزكية قائلا: (وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ تَكُونُ بِالْعَمَلِ الَّذِي يَجْعَلُهَا زَاكِيَةً أَيْ طَاهِرَةً كَثِيرَةَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَأَصْلُ الزَّكَاةِ وَالزَّكَاةِ: النُّمُوُّ وَالْبَرَكَةُ فِي الزَّرْعِ، وَمِثْلُهُ كُلُّ نَافِعٍ، فَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ بِالْفِعْلِ عِبَارَةٌ عَنْ تَنْمِيَةِ فَضَائِلِهَا وَخَيْرَاتِهَا، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِاجْتِنَابِ الشُّرُورِ الَّتِي تُعَارِضُ الْخَيْرَ وَتَعُوقُهُ، وَهَذِهِ التَّزْكِيَةُ مَحْمُودَةٌ وَهِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا¹). وللشيخ الشعراوي أيضا بعض التفصيل في هذا الباب مميزا في التزكية بين مرحلة التطهير ومرحلة التنمية التي تأتي تالية في الترتيب، يقول: (فمعنى: {وذلك جزاء من تزكى} [طه: 76] أي: تطهر من المعاصي، ثم نَمَى نفسه، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن في درجات الوصول للحق، فهو مؤمن بداية، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقي يوماً بعد يوم، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُربُه من ربه، وازدادت فيوضات الله عليه. والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها)². والشعراوي رحمه الله يحيل هنا إلى العبارة الصوفية المشهورة في التجربة التراثية الإسلامية وهي: (التخلية قبل التحلية) للإشارة إلى أن التطهر من الصفات المذمومة كالحسد والرياء والكبر والبغض والنفاق...سابق في التدريب على القيام بالطاعات والترقي في مقاماتها، وكذلك الامر في التحلي بكمكارم الأخلاق.

والملاحظ، أن ورود هذا اللفظ في القرآن الكريم يرتبط بمجال المال والنفس. فأكثر ما يكون إطلاق لفظ الزكاة على عملية إنفاق المال؛ الواجب في حق الأغنياء لصالح مستحقه من الفقراء والمحرومين. ومع أن القرآن يذكر لفظ الإنفاق ذاته ليدل به على فعل الإنفاق سواء كان واجبا أو تطوعا، فإن اقتران هذا الفعل بمسمى الزكاة يضيف معنى آخر لهذا الفعل ، وهو ما تبينه آية أخرى في القرآن، يقول تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: 103]. ففي هذه الآية دلالة واضحة أن أصل مسمى الزكاة يرجع إلى الأثر الموعود للمنفق نتيجة إنفاقه وهو التطهير والتزكية.. فتكون التزكية نوعا من التنمية التي تحدث بعد تطهير المال.. يقول الدكتور فتحي ملكاوي: (ومن تزكية الإنسان لنفسه

¹ رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج5، ص 123

² الشعراوي، محمد متولي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997، ج15، ص9336

تزكيتة لماله، فإنفاقه المال في وجوهه تزكية للمال بما يحصل له من بركة وعائد مضاعف: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]¹

و المجال الثاني للتزكية في القرآن الكريم هو مجال النفس، وهو الذي يعنينا في هذا البحث على وجه التحديد، وقد بينه تعالى بعد أطول قسم في القرآن، يقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 1 - 10]. يظهر معنى التزكية في هذه الآيات كمقابل للتدسية، وهي من الدس، أي الإخفاء. جاء في لسان العرب: (خَابَ مَنْ دَسَّاهَا فِي أَهْلِ الْخَيْرِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ وَقِيلَ دَسَّاهَا جَعَلَهَا خَسِيسَةً قَلِيلَةً بِالْعَمَلِ الْخَبِيثِ)². وبذلك تكون التزكية هي الفعل المستمر الذي يعمل على إصلاح حال الإنسان وإعداده لإصلاح الكون والمحيط وعمارته، يقول فتحي ملكاوي: (فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني إصلاح الفرد والجماعة والأمة. والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح. وأي حديث عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلق بالإنسان واستهدف ترقيته في مراتب التزكية)³

ومصدر التزكية في القرآن يكون هو الله تعالى، هو الله تعالى كما يظهر في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 49] وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 21].

كما يكون الرسول ﷺ مصدرا للتزكية في خمس آيات، منها الآية السابقة في أمره من الله تعالى بأخذ الزكاة لتطهير أصحابها وتزكيتهم بها، ومنها أربع آيات أخرى ذات نسق

¹ الملكاوي، فتحي حسن، منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2013، ص 88.

² ابن منظور، لسان العرب، ج 6.

³ ملكاوي، فتحي حسن، منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط1، 2013، ص 81.

واحد، تبدأ بدعاء إبراهيم عليه السلام، وتنتهي باستجابته من الله عز وجل في ثلاثة مواضع من القرآن. وهو أمر يدل على أهمية التزكية باعتبارها همة من مهام الأنبياء الأساسية. مما يؤكد منزلتها في التوجيه القرآني، فليس صدفة أن يخلد الله تعالى في كتابه المجيد دعاء نبيه إبراهيم عليه السلام، إلا أن يكون له من الأهمية ما يدعو لذلك وهو الدعاء الوارد في قوله سبحانه: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 129]. وليس صدفة أيضا أن نجد في كتاب الله تعالى استجابة ذلك الدعاء مذكورة في ثلاث مواضع من القرآن. وهي المحددة على التوالي في الآيات الآتية:

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 151]

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [آل عمران: 164]

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [الجمعة: 2]

تعبّر الآيات الأربع عن أربعة مقاصد للوحي الإلهي، وهي: تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب، والحكمة، والتزكية. و التزكية وإن كانت وردت في صيغة الجمع. وذلك على طريقة الخطاب القرآني الذي يقصد انتهاء إلى بناء الأمة وإصلاحها، فإنها تنطلق من الفرد باعتباره مسؤولاً ومكلفاً، ذلك ما يتأكد حين نعود إلى بقية مصادر التزكية في القرآن، فنجد القرآن يجعل الإنسان مسؤولاً عن تزكية نفسه، وهو العدد الأكبر في الآيات المتعلقة بتزكية النفس، كما تبيّنه الآيات الآتية:

{ جَنَّاتٌ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى } [طه: 76]

{وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [فاطر: 18].

{قُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: 18]

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} [الأعلى: 14]

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَنَّى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الليل: 17، 18]

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: 9]

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى} [عبس: 3]

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى} [عبس: 7]

وكلها صيغ تدل على أهمية الفعل المبادر و الإرادي للإنسان في عملية التزكية. فيتضح أن التزكية؛ مهمة من المهام الواجب السعي لها والمبادرة لفعلها، وهو ما يظهر من صيغة الأفعال التي وردت في ألفاظ التزكية (يَزَكَّى، زَكَّاهَا، يَتَزَكَّى، تَزَكَّى).

كما نجد أيضا في القرآن مصطلح "التربية"؛ الذي يعني بدوره التنمية والزيادة المتعلقة بنمو وتنمية الكائن الإنساني سواء على المستوى العقلي والخلقي وكذلك الجانب البدني، وذلك استنادا إلى قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 24] فأصل كلمة - التربية - من (رب) وتشير إلى معاني النمو والكثرة والعلو. وفي سورة الفاتحة؛ الله سبحانه هو رب العالمين يقول الراغب الأصفهاني: (الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام)¹. و ذكر القرآن لفظ "الربانيون" في قوله تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: 44] وذكر الشيخ السعدي في تفسيره للربانيين أنهم (العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين).²

والملاحظ، أن القرآن استعمل لفظ التربية في سياق مرحلة الطفولة، كما في قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 24]. وقوله سبحانه: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ

¹ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ، كتاب الرأء.

² السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة، ط 2005، ص229.

فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} [الشعراء: 18]. أما مصطلح التزكية؛ فيظهر في أغلب استعمالاته منسوباً إلى الفعل الإرادي للإنسان كما تبين سابقاً، مما يدل على شيء من التكامل بين المصطلحين يتعلق بمراحل حياة الإنسان. وإذن، فلفظ التزكية هو الأقرب للتعبير عن مضمون التنمية البشرية التي نحن بصددّها. وبذلك يتضافر كل من مفهوم التزكية والتربية في القرآن، ليؤكد مدى الاستيعاب القرآني لمضامين ومحتوى مفهوم التنمية البشرية المعاصر. إذ يتبين وجود مساحة مشتركة بين التنمية البشرية والقرآن الكريم من حيث محورية الاهتمام بالإنسان، وبكيفية وجوده في الحياة ونمط ارتقائه فيها وصولاً إلى الغايات المتمثلة في الحياة الطيبة وفي السعادة. كما يتبين أيضاً أن القرآن يعالج هذا الموضوع من زاويته الخاصة، والتي من أهم علاماتها؛ انفراده بمعجمه اللغوي الخاص في موضوع التنمية البشرية، الذي يختلف عما رصدناه في المعجم المتداول للتنمية البشرية في المنهج الغربي، مما يؤشّر على وجود اختلاف جوهري كبير بين المنهجين. فألفاظ من قبيل النور والهدى والصراط المستقيم والتربية والتزكية.. تبين أن القرآن الكريم يشمل ويستوعب في وعائه الدلالي مضمون التنمية البشرية المعاصرة وغايتها، مع اختلاف أكيد على مستوى الطرح ونوعية المعالجة.

بذلك تصبح مهمتنا القادمة؛ العمل على استجلاء معالم المنهج الغربي في التنمية البشرية، بما يساعد على تكوين فكرة أساسية عن هذا المنهج؛ نراها ضرورية كخطوة أولى في الإجابة عن سؤالنا المتعلق بالحاجة والأهمية للبحث عن منهج قرآني في التنمية البشرية.

المبحث الثاني

جذور المنهج الوضعي في العلوم الإنسانية وآثاره في التنمية البشرية

المطلب الأول: الجذور الفكرية للمنهج الوضعي في العلوم الإنسانية

مارس الإنسان منذ بداية وعيه الإدراكي نوعا من التفاعل مع محيطه، متعرفا إليه بحسب ما توصل إليه إدراكه العقلي في كل مرحلة من مراحل التاريخ، وقد قاده ما راكم من معارف إلى وضع قواعد عامة، يضبط من خلالها ما يصح فكرا، وما لا يصح. انتهت بصياغة ما عُرف بـ "علم المنطق"، ثم تطورت تجاربه لاحقا واغتنت في كل مرحلة نقدا وتقويما. إلى أن جاء عصر النهضة الأوربي ليشهد انعطافة كبرى على مستوى منهج الفكر؛ فقد شهد ذلك العصر جدلا قويا حول مناهج العلم بسبب ما حدث خلاله من تحولات فكرية كبرى (وكانت الفترة الزمنية التي يمكن وصفها بتعبير "الجدل حول المنهج" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فترة تشوش فكري من نواح عديدة)¹. فأوروبا قبيل عصر النهضة وخلالها عاشت صراعات مريعة بين الكنيسة من جهة، وعلماء الطبيعة لاسيما في الفيزياء والفلك من جهة أخرى، تمثلت في رفض أرباب الكنيسة نتائج العلوم في هذه المجالات واعتبارها منافية للدين. لكن تراكم النجاحات الباهرة في تلك العلوم، أدى في النهاية إلى تقويض سلطة الكنيسة وانهارها أمام سلطان العلم الجديد. فكان ذلك بمثابة إعلان عن عصر جديد في العلم ساهم في بلورة منهج جديد يقوم على أنقاض الفكر الكنسي "القديم".

وقد تكاملت جهود كل من "فرانسيس بيكون" و "ديكارت" في تقويض مناهج التقليد الديني والفلسفي، و إعلان ميلاد اتجاهين جديدين في المنهج، الأول؛ هو المنهج التجريبي القائم على الملاحظة و التجربة والمشاهدات الحسية، ثم اعتماد الاستقراء طريقا وحيدا

¹ سكريبك غنار ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012، ص332

للولصول إلى القانون. والذي قاده فرنسيس بيكون صاحب كتاب {الأورغانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة}¹. وأما الثاني، فهو المنهج العقلاني الذي تركز بأعمال "رينيه ديكارت". على هذا الأساس، تم تأكيد الدعوة إلى تنقية الفكر الغربي من الخرافات اللاهوتية، ومهاجمة كل فكر لا يقوم على أسس عقلانية وتجريبية.

ورغم احتفاء المنهج العقلاني بالعقل وإيلائه الأولوية في الاعتبار، فقد ظلت نتائجه محدودة، وتدور في نسق ما يعرف بالميتافيزيقا، أي نسق التسليم بالأفكار القبلية أو المسبقة. الأمر الذي فتح باب استقلال العلوم الإنسانية² تباعا عن الفلسفة. وهو استقلال سيطر من جديد سؤال المنهج في هذه العلوم، لاسيما بعد ظهور مشاكل تتعلق بتناقضات في تفسير الظواهر الإنسانية، والتي ترجع في مجملها إلى الاختلاف حول إمكانية جعل الإنسان جزءا من الطبيعة، فيكون التفسير وفق منهج دراسة الطبيعة، أم اعتبار الظاهرة الإنسانية مختلفة عن الظاهرة الطبيعية، وهو ما يستلزم بالضرورة منهجا ملائما لدراستها.

في ذلك الوقت، نما المنهج التجريبي وتطور بشكل متسارع، بسبب ما بات يحققه من نتائج قوية في علوم الطبيعة، وصولا إلى قوانين التحكم فيها والسيطرة عليها. فأصبح يشكل مصدر إلهام وقوة جذب لباقي مجالات المعرفة. وهو ما أغرى بعد ذلك بمحاولة اعتماده في العلوم الإنسانية رغبة في تحقيق نتائج مماثلة في دقتها لنتائجه في علوم الطبيعة. وقد يتساءل المرء عن مدى علاقة نجاح علوم فيزيائية وفلكية في التأثير على منهج العلم والمعرفة وإعادة النظر فيه كليا. والجواب أن هذه العلوم بمنجزاتها في إطار المنهج الجديد ساهمت في تغيير رؤية العالم³، خصوصا وأن أوروبا كانت تشهد في ذلك الحين زوال النظام

¹ كتاب يختزل معاني كبيرة حول موضوع التحول الفكري الكبير الذي يعتبر ببيكون نقطة انعطافه، ف"الأورغانون" تعبير استخدمه أرسطو من قبل لكتابه في المنطق الذي ساد لقرون في توجيه الفكر واعتبر آلة لقياس الفكر السليم والصحيح من غيره، وبذلك، يكون =كتاب بيكون هذا بمثابة إعلان عن منطق جديد في التفكير أو منهج جديد في التفكير، كما أن توصيف "الجديد" للأورغانون توصيف دال في التجربة الثقافية المسيحية. من خلال استبطانه الفهم الديني ل "العهد الجديد" (الإنجيل) الذي يعتبر ناسخا للعهد القديم (التوراة).

² العلوم الإنسانية : هي تلك العلوم التي نسجت ابتداء من القرن التاسع عشر حول الإنسان في علاقته بذاته ومحيطه وتاريخه.. وتتوزع بين علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والتربية وعلم السياسة واللغويات.. وتسمى أيضا بالعلوم الاجتماعية. وقد أخذت استقلالها عن الفلسفة تدريجيا بعد ظهور العجز المنهجي للفلسفة التقليدية في دراسة الظواهر الإنسانية. تشير الباحثة يمنى طريف الخولي إلى أن(مصطلح العلوم الإنسانية يشير إلى الدراسات التي تستهدف الإحاطة المنهجية الوصفية والتفسيرية بالظواهر الإنسانية)طريف الخولي، يمنى، مشكلة العلوم الإنسانية وتقنين حلها، مؤسسة هندواي، القاهرة، 2012، ص13

³ يقول الملكاوي: (ارتبط المصطلح ارتباطا مباشرا بفهم الإنسان لبنية الكون المادي وعلاقة مكوناته ببعضها، وموقع الإنسان فيه، وسبب سلوك ظواهره على الصورة التي نلاحظها. وفي هذا المجال تصف أدبيات تاريخ العلوم وفلسفة العلوم في مراجعها الغربية =كيف تطورت رؤية العالم من رؤية أرسطية تنسب إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو (384-322 BC) وتقول بمركزية الأرض في الكون إلى رؤية نيوتونية تنسب إلى العالم

الكنسي الديني من منصة التأطير الوجودي والمعرفي، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات النظرية الجديدة لصياغة رؤى وجودية بديلة، يقول "كرين برينتون": (باتت المسيحية التقليدية عاجزة عن تزويد مفكر عصر التنوير بنظرة إلى الكون)¹. ويلخص "كرين برينتون" معالم الانعطاف نحو الرؤية الجديدة بالقول: (تشكلت ثقافة المجتمع الغربي الحديث فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، ومع مطلع القرن الثامن عشر كان المتعلمون من الرجال والنساء، بل وكثير من غير المتعلمين أيضا بدؤوا يؤمنون باعتقادات محددة عن أنفسهم وعن الكون وعن رسالة الإنسان على الأرض، وما يمكن أن يفعله في هذه الدنيا، وكلها اعتقادات لم يؤمن بها أسلافهم في العصور الوسطى)².

وكما رأينا مع "توماس كون" في "بنية الثورات العلمية"، لم تكن الرؤية الكونية لتتغير لولا التصدعات التي هزّت المنهج التقليدي في العلم، وأثبتت عدم كفايته للاستمرار في تأطير المعرفة؛ بله تأطير التفسير الوجودي للعالم. ومن ثم، فقد حدث تغيير في المنهج مس مصادر المعرفة أولاً، إذ ساهمت قوانين نيوتن حول ميكانيكية الكون، في التعزيز من فكرة تغيير مصادر ومنهج العلم (أحدث علم نيوتن في أذهان الناس حساً متنامياً أو شعوراً بإبعاد الله... فلم يعد الله يفعل شيئاً بعد خلق الكون، بل ترك لقوانين الحركة وقانون الجاذبية عمل كل شيء)³. منذ ذلك التاريخ، أصبح مسمى "العلم" هو ما يخضع للتجربة ويسفر عن وجود قانون مطرد قابل للتعميم.

ترتب عن تلك التحولات الجذرية؛ إحداث تصنيف جديد للعلوم، للتمييز بين ما يتوفر منها على صفة العلمية ومن يفتقدها. وكان من أشهر تلك المحاولات ما قام به عالم الاجتماع الشهير "أوغست كونت" حين أحدث تصنيفه الجديد للعلوم، مستفيداً من نجاحات

الفيزيائي البريطاني إسحاق نيوتن (1642-1727م) وتقول بتبعية الأرض للشمس في النظام الشمسي ودورانها حولها وحول نفسها إلى رؤية ترتبط بالنظرية النسبية التي طورها ألبرت أينشتاين (في الفترة 1905-1916) وهي النظرية التي قلبت كثيراً من المفاهيم العلمية حول الكون بعد إعادة تعريف مفهوم الفضاء والزمن، ثم إلى رؤية ترتبط بنظرية الكم التي طورها مجموعة من العلماء من أشهرهم ماكسويل بلانك (1858-1947) وأورين شرودينجر 1887-1961م، وكشفت عن مشكلات القياس العلمي.... انظر : الملكاوي، فتحي حسن، "رؤية العالم والعلوم الاجتماعية"، مجلة إسلامية المعرفة ، عدد 42-43، خريف 2005 شتاء 2006، ص61، 60

¹ بيرينتون كرين ، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي خطاب، عالم المعرفة، ع82، 1984، ص174

² بيرينتون كرين، المرجع نفسه 150-151

³ بيرينتون كرين، المرجع نفسه ، ص106

المنهج التجريبي في علوم الطبيعة. فدعا إلى توحيد العلوم على مستوى المنهج. وكان يقصد بذلك توحيد منهج دراسة العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء. ثم انتهى به الأمر لتأسيس منهج عام يؤطر مجالات العلوم والمعرفة وتفسير الوجود، وذلك حين عمد إلى دراسة تاريخ الفكر البشري، ثم خرج منه بفكرة قانون المراحل الثلاث. والذي يقضي بأن الفكر البشري مر بمراحل ثلاث في تاريخه، فكانت الأولى هي المرحلة اللاهوتية (الدينية)، ثم تلتها المرحلة الميتافيزيقية (الفلسفية)، وأخيرا حلت المرحلة الوضعية التي تعبر - حسب كونت - عن أرقى مراحل التطور الفكري البشري. فمن وجهة نظر "كونت"، كان الإنسان يحتاج إلى الفكر الديني لتفسير الظواهر الطبيعية الخارقة عندما كان عاجزا عن مواجهتها، ثم انتقل إلى مرحلة التفكير الميتافيزيقي التي تعنى بالبحث في غايات الظواهر وعللها الكبرى، لكن بأنظمة تفكير عقيمة لم تحقق شيئا، ثم أتت المرحلة العلمية الوضعية التي تهتم بالكشف عن القوانين التي تسيطر على هذه الظواهر، وتحكمها، باعتماد المنهج الاستقرائي التجريبي المستخدم في العلوم الطبيعية.

تبين "جاكولين روس" كيف حاول المنهج الوضعي استلزام حتمية القوانين الطبيعية في الدراسات الإنسانية، إذ تقول : (تأسست العلوم الإنسانية بصورة حقيقية وسعت لتحقيق الاعتراف بصفاتها العلمية. سنة 1860 ظهر أول مؤلف في علم النفس الاختباري "عناصر علم النفساني الطبيعي" لفششر واكتسب علم الاجتماع الذي سماه هكذا أوغست كونت، منهجيات موضوعية مع كتاب دوركهايم قواعد الطريقة الاجتماعية. بعد ذلك بقليل وتحديدا سنة 1900، ظهر التحليل النفساني مع فرويد في مؤلفه "تفسير الأحلام". بصورة عامة كانت علوم الإنسان تبحث عن القوانين الخاصة بحتمية إنسانية)¹.

تكفل "كونت" بوضع الأسس المنهجية لتلك القوانين، ثم جاء "دوركايم" (1858-1917) ليترجم تلك الأسس إلى إجراءات عملية محاولا إضفاء صفة "العلمية" على كل مجالات العلوم، يقول في كتابه {قواعد المنهج في علم الاجتماع}: (على عالم الاجتماع أن

¹ روس، جاكولين، مغامرة الفكر الأوروبي، ترجمة أمل ديبو، أبو ظبي للثقافة والتراث، 2011، ص340

يسلك مسلكا عقليا شبيها بالمسلك الذي ينهجه كل من عالم الطبيعة أو الكيمياء أو وظائف الأعضاء..¹

أصبحت الظواهر الإنسانية خاضعة للدراسة والتجريب والملاحظة والقياس. وتم استبعاد ما لا يخضع لهذا النوع من الفحص التجريبي واعتباره خارج نطاق العلم. وقد عجل هذا التوجه بوقوع العلوم الإنسانية في أسر مناهج العلوم الطبيعية. بالرغم مما أحدثه ذلك من انتقادات، لكنها لم تصمد في ظل التحولات العميقة التي عاشتها أوروبا في تلك المرحلة على كافة المستويات. بذلك، كسب المنهج الوضعي رهان التحول إلى رؤية كونية بديلة للرؤية اللاهوتية المسيحية، تقول "روس جاكليين": (برز أخيرا عقل وضعي مع أوغست كونت الذي قال: لقد دخلنا مباشرة في العصر الوضعي، الذي هو عصر الواقع والقوانين، وأوجدنا اعتبارا من الآن، علاقة فهم عقلاني مع العالم. إذا كان الوعي قد تعامى خلال الحقبة اللاهوتية، فالإنسان قد انفتح الآن على المعرفة واكتفى بالقوانين. إن مجيء العقل الوضعي يعتبر حدثا فلسفيا فائق الأهمية ويشير إلى أننا ولجنا عصر العلم. ظهرت الحداثة في صيرورتها ككبت للأسرار، وبفعل ارتباطه بالانطلاقة الأسطورة للعلم والتقنيات، ظهر المذهب الوضعي كعقيدة². بناء على التحليل الذي قدمته "روس جاكليين" يمكن القول أن الوضعية تحولت إلى "دين" بديل للدين الكنسي، ذلك أنها تأسست على فكرة اعتبار الظاهرة الإنسانية مشابهة للظاهرة الكونية، تحتاج فقط إلى فهم قوانينها ومن تم إلى السيطرة والتحكم فيها، وهي الفكرة التي قامت على نفي وجود إله فاعل في الكون، واستطاعت أن تسود زمن عصر الأنوار وما بعده، بل وتغزت بأفكار علمائه في المجالات المختلفة (في عام 1805 قال الفيلسوف الفرنسي لابلاص لنابليون: أصبح الله افتراضا سطحيا خرافيا من وجهة نظر العلم، حيث يمكن تفسير الكون بدون الحاجة إليه)³. بذلك يمكننا القول؛ أن المنهج الوضعي استحال إلى رؤية كونية جديدة، ساهمت في إعادة رسم الحياة السياسية والاجتماعية الجديدة

¹ دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محود قسم و السيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، (د.ط)، 1988، ص 27

² روس، جاكليين، مغامرة الفكر الأوربي: قصة الأفكار الغربية، ترجمة أمل ديبو، مراجعة زهيدة درويش، أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي،

ط1، 2011، ص 314

³ مراد هوفمان، خواء الذات والأدمغة المستعمرة، ترجمة عادل المعلم ونشأت جعفر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، 2011، ص 31

في أوروبا، خصوصا بعد نجاح الثورة الفرنسية. حيث برزت الحاجة الملحة إلى نظام يعمل على استقرار الحياة في المجتمع، والذي لا يتحقق - حسب كونت - إلا من خلال دراسة الواقع كما هو، الأمر الذي تكفلت الوضعية بتأطيره اعتمادا على المنهج التجريبي (المجتمع يتدهور فيجب إعادة تنظيمه، وهو لا ينظم إلا بسلطة روحية توحد بين العقول، إلا أن هذه السلطة عند الواقعيين=الوضعيين ليست الكنيسة بل العلم الذي يضع حدا لفوضى الأفكار، ويوفر أسباب التنظيم والتعمير، وينتهي إلى دين جديد)¹. وقد انبرى "دوركايم" كما أسلفنا القول إلى تنزيل المنهج الوضعي، وتوطيد دعائمه في مجالات العلوم المختلفة محاولا استيعاب مجالات الحياة الثقافية والإنسانية، فاهتم بتأطير التربية والأخلاق وفق المنهج الوضعي باعتباره بديلا للمنهج الديني التقليدي الذي كان سائدا من قبل، يقول "دوركايم" في هذا الصدد: (إنه العلم الذي يصوغ المفاهيم الأساسية التي تهيم على أفكارنا.. معرفتنا وأساليبنا العلمية لم تعد كما هي. العلم الآن هو عمل جماعي.. وقبل أن تتكوّن العلوم كان الدين يقوم بالمهمة ذاتها.. لأن كل "ميتولوجيا" اشتملت على تمثّل تم إنضاجه عن الإنسان والكون، وقد كان العلم وريثا للدين)²

وينبغي التأكيد في هذا السياق؛ أن الساحة الفكرية لم تكن خالية تماما من أفكار مخالفة ومناقضة أحيانا لما عرضناه آنفا. إلا أن نجاح المنهج الوضعي وانتشاره، غطى على معظمها، و كان بمثابة تنويع لمسيرة من النضال الفكري التي خاضها العقل لأوربي منذ عصر النهضة. فتحوّلت أفكاره إلى نوع من المزاج العام الذي طبع تلك الفترة، دون أن يقلل ذلك من الجهد الذي بذله مؤسس الوضعية "أوجست كونت" الذي كان عليه أن يقوم بمهمتين في غاية الخطورة؛ فقد (اعتقد كونت أن مهمته ستكون مضاعفة: فمن جهة، عليه أن يحارب النظام اللاهوتي والميتافيزيقي، ومن جهة أخرى، عليه أن يضع البديل الوضعي "العلمي". لقد نشأ لديه اقتناع بأن مهمته إصلاحية أساسها إزالة هذا الاضطراب وإعادة بناء

¹ كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت (د.ت) ص314

² DURKHEIM , EMILE, EDUCATION ET SOCIOLOGIE ; Une édition électronique réalisée à partir du livre d'Émile Durkheim (1922), Éducation et sociologie. Texte préparé par Jean-Marie Tremblay, sociologue, 15 février 2002.

نظام عام للتفكير. لينتهي ذلك إلى تلك النتيجة "المنطقية" و"الحتمية" وهي تعميم المنهج الوضعي الذي يقصي كل الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية، ويبقى على المنهج الوضعي وحده.¹

ومما يؤكد نجاح مهمة "كونت" والمنهج الوضعي، ما شهدته أوروبا من موجة إلحاد كاسحة خلال القرن الثامن عشر وما بعده. (قطع عصر الأنوار الجسور مع الإيمان، وهاجم الوحي، وقام بنقد راديكالي للإله المسيحي باعتباره أكثر الأوهام بشاعة، والأكثر إثارة للسخرية، والأكثر خطورة، والأكثر حقارة...) ²

وما يهمنا في رصد هذه التحولات؛ هو ما أقامه المنهج الوضعي من أسس منهجية حكمت العلوم الإنسانية. وأضحت بمثابة أقانيم يصعب تجاوزها في أي بحث أو دراسة تتذرع بـ"العلمية". يلخص الدكتور محمد امزيان تلك الأسس في اعتبار الحس وحده مصدرا للعلوم الإنسانية، والارتهان لنموذج البحث في العلوم الطبيعية أو الفيزيائية، وإخضاع الظواهر الإنسانية للتجريب إمعانا في تحقق صفة "العلمية". وهو ما أدى إلى تشييء الظواهر الإنسانية واعتبارها وحدة من وحدات الطبيعة أو الكون. وقد كان من نتائج ذلك وفق دراسة الدكتور امزيان للمنهج الوضعي؛ تضخم الموقف الإيديولوجي للعلم، واختزال الظواهر الإنسانية في جوانبها الحسية، واختزال الكينونة الإنسانية في جانبها الفيزيقي الحسي، وكذلك اختزال الظواهر الدينية والأخلاقية في جوانبها الحسية، مع إحلال النسبية محل المطلق³..

ما لبث المنهج الوضعي أن تعزز بنظريات وأفكار كرسست تحوله إلى عقيدة دينية أو رؤية كونية بديلة للرؤية اللاهوتية، فمثلا حدث تغير في تصور الناس حول مركز الكون الذي انتقل من الأرض إلى الشمس وأحدث بذلك انقلابا هائلا في التصور الكوني، حدث انقلاب يوازيه في الدرجة على مستوى تصور الإنسان لذاته، وللعالم من حوله. وقد ظهرت نظريات وأفكار ريادية تقوي من هذه الرؤية الكونية الجديدة للإله و للكون والحياة والإنسان،

¹ محمد امزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط2008، 4، ص36
² روس، جاكليين، مغامرة الفكر الأوروبي: قصة الأفكار الغربية، ترجمة أمل ديبو، مراجعة زهيدة درويش، ط2011، 1، مكتبة مؤمن قريش، ص233
³ محمد امزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط2008، 4، ص44-53

وأهمها النظرية الداروينية والفلسفة النيتشوية؛ الأولى قدمت رؤية جديدة للإنسان، والثانية خرجت بتصور جديد عن الإله.

ينسب إلى "تشارلز داروين" (1809-1882) نظرية التطور التي تقول بأن الكائنات الحية تطورت من أصل واحد أو بضعة أصول، وأنها خلال مراحل التطور تلك، حدث بينها صراع وتنافس، فوقع الانتخاب الطبيعي من بينها على أساس البقاء للأصلح أو الأقوى، والإنسان واحد من هذه الكائنات التي تطورت على نفس النمط حيث يرجع أصله إلى سلف مشترك مع القرد¹.

لم يقف الأمر في نظرية التطور عند حدود مجرد القول بالأصل الحيواني للإنسان كما يعتقد البعض، وإنما كان لهذه النظرية أبعاد خطيرة على المستويين الفردي والاجتماعي، فبالنسبة للمستوى الاجتماعي (لم يقنع داروين بوضع نظرية في تطور الكائنات، وإنما أبان عن مكان الانتخاب الطبيعي في مجال الأخلاق، فرأى أن نظريته تطبق على حياة الهمج في نضالهم من أجل البقاء، وتبطل في حياة الشعوب المتمدنة التي وجدت من النبل أن تعين الضعيف على البقاء)². وقد وجد من العلماء والفلاسفة من يطور هذا التوجه ضمن ما عرف بالداروينية الاجتماعية، ويأتي على رأسهم الفيلسوف الانجليزي "هربرت سبنسر" (1820-1903) الذي عمل على تطوير الداروينية متحدثاً عن (فكرة التطور بمعناها العضوي القائم على تبادل المنفعة من أجل البقاء. وعلى هذا ينبغي إقصاء مقولة الإحسان إذ هو فعل معارض للقانون الطبيعي الذي يقضي ببقاء الأصلح)³. كما يعتبر "سبنسر" أن التنافس بين الأمم عبر الحروب ظاهرة صحية لبقاء الأمم الصالحة. ولعل هذا ما كان يدور في ذهن الزعيم الألماني هتلر في ممارساته العنصرية، وهو ما يؤكد مؤرخ حياته "آلن بالوك" بقوله: (إن الفلسفة الوحيدة التي كان يدين بها الدكتاتور الألماني كانت فلسفة داروينية فجة. فهتلر لم يكن يؤمن إلا بالقوة وحدها، وكان يرى أنه من المتوجب قتل

¹ سكريبك غنار ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012، ص722

² عويضة، كامل محمد، فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص77

³ محمود عثمان، صلاح، الداروينية والإنسان : نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف بالإسكندرية، الاسكندرية، 2001، ص120

المرضى والجرحى وإبادة شعوب بأكملها لأنها بيولوجيا أقل صلاحا من غيرها)¹. كما يشير صاحب كتاب تاريخ الفكر الأوربي إلى أن الداروينية قد أثرت في كل مناحي العلم الحديث². ومن أبرز من تأثر بها وساهم في تقوية إشعاعها الفيلسوف الألماني " فريديريك نيتشه" (1844-1900) الذي سعى إلى تطوير النظرية الداروينية من خلال فكرتي "الانتخاب الطبيعي" و "الصراع من أجل البقاء" إلى فكرة الإنسان الأعلى أو السوبرمان. وحيث أن الكنيسة كانت تضع الإنسان في بوثقة من القيود، فإن موت إله الكنيسة ذاته، سوف يعني التحرر من كل تلك القيود، والانغماس بالمقابل في الملذات والمتع. إذ ما دام أصل الإنسان في النهاية حيوان، فينبغي أن يمارس حيوانيته بكامل الحرية، ليكون سيد نفسه، وعليه أن يتحرر من كل القيود والأنظمة التي كانت تكبله وتستعبده، وفي ذلك يقول نيتشه : (لقد ماتت جميع الآلهة ونريد الآن أن يعيش السوبرمان الإنسان الأعلى)³. وبحسب نيتشه، فإن الإنسان الأعلى هو الإنسان المتحرر من الأخلاق والديانات عموما. فبعد إقصاء الدين وموت الإله⁴، عمد نيتشه إلى تفويض الأخلاق القائمة على أسس دينية، وذلك من خلال دراسته في جينيا لوجيا الأخلاق، لما تداولته الشعوب من مبادئ وتشريعات خلقية، وانتهى فيها إلى وجود صنفين من الأخلاق: أخلاق السادة وأخلاق العبيد، واستنتج من دراسته تلك، أن القيم المسيحية القائمة على الزهد والتسامح قيم منتجة للانحطاط. وبناء عليه، دعا نيتشه إلى جعل الذات مصدرا للتشريع الأخلاقي والتمكين لأخلاق القوة والأنانية وإشباع الغرائز (إن الإنسان في نظر نيتشه، يمتلك غرائز، وكل غريزة تتوق إلى السيطرة والتعبير عن القوة لدى الكائن الحي، وإن التعبير يتم عن طريق نزعة البحث عن إشباع هذه الغرائز وتحققها)⁵

¹ ستروميرج، رونالد، تاريخ الفكر الأوربي، ترجمة أحمد الشيباني، دار الفارئ العربي، القاهرة، ط1994، ص 429

² ستروميرج، رونالد، تاريخ الفكر الأوربي، ص416

³ عويضة، كامل محمد، فريديريك نيتشه نبي فلسفة القوة ، ص22

⁴ أعلن الفيلسوف نيتشه قضية موت الإله أيضا في مؤلفه "العلم المرح" على لسان إحدى الشخصيات "مات الإله !... ونحن هم الذين قتلناه ! .. ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنا آلهة كي نبو جديرين بهذه الفعلة؟ لم تحدث فعلة أعظم من هاته وكل من سيولد بعدنا سينتمي، بفضل هذا الفعل نفسه، إلى تاريخ أعلى من كل تاريخ وجد حتى الآن !) انظر: نتشه، فريديريك، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد الناجي، افريقيا الشرق، ط 1، 1993

⁵ عبد اللطيف، نبيل، فلسفة القيم نماذج نيتشوية، دار التنوير، ص58

إن فكرة موت الإله التي قد تبدو غريبة اعتبرت أعظم حدث في الأزمنة الحديثة، (أعظم حدث في الأزمنة الحديثة، هو أن الله "مات"، وأن ذلك الإيمان المسيحي صار لا قيمة له - بدأ يلقي بظلاله على أوروبا. واعتقد نيتشه أن تلك الرسالة المقلقة تحتاج إلى قرون عديدة حتى تصبح جزءاً من التجربة الأوروبية، ولكن قبل ذلك ستفقد القيم التقليدية قوتها الملزمة، وستصير العدمية الأوروبية واقعا.

رأى نيتشه أن العدمية نتيجة محتومة لإفلاس القيم والمثل العليا. فسقوط القيم، والكشف عن طبيعتها الخرافية دفعانا إلى الدخول في فراغ لم نختبره من قبل.¹

ويمكن القول إجمالاً، أن أعمال هؤلاء الفلاسفة الكبار في سياق الحضارة الأوروبية الحديثة، مكنت التجربة التاريخية الغربية من تأسيس رؤية كونية جديدة تقوم على اعتبار الإنسان هو مرجعية ذاته، وتم بناء على ذلك، اختزال الإنسان في بعده المادي، وإسقاط كل جانب معنوي أروحي في الإنسان، باعتباره غير قابل لمعايير الدراسة وفق المنهج التجريبي. وسيكون لذلك كله انعكاس مباشر في إعادة تشكيل مفاهيم أساسية في حياة الإنسان الأوروبي والغربي عموماً، لعل من أبرزها وأوثقها صلة بموضوعنا مفهوم السعادة. فقد كانت الديانة المسيحية تحوي تعاليم واضحة حول قصر الحياة على الأرض، واعتبار السماء هي الموطن الحقيقي (لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً)². غير أن التحولات الكبرى للعلوم في الغرب ساهمت في تغيير هذه الرؤية للمصير والجزاء الذي سيصبح بموجب تلك التحولات جنة في الأرض لا في السماء. فقد عبر بول هازار في كتابه {أزمة الضمير الأوروبي} الذي رصد فيه تحولات فكر عصر النهضة الأوروبي وأزماته بين 1680م و1715م عن النزوع الحاد الذي ساد تلك الفترة نحو التحرر من المفهوم الأخروي للسعادة، واستبدال الجنة الأرضية بالجنة السماوية، وفي ذلك يقول: (السعادة، أنتركها وديعة

¹ سكيربك غنار ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012، ص733

² إنجيل متى، إصحاح 6: 19-21

بين يدي العالم الآخر؟ هناك ستكون الظلال خفيفة، واهية، بل لن تكون ظلال... السعادة، فلنقتصمها على الأرض. أسرعوا، نحن في عجلة، لا ضمان في الغد، ولا عبء بالحاضر، غافل من يقامر على المستقبل، فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة¹. وذلك ما أبرزه أيضا "كرين برينتون" حين تطرق لهذا المفهوم فقال: (إن الفكرة الأساسية والإبداع المذهل لعصر التنوير، أي، الفكرة التي تجعل منه نظرة جديدة إلى الكون في شموله وعناصره، هي الاعتقاد بأن البشر جميعا يمكنهم أن يبلغوا على هذه الأرض قدرا من الكمال.. كان الفكر الغربي حتى تلك اللحظة يظن أن هذا الكمال يمكن فقط للمسيحيين دون سواهم وأنه يأتيهم نعمة من الرب بعد الموت. وهذا هو ما عبر عنه القديس جوست، حين قال: السعادة فكرة جديدة على أوربا.)² ويضيف موضحا: (إن التحول في موقف الإنسان الغربي من الكون وكل ما فيه هو التحول من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت إلى النعيم العقلاني الطبيعي على هذه الأرض الآن)³ ثم يؤكد مفسرا ذلك التحول: (وإن نيوتن العلوم الاجتماعية هذا هو الرجل الذي سيجمع ويلخص معارفنا المستتيرة ويصوغها في نسق للعلوم الاجتماعية وليس على الناس إلا الاقتداء بها ضمانا لبلوغ العصر الذهبي، جنة عدن الحق، تلك التي نراها أمامنا لا خلفنا)⁴

لقد كان لمثل هذا التغيير الهائل في الرؤية؛ أثره البارز في ميلاد علوم جديدة، و كذلك في إحداث تغييرات جذرية هائلة في نمط الحياة، وبذلك غدا المنهج الوضعي يؤطر رؤية كونية بديلة عن الرؤية الدينية المسيحية، فالاختفاء التدريجي للإله من الوجود كان لا بد أن يعقبه بديل مكافئ من حيث الشمولية والكلية في تفسير الوجود وانتظام علاقات مكوناته، ولذلك أضفى المنهج الوضعي على مبادئه وفرضياته ونتائجه صفة "العلمية"، ونوعا من القداسة المقابلة لقداسة الدين الكنسي، ليؤسس بذلك رؤية وجودية شاملة، أو بالأحرى دينا جديدا، معتبرا أن ما وصل إليه يمثل أرقى مراقي التطور البشري. ثم تعزز

¹ بول هازار، أزمة الضمير الأوربي، ترجمة جودت عثمان و محمد المستكاوي، مطبعة الكاتب المصري، القاهرة، ط1، 1948، ص295

² بيرينتون كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي خطاب، عالم المعرفة، ع82، 1984، ص 161

³ بيرينتون كرين، تشكيل العقل الحديث، ص123

⁴ بيرينتون كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي خطاب، عالم المعرفة، ع82، 1984، ص 174

هذا التوجّه بأفكار عن الإنسان "المتطور" والإله "الميت" والسعادة "الآنية" وليست المؤجلة في عالم آخر لم يعد له وجود.

بعد حوالي قرنين من الافتتان بالمنهج الوضعي، والعمل على تطبيقاته في مجالات العلم المختلفة مستندا إلى رؤية مادية للكون، حدث نوع من الانزياح في تلك الرؤية التي لا تعترف بشيء خارج الطبيعة والإنسان، ولا بشيء يفنّه العقل ولا يخضع للتجربة. وذلك ابتداء من أواسط القرن العشرين، حين وجدت الشعوب الغربية نفسها تدخل في نوع من التحولات الكبيرة مرة أخرى. تحولات موسومة بالاتجاه نحو ما بات يعرف بـ"الروحانية". وذلك لتستعيد "الدين" على نحو ما، لكنه مختلف عن تلك النسخة التي كان عليها في الكنيسة. حدث ذلك، بعدما توالى الضربات على الرؤية المادية الوضعية، التي لم تفقد بريقها الذي حافظ على نمو واستمرار مطرد بحكم النتائج المتوالية لمنجزات العقل الإنساني "العلمي"/ المادي، خاصة على مستوى ثورة التكنولوجيا و المعلومات.. لكن الحاجة كانت ملحة أكثر على مستوى التفسير الوجودي والرؤية الكونية وتطبيقاتها المباشرة في العلوم الإنسانية. وضمن هذا المسار الذي تابعا به بإيجاز تاريخي، يمكن القول أن ما حدث من انزياحات في هذا السياق زلزل بقدر المنهج الوضعي برؤيته المادية ، وأحدث ثقباً كبيراً في جداره السميكة، فتح من خلاله إمكانية الاتجاه نحو الحلول الروحية للإنسانية. وهو ما يؤكد " إدموند بورن" الذي يقول مستعرضاً مراحل الرؤى الكونية التي سيطرت على الغرب: (وفي الخمسمائة عام الماضية مرت الرؤية المسيطرة على العالم في الغرب بثلاث مراحل، هي: ما قبل عصر النهضة، حيث نُظر إلى العالم بوصفه عالماً مقدساً بهرمية جامدة يقف الإله على قمته. وهذه النظرة اللاهوتية تشير إلى قوة مسيطرة وغير مشروطة منتشرة في جميع أنحاء العالم. وهذه القوة يتوسطها كل من تُوكل له السلطة لينفذ أوامر الإله على الأرض، وكان ذلك يتمثل بالأساس في البابوات والملوك. والتالي لذلك عصر النهضة، حيث غيرت الثورة العلمية كل هذا. فسلبت من الكنيسة سلطتها لتأتمر بأمر طبيعة العالم كمادة محايدة للبحث العلمي وسيطرة لأمحدودة للتكنولوجيا....

ففي العقود القليلة التي أنهت القرن العشرين، بدأت قصة العالم التي سردها العلم في الانهيار لتعلن عودة تجريبية مترددة لكن مؤكدة لمزيد من الرؤية الروحانية للعالم. لنعود من جديد لنذكر الكون كشيء قابل للفهم ومقدس.¹ يقصد هنا "إدموند" أن العودة إلى "الدين" في الغرب؛ عودة محكومة بهاجس البحث عن نوعية من "الدين" المخالف تماما لدين "الكنيسة". لذلك يقول: (لقد وجدت الإنسانية نفسها في غمرة تحول رئيسي في رؤيتنا للعالم. ومثل هذا التحول يتضمن بشكل أساسي الطريقة الجديدة في إدراك العالم، والبيئة، وبعضنا البعض، وأنفسنا. وقد صاحب هذا التحول الإدراكي تغيرات أساسية في القيم والأولويات والمعتقدات المهمة. وبإيجاز يتضمن التحول التحرك بعيدا عن النظرة المادية للعالم وللكون ولمكانتنا فيه، إلى نظرة أكثر روحانية. وبدلا من تنظيم الواقع بطريقة مادية نهائية، بوعي كمكون ثانوي مشتق من البيئة المادية، أصبح الوعي مفهوما على أنه مكون أساسي لبنية الواقع.. ولم تعد الطبيعة مجرد مادة للبحث العلمي أو مصدرا للاستغلال الصناعي، بل أصبحت نظاما له قدسيته واحترامه يتكون من الوعي والذكاء، ويحتاج الإنسان أن يتعاون معه بدلا من استغلاله. وهكذا فالرؤية البازغة للعالم أحييت النظرة القدسية العميقة للعالم، لكنها مختلفة كلية عن قدسية القرون الوسطى، التي وجدت قبل عصر النهضة والثورة العلمية.

وهذا التحول أو التغير سيؤثر في إدراكاتنا الجماعية ومعتقداتنا، وسلوكياتنا تجاه مساحات عديدة في الحياة..²

على هذا الأساس؛ تم إعادة النظر في معظم الأفكار السابقة، والتأمل نحو بلورة رؤية كونية جديدة، لها ملامحها الخاصة دون أن تفقد إيمانها بالرؤية المادية الوضعية، يقول "إدموند بورن": (وفي القرن الواحد والعشرين أصبحت هذه الرؤية واسعة الانتشار والقبول وأصبحنا نرى أن للكون وجهين: وكلاهما حقيقي، فالكون وجهه الموضوعي وهو الشكل

¹ بورن، إدموند، التغير العالمي من أجل بشرية أكثر نجاحا، ترجمة سماح خالد زهران، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2015، ص 57

² بورن، إدموند، المرجع نفسه، ص 81

المناسب للبحث العلمي. ولكن هناك اعتبارا كبيرا أيضا للوجه الآخر الذاتي، والذي يمكن أن نفهمه ليس فقط من زاوية العلوم الاجتماعية ولكن أيضا من خلال أشكال البحث الحدسي¹

الرؤية الكونية الجديدة في العالم - حسب إدموند بورن - تتضايّف فيها الرؤية المادية الوضعية و مبادئ "الروحانية المتصاعدة"، بما يجعل الأولى تتحسر في مساحات عديدة لصالح الثانية. وهو تغير ينبئ عن أمرين: أولهما؛ عن مدى الأزمة التي يشهدها العالم في الوقت الحالي نتيجة استمرار هيمنة المنهج الوضعي والرؤية المادية، وثانيهما؛ عن قوة الحاجة إلى صيغة دينية تستجيب لمتطلبات الإنسان دون أن يعني ذلك عودة ما إلى دين الكنيسة. ومما يزيد في قوة التوجه الذي يزلزل أركان الوضعية المادية في العالم اليوم، ظهور نوع من الفيزياء الجديدة، التي تفسر الكون وما يحدث فيه، بما يغير نظرة الإنسان إلى الواقع المادي كما تقول بذلك "فيزياء الكم"، وغيرها من نتائج العلوم الحديثة في ميادين مختلفة، لكن يبقى على رأسها انتشار الفلسفات الشرقية والممارسات الروحانية كما يقول "إدموند" في هذا الصدد: (إن اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بالفلسفات الشرقية وبالدين يمكن تتبعه بالرجوع للوراء منذ تعاليم البراهما يوجانوارا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. وهذا الانبهار بالشرق اكتسب بالتفاعل مع تأملات "ماهاريشي ماهيش يوجي" " Maharishi Mahesh Yogi " في مقدمته عن نطاق المعرفة البشرية، والتي صاغها بستينيات القرن الماضي وانتشرت بسبعينيات القرن الماضي، حيث درسها في الهند المرشدون والمعلمون الروحانيون في الهندوسية. وفي ثمانينيات القرن الماضي ساعد عدد هائل من تلاميذ الهندوسية والبوذية الأمريكيان أمثال : رام داس، وجوزيف جولدشتين، وجاك كورنفيلد، في انتشار تعاليم اليوجا والتأمل)² ويرى "فريدريك لونوار" أن لجوء الغرب إلى الديانات الشرقية كان بهدف البحث عن السعادة؛ التي لم تقدمها له ثقافته وفلاسفته وعلماءه؛ حيث فقدان معنى الذات والحياة؛ يقول في ذلك: (تثير الحكم الشرقية فضول الغربيين بشكل متزايد وعلى الأخص البوذية التي تحتل فيها مسألة السعادة موقع الصدارة. إن التقارب بين

¹ بورن، إدموند، المرجع نفسه، ص 85

² بورن، إدموند، المرجع نفسه، ص 82

هذه الحركات الثلاث أي: التطور الشخصي، والحكم الفلسفية، والاهتمام بالروحانيات الآسيوية يُغذي تلك المساعي الفردية الجديدة في البحث عن السعادة و تحقيق الذات في غرب راح يفقد معناه ورموزه العامة)¹

ونلفت الإنتباه إلى أن عبارة "التطور الشخصي" الواردة في النص السابق يقصد بها المؤلف ما يعرف حاليا في عالمنا العربي بالتنمية البشرية. وقد ذكرنا آنفا أنها إحدى الترجمات التي تم تداولها في عالمنا العربي تعبيرا عن " التنمية البشرية". والمهم إثباته هنا، أن هذا التحول الذي يشهده العالم منذ حوالي أربعة عقود في تغيُّر رؤيته الكونية؛ سوف نجد صداه واضحا أيضا في التنمية البشرية.

¹ فريديريك، لونوار، السعادة رحلة فلسفية، ترجمة خلدون النبواتي، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس ، ط1، 2016 ، ص14

المطلب الثاني: أثر المنهج الوضعي في التنمية البشرية المعاصرة

1 - التأثير على مستوى العلوم الرافدة للتنمية البشرية

رأينا سابقا، كيف ترسخ المنهج الوضعي في مجالات العلوم الإنسانية، حيث عمل من خلال رؤيته المادية و عبر عقود من العمل المتواصل، على كسب رهان طمس الرؤية اللاهوتية المسيحية، والعمل على اختفائها بنسبة كبيرة من الحياة الوجدانية والاجتماعية الغربية. ولم تحدث زعزعة لهذا التوجّه إلا في العقود الأخيرة حين تصاعد المد الروحاني في الحياة الغربية الأمريكية بالخصوص، في محاولة لاستعادة التوازن في الحياة بعدما أغرقت في المادية واختزلت الإنسان في بعده المادي.

وتجدر الإشارة، إلى أن ظهور تيار الروحانيات في الغرب الأمريكي منذ أواسط القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية؛ تزامن مع فترة ظهور مدارس التنمية البشرية. والواقع، أن كليهما تعبير عن توجّه لبحث الإنسان الغربي عن صيغ للحياة تخرجه من أزماته الوجودية، لذلك، اندمجت تيارات المد الروحي بشكل سريع مع توجهات التنمية البشرية، وأصبحت تشكل تيارا أساسيا من تياراتها كما أوضحنا في تعريف التنمية البشرية آنفا.

مع ذلك، استمر تأثير المنهج الوضعي في الحياة الغربية برؤيته المادية على صعد متعددة، حيث أصبح مسلّمًا به اعتبار الإنسان مرجعية ذاته. ففي السنوات الأخيرة الماضية، ظهرت أدبيات التنمية البشرية في الغرب، لتأكيد المنحى الذي تم تأسيسه، عبر نظريات "أوغست كونت"، و"داروين"، و"نيتشه"، وغيرهم كثير، ممن أرسوا رؤية كونية تقوم على اعتبار الإنسان مرجعية ذاته، إذ لا مرجعية من الخارج، بل هو الإنسان الأعلى أو الإله ذاته، يرى في الكون المادي المحيط به كل العالم، ويعيش في دائرة من الصراع والتنافس، الذي يتطلب قدرا من التكيف والقوة، من أجل النجاح والبقاء.

وقد أثر المنهج الوضعي في علم النفس بصفة خاصة تأثيرا بالغا، إذ لما كانت النفس غير خاضعة للأقيسة والتجريب كمادة، فقد تم استبعادها من دراسة الإنسان ابتداء، ذلك أن (الوضعية لا تعترف بأي شعور أو نظام خاص بالحياة الداخلية للإنسان، إلا ما كان قابلا

للإدراك، محاولة بذلك إعطاء تفسير عقلي مقبول لسلوك الإنسان الداخلي والخارجي معا¹. لذلك ظهرت المدرسة السلوكية في علم النفس والتي قادها "جون واطسن"، واعتمدت تجزئ السلوك إلى وحدات قابلة للاختبار المثير والاستجابة، فاختزلت بذلك كيان الإنسان في سلوكه المادي فقط (في عام 1913 كتب واطسون Watson مقالا بعنوان "علم النفس من المنظور السلوكي" نبذ فيه الاستبطان كأسلوب للدراسة في علم النفس، وذهب إلى أن السلوك الإنساني يجب بحته بنفس الأساليب المستخدمة في الكيمياء والفيزياء وعلم الحيوان، أي بطرائق تجريبية حسية تتعامل مع السلوك الظاهر وحسب.)² ومن هذا المنطلق نجد في مناهج علم النفس كثرة الدراسات الإحصائية والاستمارات وأنواع الاستبانات الكمية والكيفية، من أجل الخروج بخلاصات عن ظواهر نفسية معينة. كل ذلك من أجل الوصول إلى نتائج تماثل في دقتها نتائج لعلوم الطبيعية.

و شهد القرن العشرون منذ بداياته تطورا خاصا في مجال قياسات الذكاء والفروق الفردية اعتمادا على الاستبيانات والإحصاء والاختبارات وغيرها من وسائل القياس التجريبية. وكرست التنمية البشرية الحديثة هذا الاتجاه المعتمد على استخدام أنواع من الاستبيانات الخاصة باكتشاف الشخص لمستوى ذكائه ومستوى ثقته بنفسه وغيرها من أنواع التشخيص التي تستبطن معيارية خاصة للنموذج الإنساني المفترض. وبذلك سلكت التنمية البشرية ما يمكن اعتباره المسلك "العلمي" وفق مواصفات المنهج الوضعي ومحدداته.

تعزّز هذا المنهج المادي في التعامل مع الظاهرة الإنسانية بوحدة من أشهر مدارس التنمية البشرية؛ وهي البرمجة اللغوية العصبية، التي تقوم في إحدى ركائزها، على قانون المثير والاستجابة. وهو قانون للسلوك الإنساني شبيه بقوانين نيوتن الميكانيكية. أي أن الإنسان أصبح بموجب هذا التصور مادة قابلة للتحكم والسيطرة والتوجيه مثلما تخضع باقي المواد في الطبيعة للتطويع بالقوانين الميكانيكية. وهي الفكرة الرئيسة التي توحى بها كلمة

¹ محمد امزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 2008، ص47
² محمد، علي عبد المعطي، "البحث عن منهج للعلوم الإنسانية"، ورقة عمل ضمن كتاب (قضايا العلوم الإنسانية: إشكالية المنهج)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د.ت)، ص 36

البرمجة ذاتها. كما أغرت فكرة القوانين العديد من رواد التنمية البشرية، ودفعت الكثيرين منهم إلى البحث عن قوانين تجعل حياة الإنسان أفضل في الدنيا وأكثر نجاحا وفق تصورهم.. فبعضهم التزم شيئا من القواعد الأخلاقية التي يفترض أن تحكم علاقة الإنسان بذاته وبغيره كما هو الشأن في كتاب بعنوان: { قواعد الحياة : الوصفة السحرية لحياة أفضل ؛ وأكثر سعادة وأكثر نجاحا} لمؤلفه "ريتشارد تمبلر، والبعض الآخر أتى على عكس هذا المنحى الأخلاقي تماما. ومثاله الكتاب الشهير للأمريكي "روبرت غرين" بعنوان: { 48 قانونا للقوة} الصادر عام 1998م، والذي عمل على إسقاط فكرة القوانين الطبيعية التي جاء بها نيوتن في الفيزياء، في مجال الحياة النفسية والاجتماعية. واستلهم روح النظرية الداروينية و مضمونها الأساس في تفسير الظواهر الإنسانية في المجتمع، معتبرا أن الإنسان كائنا تنافسيا، وأن من يملك القوة هو من يستطيع التفوق والوصول إلى أهدافه، وفي سبيل ذلك لا مانع من سحق أعدائه، واستخدام مختلف الأساليب الملتوية لتحقيق الأهداف، حيث تظهر بصمات النيتشوية و آثار الداروينية الاجتماعية حاضرة بقوة في هذا الطرح. فعلى سبيل المثال؛ يقول في القانون لخامس عشر من قوانينه: (اسحق أعدائك دون رحمة) وفي القانون الواحد والعشرين يحرض: (استدرج فرائسك بالتظاهر بأنك أقل منهم ذكاء) وفي القانون الثاني والثلاثين يقول: (خاطب في الناس آمالهم وأحلامهم وليس واقعهم)، وإذا كانت هذه الأفكار قد تثير شيئا من الغرابة بالنسبة للبعد الأخلاقي في هذه القوانين، فإن الأغرب منها أن يتصدر هذا الكتاب قائمة الكتب الأعلى مبيعا سنة 2011 وفق صحيفة لوسانجلوس تايمز¹ لكن حين نربط هذه الأفكار، بما تم تأسيسه من موت الإله، وقانون الصراع من أجل البقاء، وغيرها من الأفكار المؤسسة لمفهوم الإنسان في الرؤية الغربية المعاصرة تزول الغرابة ويزول العجب. وقد تم تطوير النظرية الداروينية لتلقي بظلالها على العديد من الدراسات النفسية التي اهتمت بدراسة الفروق الفردية بين البشر، وكرست لمقولة الصراع من أجل البقاء، لينتقل الصراع من دائرة التنافس الجسدي القائم على الدم، إلى التنافس على

¹ <http://articles.latimes.com/2011/aug/30/business/la-fi-robert-greene-20110726>

مستوى الذكاء و العقل (قد بلغ الإنسان مرحلة أرقى في سلم الارتقاء، إنه الارتقاء العقلاني المعتمد على قوة العقل أكثر من اعتماده على القوة العضلية.. فلماذا ينبغي أن يعني الاصطفاء الطبيعي صراعا جسديا وسفك دماء)¹. إن ذلك يعني أن مرحلة الرقي التي وصلها الإنسان تقتضي الانتقال من الصراع الجسدي والقوة العضلية، إلى الصراع على مستوى الذكاء وقوة العقل. وفي هذا السياق ظهرت بحوث نفسية تهتم بإبراز مقاييس الذكاء بين البشر مع تحديد الفروق بينهم.

و تظهر بصمات الداروينية أيضا في علم النفس الإيجابي، فنجد أنه بالرغم من التحفظ الذي سجله سليغمان على النظرية الداروينية، في كتابه {السعادة الحقيقية: قراءات في علم النفس الإيجابي}؛ إلا أنه، مع ذلك، فقد أبدى تشبعا عقديا كبيرا بها، وسيتبين أنه استخدم نفس هذه النظرية ليؤسس مفهومه للسعادة والإيجابية في الحياة، يقول سليغمان: (تشارلز داروين يقول بأننا نتاج سلسلة طويلة من انتصارات الماضي، وأن أسلافنا قد أصبحوا أسلافنا لأنهم كسبوا نوعين من المعارك: معركة البقاء، ومعركة التزاوج. فنحن ككل نتكون من تجمع من صفات تكيفية ضبطت بدقة تسمح لنا بالبقاء أحياء وتجعلنا ناجحين في التناسل)² وبما أن علم النفس الإيجابي يقوم عموده الفقري عند سليغمان على تطوير المشاعر الإيجابية وتعميمها، فقد وصل إلى تفسير مفاده؛ أن تفسير نظرية التطور قوي في توضيح سيطرة المشاعر السلبية على الإنسان المعاصر، استنادا إلى تولدها لدى الأسلاف في مواجهة تحدي البقاء، يقول في هذا الصدد: (في أثناء الصراع التطوري لكسب زوج أو النجاة من هجوم ضار، أورثنا أسلافنا الذين ارتفعوا لمستوى الحدث جيناتهم)³. استغل سليغمان هذه الإشارة التطورية ليفسر ظاهرة انشغال علم النفس بالأمراض النفسية بدل الاهتمام بالصحة النفسية، فبين أن ما ورثه الإنسان جينيا من حيث سيطرة المشاعر السلبية، ساهم في توليد الأمراض التي شغلت علم النفس في المرحلة السابقة مثل التوتر والاكتئاب

¹ ستروميرج، رونالد، تاريخ الفكر الأوربي، ص430

² سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، ص66

³ سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، مكتبة جرير الطبعة الأولى 2006، ص13

والخوف والقلق... وتوصل في دراساته إلى إمكانية توقيف المشاعر السلبية، والعمل بدلا من ذلك - وفق نظرية التطور ذاتها - على تطوير المشاعر الإيجابية مستندا إلى أبحاث زميلته فردريكسون التي تعتبر (أن المشاعر الإيجابية لها وظيفة ضخمة في التطور. إنها توسع مواردنا العقلية، والبدنية، والاجتماعية الثابتة...) ¹. أي أن التطور هنا ليس بسبب الخوف من عدم البقاء ولكن بسبب الرغبة الملحة في النمو والارتقاء. وذلك يتم عبر تنمية الفضائل الإنسانية، أي الجوانب الإيجابية في الإنسان. وتبعاً لذلك، انتهى إلى أن: (الانتقاء الطبيعي له استخدامات كثيرة لنقص المشاعر وكذلك لوجودها) ²

و لأن السعادة المطلوبة في الحياة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية معنى الحياة، أو مغزى الحياة، فقد تطرق سليغمان إلى ذلك بالقول: (ماذا يستطيع علم النفس الإيجابي أن يخبرنا عن إيجاد معنى للحياة، عن كيفية أن نحيا حياة ذات مغزى تتجاوز مجرد معنى الحياة الطيبة؟ وأنا لست مغروراً بدرجة تكفي لأن أضع نظرية كاملة عن المعنى، ولكنني أعرف أنها تتكون من الارتباط بما هو أكبر، وكلما كبرت الهوية التي تربط بها نفسك، كلما زاد المعنى في حياتك. وكثير من الناس الذين يسعون إلى المعنى والغرضية في حياتهم تحولوا إلى "فكر العصر الجديد" new age thinking أو عادوا إلى الديانات الكبرى) ³. أما بالنسبة لمؤسس علم النفس الإيجابي، فهو لا يبحث عن معنى الحياة في الدين (ومثل كل الغربيين ذوي العقول العلمية في التفكير، ففكرة الغاية المتسامية "أو فكرة إله يقوم وراء هذه الغاية" بدت لي دوماً غير قابلة للتحقيق. ويوضح علم النفس الإيجابي الطريق إلى منحى علماني إلى الغايات النبيلة والمعاني المتسامية والأكثر دهشة، نحو إله ليس مفارقاً للطبيعة) ⁴. وهنا يظهر أن لسليغمان مفهومه الخاص للإله، فلم يكن من بد وهو يبحث عن معنى أو غاية سامية في الحياة، أن يصل إلى جانب إيماني، وحيث لا يؤمن بالدين أو الإله الديني، فليخلق إلهاً بمواصفاته. إن السعادة وفقاً لسليغمان تتحقق بالتركيز على جوانب القوة

¹ سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، ص 47

² سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، ص 35

³ سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، ص 26

⁴ سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، ص 26

والفضائل في الإنسان، والعمل على تعميمها في مناحي الحياة، وحيث أن هذه الأخيرة تبقى رهينة بحياة ذات معنى أو غاية، فلنبحث عن تلك الغاية، ولكن بعيدا عن الدين.

بذلك أبقى سليغمان على وفائه للمنهج الوضعي المادي في الدراسات النفسية، بل شكل توجهه هذا ارتدادا حتى بالنسبة للتيار الإنساني في علم النفس. وهو ما يؤكد حقيقتين هامتين؛ الأولى: وجود أزمة حقيقية في تفسير الظاهرة النفسية اعتمادا على البعد الأحادي المادي للإنسان، والثاني: درجة استمرارية تأثير الهيمنة الواضحة للمنهج الوضعي المادي في العلوم الغربية كافة وفي علم النفس خاصة، ومع ذلك، فإن مالم يستطع سليغمان قبوله من حيث التعاطي مع مصدر خارجي للعلم حرصا على الوفاء لمنهجه الوضعي العلماني، سوف يتسلل إلى مدارس التنمية البشرية الحديثة، عبر ما عرف بمذاهب الطاقة الحيوية التي أشرنا إليها من قبل. ففي الوقت الذي حافظ فيه علم النفس - قدر الإمكان - على التزامه للمنهج الوضعي في تناول الظواهر النفسية، تقيدا بالمعايير العلمية والأكاديمية التي يفرضها ذلك المنهج، اتسمت مدارس التنمية البشرية الحديثة بمرونة واسعة في هذا الباب، فبحكم طبيعتها القائمة على سد الحاجات الفعلية للإنسان، والبحث عن حلول ناجعة لها؛ لم تجد التنمية البشرية أدنى حرج في استدعاء الحلول الروحية، ساعدها في ذلك تطور السياق الاجتماعي الغربي بنزوعه الفردي، ساهم في البحث عن حلول للأزمات التي بات يعيشها الإنسان الغربي على مستوى الفرد وكيونته، إذ كان يعيش أزمة حقيقية على مستوى وجوده وكيونته؛ ولم تسعفه في ذلك الحلول المادية، فما كان منه إلا أن هرع إلى البحث عن حلول ممكنة لأزمته، وهو ما توفر له بفتح الباب على مصراعيه لدخول مختلف أنماط الرياضات الروحية الشرقية إلى الحياة الغربية الأمريكية أولا ثم الأوروبية بعد ذلك. فقد شكلت تلك الرياضات، طوق الخلاص الذي انتظره الإنسان الغربي كثيرا، ليعيد شيئا من التوازن إلى حياته المغرقة في الماديات، حيث كانت التربة خصبة، والأجواء متعطشة لهذا الجانب من الروحانيات، بعد رحلة طويلة من الجفاء للدين والإفراط في الحياة المادية إلى درجة التطرف، الذي أوقع الإنسان الغربي في متاهات الضياع، فظهرت اليوغا وعلوم الطاقة الحيوية بمثابة

المنقذ والمخلص من تلك الأزمة، خصوصا وأنها لا تتعارض مع الحياة المادية الغربية القائمة فعلا، وإنما دخلت باعتبارها رياضة روحية يمكن إضافتها لنمط الحياة الأمريكي، وبالتالي استعادة التوازن في الحياة بين البعدين المادي والروحي من خلالهما. ولما كانت البيئة الأمريكية سوقا خصبة لهذا النوع من الطقوس والممارسات، فقد استقطبت عددا من رهبان اليوغا و ما يسمى بـ"رياضات التأمل"، وكان في مقدمة هؤلاء ومن أشهرهم "مهايشي ماهش يوجي".

2 - التأثير على مستوى نمط الحياة

ثمة تغييرات جوهرية كبيرة على مستوى نمط الحياة، أحدثته الرؤية الكونية الجديدة في الغرب. وتظهر معظم تلك التأثيرات على مستوى المفاهيم والمعايير الأساسية في الحياة. مثلما رأينا في السياق الثقافي والفكري الذي تم من خلاله إعادة تشكيل مفهوم جديد للسعادة، قائم على أسس مادية وآنية، مما يعبر عن تحول عميق في نمط الحياة العملية، و الواقعية، للإنسان الغربي المعاصر. الذي أريد له أن يصبح "نموذجا كونيا" للإنسان الحديث. ويرصد الدكتور "مراد هوفمان" هذا التحول في كتابه {خواء الذات والأدمغة المستعمرة}، فيقول: (أصبح الإشباع المادي للإنسان في الجنة الأرضية هو نهاية المطاف. في هذا السياق تتحول الرفاهية السابقة إلى ضروريات، ويجد الإنسان نفسه في حلقة متفاقمة لانهائية من عدم الرضا.. أصبح الكم والإدراك الحسي للأشياء، هما فقط ما له اعتبار)¹

وقد كان للداروينية الاجتماعية أثر بارز في نوع التحول الذي طرأ على الحياة الغربية وتكرس بأعمال فلاسفة وتربويين واقتصاديين أمثال "جون فسك" و "إدوارد سلسبي" و "جراهام صومر" وغيرهم كثير. يقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: (ثم انتشر الحماس لفكرة "التطور وانتقاء الأصلح" حيث وجد فيها كل فريق من فرقاء الصراع والتنافس في ميادين الحياة المختلفة مبررا لممارساتهم وأساليبهم في التفوق والربح والانتصار ضد الفرقاء المهزومة والخاسرة)². ويعزز الدكتور الكيلاني مقولته بمن اعتبره أحد أبرز الداروينيين

¹ مراد هوفمان، خواء الذات والأدمغة المستعمرة، ترجمة عادل المعلم ونشأت جعفر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، 2011، ص 70

² الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، مؤسسة الريان، بيروت، (د.ط)، 1998، ص160

الاجتماعيين في أمريكا، حيث لخص آراءه في هذا المجال في أن الذين ينجحون في جمع الثروة هم أفضل عناصر المجتمع، والذين يفشلون هم العناصر السيئة.. وأن تنافس بني الإنسان في ميدان الثروة كتنافس الحيوان في جمع الغذاء، ولذلك لا داعي للفقراء أن يلوموا الأغنياء، وإنما هم مسؤولون عن عجزهم عن التكيف والنجاح في ميدان الصراع، لأن الحقيقة الأولى في الحياة هي - الصراع من أجل البقاء - وأعظم مظاهر هذا الصراع هو توفير رأس المال والثروة.. ولما كانت الحيوانات - في نظرية داروين - غير متساوية وإن أفضلها أقدرها على التكيف مع متطلبات البيئة.. فكذلك أفراد الجنس البشري هم مختلفون. وأفضلهم هم أقدرهم على التكيف خلال عملية - الصراع من أجل البقاء - ولذلك كانت المساواة فكرة خاطئة تكرر التخلف والمرض في المجتمع. أما حرية الصراع فهي تولد الشجاعة و التدريب والذكاء والعمل..¹

كما يشير الدكتور ماجد عرسان الكيلاني إلى أن الداروينية الاجتماعية انتقلت إلى ميدان التربية في أقطار الحضارة الغربية المعاصرة عبر بوابة الفلسفة البراجماتية؛ حيث يذهب كل من " جون ديوي" و "ويليام جيمس" إلى أن (التطور هو نتيجة إبداعات غير عادية أو نتيجة جهود شخصيات بارزة تلعب في التطور الاجتماعي نفس الدور الذي تلعبه الكائنات القوية في نظريات التطور عند داروين. ومثل هذه الشخصيات تنتقى من قبل المجتمع وترفع إلى موقع التأثير لقدرتها على التكيف للمواقف الاجتماعية التي يولدون خلالها)²

اصطبغت الحياة الغربية إذن، بفكرة الصراع من أجل البقاء، وانعكس هذا التوجه معياراً لتقييم النجاح والوصول إلى الغايات الكبرى في الحياة... يؤكد هذا المعطى برتراند راسل في رصده لنمط الحياة الغربية: (إذا أنت سألت أي رجل في أمريكا، أو أي رجال أعمال في انكلترا، أي شيء تجده أكثر تعلقاً بحب البقاء؟ فسيقول: "الصراع من أجل

¹بتصرف عن الكيلاني، ماجد عرسان، المرجع نفسه، ص 161 - 162 نقلا عن

William G.Sumner. the challenge of facts and other essays,(new york :Yale University Press ,1914),P.90

² الكيلاني، مفلسفة التربية الإسلامية، ص 164، نقلا عن

Richard Hostadter. Social Darwinism. (Boston : the American Historical Association,1955)P.204

الحياة"...الذي يعنيه الناس من الصراع في سبيل الحياة إنما في الواقع الصراع في سبيل النجاح. والذي يخشاه الناس عندما يخوضون في صراع ليس أنهم سيفشلون في الحصول على إفطارهم في الصباح التالي، بل عدم تمكنهم من التفوق على جيرانهم¹. وهي ملاحظة دقيقة تخص معايير التفوق والنجاح كما صارت متعارفة بين الناس في المجتمع الغربي، وفي السياق ذاته، يبين الكاتب مؤشرا آخر من المؤشرات التي باتت معتمدة في قياس الذكاء والبراعة من الناحية الاجتماعية، ففي هذا الصدد يقول: (المال الذي يجمعه المرء يعد هناك مقياسا لذكائه، فالإنسان الذي يجمع قدرا هائلا من المال رجل بارع، أما من لا يجمع قدرا كبيرا من المال فهو غير بارع)²

تشير هذه النصوص إلى نوعية الحياة و كذلك نوعية ونماذج الناجحين فيها. وتتمثل في غلبة الطابع المادي الذي أشاع مظاهر المال والسلطة والشهوة والاستمتاع باستهلاك الأشياء وتملكها، وهو توجه قاد إلى تحسين نمط الحياة المادية من جهة، وأدى بالمقابل إلى تشييء الإنسان وتسليعه من خلال الدعايات الاستهلاكية التي تركز على مواصفات الجسد والمقتنيات وتحويل بعض مشاهير الفن والرياضة إلى تماذج أو "موديلات" في تسويق نمط الحياة وفق تلك الرؤية المادية الاختزالية. وتمثل اليوم عبارة نمط الحياة أو LIFESTYLE عنوانا بارزا من عناوين المجالات الكبرى ومواقع التوصل الاجتماعي التي يُتعرّف من خلالها على نمط حياة المشاهير في الغرب. والذين يشكلون النماذج القدوة في مجتمعاتهم، وربما، في عالمنا العربي الإسلامي أيضا.

لكن، كل ذلك التحول الفردي والاجتماعي وما تأسس عليه من أفكار ونظريات؛ لم يكن ليخفي ما تناهت إليه حياة الإنسان الغربي من قلق روحي مهدد بتدمير كل ما تم اعتباره نجاحا وسبيلا للسعادة والرفاهية المادية ضمن نمط الحياة الغربي؛ الذي لم يتسع لإيجاد تفسير وجودي للإنسان، فظهرت معالم ذلك القلق الروحي في مظهرين من مظاهر الحياة الاجتماعية في الغرب؛ هما :

¹ راسل، برتراند، الفوز بالسعادة، ترجمة سمير عبده، دار منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1980، ص47
² راسل، برتراند، الفوز بالسعادة، ص50

- انتشار ظاهرة الإدمان على المخدرات والمواد الكحولية، مع تزايد معدلات الانتحار والجريمة التي لا تتم غالبا بدافع الحاجة المادية، وإنما لأسباب مرتبطة بالخلل النفسي والاجتماعي المرتبط بنمط الحياة.

- الارتقاء في أحضان المذاهب الروحية الهندوسية والبوذية وغيرها مما تم ممارسته أحيانا باعتباره رياضات روحية لاستعادة التوازن في الحياة، وأحيانا أخرى بشكل جد متطرف مثل الإقدام على عملية الانتحار الجماعي لبعض الطوائف الدينية في أمريكا وبعض الدول الأوربية..

ويلخص الدكتور سعيد شبار ما آلت إليه نتائج الرؤية كونية الغربية وتأثيراتها على مستوى نمط الحياة بقوله: (ولقد نجحت الفلسفات المادية إلى حد كبير في تحويل عالم غيب الإنسان إلى عالم شهادته، وأن تجعل بدل جنته الأخروية فردوسا أرضيا زائفا، وفق محددات صارمة آلياتها الربح والإنتاج والاستهلاك والمتعة واللذة والحرية والإشباع.. لدرجة السيولة الشاملة حيث يمكن التمييز بسهولة بين الإنسان الإنساني والإنسان الطبيعي. الإنسان الذي عليه أن يعيش جنته في الدنيا ولا ينتظرها إلى الآخرة، فليس ثمة إلا الدنيا وحسب.

فأخطر مشكلات الإنسان الغربي، والتي غدّت مشكلات عالمية بحكم الهيمنة والتوسع الملازمين لثقافة العولمة، هي مشكلة فلسفة الإنسان نفسه. الإنسان الذي لم يبق كائنا مركبا بأبعاده الروحية والعقلية والجسمية، بمعتقداته وقيمه وأخلاقه، حيث تم تبسيطه إلى عنصر طبيعي. وعجزت علوم الغرب الإنسانية عن حل مشكلاته الاجتماعية كما عجزت علومه الصناعية عن تحقيق وعدّها بالمجتمع السعيد..¹

وتجدر الإشارة إلى أنه قد ظهرت في الساحة الأمريكية التي كانت مسرحا بارزا لهذه التفاعلات، دراسات نقدية تخص نمط الحياة؛ لعل أبروها تلك التي قادها الناقد الأمريكي في

¹ شبار، سعيد، الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، مركز دراسات المعرفة والحضارة، دار الإنماء الثقافي، الرباط، ط1، 2014، ص 79.

علم النفس التحليلي والاجتماعي "إيريك فروم" (1900-1980) الذي اشتهر بتوصيفه للنمط الحياتي، الذي أصبح سائدا في الحياة الغربية عموما، بأنه نمط "التملك" كتعبير عن سيادة نزوع حاد نحو التملك، والإشباع، والحرص على اقتناء الأشياء، مع ما يقتضيه ذلك من ممارسة للعنف، والخداع، والغش، والعدوان، والتسلط في سبيل امتلاك الأشياء والحفاظ عليها، في عالم يقوم على الصراع والتنافس. واعتبارها ضرورة لمواجهة ضغوطات الحياة ومشاكلها، وذلك في مجتمع يقدر الممتلكات ويحترم مالكيها بقدر قيمتها المادية، كما يرى "فروم" أن نزوع التملك شمل الأفكار والأشخاص وكل شيء. وصار معيارا في التقييم المباشر للأشخاص والعلاقات، يقول: (وفي حضارة يكون هدفها الأسمى هو التملك ومزيدها من التملك وفيها يمكن الحديث عن شخص - يساوي مليون دولار - كيف يمكن اعتبار التملك أو الكينونة أحدهما بديلا عن الآخر. على العكس ينبغي أن يبدو كأن التملك هو جوهر الكينونة وأن من لا يملك شيئا لا يساوي شيئا).¹

انتقد "إيريك فروم" هذا النمط من الحياة القائم على "التملك"، واعتبره من النتائج المباشرة للنظام الاقتصادي الاجتماعي. واعتبر أن تكريس هذا النمط سوف يقود إلى كارثة، يتحول بموجبها الإنسان إلى عبد للأشياء التي بدل أن يمتلكها يصبح هو مملوكا لها، يقول: (وفكرة أن يكون الإنسان عبدا دون تقييده بالسلاسل هي ذات أهمية بالغة في وضعنا الحالي، وقد وضعت القيود الخارجية بكل بساطة داخل الإنسان. إن الرغبات والأفكار التي تملؤه بها القوة الضاغطة من المجتمع تقيده أكثر مما تفعل السلاسل. ويحدث هذا لأن الإنسان يكون شديد الوعي بالقيود الخارجية، لكنه غير واع بالقيود الداخلية التي يحملها متوهما أنه حر).²

وفي المقابل ، طرح " فروم " أسئلة عميقة حول قضية الهدف والمعنى في الحياة، كما طرح أسئلة حول الخطوات الواجب اتباعها من أجل نمط حياة أفضل. و انتهى في إجاباته عن تلك الأسئلة إلى الدعوة إلى انتهاج نمط حياة مغاير يقوم على ما أسماه "الكينونة"،

¹ فروم، إيريك، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة لطفي فاهيم، سلسلة عالم المعرفة، عدد 1989، 140، ص 29
² فروم/ إيريك، فن الوجود، ترجمة إيناس نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 2011، ص 25

اعتمد في تأصيله على نصوص وتعاليم المسيحية والبوذية و"المعلم ايكهارت". وهو نمط يعتمد النمو الداخلي (جوهر الإنسان) سبيلا للنشاط الحر والواعي في الحياة، كما أن هذا النمط - حسب فروم - لا يلغي التملك وإنما يضعه في حجمه الطبيعي ضمن نمط حياة يكون فيه الإنسان متحررا من أن تستلبه الأشياء أو الممتلكات.

لكن، وبالرغم من قوتها المنطقية والتحليلية؛ لم تستطع الرؤية النقدية لإيريك فروم، أن تخترق الجدار السميك لما تشكل من رؤية مادية للحياة في ظل المنهج الوضعي والتي تضافرت عوامل عديدة على تقويتها وترسيخها في العقل الجمعي الغربي. دليل ذلك، ما أظهرته توجهات أدبيات التنمية البشرية، التي هدفت عموما إلى تبشير الإنسان بتحقيق المزيد من النجاح، والمتعة والسعادة، في ارتباطها بالجانب المالي بالخصوص. وذلك باعتماد قوانين لكسب معركة الحياة تكون شبيهة بقوانين الطبيعة على مستوى النتائج. وتأكيدا على اجتياز سلم التفوق المستمد من فكرة الصراع وإرادة البقاء، إذ يتم تكريس هذه الفكرة عبر بوابة السعي إلى النجاح والتفوق بهدف الارتقاء حتى يكون الإنسان هو الأغنى أو الأذكى أو الأنجح...

ويظهر التأثير المادي أيضا في طغيان الملمح التسويقي على مجال التنمية البشرية بشكل عام، فالتسويق هو عملة لكل شيء، تسويق للأفكار والبضائع والخدمات، وكذلك للمواقف والآراء. والرغبة الجامحة في التأثير على الآخرين وكسب معركة الإقناع في عالم المال والأعمال، ففي عالم تحكمه لغة السوق، ومنطق السوق، تتحول فيه دراسة الاحتياجات النفسية، إلى مدخل لفهم المشاعر، وتحريكها نحو هدف البائع، والتركيز على معرفة طرق تفكير الناس وما يجذبهم. فإذا كانت القيمة الاجتماعية محركا أساسيا للإنسان أمام الآخرين؛ يصير المدخل هو كيف يتم دفعه لاستهلاك مال أكثر، مقابل تحصيل تلك القيمة، التي قد تكون في امتلاك نوع من البيوت، أو السيارات، أو غير ذلك من مظاهر الحياة .. إن المهم هنا هو التسويق ذاته كفن وعلم، وليس المنتج في حد ذاته، الذي قد يكون ضعيفا أو رديئا. إذ المهم هو طريقة التسويق، وكسب المداخل الفعالة لتحريك الإنسان نحو أهداف ربحية

محددة، وهو ما ساهم في انتشار ظاهرة (الإعلانات الإشهارية)، و ربط تحسن جودة الحياة ونمطها بمدى تطوير الفعالية الإنتاجية للفرد و تحقيق المداخل المالية. وقد صار هذا النمط المادي في الحياة، هو الأساس في إرساء "علاقات ناجحة" و إنتاج "تواصل فعال"، ومن الأمثلة الشاهدة على ذلك كتاب { كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس } والذي يعبر من خلال عنوانه فقط؛ عن نوعية الاهتمام الذي صار لافتا في السياق الاجتماعي، وعن الحاجة التي يتطلع إليها الإنسان في المجتمع الغربي، فقد وضع فيه المؤلف ما اعتبره قواعد أساسية لكسب الأصدقاء والتأثير فيهم تبدأ بعدم الانتقاد لهم ثم التعرف عما يحركهم و التكلم عما يحبونه، والاجتهاد قدر الإمكان في تقديم الابتسامة "الحقيقية" وتحسيس الطرف الآخر بأنك منبهر به وبإمكاناته ومواهبه... و في المحصلة؛ تعطى الأهمية لهذه الأساليب ذات النزعة البراغماتية في الحكم على حسن التواصل والتأثير في الآخرين من عدمه.

وقد عكست المواصفات المادية في صوغ مقاييس معادلات الحياة الناجحة والفعالة حالة من عدم التوازن في الحياة الغربية، فحياة الرفاه التي كانت تمثل مطمحا غائيا لدى الكثيرين، ووعدا من وعود التنمية البشرية أصبحت سرايا بحكم الوقائع المكشوفة على محك الحياة. يؤشر على ذلك تزايد انتشار مرض الاكتئاب بإيقاع متسارع، يرى من خلاله الاتحاد العالمي للصحة النفسية أنه سيتحول إلى المرض الأول في العالم بحلول عام 2030.¹ وتزداد خطورة هذا المرض في ارتفاع نسبة علاقته بالانتحار وفق منظمة الصحة العالمية. إذ يعتبر مرض العصر الحديث، ولطالما كان اللجوء في معالجته إلى العقاقير الكيميائية باعتبار المرض ناتجا عن خلل في توازنات الجسم الكيميائية، وذلك تبعا للتوجه الوضعي الذي يحلل الإنسان كمادة، يقتضي فقط التعرف على نسب الهرمونات في الجسم وتزويد الناقص منها عبر العقاقير.

في دراسة حديثة صدرت عام 2018، بعنوان (اتصالات مفقودة: كشف الأسباب الحقيقية التسعة للاكتئاب وحلولها غير المتوقعة)² انتقد فيها المؤلف التفسير الكيميائي

¹Depression : A Global Crisis, world mental health day, october,10,2012. www.Wfmh.org

² Johan, hari, lost connexions : uncovering the real causes of depression and the unexpected solutions,

لأمراض العصر النفسية الذي يقوم على تشخيص نسب الهرمونات، واستعادة توازنها في الجسم عبر الزيادة أو النقص فيها باستعمال عقاقير مناسبة لذلك. وبدلاً من ذلك قدم الكاتب تسعة أسباب؛ جعل الحل الكيميائي في آخرها، معتبراً أن هذا النوع هو أسهل أنواع الاكتئاب. و أما الأسباب الأكثر أهمية فيراها المؤلف ملخصة في كلمة انقطاع الصلة أو فقد الصلة. وتبدأ بالانقطاع عن العمل المثمر حين يشعر الإنسان أنه لا يعمل عملاً ذا قيمة، ويعطي أمثلة ببعض الدراسات الميدانية التي تثبت عدم شعور ما يقارب 90% في الغرب بقيمة ما يعملون. كما يشير الكاتب إلى سبب آخر وهو الانقطاع عن العلاقات المهمة في الحياة، ويقصد بها علاقات الآباء بالأبناء وعلاقات الأزواج فيما بينهم وعلاقات الإخوة.. مما يؤدي إلى الشعور بالوحدة التي تعتبر من أكبر أسباب الاكتئاب والضغط النفسي. كما يضيف الكاتب سبباً من أسباب الاكتئاب وهو الانقطاع عن الأهداف، حين لا يجد المرء معنى لحياته بما في ذلك زواجه أو عمله.. وتتأكد صحة هذا التحليل بما لوحظ في حياة المشاهير الذين وصلوا إلى مستويات كبيرة من المجد والشهرة؛ مع ما يرافق ذلك من مستوى عال في حياة الرفاه المادي، لكنهم مع ذلك، يكتئبون وكثير منهم يتعاطى المخدرات وبعضهم يقدم على الانتحار. كما و يشير أيضاً إلى نوع آخر من أنواع الانقطاع وهو الانقطاع عن الأمل في مستقبل مشرق فالخوف من تأمين مصدر الرزق في المستقبل، يشكل هاجساً كبيراً لدى الإنسان الغربي. لذلك ارتأى المؤلف أن يختم كتابه بموضوع الحلول الروحية، حيث دعا إلى ممارسة رياضات التأمل كنوع من الحلول الذاتية عبر جلسات الاسترخاء في ما يعرف بـ " meditation " .

إنه الحل ذاته الذي رأيناه سابقاً مع الراهب روبن شارما وغيره، ممن اكتشفوا خطأ ما هم عليه من نمط الحياة خلال تجاربهم الشخصية. وهو ما يعتبر عادياً وطبيعياً في غياب مرجعية خارجية متعالية تُظهر للإنسان حقيقته وتثير له معالم السير في الحياة. فلا يبقى من حل بالنسبة للإنسان الغربي، بالإضافة لما تقدمه له العلوم المادية سوى الاستفادة من تجاربه

الشخصية واكتشاف أخطائه من خلالها، وقد يحدث ذلك بعد فوات الأوان. ذلك ما وثقته الكاتبة الأسترالية "بروني وير" لدى من عاشوا حياتهم على ذلك المنوال، وبناتوا على أعتاب مغادرتها إلى العالم الآخر. ففي كتابها { خمسة أشياء يندم عليها الناس قبل الموت }، الذي ضمنته المؤلفة خلاصة عملها كمرضة لكبار السن في كل من لندن وأستراليا، احتكت فيه بهذه الفئة، ومعظمهم على فراش الموت، فاستمعت لأمنياتهم وندمهم على ما فعلوا وتمنياتهم لو عادوا لبدء الحياة، بالإضافة إلى النصائح التي كان يقدمها بعضهم لها بشكل مباشر، ثم دونت شهاداتهم وأصدرتها في هذا الكتاب. و تستمد تلك الشهادات قيمتها من اللحظة الزمنية التي قيلت فيها، لحظات الاحتضار التي تكون أدعى للصدق مع النفس والآخرين، حيث وجدت الكاتبة أن هناك مشتركا بين تلك الأمنيات والندم جمعتها في خمسة أفكار، تعتبر هي محاور الكتاب الرئيسة؛ و سوف نفتصر على ذكر اثنين منها لتوضيح نوع المراجعة الخاصة بنمط الحياة، فبخصوص السبب الأول تقول: (ومن أكثر أسباب الندم والدروس التي كان يبديها هؤلاء في أثناء جلوسي بجانب أسرته؛ الندم من عدم عيشهم الحياة التي أرادوها بالفعل. وأيضا، لقد كان ذلك الأمر هو ما يسبب الإحباط)¹. وأما السبب الثاني؛ فهو التمني لو لم يصرف الإنسان قدرا كبيرا من الجهد و الوقت في العمل بحثا عن مزيد من المال، مقابل ما كان يجب تخصيصه من وقت كاف للبيت والأسرة والاستمتاع بالحياة.

و السببان معا يمثلان نقد لاذعا - وإن كان نتيجة متأخرة بالنسبة لأصحابها - لنمط الحياة التي تحولت وفق المعايير المادية إلى نوع من القيود التي تربك حسابات الإنسان حول نوعية الحياة التي يرغب فيها، وتلك التي يتوقعها الآخرون. و غالبا ما يقع ضحية الاستسلام للبرمجة الجماعية لما عليه غالبية المجتمع في ذلك.

وبالرغم مما تم تسجيله من انتقادات لنمط الحياة، سواء في تلك التي توصل إليها الإنسان الغربي من خلال التجربة العملية كما سجلتها "بروني وير"، أو من خلال دراسات سيكولوجية و فكرية كتلك التي قام بها إيريك فروم في نقد الرؤية الغربية حول الإنسان و ما

¹ بروني وير، أهم خمسة أشياء يندم عليها المرء بعد الموت، ترجمة ونشر وتوزيع مكتبة جرير، ط2014، ص51-52.

قدمه "جون هاري" في تفسير مرض الاكتئاب.. فإن نمط الحياة الغربي هذا تحول في سياق العولمة الثقافية واستنادا إلى قيمة الإنجازات المادية الظاهرة إلى نموذج حياتي لمعظم شعوب العالم، تمثل فيه الرؤية الغربية الأمريكية بالخصوص ثم الأوروبية النموذج الحضاري الغالب في العصر الحديث، وهو نموذج مادي وضعي كما رأينا في جذوره ومظاهره. و تعتبر كتب التنمية البشرية في العقود الأخيرة من أبرز المداخل التي يتم عن طريقها تسويق ذلك النموذج الحياتي، بكل ما يتضمنه من معايير وقيم في النجاح والسعادة والحياة الفضلى...

الفصل الثاني

التنمية البشرية في الواقع العربي المعاصر وأسباب تعطيل المنهج القرآني

المبحث الأول: الواقع العربي المعاصر وإشكالية المنهج من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية

المطلب الأول : الواقع العربي المعاصر وأزمة المنهج في العلوم الإنسانية

ليس خفيا ما خلفته صدمة المسلمين إزاء الاستعمار الغربي الحديث، وما تكشف عنه ذلك الصدام من فوارق صارخة بين العرب والغرب على سلم العلم والحضارة.. وقد أخذت موجة الانبهار الأولى مداها لدى المثقفين من عالما العربي الإسلامي، وأحدثت ما يمكن لها أن تحدث من حالة الاستتباع الثقافي، والذي كان الأساس لكل استتباع بعد ذلك في السياسة والاقتصاد وغيرها. وكمثال على ذلك ، ما ذكره الدكتور "عبد الفتاح إمام" ملخصا راهن الواقع الثقافي العربي في التعاطي الاستهلاكي مع المدارس والمذاهب الفلسفية الغربية حيث قال: (شاع في ثقافتنا العربية أن الفلسفة المثالية - نظريا - أوهام وخيالات؛ وعمليا - رجعية ومحافضة؛ أما الفلسفة التجريبية- أو الوضعية أو المادية- فهي وحدها التي ترتبط بأرض الواقع الصلبة، وتساير التقدم والتطور)¹ وهو ما يعبر عن مدى سطوة المنهج الوضعي وامتداداته لدى مثقفينا في العالم العربي؛ مما يؤكد تقاوم أزمة المنهج عند المسلمين في العصر الحديث. إذ غالبا ما يتم استعمال المفاهيم الحضارية الغربية - ومنها مفهوم "المنهج العلمي" - استعمالا استهلاكيا يراعي التزام معاييرها وفق ما هي عليه في النسخة الأصل. أي أننا نكتفي بالخلاصات المتوصل إليها في سياقات تطور العلوم في التجربة الغربية، مع الاجتهاد في تنزيلها على واقعنا قدر الإمكان، دونما مراعاة للبعد النظري للمنهج و مساءلته، واختبار الجانب التطبيقي منه وافتحاص نجاعته. و كذلك النظر في صلاحية تعميمه خارج ثقافته المنتجة لمفاهيمه و أطره وآليات اشتغاله..

¹ هيجل، العقل في التاريخ، ج1، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 2007

فإذا كانت أزمة المنهج في العلوم الإنسانية الغربية ناتجة عن التفاعل مع التحولات التي شهدتها أوربا حول قضية العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وأدت إلى إعادة تصنيف العلوم كما رأينا، فإن الأزمة المنهجية لدينا صارت أكثر تعقيدا، وذلك حين عملنا على نقل تلك العلوم من بيئاتها إلى بيئتنا العربية والإسلامية من منطلق التبعية وفي إطار الهزيمة النفسية الحضارية للعرب والمسلمين أمام المشروع الغربي على كافة الصعد. ففي هذا الإطار، لا يمكن الحديث إلا عن ردود الفعل التي تباينت عمليا بين من يرى الحل في العمل على استيراد العلم، كما نستورد حاجياتنا من البضائع والأشياء، حتى يكون ذلك خطوة لإعادة توطينه في بلادنا، وذلك ما ثبت خطؤه من نواح عدة. وبين من يرى الانكفاء على الذات ورفض كل ما يأتي من الغير. وهو ما يلقي بالأمة العربية والإسلامية خارج دائرة الفعل الحضاري وخارج التاريخ. وأكثر المثقفين عاشوا حالة التذبذب بين الأمرين، سجلها بعضهم ضمن مخاضات تفكيره في الموازنة ومحاولة التوفيق بين ثقافتين غربية وشرقية، كما فعل زكي نجيب محمود في كتابه {عربي بين ثقافتين}، وعبر في مقدمته أن دراسته للثقافتين أدت به إلى مذاقين مختلفين لحياة الإنسان¹. وانتهت مثل هذه المحاولات غالبا بالتفريق في نقل المعارف الإنسانية ومناهجها، واستصنام نموذجيتها في النسخة الغربية، دون النظر في مشكلة الأنساق الحاكمة للعلم، من حيث مصادره، ومناهجه، والرؤية الكونية الشاملة المؤطرة لمفاهيمه وتصويراته. كما حاول البعض الآخر اعتماد أسلوب المقارنات أو المقاربات من أجل العمل على التوفيق والتقريب بين الأنساق الثقافية والرؤى الكلية، ولم يحقق هذا الأسلوب نتائج تذكر على المستوى العملي، اللهم ممارسة الشحن العاطفي للذات في سعي لاستعادة التوازن إزاء الآخر. بالنظر إلى الواقع الذي يعيشه الإنسان العربي المعاصر. في هذا السياق ظهرت مجموعة من الاجتهادات في إطار ردود الفعل، اتسمت في عمومها بالتخبط والاضطراب وما نود التنبيه إليه هنا؛ أن الاستيراد الثقافي والفكري غير الواعي في مجال العلوم الإنسانية، لا يعني في حقيقة الأمر، سوى استيراد نموذج الحياة الغربية

¹ محمود، زكي نجيب، عربي بين ثقافتين، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1993، ص6

المعاصرة، تبعا لنظرية ابن خلدون في ولع المغلوب بالغالب من جهة، وكذلك الوقوع في شرك الغزو الثقافي في سعي واضح لتنميط الحياة وفق "النموذج الغالب"، وتكريس ظاهرة الاستلاب الحضاري و التبعية للهيمنة الغربية من جهة أخرى. وهو ما يتطلب عدم الانسياق وراء موجة النقول والترجمات الهادفة إلى ترويج المعارف الجديدة لاعتبارات السبق أو المواكبة لكل جديد دون الأخذ بعين الاعتبار السياقات والفلسفات والمناهج، ودون الصدور عن رؤية حاكمة تعبر عن وعي بالذات وبالأخر.

وقد ثبت في مجال العلوم الإنسانية؛ استحالة الفصل بين الباحث وقيمه، ورؤيته للكون والإنسان والحياة. بل إن التحيز المعرفي يطال حتى العلوم الطبيعية كما بينته أعمال موسوعة التحيز التي حررها الدكتور عبد الوهاب المسيري، ومما جاء فيها (فالمعرفة العلمية: النفسية والاجتماعية، التي تستقى من مجتمع آخر ليست معرفة علمية إذا نقلت كما هي إلى مجتمعنا، ولا يتوقف ذلك على حدود النتائج، بل يتعدى ذلك إلى النظرية والمنهج، ففي علم النفس درج العلماء العرب على إعادة إنتاج الحقائق العلمية المكتشفة في الدول المتقدمة خاصة الغرب، فإذا أجريت دراسة ما في الغرب، فإننا نجد باحثا أو أكثر يقوم بإعادة الدراسة من خلال نفس المنهج ونفس الأدوات، وعندما يصل إلى نفس النتائج يعتبر ذلك دليلا لا يدخله الشك في عالمية الحقيقة النفسية)¹

ونحن نرى أن الوعي بظاهرة تحيز الرؤى الكونية، هو أولى خطوات تحقيق الوعي الذاتي الذي هو بالضرورة وعي منهجي.. إذ لا تخفى أهمية وضرورة الوعي بالظروف التاريخية والاجتماعية التي ساهمت في تشكيل الرؤية الكونية الغربية لكل مجالات الحياة ومجالات المعرفة وعلى رأسها العلوم الإنسانية، فهذه الأخيرة هي الأقرب إلى حمل جينات الرؤية الكونية التي أطرتها، بل هي أشد ما تكون تأثيرا في مجال مرتبط بالإنسان ارتباطا جوهريا كما هو الحال في علم النفس والتنمية البشرية بشكل خاص. ذلك أن الوعي بالظروف والسياقات التي نشأت خلالها المعارف والنظريات عموما، والنظريات الغربية

¹ رفيق حبيب، العلوم الاجتماعية بين التحديث والتغريب: نموذج علم النفس /دراسة ضمن موسوعة إشكالية التحيز محور علم النفس ص 30

بالخصوص، باعتبارها المهيمنة في الوقت الراهن، يساعد من جهة على فهم أعمق لتلك النظريات ومجالاتها وتطبيقاتها...ومن جهة أخرى، يمكن من الوقوف على إمكانات تعميمها من عدمه بعد انتقالها من حالة حضارية إلى أخرى مغايرة. خصوصاً وأن الحضارة الغربية المعاصرة تبشر بكونيتها اعتماداً على النتائج الإيجابية التي حققتها في مجالات العلوم الفيزيائية والتكنولوجية خاصة، وكذلك في مجال العلوم الإنسانية.

في عالمنا العربي الإسلامي، تشكلت أولى سمات الوعي المنهجي الإسلامي بداية من منتصف القرن الماضي، حين أبدى سيد قطب - رحمه الله - حاجته إلى وضع كتاب حول التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، فظهر ذلك العمل في كتابيه، {خصائص التصور الإسلامي ومقوماته} و {مقومات التصور الإسلامي} الذي نشر غير مكتمل بعد وفاته. وعبر الشيخ "محمود شاكر" عن الفكرة ذاتها بتعبير "ما قبل المنهج" ضمن كتابه {رسالة في الطريق إلى ثقافتنا}. وكذلك تحدث مالك بن نبي في بعض كتاباته وأهمها {مشكلات الحضارة}، وعلي شريعتي في كتابه {الإنسان في الإسلام} ومحمد أبو القاسم حاج حمد في كتابيه {المنهجية المعرفية القرآنية} و {العالمية الإسلامية الثانية} وغيرها من اجتهادات فردية هنا وهناك، رغم أهميتها إلا أنها لم تكتمل في مشروع مؤسسي إلا مع جماعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، التي بدأت نواتها بتأسيس جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1972م، بهدف صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية. كما أصدرت بعد ذلك مجلة "إسلامية المعرفة" للتعبير عن هذا التوجه¹. وقد أوضح الدكتور عبد الرحمن النقيب أن عام 1977 شهد معلمين بارزين في تاريخ مدرسة إسلامية المعرفة؛ الأول هو انعقاد المؤتمر العالمي الأول للتربية الإسلامية في مكة المكرمة بحضور علماء من معظم دول العالم الإسلامي وأقليته، وفيه تم تأكيد الخطوط الفكرية لمدرسة إسلامية المعرفة في مجال التربية. والثاني توجيه دعوة من جماعة إسلامية المعرفة إلى علماء الأمة لندوة عالمية للفكر الإسلامي في لوجانو بسويسرا بقصد الشورى في

¹ النقيب، عبد الرحمن، في مسيرة إسلامية المعرفة، دار السلام، القاهرة، ط2010، ص 51

أزمة الأمة والسبيل لتجاوز تلك الأزمة¹. وهكذا نجد تحولاً نوعياً في طريقة التعامل مع أزمة المنهج في العلوم الإنسانية، بنقلها إلى مستوى العمل الجماعي والمؤسساتي، انتهت بإنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام 1981 بولاية فرجينيا الأمريكية. ومنذ ذلك الحين تتالت أعمال المعهد في الصدور وتجميع الجهود في الوطن العربي والإسلامي نحو معالجة أزمة الفكر والمنهج في مشروع إسلامية المعرفة. وأصبحت أعمال المعهد العالمي للفكر الإسلامي تشكل علامة الوعي المنهجي العام بالأزمة الفكرية والمنهجية في العالم الإسلامي، بل إن المعهد جعل من أزمة المنهج أساساً لكل الأزمات التي يحاول معالجتها من محاور عدة، حيث التقت جهود باحثين معاصرين في العالم الإسلامي اليوم، في اعتبار المناهج المعرفية الغربية، ذات حمولات فلسفية مفارقة، وأحياناً مناقضة للبيئة الثقافية الإسلامية ونظامها المعرفي. ومن ثم، فإن عملية نقل المعارف ذات خطورة بالغة حين يراد استيرادها دون الأخذ بعين الاعتبار هذا البعد. لاسيما إذا كانت تلك العلوم وثيقة الصلة بحياة الإنسان على مستوى فهم مشاعره وسلوكياته وعلاقاته وتصرفاته و أسلوبه في الحياة مما يتأطر عموماً ضمن فلسفة المجتمع ورؤيته الكونية للدين والحياة والإنسان..

وفكرة إسلامية المعرفة أو التصور الإسلامي أو المذهبية الإسلامية.. تقوم في مجملها على استحالة استغناء الإنسان في حياته عن توجيهات الوحي الإلهي، خصوصاً وأن المنهج الوضعي المادي الذي سار في طريق إقصاء الدين انتهى إلى أزمات في الفكر والمنهج والحياة برزت معالمها في مقولات ما بعد الحداثة التي انتهت إلى تفكيك المسلمات والوقوف على حافة الهاوية². فقد انتهى كاتب موسوعة تاريخ الفكر الأوروبي إلى القول: (يتوجب علينا التسليم بالانحطاط المشهود في أوروبا المعاصرة. فالعالم الأوروبي، كما يبدو لنا قد استنزف تراثه الصالح للاستعمال في ظروفنا الحالية. ومن أعجب المفارقات أننا لا نعثر وسط تراث عريض الثراء كتراثنا على أي شيء يبعث الرضا في نفوسنا)³ كما انتهت أيضاً

¹ النقيب، عبد الرحمن ، المرجع نفسه 51-52 بتصرف

² انظر على سبيل المثال: موران، ادغار، هل نسير إلى الهاوية؟ ، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2012.

³ ستروميرج، رونالد، تاريخ الفكر الأوروبي، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، القاهرة، ط1994، 3، ص 659

إلى التوجه نحو نزوعات روحية باحثة عن "دين" بمواصفات خاصة سعيا للخروج من مآزق المنهج الوضعي كما تقدم.

وقد أدرك رواد مدرسة إسلامية المعرفة، أن بداية فهم أبعاد مشروعهم الفكري، تمر عبر كشف مآزق المنهج الغربي في العلوم الإنسانية، وفي ذلك يقول حاج حمد رحمه الله: (حالت النزعة الوضعية دون إيجاد الحلول لمآسي الإنسان وأزماته. فقد أدار هؤلاء ظهورهم لكل ما هو غيبي بوصفه غير مرئي وغير مدرك، ولكل ما هو ماورائي فوق الطبيعة لا يخضع للتجربة.

هؤلاء وكرد فعل على الاستلاب اللاهوتي الديني وتحت ضغطه وضعوا خلاص الإنسان في دائرة ذاته أو في دائرة الحتميات التاريخية الجدلية المادية، فالذين علقوا الخلاص الإنساني بتمركز الذات حول نفسها، لم يجدوا سوى الليبرالية إطارا لإطلاق حيويته وإشباعه خبزا وجنسا، فتأصلت الليبرالية بالفردية، وبررت الفردية بالنفعية وتأصلت النفعية بالنزعة العملية واتخذت الأدوات نهجا لها..¹

وفي السنوات الأخيرة الماضية؛ تضافرت كتابات كل من عبد الحميد أبو سليمان وفتحي حسن الملكاوي وطه جابر العلواني إضافة إلى الجهود العظيمة التي قدمها كل من الراحل اسماعيل راجي الفاروقي، والمفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد وغيرهم في إرساء اللبنة الأساسية لبناء مشروع إسلامية المعرفة، فما معالم هذا المشروع؟

يجيب الدكتور طه جابر العلواني - رحمه الله - في كتابه {إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر} عن سؤال : لماذا المناداة بإسلامية المعرفة؟ و مما جاء في جوابه: (وإصلاح مناهج الفكر، والعمل على إسلامية المعرفة، يشكلان القضية المحورية التي اضطلع "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" بتحمل مسؤوليتها والتبشير بها، معتقدا أنها قضية تطرح اليوم نفسها بقوة، ومؤمنا بكونها من أهم قواعد المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر المتكامل، المقترح بديلا عن المشروع

¹ أبو القاسم حاج حمد، محمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية: إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004، ص 360

الغربي؛ ذلك المشروع الذي أصاب أمتنا عنت شديد في سائر وجوه التعامل معه لمجافاته لعقيدة الأمة، وتجاهله معادلتها النفسية والاجتماعية، وتجاوزه شخصيتها الحضارية التاريخية¹. وقد شخص المعهد العالمي للفكر الإسلامي أزمة المعرفة في العالم الإسلامي في ثنائية نظام التعليم الذي يجمع بين المسارين التقليدي الديني والغربي اللاديني، وكذلك في الافتقار إلى الرؤية الصحيحة ولذلك صعب على الأمة الإسلامية الاستفادة من علوم الغرب لما تعكسه من رؤية تكاملية للعلم والمعرفة وارتباط بسياق التحولات التي شهدتها التجربة الأوروبية، يقول العلواني: (إن المواد والمناهج التي تدرس حالياً في العالم الإسلامي هي نسخ عن المواد والمناهج الغربية، لكنها تقتصر إلى الرؤية التي حركتها في الغرب)². كما يشير مشروع إسلامية المعرفة إلى قصور المنهجية التقليدية، وهي منهجية اعتماد علوم التراث بأسلوب الاستنساخ المتكرر لمضامينه، مما ينتج في الغالب نسخاً تراشئة رديئة. ولذلك فإن مهمة هذا المشروع تتلخص في دمج نظامي التعليم الإسلامي التقليدي والعلماني الحديث، والعمل على غرس الرؤية الإسلامية الصحيحة الموجهة لكل منهما.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم - إسلامية المعرفة - ليس موحدًا بين جميع الباحثين الذين يصدر عن مرجعية التصور الإسلامي، فقد انتشرت مفاهيم متجاوزة المعنى من قبيل المذهبية الإسلامية والتصور الإسلامي والنموذج التوحيدي... لكن الإشكال الأبرز ظهر في التشويش الذي أحدثه استعمال مفهوم التأصيل الإسلامي للعلوم من حيث غايته ومقاصده، كون كلمة التأصيل في حد ذاتها تعبر عن طريقة في البحث عن أصل لكل شيء أو علم... وهناك نزوع لدى العديد من أصحاب هذا التوجه، يجعل مهمتهم محصورة في البحث عن آيات وأحاديث وإصاقها لمنجزات العقل البشري الحديث، معتبرين ذلك غاية المطلوب في التعامل مع المناهج الوافدة؛ و أكثر ما ينشر حول قضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة من هذا الباب، الذي تسبب في رمي توجه "إسلامية المعرفة" كله بداء العصاب

¹ العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط2009، 5، ص30

² العلواني، طه جابر، إسلامية المعرفة: المبادئ الخطة الإنجازات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط1992، 2، ص36

والتمجيد المرضي للذات، في محاولة للتعويض عن النقص في مجالات العلوم المختلفة...
والحقيقة أنه ليس كذلك. ولذلك ارتأى المرحوم "أبو القاسم حاج حمد" أهمية التمييز بين
المفهومين: الإسلامية والتأصيل. فاتجاه التأصيل الإسلامي سلك مسلك ردة الفعل تجاه
الغرب، وهدف إلى إبراز السبق الإسلامي في ما وصل إليه الغرب، وفي سياق هذا العمل
جعل النصوص الإسلامية شواهد لما تم بناؤه من منظومات في علوم النفس والمجتمع. ورد
- رحمه الله - على هذا التوجه بقوله: (التوجه نحو القرآن يعطي كليانية المعرفة إطاراً
كونياً يستوعب ما هو قائم من علوم شتى المجالات بمنطق الوضعية الحداثية كما هي في
مضمونها المعرفي العلمي التفكيكي ثم يتجاوزها باتجاه الكونية خلافاً لمنطق التأصيل)¹

بعد هذا الملح التاريخي حول مشروع إسلامية المعرفة، نعود الآن إلى توضيح
المقصود بهذا المفهوم، ونختار من التعاريف ما ذهب إليه أبو القاسم حاج حمد الذي يقول:
((إسلامية المعرفة) عنوان مركب من (إسلامية) ومن (معرفة)، في حين أن (
الإسلامية) فيما يراها الناس (تخصيص ديني) في مقابل (معرفة) هي عامة غير قابلة
للتخصيص، وليس التخصيص الديني فقط، وإنما تتسع لعدد من المناهج وتستبطن العديد
من الأيديولوجيات. فتركيب المعرفة على الإسلامية يحمل تخصيصاً وتحديداً بوصف هذه
المعرفة الإسلامية مفارقة لغيرها على مستوى المناهج الأخرى فهل يمكن مصادرة الإنتاج
البشري العام لصالح معرفة خاصة؟!)

قد تمت مصادرة المعرفة العامة بأشكال مختلفة لما هو خاص. فهناك المعرفة المادية
الجدلية التي تأسست على فلسفة العلوم الطبيعية باعتبارها تطوراً مادياً جدلياً للمدارس
الوضعية الكلاسيكية. فما أن نبدأ بالوضعية كنهج مفارق للتفكير الديني أياً كانت طبيعة
التفكير الديني حتى نتطور لزومياً باتجاه فلسفة العلوم الطبيعية وبنهاياتها المادية. ويعتبر

¹ حاج حمد، محمد أبو القاسم ، المرجع نفسه، ص 76

ذلك أيضاً من أشكال تطور (العقل الطبيعي) الذي أحدث أول طلاق مع العقل اللاهوتي، ومهد للمدارس الوضعية)¹

إن مشروع إسلامية المعرفة يعالج إشكالية مركبة متعلقة بالمعرفة الإنسانية عموماً؛ وبالعلوم الإنسانية خصوصاً، وهي إشكالية أحد أجزائها الرئيسة أصولها في المنهج الغربي حيث السيادة للمنهج الوضعي في تأطير تلك العلوم، ولذلك صارت - إسلامية المعرفة - تعرف مشروعها هذا بأنه (فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الفلسفية الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف هذه العلوم ضمن ناظم منهجي ومعرفي ديني - غير وضعي)² ، وقد وجه حاج حمد سهام نقده للمنهج الوضعي مخطئاً تصنيف "أوغست كونت" بكونه يعتمد "نمطية التفكير" بدلاً من "تطور التفكير"، بالإضافة إلى عدم تمييزه في تصنيفه للمرحلة اللاهوتية بين النص الإلهي في "مطلقه" والتزييف التراثي البشري لتلك النصوص³. وينتهي حاج حمد إلى أن (إسلامية المعرفة هي التعبير المرادف للرؤية الفلسفية "التوحيدية الكونية" في مقابل الرؤية "اللاهوتية" الدينية وكذلك "الوضعية العدمية")⁴. وأما الوجه الثاني للإشكالية التي تعالجها إسلامية المعرفة فهو الكشف عن قصور المنهجية التقليدية الإسلامية التراثية، ومحاولة معالجتها عبر فتح بوابة إعادة التفكير في منهج التعامل مع القرآن والسنة ومع الإنتاج التراثي الإسلامي عموماً. فيتضح أن "إسلامية المعرفة" مشروع يقوم على قراءة للفكر الإسلامي المعاصر ورصد أزماته المتمثلة في عدم صلاحية كل من المنهج الغربي الوضعي والمنهج التراثي التقليدي في إيجاد حلول لمآزق المسلم في العصر الحديث، وذلك بسبب غياب الرؤية التوحيدية الكلية أو الرؤية الكونية. وأن الجهود ينبغي أن تصب في مجرى كشف قصور المنهجيتين التراثية والوضعية، والعمل على بلورة الرؤية التوحيدية، لذلك نجد من يصف هذا المشروع مرة بالرؤية كما هو الحال مع الدكتور أبو بكر محمد أحمد إبراهيم إذ يقول: (يمكننا وصف إسلامية المعرفة بأنها (رؤية) لجهد فكري

¹ أبو القاسم حاج حمد، محمد، إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية، موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، فئة مقالات

² أبو القاسم حاج حمد، محمد، منهجية القرآن المعرفية، دار الساقى، بيروت، ط2013، 1، ص41

³ أبو القاسم حاج حمد، محمد، إبستمولوجية المعرفة الكونية، ص42

⁴ أبو القاسم حاج حمد، محمد، المرجع نفسه، ص 52

منظم غايته ابتداءً منهج نقدي تحليلي تركيبي يعمل على تطوير منظور توحيدي تصدر عنه كل العلوم والمعارف)¹، وأحياناً أخرى يعبر عن المشروع بـ "المنهج" كما استخدمه الدكتور طه جابر العلواني غالباً في كتاباته كما ألعنا لذلك من قبل، ومن تعريفاته : (ف "إسلامية المعرفة" - إذن - : منهج معرفي محدد المعالم واضح القسماٲ، ويمثل بديلاً للمادية والوضعية المتجاهلة لله وللغيب من ناحية، كما يمثل بديلاً عن اللاهوتية والكهوتية المستلبة للإنسان والطبيعة من ناحية أخرى)²

تتطلب هذه المنهجية في إسلامية المعرفة تحقيق أمرين متلازمين، هما: الاستيعاب والتجاوز. ويرى رواد هذا المشروع أن التجاوز إمكانية قائمة بوجود القرآن الكريم مصدر الرؤية الكونية القادرة على فعل التجاوز، ولكن قبلها، ينبغي على المسلم المعاصر استيعاب منجزات العقل الغربي المعاصر، باعتباره قائد المسيرة الحضارية اليوم وما تحمله من منجزات التاريخ الحضاري الحديث، وكذلك استيعاب ما أنجزه الموروث الإسلامي الذي يفترض أنه تعامل مع القرآن واستمد منه في تجربة تاريخية سابقة. الأمر الذي يتطلب جهوداً ضخمة ومكثفة ومتعددة بتعدد وتنوع مجالات المعرفة الإنسانية. وهو ما يستحق البذل، ويعد بخصوبة المنتج وغناه في ظل استعادة القرآن الكريم تأطيره للحياة الإنسانية. لذلك، يرى حاج حمد أن (جهد إسلامية المعرفة لا زال ناشئاً ويتفرع إلى كل العلوم ليرتقي بها من "الوضعية" إلى "الكونية" وهذه الرؤية الكونية هي بديل اللاهوت والوضعية معاً، ولها ضوابطها التي تخرجها من الإطار الميتافيزيقي للتفكير وفق منهجية قرآنية علمية مفتوحة على كافة المناهج المعرفية والأنساق الحضارية البشرية، ومن هنا تأتي قيمة القرآن ككتاب كوني يتسع لكل المناهج، وقيمة الإسلام كدين عالمي ليستوعب التعدد والتنوع)³

هكذا عملت المحاولات الأولى لمشروع إسلامية المعرفة على التأسيس لوعي منهجي في الفكر الإسلامي المعاصر، وعي يعبر عن إدراك واستيعاب للواقع الحالي، ويمتلك الرؤية

¹ أبو بكر محمد، أحمد محمد إبراهيم، التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2007، ص 120.

² العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط5، 2009، ص 107.

³ حاج حمد، المرجع نفسه، ص 89

الكونية الصحيحة لتغييره وترشيده بما يحقق إنسانية الإنسان انطلاقاً من القرآن باعتبارها المرجعية الوحيدة القادرة على استيعاب نتائج المنهجية العلمية المعاصرة وإخراجها من أزماتها وترقيتها نحو نهاياتها الكونية. لذلك تتحو كتابات مشروع إسلامية المعرفة نحو اعتبار هذا المشروع بديلاً كونياً ليس للمسلمين فقط، وإنما للبشرية جمعاء، يقول طه جابر العلواني: (أزمة المنهج تهدد إنجازات البشرية بالمصادرة والتراجع والدمار؛ ولذلك فإن هذه الأزمة الكونية القائمة على "كونية المنهج" لا يمكن الخروج منها، وإنقاذ المنهج العلمي من إشكالاتها إلا بكتاب كوني يستوعب التفكير، وينطلق في مجالات إعادة التركيب)¹.

وقد قادت جهود مشروع إسلامية المعرفة إلى القول بفكرة التكامل المعرفي، التي تفرضها ضرورات من بينها؛ ازدواجية النظام التعليمي في البلدان العربية الإسلامية، وما يحدثه من تأثير على شخصية لمسلم وعقله وفكره ونمط حياته؛ وكذلك خطر العلمانية والتغريب على الثقافة الإسلامية، بالإضافة إلى قصور المنهجية التقليدية للتراث الإسلامي في المجالات الاجتماعية².

¹ العلواني، طه جابر، معالم المنهج القرآني، مرجع سابق، ص23
² أبو بكر محمد، أحمد محمد إبراهيم، التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2007، ص 120.
(بتصرف)

لا شك أن الواقع الذي يعيشه الإنسان العربي اليوم، مأزوم من نواح عدة، فهو يعرف انحطاطا وتدنيا في مختلف المجالات الحياتية، مما يستدعي أكثر من أي وقت مضى استنفار طاقاته، الجماعية والفردية، لمباشرة عمليات إنقاذ، باتت ملحة مع مرور الزمن. و غني عن البيان، أن العالم العربي المعاصر، ظل منذ عقود يقف على الحلول الأجنبية الخارجية لمعظم أزماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية وغيرها.. أما في موضوع التنمية البشرية، فقد كان لافتا للانتباه، مدى الافتتان الذي افتنن بها الناس في مجتمعاتنا، وذلك بسبب الحاجة الملحة لثقافة الحياة المعاصرة وأساليبها وتقنياتها، وبسبب الفراغ الحاصل في بيئتنا الثقافية من موضوعات فن الحياة والنجاح والسعادة... إلخ. ما يجعل استيرادنا - نحن الشعوب المستهلكة - في هذا الباب، يكاد يكون استيرادا كاملا لنمط الحياة الغربي.... فقد رصدنا انتشارا واسعا لأدبيات التنمية البشرية في وطننا العربي، خلال العقدين الأخيرين خاصة، ليس فقط على مستوى الكتب التي تسجل أعلى نسب من المبيعات، في معظم البلاد العربية في السنوات الأخيرة¹. وإنما، أيضا؛ على مستوى الإقبال الكبير الذي تشهده دورات التنمية البشرية في واقعنا الحالي، سواء في المؤسسات العمومية والخاصة، أوفي الفنادق ودور الشباب، لاسيما وأن موضوعات التنمية البشرية، تجتذب فئات عديدة من الطامحين إلى الانخراط الفعال في نمط الحياة المعاصرة، وما تقتضيه من امتلاك للمهارات اللازمة لتحقيق النجاح في مجالات الحياة المختلفة؛ الدراسية والأسرية والمهنية... و ما يتطلبه ذلك من اكتساب مهارات الثقة في النفس، وحسن التخطيط، وبناء الهدفية في الحياة، وإتقان فنون التواصل مع الذات والعالم الخارجي، وغير ذلك، مما يتم تبسيطه بشكل عملي عبر دورات تدريبية، يتم تسويقها في الغالب بمبالغ مالية مرتفعة، وما تزال تعتبر إلى يومنا هذا تجارة رائجة.

¹ ففي معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب لعام 2017 ذكر تقرير مجلة هسبريس عن أفضل الكتب مبيعا (أجمع أغلب الناشرين الذين تحدثت إليهم "هسبريس" على أن الكتب التي عليها إقبال لا تخرج عن فئة الروايات والمصحف الشريف بالإضافة إلى كتب التنمية الذاتية).
<https://www.hespress.com/art-et-culture/339630.html>

كما اكتسبت التنمية البشرية جاذبية خاصة في حياة المسلمين اليوم، من خلال دخولها إلى البيوت عبر البرامج التلفزيونية وشبكة الانترنت، وشكلت وصفاتها المقدمة نوعاً من الخلاص أو الإنقاذ لمواطن عربي عاش منذ الاستعمار الحديث إشكالية التقاطب الثنائي بين الموروث التقليدي و الحداثة المعاصرة؛ وهي الإشكالية التي يُكرسها نظامه التربوي والتعليمي المزدوج، وتتجلى بوضوح في مخرجاته الحالية؛ إنساناً فاقداً للبوصلة، غير قادر على الانسجام مع هويته الموروثة ولا الاندماج في منظومة عصره بفعالية؟ فوجد في هذا السيل المتدفق، من أدبيات التنمية البشرية ونشاطاتها التدريبية، ما يخاطب حاجاته النفسية، واهتماماته الحاضرة، ويقدم له حلولاً عملية، مقرونة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية في الغالب الأعم. و يلبي على العموم تطلعاته في الحياة. وهو ما لم يجده في الخطاب الديني السائد غالباً. ومما زاد الطين بلة، دخول فئات من الدعاة المسلمين في هذا المجال، والمساهمة في ترويجهِ. بعدما لمسوا أهمية بعض المهارات في التنمية البشرية، وانعكاساتها المباشرة في الحياة، في ظل ما يقدمون من خطاب ديني يكاد يكون عقيماً، فتحوّلت دروس بعضهم أحياناً إلى ما يشبه دورات في التنمية البشرية. وذلك من منطلق الحكمة ضالة المؤمن.

وفي هذا الإطار، ساهم دعاة إسلاميون في الترويج للتنمية البشرية. و سجلت إصدارات كتب بعضهم الحديثة، تسلل مفاهيم ومفردات التنمية البشرية إلى خطابهم الدعوي، من قبيل كتاب (لا تحزن) للداعية "عائض القرني"، الذي يعتبر محاكاة لكتاب { دع القلق وابدأ الحياة } المشهور للأمريكي "ديل كارنيجي". ول "عائض القرني" كتاب آخر بعنوان: { حتى تكون أسعد الناس }. وللداعية "عبدالرحمن العريفي" كتاباً بعنوان: { استمتع بحياتك: مهارات وفنون التعامل مع الناس في ظل السيرة النبوية }، وهو في هذا الكتاب يصرح بإعجابه وتأثره الكبير بكتاب (فن التعامل مع الناس) ل "ديل كارنيجي"، فكتب كتابه هذا على نفس المنوال، استبدل فيه نماذج الشخصيات التي يعرضها "ديل كارنيجي"، بنماذج من السلف الصالح. وغير هؤلاء كثير، حاولوا إيجاد بيئة تعشيشية للتنمية البشرية، اعتماداً على

نصوص الشريعة الإسلامية، وما يتطلبه ذلك من استدعاء الشخصيات التاريخية الإسلامية، بديلا عن قصص الناجحين في الحياة المادية الغربية، وأحيانا يتم الجمع بين هؤلاء وأولئك.

ومن جهة أخرى، لمس متخصصوا التنمية البشرية في وطننا العربي، أهمية الدين في حياة المسلمين، فأكثرنا من عملية المزج بين النصوص الدينية من جهة، ومبادئ التنمية البشرية من جهة أخرى، حتى كادوا يكونون "دعاة". والحقيقة، أن تنمية حياة الإنسان كما بينا من قبل؛ أمر تناولته النصوص الدينية، مثلما تناولته المذاهب ومختلف الرؤى الفلسفية، وكان آخرها تلك التي ظهرت حديثا، وتجمعت تحت مسمى التنمية البشرية. غير أن النهج الذي تم استخدامه في التعاطي معها في وطننا العربي، دون مراعاة مرجعية الرؤية الكونية التي تنطلق منها، أحدث خلطا ولبسا، ما يزال تأثيره واضحا وقائما إلى اليوم. نهج ساهم في فتح بوابة واسعة للتنمية البشرية في الوطن العربي الإسلامي، ولم يقتصر النقل على مضامينها المتنوعة فقط، بل شمل ذلك أيضا؛ أساليب تسويقها التجارية.

نعم، لقد وجدت بعض الاعتراضات على التنمية البشرية، خصوصا "البرمجة اللغوية العصبية"، من طرف بعض الدعاة والمشايخ أمثال الشيخ القرضاوي، والباحثة في العقائد فوز الكردي والذين حذروا من التنمية البشرية وأساليبها من منطلق عقدي.. إلا أن الغالبية - كما رأينا - احتضنت وهلت للتنمية البشرية، معتمدة بدورها مرجعيات من النصوص الإسلامية لتدعيم مواقفها. ونحن لن نتوقف في هذا الصدد لمناقشة ردود الفعل، سواء المتجاوبة أو المعارضة من طرف الدعاة والمشايخ. ولكننا سنهتم أكثر بالمختصين الرواد الذين بادروا بإدخال التنمية البشرية إلى العالم العربي، وساهموا في نشرها على أوسع نطاق، ومن أهمهم على الإطلاق، الدكتور ابراهيم الفقي والدكتور صلاح صالح الراشد. وسيكون رصدنا لأعمال هذين الرجلين من زاوية المنهج باعتباره محددًا أساسيًا في موضوعنا.

1- تبينة التنمية البشرية من خلال تجربة الدكتور صالح الراشد

الدكتور صلاح صالح الراشد نموذج لدعاة التنمية البشرية في الوطن العربي، فهو من أوائل الذين قاموا بنقل التنمية البشرية إلى البلاد العربية، ابتداء من الاهتمام بمهارات التطوير الشخصي من أجل النجاح، والتركيز في ذلك على تقنيات وأساليب تطوير المهارات الشخصية، وانتهاء بالتبشير بفلسفاتها ورؤاها الوجودية، بل والاستماتة في المنافحة عنها. وللدكتور صلاح الراشد كتب عدة سوف نقصر الحديث على اثنين من أبرزها وأكثرها شهرة، وهما: كتاب {كيف تخطط لحياتك} وكتاب {قانون الجذب}.

في كتابه {كيف تخطط لحياتك}، صدر الراشد أول صفحة فيه بعبارة (لو لم تقرأ إلا كتابا واحدا في الألفية فاقراً هذا الكتاب) وذيل العنوان بما يلي : أروع وأقوى برنامج عملي في اكتشاف معنى الحياة والشعور بالذات.. ستضع خلال قراءة هذا الكتاب : - رسالتك في الحياة - مخطط الدنيا والآخرة - مخطط ل 500 سنة - مخطط حياتك كلها - مخطط العشرين سنة - الخطة الخمسية - الخطة السنوية - المتابعات الأسبوعية واليومية.¹

يظهر الملمح التسويقي الكبير واضحاً وجلياً على أول صفحة من هذا الكتاب، وهو في ذلك يبين مدى درجة القناعة بالنموذج الكلي الذي ينقله من الغرب، إلى درجة المتابعة والتقليد لطرقهم التسويقية التي هي عادة الكتب الغربية التي تتنافس في نسب المبيعات. وقد يعتقد البعض ممن لا يعرف الدكتور صلاح بناء على هذا الكلام، أنه من فئة السطحين الذين تتاسلوا في هذا المجال، وأكثروا فيه من الادعاء والأباطيل. والحقيقة أن ذلك غير صحيح بالنسبة لكاتبنا، فهو يعتبر من المتخصصين النادرين الذين قدموا اجتهادات مميزة ورائدة في الوطن العربي في هذا التخصص، وله في ذلك إسهامات لا تنكر، ضف إلى ذلك الالتزام بقضايا الأمة في مشاريعه التنموية، التي حرص من خلالها كما يذكر في رسالته الشخصية ضمن الكتاب نفسه، على إسعاد الآخرين والتأثير فيهم. وهو في كل ذلك ينطلق من خلفية علمية وتحصيل في هذا المجال يحظى بالتقدير. إلا أن ذلك، لا يحول

¹ صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك، مركز الراشد، الكويت، 2004، ص1

دون إبداء ملاحظات نقدية لا سيما على مستوى المنهج، موضوع اهتمامنا في هذا البحث. وأهم ملاحظة تثير استغراب من يقرأ هذا التصدير؛ اعتبار الكتاب مرجعا لوضع ما أسماه " مخطط الدنيا والآخرة"، فالأكيد أن هذا القول من إبداعات الكاتب التي لم يتابع فيها الكتب الغربية التي غالبا ما لا تتحدث عن الآخرة في هذا المجال، لكنه يبقى دعوى عريضة وغريبة.. وهي جدا غريبة ممن يحمل خلفية ثقافية إسلامية. فأى اجتهاد بشري هذا الذي يملك أن يقدم لنا مخططا عن الدنيا والآخرة!!

وبعد أن جعل الدكتور صلاح الراشد الآية القرآنية { وَلْتَنْتَظِرْ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } [الحشر: 18] عنوانا لمقدمته، استهل هذه المقدمة بمعلومات عن دراسة أمريكية أعدتها جامعة أمريكية عام 1970، وفيها أنهم (سألوا 100 طالب عن خططهم في المستقبل وما إذا كانت لديهم خططا واضحة، ثلاثة فقط من المئة أجابوا بالتفاصيل عن خططهم المستقبلية، البقية لم يعرفوا ما الذي يريدون تحقيقه بعد...بعد 20 سنة قامت الجامعة بالبحث عن المائة طالب فوجدت الثلاثة هؤلاء يملكون أكثر من 90 بالمائة من ممتلكات المائة كلهم)¹

وواضح أن الرسالة التي يريد الدكتور الراشد إيصالها من خلال معلومات الدراسة الأمريكية، هي أهمية التخطيط في الحياة. وأن التخطيط يكون فعالا كلما كان مكتوبا وواضحا، وقد بين ذلك بتعقيبه المباشر عليها : (إن التخطيط أهم سر في نجاح الناجحين في الدنيا)² . والسؤال هنا، عن أي معيار من معايير النجاح يتحدث الدكتور صلاح؟ وهل زيادة نسبة التملك كما تخبر الدراسة مقياس كاف للحكم بنجاح 3%؟، حتى لو كان ذلك مرتبطا بالدنيا فقط، مع أن هذا الفصل ذاته بين الناجحين في الدنيا وغيرهم يطرح أكثر من علامة استفهام بخصوص النموذج المراد تقديمه. ثم إلى أي حد يمكن تعميم هذا النوع من مفاهيم النجاح، نقول هذا، ونحن نعي أهمية استبطان النماذج، وتمرير نمطية السلوك، من خلال معطيات الدراسات والقصص و الأمثال ...لاسيما وأن الكاتب يستعمل نفس القاموس

¹ صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك؟ ص7

² صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك؟ ص7

الثقافي الأمريكي حين يعتبر التخطيط (سرا)، في ثقافة درجت على تسويق المعلومات بالمقابل، وسخرت من أجل ذلك، كل الأساليب الدعائية، على رأسها فكرة (أسرار النجاح). فهل يكفي البدء بآية قرآنية لتبيئة هذه المفاهيم ضمن الثقافة الإسلامية؟!

في ذات المقدمة يقول الدكتور الراشد: (سوف آخذك في جولة روحانية نفسية عقلية وخيالية وخطوة خطوة تنتهي فيها بوضع رسالتك ورؤيتك في الحياة الآخرة والحياة الدنيا بإذن الله. إن هذه المادة قد لا تجد لها مثيلا اليوم البتة.) العبارة الأخيرة تؤكد - كما سبق القول - استلاب الكاتب في القالب التسويقي الغربي للتنمية البشرية تماما، ولكن الذي يعنينا في النص ظهور مفهومين أساسيين سيشكلان محور الكتاب بعد ذلك؛ وهما: مفهوم الرؤية ومفهوم الرسالة. حيث جاء الفصل الأول بعد تلك المقدمة بعنوان: ما الرسالة ؟ وما الرؤية؟

يقدم الدكتور صلاح تعريفا للمفهومين، انطلاقا من الثقافة المنتجة لهما، مع إرفاقهما بالمقابل لهما في اللغة الإنجليزية: الرسالة (mission) والرؤية (vision)، دون أن ينسى الإشارة في الهامش لتعريف هذه المفاهيم في المعاجم والقواميس العربية. ولكن، في غياب أي جهد في التحليل اللغوي الذي يمكن على أساسه تجسير معنى الدلالة بين ما تعنيه في أصولها الثقافية وبين الثقافة المحمولة إليها. ففي تعريف الرؤية، قال: (هي النتيجة النهائية التي تسعى شخصيا لصنعها..)¹ ثم استدل لهذا المفهوم بعد ذلك بقوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [الفتح: 27] " وقوله سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف: 100] وفي تعريفه للرسالة ، قال : (هي ما تود أن تسير عليه في الحياة)²، واستدل له أيضا بقوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: 79] وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67]

¹ صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك؟ ص13،
² صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك؟ ص13

واضح أن الدكتور صلاح يتبنى مرجعية المفاهيم الغربية، ويحاول تطويع النصوص القرآنية لملاءمتها بطريقة لا تخلو من تعسف. و غني عن البيان، أهمية المفاهيم والمصطلحات في تشكيل الثقافة المجتمعية أو التعبير عن الوعي الجمعي لثقافة ما، وهذا ينعكس على المنهج ككل، خصوصا إذا تعلق الأمر بموضوع على هذه الدرجة من الخطورة، موضوع يرتبط بمنهج الحياة.

يتأكد ذلك، حين نجد صاحب الكتاب، يقدم استراتيجية لاكتشاف رسالة الحياة. وهي استراتيجية تقوم على اختيار هدف مرحلي بسيط، يتعلق بأسبوع أو شهر، ومن ثم التساؤل عما يحققه لك ذلك من غاية أكبر، ثم تتسلسل الأهداف بحسب طول المدد الزمنية وتكبر الغايات من خلالها وصولا إلى ما يسميه "الحالة الجوهرية"، التي يكتشف الإنسان من خلالها رسالته في الحياة عبر أسلوب الغايات المتكررة. بعد ذلك يقدم ثلاث ملاحظات لجعل الرسالة مكتملة، ثم يعقب بالقول: (ملاحظة أخيرة في إضافة الغاية الكبرى، وهي أننا كمؤمنين غايتنا الكبرى رضا الله تعالى عنا، فبإمكانك أن تضيف في بداية رسالتك "إرضاء الله"¹

لقد أخذ الدكتور صلاح المنهج الغربي كاملا، كما أنتجته حضارة يغلب عليها الطابع المادي، وبعد أن ألبسه رداء الآيات القرآنية كما رأينا في مفهومي الرؤية والرسالة، أسقطه على مجتمعات ذات بنية ثقافية مختلفة، ثم أراد أن يكمل بما يعتبر جوهر الثقافة الإسلامية، فجعل ما يعتبر غاية كبرى عند المؤمنين - باعتراه - مجرد إضافة، والأدهى أن يأتي ذلك ضمن ملاحظة أخيرة. ومعنى ذلك؛ أن الراشد يقول لنا: لنخطط لحياتنا كما شئنا اعتمادا على طريقته في وضع الرؤية واكتشاف الرسالة في الحياة. وبعد الانتهاء، نضيف في بداية الرسالة "إرضاء الله" لتتضاف معطيات رؤيتين كونيتين مختلفتين ضمن نموذج الدكتور الراشد لوضع رسالة في الحياة.

¹ صلاح صالح الراشد، كيف تخطط لحياتك؟ ص 37

ويا له من سلم مقلوب، إن الأصل في إدراك المسلم رسالته في الحياة، أن يفهم رسالة ربه أولاً، فهي التي من خلالها يدرك الغاية الكبرى لوجوده. فتكون هذه الغاية هي الأصل، الذي ينبغي أن تشتق منه رسالة المسلم في الحياة، فتتنوع أنشطته ومهامه في الحياة وهي مشدودة إلى أصل واحد قوي. لذلك كانت عقيدة التوحيد محور رسالة الإسلام، والمظلة التي يفترض أن تظل نشاطات المسلم في الحياة.

بعد ست سنوات، أصدر الدكتور صلاح الراشد كتابه المثير للجدل، تحت عنوان: { قانون الجذب: النظرية والتطبيق لأخطر قانون كوني - كيف تجذب ما تريد لحياتك}. ذلك أن التنمية البشرية في بيئتها - الغربية/الأمريكية - كانت قد دخلت مرحلة من الافتتان إلى درجة الهوس برياضات اليوغا والاسترخاء meditation والحديث عن أسرار النفس البشرية، ويعتبر كتاب السر "the secret" المثير للجدل بدوره، عنوان هذه المرحلة.

ووفق منطق "رجع الصدى"، كان لا بد أن نرى في بيئتنا العربية والإسلامية صدى لتلك الموجة الجديدة، ذلك ما ظهر في كتاب الجذب الذي أخبر مؤلفه فيه، عن الهدف من تأليفه بقوله: (فأردت أن أضع الأسس العامة لهذا القانون، وأبين ملخصات ما خرجت به الدراسات الحديثة في هذه الفترة، وأبين ما يصح وما لا يصح عملياً، مما احتواه إصدار "the secret" دون تصريح بذلك حفظاً لمنزلة هذا العمل المتقن)¹

يدرك الدكتور صلاح، أن المجال الذي يدخله هذه المرة، مجال مثير لاستفهامات كثيرة، بسبب ما يطرحه من معلومات خطيرة ذات صلة وطيدة بالمجال الاعتقادي، لذلك فهو يبادر قارئه بدعوته إلى التركيز على فكرة التطبيق وأهميته، يقول: (لو حدثت إنساناً عن متعة الاسترخاء والتأمل، فسوف لن يفهمها حقاً ما لم يمارسها، بل قد تبدو شيئاً تافهاً، لأنه لا يعرف ولم يشعر بتلك المشاعر...إن التطبيق مسألة مهمة في التغيير الذاتي...المعرفة تقود إلى التطبيق، والتطبيق يقود إلى النتائج، لهذا السبب ابدأ بتطبيق القانون كما هو لترى

¹ صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب: النظرية والتطبيق لأخطر قانون كوني، كيف تجذب ما تريد لحياتك؟، مركز الراشد، الكويت، 2010، ص7

نتائج¹ ويضيف قائلاً: (كن ساذجا بمعنى الكلمة، في تلقي المعلومة والتطبيق، وعش هذا الكتاب بلحظاته، عش معه كأنك تقرأ سر الأسرار في فهم سير الدنيا في تحقيق ما تريده لك)²

إن القول بأسبقية التطبيق والممارسة على الفكرة ومدى صوابيتها، أمر خطير من حيث المنهج، فهو مدخل من المداخل التي تسربت منها معظم الاتجاهات المنحرفة في تاريخنا الإسلامي، لاسيما تلك التي قامت على تحصيل الأذواق والمواجيد. و"الراشد" يؤسس في هذا المدخل لنوع من التسليم القبلي واللامشروط لما سيطر عليه، إذ هو يدرك غرابة ما سيطرته بالنسبة للبيئة الثقافية الإسلامية ومرجعيتها الكونية. لذلك تراه يشدد على أن التجربة هي الفيصل في الأمر برمته. وهو في ذلك يتناقض مع توجهات مغايرة داخل مدارس التنمية البشرية نفسها، تقوم على أهمية ضرورة ممارسة التفكير كنشاط عقلي، بما في ذلك التفكير النقدي والإبداعي والتحليلي...

في الصفحة 22 من كتابه، يتحدث عما يقصده بكلمة "قانون"، وأن الله تعالى يسميه سنة، مستشهدا بقوله تعالى {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 62] ، وأن المقصود بالسنة هي الشيء المتكرر الثابت المطبق على الكل. وهو بذلك يقدم شرعية مسبقة لما يود التبشير به، باعتبار أن عنوانه هو : قانون الجذب، فهو وفقا لمقدمته هاته، يرقى ليكون سنة من سنن الله في الكون. وأما عن تعريفه لقانون الجذب، فيقول: (قانون الجذب ينص على أننا نحن نجتذب الأحداث التي في حياتنا، وأننا نجتذب إلينا ما نجتذب وفق تجاذب المتشابهات بعضها لبعض)³

لتوضيح ذلك يطرح المؤلف ثلاثة مستويات لتفكير العقل، أولها الواعي، والثاني هو العقل اللاواعي، ثم يأتي مستوى العقل اللاواعي العالي، وعن هذا المستوى الثالث من العقل يقول: (وهذا المستوى يعمل بارتباط مع الطاقات المحيطة بك، إن العمل هنا لا يقتصر

¹ صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب ص9

² صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب ص9

³ صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب ص12

على الداخل سواء كان واعيا أو باطنا، إنما يمتد للاتصال بما هو خارجك. إن الإلهام والأحلام والرؤى تعمل على هذا المستوى¹.

يفسر لنا هذا النص، لماذا كان الراشد يطلب من قارئ الكتاب أن يكون ساذجا، أو أن يتحلى بالسذاجة ويعتمد فقط على التجربة، فما يذكره هنا يشي بالغرابة والاستفهام، ولكنه حاول إسناد الفكرة بسرد ما اعتبره أدلة علمية على هذا القانون، وخلصها أن هناك طاقة في الكون، وأن هناك تأثيرا يمكن إحداثه في الآخرين عن طريق الاتصال الجيد بذرات الكون.

وحين تبدو تلك الأدلة غير مقنعة يلجأ إلى ما يعتبره أدلة شرعية، وذلك بالإشارة إلى أهمية الرؤى والأحلام في الكتب السماوية، والتحليل الفرويدي، ثم يعقب بالقول: (أهم ما في الأحلام هو صفاء النفس وقبول الاتصال في القدر، ومعرفة الماضي، أو الحاضر والمستقبل، من خلال المنامات، وقد يبدو الكلام في بداية الأمر مخالفا للعقيدة، لكنه ليس كذلك، فالآيات القرآنية والتوراتية والإنجيلية والأحاديث النبوية تتحدث عن ذلك بكثرة، وكتب التاريخ مليئة بقصص المنامات التي تحدثت عن حدث في الماضي أو أمر في المستقبل أو واقعة في الحاضر. إن هذا يعني أن الله يختار أناسا فيعطيهم هذه المعلومات في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، أو أن الله سن سننا وطرقا في كيفية الاتصال في هذا المصدر من نقل المعلومة)²

هكذا تستوي عند الدكتور صلاح الأدلة بين قرآن وتوراة وإنجيل وأحاديث نبوية، مما يعزز من ضبابية المنهج المعتمد لديه في بناء هذا الموضوع والإقناع به على مستوى مصادر المعرفة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا يلجأ الدكتور الراشد إلى مثل هذه الموضوعات الهلامية فيما يدعو إليه من تنمية بشرية. والجواب يتلخص في الاستلاب الحضاري والهزيمة النفسية التي تجعل من البعض في وطننا العربي، مهما علت درجاتهم

¹ صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب ص14

² صلاح الراشد، صالح، قانون الجذب ص 28

العلمية ومستوياتهم المعرفية، يقفون موقف التلميذ المجتهد في التقاط كل صيحة أو موضة ظهرت في الغرب، ليطير بها محلقا في آفاق مجتمعاتنا العربية، مع ما يكتنف ذلك الموقف من آفات نفسية ليس هنا مجال الخوض فيها. ولكن ما يظهر بكل وضوح في هذه التجربة هو تأكيد غياب وعي منهجي بموضوع التنمية البشرية.

2- تبينة التنمية البشرية من خلال تجربة الدكتور الدكتور ابراهيم الفقي

على نفس الشاكلة، مر الدكتور ابراهيم الفقي - رحمه الله - من مرحلتين، الأولى اعتنى فيها بالتبشير بالبرمجة اللغوية العصبية ومبادئها ومهاراتها وتقنياتها. أما الثانية، وبعد استهلاك المادة الأولى، باعتبارها ذات طابع تقني بالدرجة الأولى، فقد انتقل بدوره إلى التركيز على "الطاقة البشرية" و"الفلسفات الروحية" والعقائد المؤطرة لها، وهو ما يظهر أكثر وضوحا في كتابه { قوة الذكاء الروحي }.

يقدم الدكتور الفقي لهذا الكتاب بالقول: (معظم الناس يخلطون بين مفهوم الروحانية والتدين، والحقيقة أن الأمرين مختلفان تماما، فالروحانية هي امتلاك نوع من الشفافية، هذه الشفافية هي ما نسميه في هذا الكتاب "الذكاء الروحي"، وعندما يمتلك المرء ذلك الذكاء الروحي، يصبح أكثر قدرة على إدراك الصورة الكلية أو الثورة الكاملة لنفسه وللكون بشكل أوسع، ولمكانته وهدفه في الكون. والحقيقة أن الذكاء الروحي أهم أنواع الذكاء، إذ لديه القوة القادرة على تغيير حياتك، بل وتغيير وجهة الحياة ومجرى التاريخ)¹

لا يخبرنا الدكتور الفقي من أين جاء بهذا التعريف للروحانية، ولا كيف ميز بينه وبين التدين. وطبعا يمكن إبداء ملاحظات عديدة بخصوص التفريعات التي وضعها في هذا النص، غير أننا نكتفي بذكر الأهم فيها، وهي أن "الروح" التي تحمل دلالات خاصة في الثقافة الإسلامية، تحولت - حسب الفقي - إلى نوع من أنواع الذكاء، بل أهم أنواعه؛ فالذكاء الروحي - حسب قوله - يغير الحياة ومجرى التاريخ ! فلنسلم بهذا جدلا، ولكن، كيف يحقق الذكاء الروحي ذلك؟ للإجابة عن هذا السؤال، يرشد الدكتور الفقي في هذا

¹ الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ثمرات للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص3

الكتاب إلى أهمية تدريب الروح، مبينا أن التدريب الروحي يتحقق من خلال: (السعي لمصادقة أصحاب روح الدعابة و المداومة على الذهاب للسينما والمسرح والتبسم والرفع من الروح المعنوية بتحويل بعض مواقف الحياة الممرجة إلى مقاطع أفلام كوميدية مضحكة وقراءة كتب الضحك والتدرب عليه...¹ ومن التدريبات الروحية التي يدعو إليها أيضا ممارسة الرقص (فالرقص يعزز من مرونة الجسد والعقل، وهو يعد من التمرينات الرياضية الرائعة الخفيفة، وهو يشجعك على التعبير عن ابتهاجك ويدفعك إلى الضحك)²

إن كل مطلع على الكتب الغربية في التنمية البشرية، سوف يجد أن الدكتور الفقي يعيد كتابتها حرفيا، لكن؛ باللغة العربية. وقد ساهمت مثل هذه الأعمال في تمرير شبه كامل لقاموس الثقافة الغربية في التنمية البشرية، دون تكليف النفس عناء التفسير أو توقع التساؤل لدى من يتوجه إليهم بهذا الكتاب من المسلمين. إذ يظهر لنا مرة أخرى، السقوط في الاستلاب الثقافي الغربي، و استصنام نموذج المعرفي ونمطه الحياتي، ويصل الأمر أقصاه حين يعتمد الدكتور الفقي إلى الحديث عن التدريب الروحي في الفلسفات الدينية للشرق القديم، فيتحدث عن "فلسفة اليوغا" - عبارة تقع ضمن عناوين الكتاب - قائلا : (اكتشف مدربوا اليوغا القوة الهائلة للطقوس الروحية والبدنية، وذلك من قبل ظهور الحضارة الحديثة بزمان بعيد، وقد استخدموا تلك الطقوس في تدريب أجسادهم وعقولهم أثناء بحثهم الدؤوب عن التنوير الروحي)³ . هكذا يحضر التحقيب الثقافي والحضاري في ذهن الفقي - رحمه الله - دون أن يتأمل ما حدث تاريخيا في المنتصف بينهما، لا بل إنه يحدثنا عن تأمل من نوع آخر؛ وذلك ضمن حديثه في الكتاب نفسه عن ما اعتبره "فلسفة التأمل و أساليبه" قائلا: (سوف تدرك قيمة أساليب التأمل، فهي تخلصك من التشويش الذهني، كما تعطيك إحساسا بالسكينة وتجعلك متصلا بالكون من حولك)⁴

¹ الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ص 53-54

² الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ص 61

³ الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ص 68

⁴ الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ص 72

والملاحظ أن الدكتور الفقي، يصدر في كلامه هذا كله، عن ذهنية حرفية، قائمة على التقليد المباشر لما راج في الثقافة الغربية والأمريكية بالخصوص، متبنيا الرؤية العامة لهذا الطرح، الذي ظهر ضمن سياق تطوري خاص بالتجربة الغربية وسياقها التاريخي، كما بينا في الفصل السابق. فالكتاب يكاد يكون ترجمة أمينة لهذا الفكر الغربي الذي يعبر عن ثقافته وبيئته. هكذا يصير الأنبياء عند الدكتور الفقي مجموعة من " المتأملون العظماء " ، وهي عبارة ضمن عناوين الكتاب، تحدث فيها وضمن سياق واحد عن إبراهيم وموسى وبوذا وكونفوشيوس وعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ. والغريب في الأمر بعد كل ذلك؛ أن الدكتور الفقي لا ينسى أن يختم الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]

فكما وجدنا الدكتور الراشد يقدم كتبه بالآيات القرآنية، ثم يبتعد عن الرؤية القرآنية تدريجيا داخل ثنايا الكتاب، لصالح ترجمة أمينة لعلوم التنمية البشرية وأدبياتها، والاندماج التام في رؤيتها الكونية المؤطرة لها، وجدنا الدكتور الفقي أيضا، يقوم بالشيء نفسه، والاختلاف فقط في مكان وضع الآيات فتكون عند الفقي في الخاتمة بدل المقدمة عند الراشد.

ولا يسعنا ذكر كل ما يمكن التعليق عليه في هذه الكتب لأنها تكاد تكون بالكامل خارج السياق الثقافي الإسلامي وغير متوائمة مع مرجعيته الدينية ورؤيته الكونية بالخصوص. فنحن هنا أمام استبدال كامل للمعجم الإسلامي عن الإنسان والكون بمعجم آخر، فعالم الغيب وفق المنظور الإسلامي يصبح - في هذه الاعمال - عالما "غير مرئي" ثم يتم تعريف هذا العالم ب"الطاقة"؛ والروح تعتبر نوعا من أنواع الذكاء الإنساني.. وخطورة الأمر، أنه ليس مجرد استبدال للمفاهيم بقدر ما هو تأسيس لرؤى مناقضة للرؤية الإسلامية عموما.

والمنتبع لما ينقل من علوم التنمية البشرية وأدبياتها عموما، وكيفيات تصريفها في مجتمعاتنا الإسلامية، لا يخفى عليه ما يظهر من اضطراب في المفاهيم واختلال في

التصورات. فلتقوية بعض الأفكار المستغربة، يتم تدعيمها بالآيات والأحاديث النبوية الشريفة أو أقوال الحكماء من المسلمين أو الإتيان ببعض الآداب الإسلامية أو الاستشهاد بما يشبهها من سير الصالحين من المسلمين. كذلك نلاحظ تمويهها في استخدام بعض المصطلحات اللغوية التي لا يتقاطع مدلولها مع السياق الذي يتم توظيفها فيه. ومن ذلك مصطلح "التأمل" في تلك الدورات، إذ يعتقد الناس بمعناه اللغوي القائم على التفكير والتدبر وإطالة النظر في الشيء، بينما يعكس في هذه الدورات نوعاً من الطقوس الروحية التي يقصد بها الوصول إلى مرحلة النيرفانا (الخروج من الوعي) أو الإدراك الأسمى الذي يعتبر الوصول إليه نوعاً من الاتحاد مع الإله والحلول فيه. أي أن "التأمل" هنا؛ طقس عبادي بكامل المواصفات في ديانته الأصلية، كما أوضحنا ذلك في مبحث التنمية البشرية.

كذلك عملية التنفس القائمة على الشهيق والزفير، يراها المتدربون في التنمية البشرية نوعاً من التدريب العادي للتنفس، ولكنه في حقيقة الأمر ممارسة طقوسية دينية، يعتقد أصحابها بكونها تساعد على تدفق الطاقة الكونية في مسارتها في الجسم فتكون لدى الإنسان قوة تمكنه من الشفاء وتكسبه الثقة بالنفس ليكون إله نفسه المتحكم في تصرفاته وإرادته بفضل الطاقة المتدفقة في جسده¹.

وللأسف، فقد انتشرت هذه العقائد بين المسلمين رغم ما تحويه من مخالفات صريحة وواضحة لعقيدة التوحيد، مما يؤثر بقوة على مدى الخلل الذي يعانيه المتخصصون من المسلمين، في فهم المنظور والرؤية التي تصدر عنها هذه المدارس والاتجاهات. يؤكد ذلك ما يتم الترويج له - بوعي أو بدون وعي - من هذه الطقوس المسماة بـ "الطاقة الروحية" من خلال ربطها بنصوص القرآن والسنة اعتماداً على مشابهة مزعومة للمعنى الروحي أو الديني. و من تم الادعاء أن هذا النوع من الرياضات يحقق منافع ولا يتعارض مع الإسلام. لاسيما وأن معظم أتباع هذه الرياضات ممن يعتبرون مثقفين بحكم شهاداتهم في تخصصات

¹ انظر في ذلك: الفكر العقدي الوافد ومنهجية التعامل معه <http://www.alfowz.com>

مختلفة خاصة منها التقنية والعلمية.. بالنظر إلى ما تخرجه مناهج التعليم في الوطن العربي التي أسهمت بازدياد حاجتها في تفريخ أجيال من المغتربين عن دينهم وهويتهم.

إن هذا الأمر يعكس خلا خطيرا على مستوى المنهج العام، الذي يتناول به هؤلاء موضوعا، يعتبر من أهم وأخطر الموضوعات صلة بالإنسان، لأنه يخص منهجهم في الحياة، وهم يمثل هذه الاجتهادات المرتبكة على مستوى المنهج، يخلقون حالة من الصخب واللغط الكثير في موضوع التنمية البشرية، دون حصول نتائج حقيقية تذكر، مهما خلصت النوايا، وشاهد ذلك، أن مجال التنمية البشرية في واقعنا العربي، بقدر ما استطاع أن يستقطب عموم الناس وخاصتهم، بحكم جاذبية موضوعاته في النجاح والامتياز والسعادة.. مما يعتبر مطلبا وحاجة لكل إنسان في الحياة. بقدر ما أصاب معظم أولئك المنجذبين إليه بالإخفاق والخيبة. وذلك ما يشهد به العديدون ممن قرأوا، أو حضروا لدورات التنمية البشرية، إذ يتفقون على محدودية التأثير، وعدم تحقيق النجاحات المرجوة؛ رغم بريق المعلومات الجديدة والمهمة الذي يجعلهم مشدوهين في البداية. يؤكد ذلك أن معظم الانتقادات حول فشل مخرجات التنمية البشرية في الوطن العربي تتجه في غالبية الأمر، إلى تضخم البعد التجاري والتسويقي، مقابل مردودية ضعيفة أو محدودة سرعان ما تنطفئ بدورها في معترك الحياة. ولا يستشعر غالبيتهم، وإن كانوا من المثقفين، غياب منهج واضح ورؤية كونية لدى المبشرين بالتنمية البشرية. إذ لا مشكلة لديهم مادام هؤلاء يتحدثون بمعلومات أجنبية، مشفوعة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. هكذا يمكن اعتبار الواقع العربي بمثابة المصب الطبيعي لكل تلك التيارات والمدارس المتعددة والمتنوعة في هذا المجال، أخذها وأضاف إليها ما عنده، وأصبحت خليطا ضخما مبهرًا على مستوى الخطاب والشكل، ولكن لا يترتب عليه في واقع الأمر شيئا. ذلك أن الخلل هنا مرتبط بغياب الوعي المنهجي و ما يسلمه من إدراك للرؤية الكونية المؤطرة للأفكار والمفاهيم والممارسات أيا كان نوعها. بل ويعبر أحيانا؛ عن عدم فهم الإسلام جملة وتفصيلا. يوفر المعايير والموازن الكاشفة لكل دخیل وباطل.

في مقابل الانتشار الواسع الذي تحظى به أدبيات التنمية البشرية في الوطن العربي، من الصنف الذي تحدثنا عنه سابقا، المفتقد للرؤية والمنهج الصحيح. هناك أعمال أكاديمية في الظل، لا يكاد يعرفها في مجال التنمية البشرية إلا القلة النادرة، وهي أعمال تتميز برصانتها و بمنهجيتها، وكذلك، وهذا هو الأهم، تتميز بإدراك البعد المنهجي لهذا الموضوع. غير أنها جد نادرة. ويمثلها في موضوع بحثنا كل من الدكتورة فوز كردي، وقد سبق أن عرضنا لأعمالها في المقدمة ضمن فقرة الدراسات السابقة. و الدكتور مصطفى حجازي، الباحث المتميز في علم النفس الاجتماعي¹، وتحدد ميزته الأساسية من خلال كتاباته في المجالات النفسية والاجتماعية في الوعي بالمنهج الذي يؤطر هذه العلوم، فقد أكد في دراساته المتعددة أهمية الوعي المنهجي لدى الدارس العربي للعلوم الاجتماعية والنفسية، وانتقد المندفعين من الباحثين العرب إلى نقل منجزات العلوم الإنسانية الغربية، دون تمحيص الفلسفات والمنهجيات، وفي ذلك يقول: (لقد أصبحت ملحة إعادة النظر في وظائف علم النفس، وفلسفاته، وممارساته عربيا. فلقد تم استيراد هذا العلم، شأنه في ذلك شأن بقية المعارف، واستهلاكه عربيا في حالته شبه الخام، أي كما وضع في الغرب وتطور لخدمة احتياجات المجتمعات الصناعية ذات التوجه الإنتاجي الرأسمالي... كل ذلك انطلاقا من فلسفة فردية إلى الإنسان... إن علم التحكم وفلسفته الفردية لم يتم التوقف عندهما بما يكفي في استهلاك النظريات والمنهجيات النفسية التي تم استيرادها، وكأنها ذات طبيعة عالمية)².

يمثل هذا النص للدكتور مصطفى حجازي شاهدا من الشواهد العديدة التي تتضمنها كتبه، وتعكس في مجملها وعيا عميقا بالأطر المنهجية والفلسفية لمجالات تخصصه، وهو فضلا عن ذلك، لا يكتب لمجرد الكتابة، أو نقل وترجمة آخر منجزات العقل الغربي، في علم النفس والاجتماع كما يفعل الكثيرون. بل يشغله الهم الوظيفي لهذه العلوم في وطننا العربي، و البحث في سبل استثمارها لما يخدم واقع الإنسان العربي، لذلك اتسمت تحليلاته

¹ الدكتور مصطفى حجازي يتميز بكتابه الذائعة الصبغ في الوطن العربي، وعلى رأسها "التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور"، و"الإنسان المهدور"، و "علم النفس والعولمة"، و "الصحة النفسية" وأخيرا كتابه في علم النفس الإيجابي بعنوان "إطلاق طاقات الحياة".

² حجازي، مصطفى، علم النفس والعولمة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط2010، ص8-9.

لهذا الواقع بالعمق والتمكن من جهة، إضافة إلى قدرته على موضعة علوم النفس الاجتماعية الغربية ضمن سياقاتها الصحيحة، مبدئياً إمامه القوي بظروف نشأتها، وجذورها الفلسفية من جهة أخرى، وهذان الشرطان ضروريان لما نسميه الوعي المنهجي أو الوعي الذاتي. إنه الوعي بالذات ، والوعي بالآخر.

وحيث أن غرضنا الوقوف مع الدكتور حجازي، في الموضوع الذي يخص بحثنا وهو علم النفس الإيجابي الذي يعتبر من مدارس التنمية البشرية المعاصرة كما رأينا في المبحث الأول، فإن اهتمامنا سيكون بكتابه الذي خصصه لهذا الغرض، وهو : { إطلاق طاقات الحياة: قراءات في علم النفس الإيجابي}. في هذا الكتاب، قام الدكتور حجازي بتقديم أفكار مؤسس علم النفس الإيجابي - مارتن سليغمان - ضمن كتابه، مشيراً إلى ظروف نشأة هذا العلم، وما سبقه من أعمال ساهمت في بلورة هذا الفرع الجديد في علوم النفس، ويصدر الدكتور حجازي في كتابه هذا، من منطلق أهمية بناء الاقتدار الإنساني لدى المواطن العربي، بعدما تم تحليل مشاكله ومعوقات تنميته في الأعمال السابقة (الإنسان المقهور) و(الإنسان المهدور)، حيث يبقى الدكتور حجازي وفيما لوظيفية علم النفس في حياة الإنسان العربي، والبحث في سبل تمكينه وبناء اقتداره. ففي الفصل الأول من هذا الكتاب، يستعرض المؤلف أسس علم النفس الإيجابي ومعطياته وتوجهاته ومجالات اهتمامه الراهنة، وهو في استعراضه ذلك لا ينفك يربط معطيات هذا العلم بالواقع العربي، وإبراز سبل الاستفادة منه، في حل مشكلات هذا الواقع الحقيقية. كما يبقى وفيما لوعيه المنهجي في حديثه عن جذور علم النفس الإيجابي التي أرجعها إلى مصادر ثلاث، وهي: الفلسفة اليونانية التي تربط السعادة البشرية باتباع الفضيلة والتي تعود إلى نظرية أرسطو في السعادة والحياة الطيبة، والتيار الإنساني في علم النفس، وأيضاً إلى إسهامات عالمي النفس: "كارل يونغ" و"أدلر". كما يبدي الدكتور حجازي استيعابه العميق للطفرة التي أحدثها علم النفس الإيجابي؛ مقارنة بما سبقه من النظريات النفسية وما تقوم عليه من فلسفات يفترض تجاوزها. ولكن الدكتور حجازي لا يطرح المنهج البديل للمناهج والرؤى الغربية في علم النفس، وإنما يكتفي بالإشارة

إلى ضرورة الوعي بها حين يتم نقل هاته العلوم إلى البيئات الثقافية العربية، وأعماله تدل على أنه يقوم بنوع من التبيئة لهذه العلوم في البيئة العربية، ليس هنا مجال تفصيلها.

المبحث الثاني: أزمة تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية؛ الأسباب والتجليات

المطلب الأول: أسباب تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية

بداية، نؤكد أننا نقصد بالتراث الإسلامي؛ تلك المعارف والعلوم التي أنتجت في دائرة الوحي الإلهي؛ قرآنا وسنة نبوية، دون إدخال هذين الأخيرين في مسمى التراث. وقد تمايزت المواقف من التراث الإسلامي في العصور الحديثة، لتترجم حيرة المسلم المعاصر في ما يأخذ وما يترك من هذا التراث. والصواب في ما نرى؛ عدم إضفاء القدسية على التراث الإسلامي؛ كونه يدور حول نصوص مقدسة من جهة، وعدم تبخيس قيمة هذا التراث كمعرفة إنسانية، لها ما لها، وعليها ما عليها، مثلها في ذلك، مثل سائر المعارف والعلوم الإنسانية من جهة أخرى. غير أن مشكلتنا الكبرى في التعامل مع تراثنا الإسلامي؛ تلك المتعلقة بالاصطفاف المذهبي، الذي يلغي إمكانية النقد واستئناف التفكير في قضايا المعاصرة وفق ما تقتضيه مستجدات الحياة وتطورات المعرفة، والارتهان بدلا من ذلك، لأجوبة جاهزة في المذاهب العقدية والفقهية والسلوكية، واعتبارها مؤطرة لأي اجتهاد ممكن.

إن الوقوف عند التراث الإسلامي، في محاولة لإلقاء الضوء عليه بخصوص موضوعنا، أمر ملح وضروري، وذلك لسبب أساسي يتعلق بفرضية البحث جملة، وهي: إذا كان القرآن يعتبر منهجا للتنمية البشرية بالمعنى الذي سطرناه في المبحث السابق. فما هو العطب الذي عطل ثمار ذلك المنهج في التجربة التاريخية للمسلمين، وحال دون استمرار فاعليته في الفترات التالية لعهود الرسالة الأولى؟ وإذا كانت التجربة التراثية مع القرآن تشكل بالفعل مصدرا للتنمية البشرية، فلماذا لم تورق أغصانها لدى الأجيال اللاحقة وتعفي المسلم المعاصر مما يعانيه اليوم من حيرة الاغتراب عن مرجعيته الثقافية، التي ظهر عجزها في

تلبية حاجاته الذاتية والاجتماعية، مما جعله يتطلع باستمرار إلى نماذج حياتية أخرى يراها ناجعة وكفوءة لواقعه وعصره.

ليس هذا فقط ما يبرر توجهنا نحو التراث الإسلامي. فهذا التراث - شئنا أم أبينا - حاضر في وعينا ولا وعينا، أي، أنه جزء أساسي من كياننا الحاضر، الجمعي والفردى. وممارسة الوعي الذاتى تتطلب الإلمام بمكونات هذا الوعي ومستويات ودرجات تأثيره فى هذا الكيان الذاتى، الفردى والجماعى. ذلك أن البحث فى إشكالية بناء الإنسان و فى الصيغة المثلى لإعادة استئناف الحياة الإسلامية تنمية وإعمارا واستخلافا، لا يتحقق دون التموضع بوعى فى نقطة من سلم المنظومة الحضارية الإسلامية، و لا يكون ذلك إلا بوعى التجربة التراثية وفهم مفاصلها ومنعرجاتها ونقاط انعطافها الكبرى. و مع وعينا بوجود عوامل أخرى، ساهمت فى تعطيل المنهج القرآنى ودوره فى الحياة العامة للمسلمين، إلا أننا سنقصر حديثنا على الجانب الفكرى والثقافى؛ ذى الصلة المباشرة بالحياة الخاصة للمسلمين فى تجربتهم الحضارية التاريخية، والذي يعد بدوره موضوعا شاسعا و مترامى الأطراف، ولكننا سنحاول جمع شتاته فى حدود ما يسمح به المقام والصلة بموضوع بحثنا.

تؤكد النظرة الموضوعية لتاريخ الإنسان العربى فى الجزيرة العربية، قبل مجئ الإسلام وبعده حقيقة تاريخية، تتمثل فى أن النقلة الحضارية التى تمت لذلك الإنسان العربى ، وشكّلت نقطة تحوّل الكبرى إنسانيا وحضاريا؛ ما كان لها أن تتحقق صدفة، بل إن تحققها هو نوع من المعجزات الإنسانية عبر التاريخ. إذ مما لا شك فيه، أن المتغير الجوهري الذى أحدث تلك النقلة فى حياة الإنسان العربى، كان هو نزول القرآن و مجئ رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، فتحوّل الإنسان العربى من ذلك الجهول المتعصب الذى يقتل لأتفه الأسباب ويعتز بحمية الجاهلية القبلية.. إلى إنسان الرقى والحضارة والعلم.. إذ نرصد ملامح التربية القرآنية بداية مجسّدة فى جيل الصحابة الكرام، بما يمكن اعتباره أحد أنواع الإعجاز القرآنى فى التربية وإنجاز التغيير الحضارى. والذي قلما تنبه له الباحثون فى إعجاز القرآن، فقد كان هذا النوع من التغيير الإيجابى لإنسان الجزيرة العربية أهم أنواع الإعجاز القرآنى

التي تحققت تاريخيا. بما ظهر في تلك الأجيال الأولى من ارتفاع في مستوى الوعي الاستخلافي والنضج الحضاري الذي جعل المسلمين يتبوؤون قيادة العالم حينها، وكان ذلك بفعل قوة الانطلاقة الحضارية القرآنية منذ اللحظة الأولى "اقرأ". لقد كان القرآن الكريم هو الإطار المرجعي الذي شكّل حينها الرؤية لله والكون والإنسان. وأطر منظومة متكاملة لفكر الإنسان واعتقاده وسلوكه ومشاعره.. وهي المنظومة التي سادت زمن النبي ﷺ وعهد الخلافة الراشدة وأعطت تلك الدفعة الحضارية التي تردد صداها في أرجاء المعمور، غير أنه للأسف، و بعد عهد الخلافة الراشدة، بدأ مسار تراجعى، تسلّل تدريجيا إلى أفكار الناس وسلوكياتهم، وساهم عبر الزمن، في تغيير الرؤية التصورية الكبرى، التي أنشأها القرآن الكريم. و انته ذلك المسار التراجعي - كما سنرى - إلى إحداث تغييرات جوهرية في الرؤية الكونية القرآنية، التي بدأ الانحراف عنها تدريجيا بدخول العصر الأموي، فظهرت لأسباب عدة؛ العديد من الأفكار والمذاهب والطوائف والنحل، متأثرة - في الغالب - بما نقله أهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا واحتفظوا بموروثاتهم الدينية والثقافية والفلسفية .. و انطلقوا منها في مناقشة قضايا الإسلام. وانتهت هذه الأعمال إلى تشويه الرؤية القرآنية و الانحراف عنها. ففي الوقت الذي كان القرآن يشكل للمسلمين إطارهم المرجعي في الدين والحياة و منظومة أخلاقهم في التربية وإصلاح النفوس، ومصدر علومهم و قيمهم وتصوراتهم، ومنبع سعادتهم وطمأنينتهم.. ظهرت مع بدايات الحكم الأموي، وانفصال القيادة الدينية عن القيادة السياسية، وبتأثير عوامل أخرى متعددة، فوضى من الأفكار والمذاهب والمعتقدات التي شتتت أذهانه الناس وطاقاتهم، وبلبلت طرق تفكيرهم. حدث ذلك بالتزامن مع اتساع الفتوحات الإسلامية، وتسرب ثقافات الأمم الأخرى مثل الفارسية واليونانية والهندية وغيرها إلى ثقافة المسلمين.

وفي هذا الصدد، يمكن الإشارة في ما يتعلق بموضوع التنمية البشرية إلى ما دخل من ثقافات الأمم المفتوحة من الموروث اليوناني الفلسفي من أمور تتعلق بموضوع تدبير النفس والحياة، وتحقيق السعادة، وغيرها من الموضوعات في هذا السياق التي تركت بعض

الصدى في تراثنا الفلسفي الإسلامي، فظهرت كتابات وأعمال في موضوعات من قبيل (السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية) لأبي الحسن العامري، والذي اقتبس فيه أقوال فلاسفة اليونان على اختلاف مذاهبهم إلى جانب اعتماده الكبير على نصوص القرآن والسنة، فهو كما يقول الجابري - رحمه الله - من مثقفي المقابسات الذين كانوا يمارسون التعددية الثقافية في إطار الحضارة العربية الإسلامية¹. وملاحظة الجابري تشير إلى نوع الخلل المنهجي الذي سقط فيه المسلمون إذاك وهم يحاولون الجمع بين معطيات ثقافية تنتمي إلى رؤيتين كونيتين مختلفتين. الأمر الذي يعتبر أحد أهم أسباب تشوه الرؤية الكونية القرآنية في وعي المسلمين. ونحن نكتفي بهذه الإشارة فقط إلى وجود مثل هذا التيار في تراثنا الثقافي الإسلامي، ولن يكون من محاور دراستنا للمنهج التراثي عند المسلمين، بسبب أن مثل هذه التيارات الفلسفية عاشت في الغالب الأعم على هامش المتن الثقافي العربي الإسلامي، فصداها لم يكن بالمؤثر الكبير، في واقع شهد هيمنة واضحة للفقهاء وعلماء الكلام والمتصوفة، فهذه هي الاتجاهات الثلاثة التي تسيدت الساحة الثقافية والاجتماعية وصار التمدد بها ضروريا في الدين، حتى استوت أيقونة عند المسلمين كما يشهد بذلك قائلهم - عبد الواحد ابن عاشر (ت1040هـ-) - من المتأخرين، حين أراد ذكر الضروري من علوم الدين فقال: (في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك)². وهذا التقسيم الثلاثي للمكونات الأساسية في الثقافة العربية الإسلامية التراثية، هو ما سنحاول رصده وتحليله في المطالب الآتية.

وفق ما سبق ذكره، تشكلت ثلاثة اتجاهات مذهبية ذات أثر كبير في الحياة الإسلامية، و ضمن كل منها مدارس وأفكار...فاختص علم الكلام بالعقائد وعلم الفقه بالأحكام الشرعية وعلم التصوف بالسلوك.. وسنرى أن هذه الاتجاهات دخلت في صراع مع بعضها البعض حول امتلاك شرعية الاتباع من جهة، و شرعية الاستمداد من الكتاب والسنة من جهة أخرى. وقد استقر العرف بعد ذلك، على أن يعرف المسلم نفسه منذ ذلك الحين بأنه

¹ الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2012، ص 396

² أبو محمد ابن عاشر، عبد الواحد بن أحمد، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين،

يتبع مذهباً في العقيدة وآخر في الفقه وثالثاً في السلوك. وهو ما يمثل طفرة هائلة - على مستوى المنهج - تمثلت في الانتقال من مرحلة الاستقاء المباشر من المنظومة القرآنية المتكاملة، التي تغطي كل جوانب الحياة الاعتقادية والفكرية والوجدانية والسلوكية، إلى اتباع مدارس ومذاهب اجتزأ كل منها جانباً من جوانب الكيان الإنساني، واقتصرت على مجال من مجالات القرآن الكريم، و جعل ذلك محور اهتمامه من الدين كله. ولو حدث ذلك من باب التخصص الفرعي لكان الأمر هيناً، ولكننا وجدنا من تلك المذاهب من يختزل الدين كله في ما ذهب إليه. و لعل أبرز مظاهر تلك الطفرة، التي مثلت ابتعاداً عن الرؤية القرآنية الجامعة؛ الاستعاضة عن مفاهيم القرآن الكريم بجهاز مفاهيمي مستحدث من قبيل استبدال العقيدة والكلام بالإيمان، وما ترتب عن ذلك من انفصام بين العقيدة والشرعية / الفقه والسلوك في الوعي أولاً، ثم في واقع الحياة بعد ذلك. فلنبداً بأول هذه الاتجاهات ظهوراً من الناحية التاريخية وهو علم الكلام.

أ - علم الكلام وأثره في تعطيل المنهج القرآني

ب وفاة النبي محمد ﷺ، ظهرت اختلافات بين المسلمين في أمور عدة أولها كان قضية الإمامة من بعده، وأدى تطور هذا الخلاف بعد معركتي صفين والجمل إلى ظهور الشيعة والخوارج والمرجئة. ثم حدثت خلافات أخرى، دارت في معظمها حول تفسير نصوص الوحي في قضايا ومسائل لم تعرف زمن النبي ﷺ. ومن هنا، نشأ التفسير العقلي لما يعتبر متشابهاً في القرآن، لكن أغلب القضايا التي طرحت كانت بتأثير عوامل خارجية، نتيجة تسارع الفتوحات، والانفتاح على ثقافات متعددة، وتركزت معظم هذه القضايا، إلى جانب مسألة الإمامة، في قضايا التوحيد بين الذات والصفات و قضية الجبر والاختيار، ومرتكب الكبيرة.. والنقاش بخصوص هذه القضايا جميعها، كان سبباً في ظهور ما عرف بعلم الكلام، وهو نوع من الصناعة كما ذكره الفارابي في إحصاء العلوم : (وصناعة الكلام يقدر بها الإنسان

على نصره الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقوال¹.

والذي يعنينا رصده في ما يتعلق ببحثنا، تتبع قضيتين هامتين من أهم القضايا التي تولاهما علم الكلام، وهما: قضية التوحيد، وقضية الجبر والاختيار. ذلك أن انعكاسات كل منهما على فهم الإنسان لوجوده وغايته، ودوره الاستخلافي في الكون ومسؤوليته الفردية والاجتماعية في علاقة بالتكليف، أمر في غاية الأهمية. خصوصاً إذا أردنا الحديث عن التنمية البشرية بما يتضمنه هذا المفهوم، من جانب الكينونة القائم على أسس تصويرية اعتقادية، وجانب المهارة القائم على أسس التدبير والتخطيط المستقبلي للحياة.

أما بالنسبة لموضوع التوحيد، فمن المعلوم أن هذا المصطلح لم يرد في نصوص الوحي الإلهي بهذه الصيغة، وإنما هو المعنى المستفاد من جوهر الدعوة الإسلامية إلى أفراد الله تعالى وحده بالعبادة. إذ لا تخفى أهمية هذا الجانب العقدي في كل شأن تربوي إصلاحي يراد منه بناء الإنسان وتنميته، يؤكد ذلك ما استغرقه هذا الجانب من مساحة في النص القرآني من جهة، وكذلك من حيز زمني، تقرر معه أن يكون القرآن المكي طيلة 13 عاماً مخصصاً لهذه القضية المحورية بالأساس. غير أن علماء الكلام وهم يحاجون عن العقيدة الإسلامية، ويردون على الزنادقة والمبتدعة في عصرهم، استعملوا أساليب جدالية تأثروا فيها بمنطق اليونان وغيره، فأحدثوا تصنيفات في العقيدة من قبيل: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، فهل يمكن تقسيم التوحيد الذي يدل في أصل معناه على عبادة الواحد الأحد؟ سيقول البعض أنه أسلوب فرضته الضرورة التاريخية لمواجهة عقائد المخالفين. نقول: نعم، ولكن آثاره السلبية امتدت داخل الفضاء التداولي للمسلمين، بل نلمس ظهور نوع من الاعتزاز بهذا المنهج الجدلي الذي يخاطب العقل، ولا يخاطب الروح والوجدان، وهو ما يعني تعطيل ثمار التوحيد، وفوائده المرجوة في التربية والتزكية، كما هي محددة في آيات القرآن، ومنها قوله تعالى: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ

¹ الفارابي، أبو نصر، إحصاء العلوم، القاهرة، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1996، ص71

الْخَالِصُ} [الزمر: 2، 3]. لذلك ذهب الشيخ فريد الأنصاري إل بيان عقم منهج المتكلمين في قضية التوحيد، ودعا بالمقابل إلى إحياء المنهج القرآني في تناول تلك القضايا، يقول - رحمه الله - : (وجب أن نستعيد المنهج القرآني في عرض المادة التوحيدية، أعني منهج التربية والتزكية؛ للبلوغ إلى ثمرته المرجوة، ألا وهي: الإخلاص)¹.

يرى الشيخ الأنصاري أن التزكية هي الترجمان العملي للتوحيد/ الإخلاص في حياة الإنسان، غير أن المنهج الكلامي الذي ساد للأسف في تراثنا، ساهم بمنطقه الجدلي في تخريج جداليين أو حرفيين في الكلام حول العقائد، ولكن بدون تخلُّق ولا أدب في الغالب الأعم. فأهمل البعد التربوي والخلقي الذي هو المقصد والثمرة من التوحيد. وهو ما ترتب عنه الانفصام في حياة المسلم بين الجانب العقلي والجانب السلوكي. يقول في هذا الصدد: (..غياب " المقاصد التربوية" من أغلب كتب العقائد! حيث فصلت في بيان القسمين المذكورين معاً؛ - يقصد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - لكن بمنهج نظري جدلي، لا بمنهج تربوي، قائم على " قصد تزكية النفس" الذي هو غاية تعريف العباد بالله ربا وإلهاً ! وأهمل هذا المعنى العظيم؛ لتتولاه كتب أخرى وفنون أخرى، وُصفت أحيانا بكتب الرقاق، وأخرى بكتب الزهد، أو كتب السلوك، أو كتب التصوف..²

وأما قضية الجبر والاختيار، فمصدر الإشكال فيها بإيجاز؛ قول طائفة من المسلمين بعقيدة بالجبر، وهي كما قال الشهرستاني : (نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى)³، أي، أن الإنسان مجبور على أفعاله غير مختار لها، وتستند هذه الطائفة إلى آيات قرآنية توجي بهذا المعنى، اعتُبرت أدلة وحججا لمذهبهم، من مثل قوله سبحانه: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: 29] ويقول سبحانه : { وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17] إلى غير ذلك من الآيات المشابهة لها. و أما الذين تبنا

¹ الأنصاري، فريد، مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، منشورات رسالة القرآن، دم، ط2006، 1، ص71

² الأنصاري، فريد، مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، ص70

³ الشهرستاني، المال والنحل، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1992، 2، ج1، ص85

عقيدة الاختيار، التي تقول بحرية الإنسان في اختيار أفعاله فُسِّمُوا بالقدرية¹، وقد احتجوا أيضا لإثبات اعتقادهم في بيان مسؤولية عن أفعاله واختياراته، بآيات قرآنية من قبيل قوله سبحانه: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} [الكهف: 29] . والمشكلة المنهجية في ذلك؛ أن كل فريق أو مذهب كان يتأول الأدلة المخالفة لما يعتقد، بما لا يخالف ما انتهى إليه، أو - لنقل - بما انطلق سلفا باعتقاده. ويزداد الأمر صعوبة حين يستدل كل فريق بأحاديث منسوبة للنبي ﷺ في الموضوع، بما تحمله من علامات استفهام بخصوص صدقيتها من جهة، وكذلك إمكانية الاستدلال بها في باب العقائد من جهة أخرى باعتبارها أخبار آحاد. إلى غير ذلك من الإشكالات التي لا مجال لبحثها هنا. ورغم ظهور الأشاعة كمذهب وسيط في التوفيق بين القائلين بالجبر والقائلين بالاختيار، إلا أن ذلك لم يحل دون استمرار الاعتقاد بالمذهبين، وانتشارهما على نطاق واسع، والأهم من كل ذلك، أن المنهج المتبع لدى كل من الجبرية والقدرية، منهج تجزيئي مخالف لنسقية المنهج القرآني ووحدته الموضوعية الواضحة في مثل هذه القضايا، مما يجعل النهج التجزيئي في القرآن غير مبرر. ذلك أن اجتزاء آيات القرآن أو تبويضها بالمصطلح القرآني، يخل بالفهم الكلي للموضوع داخل البنية القرآنية، وهو ما حال في حقيقة الأمر دون اكتشاف السنن القرآنية المتعلقة بالاستخلاف الإنساني ومقاصدها، إلا فيما نذر.

ولتأكيد خطأ هذا الانحراف المنهجي في تجزيء آيات القرآن، وابتعاده عن المنطق القرآني؛ نكتفي هنا بالإشارة إلى أن القول بالجبر أمر تحدث عنه القرآن نفسه، ونسبه إلى طائفة من المشركين، ادعت التنصل من المسؤولية في ما تقوم به من عبادة وشرك، فرد عليهم القرآن واصفا ادعاءهم بالكذب والجهل، وذلك في قوله سبحانه {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا

¹ القدرية: هم الذين ينفون قدر الله تعالى، ويقولون: إن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد، ويجعلون العبد خالق فعل نفسه، ويقولون: إن الله تعالى لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه؛ (موسوعة الفرق والمذاهب - وزارة الأوقاف المصرية - ص- 521).

بِأَسْنَأْ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ{
[الأنعام: 148]

والذي يعنينا و يهمننا في هذا المقام، رصد الانحراف عن المنهج القرآني في واحدة من أخطر وأهم القضايا المتعلقة بالوجود الإنساني واستخلافه، كونها تقرر في أمور حرية الإنسان ومسؤوليته، وما يترتب عنها من رؤية للتدبير و التخطيط والنظرة للمستقبل. فالحرية محدد أساسي في الطبيعة الإنسانية، وبدونها لا يمكن الحديث عن مسؤولية أو تكليف أو جزاء. وسيكون لعقيدة الجبر آثار وعواقب وخيمة على مستوى الفرد والمجتمع، لأنها تنتهي إلى القول بأن الإنسان لا قدرة له ولا إرادة، وبالتالي فلا حرية له ولا اختيار، وهو ما يعني تغييب المسؤولية الفردية. لكن أخطر ما ترتب عن هذا الأمر، ما وجدته عقيدة الجبر من حاضنة شعبية لها في المجتمعات الإسلامية، حين تبنتها بعض الطرق الصوفية من زاويتها الخاصة، ودعمتها بتأويلاتها الخاصة لنصوص الوحي الإلهي. وهو ما سناحول إبرازه لاحقاً. أما الآن فسنتقل إلى الحديث عن الاتجاه الفقهي، و بيان ما ترتب عنه كذلك من نتائج، ساهمت في تعطيل المنهج القرآني.

ب - الاتجاه الفقهي وأثره في تعطيل المنهج القرآني

لم يكن منهج المتكلمين مقبولا لدى الفقهاء، فلأئمة الأربعة منهم أقوال في الإلزام بهذا المنهج والقائلين به¹. و ذلك بالرغم من أن مجال عمل الفقهاء كان مختلفا عن مجال علم الكلام. ذلك أن الفقه هو استخراج الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية، وهي عملية برزت الحاجة إليها بعد وفاة الرسول ﷺ، فكان الصحابة الكرام أول الفقهاء في تنزيل نصوص القرآن والسنة على ما يستجد من وقائع. ولكن قريهم من عهد النبوة ومعايشتهم للرسول ﷺ، لم تتطلب منهم جهدا كبيرا في ذلك. وهو ما لم يتوفر للأجيال اللاحقة، الذين اجتهدوا في وضع قواعد وشروط، يتوجب مراعاتها لدى من يتولى عملية الفقه في الدين. و قد أفضت تلك الجهود إلى تكوين مذاهب فقهية؛ منها الأربعة المعترف بها عند أهل السنة،

¹ انظر سليمان فياض، الأئمة الأربعة، كتاب الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر، ص 20

المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية، ومنها كذلك ما اندثر ولم يكتب له الانتشار. و كلهم متفقون في المجلد على اعتبار القرآن والسنة والإجماع، واعتماد آلية القياس؛ مصادر أساسية لاستنباط الحكم الشرعي على هذا النحو من الترتيب. بالإضافة إلى مصادر فرعية اختلفوا في درجة اعتمادها. وقد كان من طبيعة موضوع اشتغال الفقهاء، أن يقدموا للناس أحكاما تستوعب معظم؛ إن لم نقل كافة شؤون حياتهم، حيث ظهرت مشكلة التوسع في تقييدات الأحكام الخمسة التي تعضدت ببعض الأصول الفرعية من قبيل سد الذرائع، في سعي من الفقهاء لاستيعاب فقهم كل تصرفات الناس وجزئيات ممارساتهم في الحياة. ولعل هذا أول انحراف عن المنهج القرآني، الذي تعتبر دائرة الإباحة الأصلية فيه أوسع مما تشملها أحكام الفقهاء، الذين سعوا إلى الشمولية والاستيعاب لكل التصرفات الإنسانية مهما دقت تفاصيلها، فأوقعهم ذلك في مخالفة المنهج القرآني الذي يراعي منطق الطبيعة البشرية وما تحتاج له من مساحة مرنة تخضع لمتغيرات الزمان والمكان، وفي هذه المساحة - البراءة الأصلية - تكون الحرية و يكون الفعل الإنساني، ويكون الاجتهاد و الإبداع والعمل والإعمار والتنمية.. وغيرها مما يتحقق به الاستخلاف الإنساني. وهو ما يتفق أيضا مع التوزيع الذي خصصته الآيات القرآنية لكلا المجالين؛ مجال الأحكام و مجال الإباحة الأصلية. ففي الوقت الذي نجد فيه أن آيات الأحكام في القرآن، لا تتعدى 500 آية. وهو ما لا يتجاوز 8 % من مجموع آيات القرآن. نجد القسط الأكبر من القرآن، والمتضمن لقصص الأمم السابقة، وما تنطوي عليه من عبر و دلالات في سنن الترقى والتدافع، وبناء الإنسان والحضارة والعمران، بالإضافة إلى آيات السنن الكونية في الأنفس والآفاق وأمور الغيب، يحظى بالنصيب الأوفر من الآيات القرآنية. أي، ما يشكل 92% من القرآن، وهو ما لم يحظ للأسف بالاهتمام المطلوب من الفقهاء باعتباره غير متضمن للأحكام. ومادامت أحكام الفقه محدودة المصدر القرآني، فقد سعى الفقهاء إلى تكثيفها عبر ركام المرويات المنسوبة للنبي ﷺ، التي تضخمت أعدادها بالدس والوضع خلال مرحلة ما بعد الخلافة الراشدة، وأصبح التعامل معها يتطلب اجتهادات في شروط القبول والصحة، شهدت بدورها اختلافات

جمّة بين المذاهب. فأدى ذلك إلى نمو الخلاف الفقهي وتضخمه في الفروع، تمثّل في تنامي ظاهرة الشروح والهوامش على المتن إلى مستويات مُقلقة من الاجترار والتكرار، لاسيما، بعدما دخلت المدونات الفقهية طور التقليد والجمود، والتزم أتباع كل مذهب بما لديهم من مدونات أئمتهم، حيث صار المذهب مقدما على نصوص الشرع ذاته، وحائلا - في الوقت ذاته - دون التعامل المباشر معها.. فكان أن نتج عن ذلك؛ تضخم فقه العبادات على حساب جوانب حياتية أخرى. ولذلك يجد المسلم المعاصر اليوم تراكما كبيرا لديه على مستوى الجانب التعبدى؛ من مجلدات في الطهارة والصلاة وغيرها، تغرقه في تفاصيل التفاصيل وجزئيات الجزئيات، وتُفهمه أن ذلك من أولى الأولويات لدى المسلم؛ كونه يتعلق بالجانب العبادي. في حين، لا يكاد يحصل على شيء من فقه الحياة والغاية والمعنى، ولا التخطيط والتدبير. بعدما تبين أن كل ذلك الاجتهاد في الفروع والقضايا الجزئية والمفترضة وما يمكن اعتباره عموما الجانب النظري من الفقه كان - في حقيقة الأمر - على حساب الجانب العملي منه أو ما يمكن اعتباره "فقه الحياة". وقد تأسست جذور ذلك الانقسام في العهد الأموي، بسبب ما عاشه الفقهاء من تضيق السلطة السياسية عليهم، مما جعل اهتمامهم يتركز في أمور علاقة الفرد بربه وما تستلزمه من أحكام في العبادات والمعاملات، وكذلك، آداب الأطعمة والأشربة وغيرها.. مما ساهم في إبقاء جانب فقه الحياة مطمورا، وعطل إمكانيات ظهور علوم الإنسان وفق منظور القرآن في تلك العصور، الذي كان سيشكل زادا تراثيا مهما لنا اليوم؛ نبني عليه ونستضيء بتجربته. غير أنه لا ينبغي السقوط في التعميم في هذا المجال مع وجود أعمال استثنائية عظيمة في هذا الاتجاه، مثل ما قدمه الإمام ابن الجوزي في كتاب صيد الخاطر، و الراغب الأصفهاني في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة.. وأضرابهم ممن نسجوا أحكام الشريعة بمقاصد الوجود والحياة ، ولم يحصروا مهمتهم في استخراج الأحكام الشرعية العملية والبحث في أدلتها التفصيلية. لكنهم قلّة مقابل من استغرقته جزئيات المسائل فأضاعوا المعنى والغاية.. وهو أمر يؤكد تأخر ظهور الدراسات المقاصدية في الفقه وأصوله، وكذلك غياب الاهتمام اللازم بما ظهر منها في

محاولات الجويني والغزالي والعز بن عبد السلام وغيرهم. وحتى عندما اكتملت معالمها الكبرى مع الإمام الشاطبي، فقد بقيت الأبعاد المقاصدية للشريعة الإسلامية على هامش علوم التراث الإسلامي. وتحولت رسالة الإسلام بموجب ذلك إلى أحكام وأدلة وقياس، لا تمس الحياة اليومية للمسلم، إلا في ما يخص تعليمات وأحكام مجردة، لتقنين حياة الفرد والجماعة، وذلك وفق قوالب جامدة حوّلت الفقه؛ وهي كلمة تعني حسن الفهم، إلى مهارة عقلية ذات طبيعة ميكانيكية، وكان لذلك نتائج العميقة في تشكيل شخصية المسلم ووجدانه، وتحديد نوعية فهمه للدين والحياة. امتدت آثارها إلى يوم الناس هذا؛ وهو ما يبرز في طبيعة ونوعية أسئلتهم في ما يعتبرونه "قضايا دينية"، وأولويات اهتمامهم في تلك القضايا، وهو ما انعكس كذلك؛ طبيعة قناعاتهم و سلوكياتهم في ما يمكن اعتباره "ممارسة دينية" لديهم. ويمكن اختصار ذلك كله في طغيان الجزئيات من المسائل، والاهتمام بالشكليات من القضايا مع غياب الروح والمعنى والمقاصد من تلك الاهتمامات. غير أن الخطاب الصوفي استطاع أن يملأ بعض الفراغ الذي تركه الاتجاه الفقهي، فقد كان الإمام الغزالي دقيقاً في توصيف كتابه بالإحياء، ليعبر عما أصاب علوم الدين من الجمود والموت، بسبب الجفاف الذي أصاب منظومة الفقه، فأثر ذلك تأثيراً كبيراً في تبرير ما ظهر من تيارات وتوجهات من ثقافات خارجية تتعلق بالباطن والوجدان، وتهتم بالأذواق و المواجهات، وما لا يدخل رصده في السلوك الظاهر للعبادات، وأحكام المعاملات بين الناس، وهي التيارات التي انصهرت في ما عرف بالاتجاه السلوكي أو الصوفي في تراثنا الإسلامي.

ج - الاتجاه الصوفي وأثره في تعطيل المنهج القرآني

للتوجه الصوفي أهمية خاصة في موضوع بحثنا، وذلك من حيث قوة صلته المباشرة بموضوع التنمية البشرية وغايته. إذ أن صلته بهذا الموضوع شبيهة بصلة علم النفس بالتنمية البشرية. فقد تقرّر لدى العديد من الدارسين، صلة علم التصوف بعلم النفس الحديث، انطلاقاً مما رصدوه من أوجه التشابه في طبيعة الموضوع المشترك بينهما - النفس -، وثمرته المتمثلة في السعادة و الرضا، وبلوغ الكمالات.. فهناك من يرى نوع صلة بين التصوف وعلم

النفس العام، كما ذهب إلى ذلك الباحث علي زيعور بقوله: "للتصوف نظرات ثابتة تعود اليوم إلى علم النفس العام"¹. و هناك من سجل سبق مباحث التصوف عند المسلمين لعلم النفس الحديث، (لكم بحث الصوفية عن أسرار النفس وآدابها وعيوبها، ولكم أفاضوا في طريق علاج هذه العيوب.. وذلك كله جانب كبير من جوانب علم النفس الحديث. وإذا كان علماء النفس قد بحثوا عقد النفس، وسموها مركب النقص، فإن الصوفيين يسبقونهم في هذا المضمار طويلاً، وإن كان الجانب الأكبر من اهتمامهم هو البحث عن فضائل النفس وكمالاتها، ولعلنا نسميها "مركب الكمال النفسي"². والملاحظ أن توصيف التصوف هنا، يجعله أقرب لعلم النفس الإيجابي، كما اطلعنا عليه في مدارس التنمية البشرية الحديثة. و نشير أيضاً في هذا الصدد، إلى الدراسة التي نشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعنوان: التراث الإسلامي في علم النفس، وهي موسوعة من ثلاثة مجلدات، حاولت استقصاء المفاهيم النفسية عند علماء المسلمين، وبيان ما يقابل مضامينها من اصطلاحات علم النفس الحديث، واللافت أن معظم الأعمال التراثية في هذا الكتاب ترجع للمتصوفة المسلمين.

وإذا كانت تلك هي صلة التصوف بعلم النفس، فإن صلته بالتنمية البشرية ستكون أقرب بحكم موضوعه وغايته، وكذلك بحكم صلة التنمية البشرية بعلم النفس الإيجابي خاصة. إذ أضحت التصوف بلغة المعاصرين فناً من فنون الحياة: (فهو في ظاهره فن من فنون الحياة يعمل على ضبط السلوك في اتجاه معرفة الخالق).³ وبتصفح موضوعات التصوف و الإلمام بغاياته، نجده يكاد يمثل المعادل التراثي الإسلامي لعلم النفس الغربي المعاصر. فموضوع التصوف الأساس؛ هو النفس الإنسانية، وسبل ترقيتها في مدارج الكمال ومقامات الإيمان و الوصول إلى نوع من السعادة.. وهو في ذلك، شديد الصلة بعلم النفس الإيجابي المعاصر لدى الغرب على مستوى القضية الرئيسية. لكن، وبالطبع، هناك اختلافات كبيرة في نوعية المعالجة لتلك القضية. ومما يؤكد وجود مساحة مشتركة بين

¹ زيعور، علي، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس، ط2، 1984، ص90.

² السلمي، أبو عبد الرحمن، عيوب النفس ومداواتها، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي و عبد العزيز شرف، دار الشروق، 1981، مقدمة المحققين،

ص6

³ حمدي، أيمن، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء القاهرة، 2000، ص12

التصوف وعلم النفس، لجوء العديد من رواد التنمية البشرية في عالمنا العربي المعاصر، إلى ذلك التراث الصوفي، يمتحون منه ما يفيدهم في تقديم دورات التنمية البشرية، محاولين المزج بين ما تقدمه النظريات الغربية، والمدارس التراثية على غرار "فكر المقابسات" الذي ألمحنا إلى وجوده في تراثنا الفلسفي.

و ينبغي التنبيه، أن ما تؤكد المعطيات السابقة من نظرة إيجابية للتصوف، أمر لا يحظى بإجماع الدارسين والباحثين، بل يدور خلاف عميق بشأن التصوف، ودوره في انحطاط التجربة الحضارية الإسلامية. ومن هنا، ارتأينا العمل وفق قاعدة مسح الطاولة، والانطلاق من البداية، لرصد معالم ظهور وتطور هذا الاتجاه في الحقل الثقافي العربي الإسلامي، ولو بإيجاز شديد يسمح بتكوين صورة متكاملة عن هذه المدرسة شديدة التأثير في تراثنا القديم ووعينا المعاصر .

يُعرّف الصوفية أنفسهم بتعاريف متعددة؛ منها، أنهم: (قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسد جوعة)¹. كما يُنقل في وصفهم أن (أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى، وكلامهم كلام الخرقى)². ورغم أن تعاريف التصوف متعددة ومتنوعة تعكس أنواعا من آراء وتجارب القوم في هذا الميدان؛ ليس هنا محل التفصيل بشأنها، إلا أن التعريفين المنوه بهما يقدمان - على العموم - صورة عامة عن التصوف كما أصبح متعارفا عليه في أواسط القرن الرابع الهجري. وهي صورة تتحدث عن نمط حياة خاص جدا، فأى قوم هؤلاء الذين عليهم هجر الأصحاب وترك الأوطان، و يكون من مزاياهم التكلم بكلام الحمقى .. إنها صورة تعكس في ملامحها رؤية خاصة للوجود، وللإنسان في هذا الوجود. وتدفع إلى تساؤل عميق، حول مدى القرب أو البعد عن الرؤية القرآنية والنبوية للإنسان في هذا الوجود، تساؤل نرى ضرورة إرجاء الجواب عنه لفائدة

¹، الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحق، التعرف لمذهب أهل التصوف مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994، ص 11 والكتاب أحد أهم وأقدم الكتب في التعريف بهذا العلم ورجاله كما يدل عليه عنوانه ، فقد خصص الباب الأول من هذا الكتاب لأقوال أهل التصوف في تعريف مذهبهم.

² الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحق، المرجع نفسه، ص12

سؤال أكثر إلحاحا في هذا المقام، وهو كيف ظهر هذا التوجه في البيئة الثقافية الإسلامية، لاسيما، إن كنا نعتقد ببعده عن الرؤية القرآنية للإنسان والوجود؟

تكشف الدراسات حول ظهور قضية التصوف في التاريخ الإسلامي، أنه يرجع إلى كتابات الزهاد التي بدأت في عصر التابعين، وشكلت الإرهاصات الجنينية الأولى لظهور مدرسة التصوف فيما بعد. في هذه الكتابات الزهدية، نجد شبه اتفاق على توصيف الواقع الذي واجهه أولئك الزهاد بأنه واقع يتسم بالبعد عن الدين - جوهر الدين - والتمسك بالقشور، واندراس معالم رسالة الإسلام في نفوس الناس، وقد لخص الحارث المحاسبي (ت 243 هـ) - أحد أوائل الصوفية - حالة الإفلاس الخلقي والسلوكي في عصره بالقول: (إني تدبرت أحوالنا في عصرنا هذا، فأطلت فيه التفكير، فرأيت زمانا مستصعبا، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان، وانتقضت فيه عرى الإسلام، وتغيرت فيه معالم الدين، واندurst الحدود، وذهب الحق، وباد أهله، وعلا الباطل وكثر أتباعه... فالضماير والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف و ضمائرهم).¹ إن هذا يعني أن "الزهاد" في ذلك العصر على غرار المحاسبي أخذوا على عاتقهم مسؤولية التطهير والإصلاح لما رأوه من فساد، والعودة بالناس إلى جوهر الدين الإسلامي وحقيقته. من أجل ذلك، عمل هؤلاء الزهاد على إدراج مروييات عديدة، منسوبة للنبي صلى الله عليه، بغرض معالجة جوانب متعددة وأساسية من حياة الناس. خصوصا منها ما يتعلق بالتعامل مع المال والأولاد والمستقبل، واتخذت معالجاتهم لهذه الأمور طابعا خاصا لم يكن معهودا للمسلمين من قبل. ومن ذلك، حديثهم عن عدم فائدة المال والأولاد في مستقبل الأيام، ومثاله ما رواه المعافى بن عمران الموصلي (ت 185 هـ) في كتاب الزهد أنه «إِذَا كَانَ سَنَةٌ سِتِّينَ فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلْيَجْمَعْهُ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَيْمٌ فَلْيُعَلِّقْهَا مُعَلَّقًا، وَمَنْ كَانَ عَزْبًا فَلَا يَتَزَوَّجُ، فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي وَلَدٍ يُوَلَّدُ بَعْدَ يَوْمِئِذٍ». وأن أبا الدرداء؟ قَالَ: مَنْ يَكْثُرُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ تَكْثُرُ شَيَاطِينُهُ..²، ثم ذكر حديثا عن كره المال والولد

¹ السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، طبقات الصوفية، تحقيق وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998،

ص4

² الموصلي، المعافى بن عمران، كتاب الزهد، دراسة وتحقيق وتعليق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1999، ص 191-192.

موردا دعاء طاوس: (اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وامنعني المال والولد)¹، وإن الإنسان ليتساءل عن نوع "العمل" الذي يسأل صاحبه حرمان المال، وكذلك الولد.. بعد الموصلي بحوالي قرن من الزمان؛ تظهر كتب ابن أبي الدنيا (ت 281 هـ) في الزهديات، مكللة بمرويات حديثة بعضها مرفوع للنبي ﷺ، وبعضها الآخر موقوف على الصحابة الكرام ثم التابعين وغيرهم من صلحاء عصره، فمما نسبته للنبي ﷺ في كتابه عن الزهد أنه ﷺ قال: (الدنيا سجن المؤمن وسنته، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة)² ونجد لدى معاصره ابن أبي عاصم (ت 287 هـ)؛ كتابا آخر بعنوان الزهد، وينسب فيه للنبي ﷺ أنه قال: (لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا)³. ومثل ذلك كثير وغزير في هذه الكتب التي أكثرت من الحديث عن الموت والاستعداد له، وذم الضحك واستحسان البكاء وفضل الحزن و"ذم الدنيا"⁴، واتجهت في العموم نحو التئيس من رحمة الله، بالإضافة إلى حديثهم المتكرر عن فضل "خمول الذكر والعزلة والتواضع وكراهية الشرف والولاية". ومما ينتشر على شيوع هذا النوع من الثقافة في ذلك العصر، تسللها إلى دائرة أهل الفقه والحديث، وهو ما يمثله كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، والذي يروي فيه عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري أنه قال: (وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً أُعْضِدُّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ)⁵

وصنع القوم لأنفسهم مفاهيم خاصة يتداولونها وبها يفهمون أمور الدين من حديث عن المقام والحال والوقت والفناء والغيبة والسكر يقول صاحب الرسالة القشيرية: (وهذه الطائفة - الصوفية - يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها).⁶

¹ الموصلي، المعافي بن عمران، المرجع نفسه، ص 192

² ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد، كتاب الزهد، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999، ص94.

³ ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو، كتاب فيه ذكر الدنيا والزهد فيها والصمت وحفظ اللسان والعزلة، تحقيق عبد العلي عبد الحميد، الدار السلفية، ط1، 1983، ص98.

⁴ "ذم الدنيا" عبارة جعلها ابن أبي الدنيا عنواناً لأحد كتبه.

⁵ ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، الزهد، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ص120.

⁶ القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص150

ولعل هذا النص الذي ذكره القشيري في رسالته، يظهر حجم التغيير الذي أحدثه القوم على مستوى المنهج. وأكبر علامات ذلك، اتخاذ جهاز مفاهيمي خاص، والنزوع نحو التكتّم والتستر، في مخالفة واضحة للرسالة القرآنية، التي قامت على أساس الوضوح والبيان وتيسير الذكر للناس، أي أننا إزاء منظومة وإن كانت تستند لنصوص الكتاب والسنة، فإنها في الوقت ذاته تبتعد عن إطاره التوجيهي العام ومنظومته الكلية. وقد ظل هذا الاتجاه يتكرر في معظم الكتابات الصوفية بعد ذلك، وساهم في إرساء معالم خاصة لطائفة المؤمنين به، فمن ذلك لجوؤهم إلى كثرة البكاء حتى عرفوا بالبكائين، وقد ذكر الجابري في توصيف هذه الطائفة أنها (أنشأت تقليدا جديدا لا أصل له في الإسلام، وإنما عرف في الحضارات السابقة : تقليد سرعان ما ذاع وانتشر هو البكاء والصياح، والتركيز على عذاب الآخرة، عذاب القبر ووصف مشاهد القيامة بحماس وعظمي منقطع النظير، وكأن الله لم يخلق مستمعينهم، وجلهم من الفقراء المغلوبين على أمرهم إلا ليعذبهم مرتين، عذابا نفسيا في الدنيا خوفا من عذاب الآخرة، وعذابا جسميا في الآخرة)¹

وتوصيف "البكائين" يرد في بعض كتب تراجم الصوفية مثل حلية الأولياء لأبي نعيم وصفة الصفوة لابن الجوزي (ت 597) باعتباره درجة مميزة لبعض الزهاد، وذلك بتعبير (وكان من البكائين)²... وهو ما يؤكد استنتاجنا في أن الصوفية رغبوا وسعوا - بوعي أو بدون وعي - إلى تسييج مذهبهم بمواصفات خاصة تكسبهم نوعا من التفرد عن بقية المذاهب والتوجهات التي كانت تموج بها الساحة الثقافية العربية في تلك الفترة.

طبعاً، سنجد من اعتبر أن ظهور هذا المنحى التزهدي في تلك الفترة، كان بمثابة ردة فعل على انتشار الفساد والفسق، والبعد عن الدين في العهد الأموي، حين شاعت مظاهر الترف والبعد عن قيم الإسلام ومبادئه.. لكن الصوفية أنفسهم يؤكدون سعيهم لترسيخ المنحى التفرد لطائفتهم دون الإشارة لأسباب خارجية، وذلك بإحداث تصنيف جديد وغريب للناس في عصرهم، كما فعل القشيري في رسالته حين قال: (الناس في الأدب على ثلاث طبقات

¹ الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 69
² انظر: صفة الصفوة، على سبيل المثال ترجمة حيوة بن شريح، وبردة الصريمية وعبد الله بن مغفل.

أما أهل الدنيا... وأما أهل الدين... وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب في مقام الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب)¹. وواضح أنه يقصد بأهل الخصوصية الصوفية، وإذا كان تقسيم الناس إلى أهل دين وأهل دنيا يثير إشكالا في حد ذاته باعتباره مخالفا للمنهج القرآني كما هو مقرر، فإن اختصاص طائفة بميزة إضافية فوق طائفة أهل الدين يثير إشكالا أكبر من حيث الرؤية التي يصدر عنها هذا التصنيف، فأمر هذا الذي يستدعي توصيفا زائدا على أهل الدين؟

إن إحداث درجة استثنائية خاصة بالمتصوفة في سلم الإسلام تكون فوق الجميع من مذاهب وتيارات وأفكار كانت مجرد البداية لمدرسة سوف تتراكم محدثاتها بعد ذلك إلى الدرجة التي ستصبح فيها الصلة بينها وبين الإسلام موضع استفهام. ذلك ما أكدّه ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس حين أراد تلخيص رحلة التصوف ابتداء من الزهديات إلى اكتمال صورته مع أبي حامد الغزالي بقوله: (كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام. فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها... ثم قال: وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وجعله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى... و على هذا كان أوائل القوم، فلبس عليهم إبليس في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم فكلموا مضي قرن زاد طمعه في القرن التالي فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.... وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء على

¹ القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ج2، ص448.

طريقة القوم وملاءه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه¹

انتهى تقييم ابن الجوزي في رصده للتطور التاريخي لظاهرة التصوف، وما صاحبها من انحراف عن السبيل إلى الخروج عن الشريعة (قانون الفقه) حين اعتمد الصوفية المكاشفة طريقاً للعلم، وهو أمر سيشكل ركيزة المعمار الصوفي عامة. فقد نحا الصوفية إلى القول باختلاف مصدرية العلم لديهم عما لدى الفقهاء والمتكلمين وغيرهم. وهذا التغيير الذي أحدثته الصوفية في مصدرية المعرفة، سوف ينعكس على كل تصوراتهم واعتقاداتهم وممارساتهم. حدث ذلك حين وجد الصوفية أن نزاعاتهم مع الفقهاء محكومة بالضعف والخسارة في ساحة الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة متوسّلة بعلوم الآلة في اللغة وأصول الفقه. فبدأ بعضهم يتحدث عن علم الخرق كما اشتهر من مقولة أبي بكر الشبلي (ت334): (فإذا خاطبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق)²، ويقصد بعلم الخرق ما يحدث بالمكاشفة أو "العلم اللدني". وهو ما قصد الإمام الغزالي إثباته والتأكيد عليه حين تحدث عن حقيقة العلم قائلاً: (فلا بد من طلب حقيقة العلم ماهي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب)³. و"العلم اللدني" عبارة اهتبل الصوفية ورودها في القرآن من خلال قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف، في قوله سبحانه عن العبد الصالح {وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: 65] ، ليعلموا أنهم هم خاصة أهل هذا العلم الذي لا يتعلم باكتساب من البشر. إنه العلم الذي يميز - بحسب الصوفية - أولياء التصوف ويجعلهم في مقام أعلى من الأنبياء. ذلك أن موسى عليه السلام - النبي - لجأ إلى العبد الصالح - الولي - ليتعلم منه. وعلى هذا الأساس، قالوا بوجود علمين علم الظاهر وعلم الباطن وغير ذلك من التفسيرات.... ففي تفسير البحر المديد لابن عجيبة وهو من أساطين التصوف، يقول: (العلم اللدني: هو الذي يفيض على القلب من غير اكتساب

¹ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تلييس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001. الصفحات من 145 إلى 149

² ابن الجوزي، المرجع نفسه، ص 284.

³ الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مراجعة محمد سعيد رمضان البوطي و عبد القادر الأرناؤوط، دار الفتحة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، (د ت) ص32

ولا تعلم، قال عليه الصلاة والسلام : « من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والردائل، وتفرغه من العلائق والشواغل، فإذا كمل تطهير القلب، وانجذب إلى حضرة الرب، فاضت عليه العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول، بل تُسلم لأربابها ¹.

سوف يحدث مفهوم العلم اللدني هذا فارقا كبيرا لدى الصوفية، في فهمهم وتطبيقهم لرسالة الإسلام جملة وتفصيلا. فإذا كان هذا هو العلم عند الصوفية، فما العمل إذن؟ الجواب، أن هذا العلم هو في حد ذاته غاية من الغايات التي يتطلب الوصول إليها مجاهدات من السير ومقامات من التمحيص طلبا لـ "علوم مكاشفة" قد تقنى دونها الأعمار، أي أن ما يقوم به المتصوف في سبيل ذلك؛ هو العمل المطلوب منه في هذه الحياة. فقد تحددت الغاية عند الصوفية في بلوغ علم المكاشفة، وهي غاية لا يمكن إدراكها - وفق مقولاتهم - إلا بالفناء كلية في الله تعالى، والسبيل إلى ذلك الفناء الدخول في رحلة تطهير القلب وإعدادة ليصل إلى مرتبة الاستغراق الكلي في ذكر الله، والجهد المبذول في هذا الطريق هو ذاته العمل المطلوب عند الصوفية، وأما نهايته فتحصيل مقام الفناء وهو منتهى السعادة، وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي: (إنما الوصول إليه "أي: الله" بالتجرد عن علائق الدنيا والإكباب بجملة همته على التفكير في الأمور الإلهية حتى ينكشف له بالإلهام الإلهي جليها، وذلك عند تصفية نفسه من هذه الكدورات، والوصول إلى ذلك هو السعادة)². ويقول في امتداح الطريقة الصوفية (فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها- وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها- الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة- استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله)³

¹ ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله قرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي، القاهرة، 1419 هـ، - سورة الكهف، ج3 ص 288.

² الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ميزان العمل، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط1، 1964. ص 196.

³ الغزالي، محمد أبو حامد، المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مراجعة محمد سعيد رمضان البوطي و عبد القادر الأرناؤوط، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، (د ت) ص69

لبلوغ تلك الغاية - الفناء -، عمد الصوفية إلى تشييد معراج معنوي يقوم على التدرج في مقامات؛ يستدعي كل منها الدخول في أنواع من المجاهدات؛ تُعرف بالرياضة لإخراج النفس عن عوائدها والارتقاء بها في مدارج الكمال. ومما يحسب للصوفية في هذا الاتجاه، اهتمامهم بوضع خطط حياتية شاملة لما ينبغي عمله في الليل والنهار، وكان أبو طالب المكي من أوائل من رسموا خطة شاملة للحياة، وذلك من خلال كتابه الموسوعي {قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد} وهو الكتاب الذي يعتبره الجابري بمثابة برنامج شامل للحياة¹ وبمجرد الاطلاع على فهرس الكتاب، تجده يستوعب أوراد الليل والنهار وتقسيمات الأدعية، ومراقبة الخطرات في كل جزء من أجزاء النهار والليل، بما يخيّل للإنسان أنه مُعد فقط لممارسة هذه الأذكار والأوراد والصلوات المفروض منها والمسنون، الليلي منها والنهاري، إلى الدرجة التي تشي بصعوبة استيفائها كلياً فضلاً عن القيام بعمل آخر إلى جانبها. وأي عمل يرجى بعد؟ لقد وضحنا أن هذه الأوراد، هي - ذاتها - العمل المطلوب عند الصوفية، لأن ما تحققه من استغراق في الله يقود صاحبها إلى الفناء، وهو منتهى الأمانى عند القوم. فالفناء هنا يظهر كَرغبة في الخروج من الحياة التي خلقنا الله تعالى فيها، أو نوع من الاعتراض على الوجود فيها.

ثم تقرر لدى القوم، أن رحلة الفناء تلك؛ لا يمكن السفر فيها دون صحبة الشيخ أو الولي أو الإنسان الكامل، يقول عبد الرحمن بدوي في دراسته عن الإنسان الكامل: (و للأولياء طبقات مرتبة يقوم على ذروتها "القطب".. و القطب يحمل تماماً نفس ملامح وصفات "الإمام المستور" عند الشيعة، وهذا القطب يمثل الوحي الإلهي في كل جيل جيل.. إن الولي الكامل هو بعينه الإنسان الكامل تماماً، وهو الخليفة لله في الكون)². وأمر الصحبة هذا أيضاً تم تأسيسه على قصة موسى والعبد الصالح أيضاً، وذلك حين طلب موسى من العبد الصالح صحبته للتعلم منه فاشتراط عليه عدم السؤال عن أي شيء قبل الإذن له بذلك. وبناء عليه، ومادام الشيخ الصوفي سيكون - في هذه الحالة - هو صاحب

¹ الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2012، ص465

² بدوي، عبد الرحمن، الإنسان الكامل في الإسلام، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1986، ص 65

العلم اللدني، فليس لأحد سؤاله، يقول الشيخ ابن عجيبة في تفسيره: (قد أخذ الصوفية - رضي الله عنهم - آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى - عليهما السلام -؛ فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم، حتى لو قال لشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبداً، سواء رأى من شيخه منكرًا أو غيره)¹. ويضيف في إشارة أخرى حول تفسير القصة ذاتها في سورة الكهف: (الاعتراض على المشايخ موجب للبُعد عنهم، والبُعد عنهم موجب للبُعد عن الله، فلا وصول إلى الله إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام.. فالواجب على المريد، إذا كان بين يدي الشيخ، السكوت والتسليم والاحترام والتعظيم، إلا أن يأمره بالكلام، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت، فإذا رأى منه شيئاً يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له، ويطلب تأويله، فإن الشريعة واسعة، لها ظاهر وباطن)²، وقد سبق للإمام الغزالي أن قرّر هذا المعنى بدوره في إحياء علوم الدين قائلاً: (وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران.)³ ويُنقل عن السهروردي قوله: (أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار.. لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره)⁴ كما جاء في الرسالة القشيرية (ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبتته، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة على جنايته ومخالفته)⁵. يقول الجابري - رحمه الله - : (فإذا نحن أردنا تلخيص علاقة الشيخ بالمريد في كلمة واحدة وجب القول: إنها "الفناء" فناء المريد في الشيخ)⁶. وبموجب ذلك، سيتحول "الشيخ العارف" إلى محور "الوجود" بالنسبة للمريد، وللقوم في ذلك حكايات وروايات لتعزيز توجههم هذا، وذلك من قبيل ما ورد في الرسالة القشيرية (ثم يجب على المريد أن يتأدّب بشيخ؛ فإن لم يكن له أستاذ لا

¹ ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله قرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي، القاهرة، 1419 هـ، سورة الكهف، الجزء 3 ص290

² ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، المرجع نفسه، سورة الكهف.

³ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت) ج1 ص54

⁴ السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص206

⁵ القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ص622

⁶ الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، ص 452

يفلح أبدا. هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان)¹. هكذا صار الشيخ بديلا للقرآن في تدبير حياة الإنسان وتحقيق سعادته، وإذا كان القرآن الذي هو كلام رب العالمين، يدعو من يشكك في مصداقيته إلى التدبر فيه ليتحقق إيمانه { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء: 82] ، فإن الشيخ في مجال التصوف لا ينبغي الاعتراض عليه ولو بالقلب²، ومن هنا ظهرت فكرة "الإنسان الكامل" بالمنظور الصوفي الذي ترسخ بمرويات ونصوص ملأت كتب القوم، وتدعمت الفكرة بما نصبه الصوفية من سلم لمراتب الولاية منهم أربعون يتصرفون في شؤون العالم، فمن ذلك مرتبة القطب، يقول ابن عربي (ومن خصائص القطب أن يختلي بالله تعالى وحده ولا تكون هذه المرتبة لغيره من الأولياء أبداً، ثم إذا مات القطب الغوث انفرد تعالى بتلك الخلوة لقطب آخر، لا ينفرد قط بالخلوة لشخصين في زمان واحد أبداً. وهذه الخلوة من علوم الأسرار. وأما ما ورد في الآخرة من أن الحق تعالى يخلو بعبد ويعاتبه فذلك من باب انفراد العبد بالحق تعالى لا من باب انفراد الحق بالعبد فافهم واكتم)³.

وللصوفية أخبار وحكايات عجيبة من شيوخهم، تعزز في ثقافة العامة ما سبق تسطيره من أساطين القوم. ومن ذلك أن السيد عبد العزيز الدباغ كان عارفا بالعلوم المختلفة رغم كونه أميا لم يحفظ القرآن، فقد جاء في مقدمة كتاب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ: (وكل من سمعه يتعجب منه، ويقول ما سمعنا مثل هذا، ويزيدهم تعجبا كون صاحبها لم يتعاط العلم... وقالوا هذا والله الولي الكامل والعارف الواصل)⁴. ولأن تلك الأقاويص تعبر عن آمال المحبطين و المقهورين، فقد شاعت في نفوس الجماهير من الناس، وتناقلها القصاصون و صدقها الناس، خصوصا العوام. لأنها تعبر عن الطموحات المصادرة والآمال المحطمة والرغبة في تعويض النقص.. و مثلما يحدث دائما في مثل هذه

¹ أبو القاسم القشيري، عبد الكريم بن هوزان، الرسالة القشيرية في علم التصوف، باب الوصية بالمريدين، ص 621

² يقول القشيري في باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم: (فمن صحب شيئا ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة) ص 538

³ من كتاب اليواقيت والجواهر للشعراني، نقلا عن: صالح الرقب، محمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية ، ط 2006، ص 88

⁴ السجل ماسي المالكي، سيدي أحمد بن المبارك، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2002، ص 3، ص 6-7

الأمر؛ تتداعى الأفكار ويُغذى السابق منها اللاحق، لتتكاثف ظاهرة الحكي عن الشيوخ العارفين والواصلين بسرد الحكايات عن أحوالهم إلى الدرجة التي لا يمكن في بعضها تصديق صدورها عن مسلم¹.

وواضح من خلال هذه النقولات، القيمة التي يحتلها الشيخ في مذهب التصوف، إلى الدرجة التي تلغي وجود الشخص المريد، فضلاً عما تمنحه من سلطة للشيخ في محاسبة الخلق على الأنفاس، إلى غير ذلك مما يظهر ابتعاداً كاملاً عن روح القرآن وتعاليمه المباشرة، التي لا تلغي شخص الإنسان أمام أي كان، والتجربة النبوية شاهدة بما حدث من حوارات وجدالات من بعض الصحابة، و التي تخبر أن القرآن حتى في حالة خطئهم لم يوجه إلى مثل هذا السلوك² الذي فرضه المتصوفة بحجة الشيخ الكامل، وهو ما يؤكد حجم الانقلاب الهائل الذي أحدثته الرؤية الصوفية ضداً على الرؤية القرآنية.

لقد كرس التصوف فكرة الإنسان الكامل كنموذج بشري يحتذى، وتحدثوا عن مراتبها ودرجاتها مثل الأقطاب والأولياء والأبدال، على الرغم من تفنيد بعض فقهاء الإسلام لهذه الفكرة مثل شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته { الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان } قال فيه: (كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدد الأولياء، والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد، والأقطاب....فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ).³ ففكرة الإنسان الكامل وإن حاول الصوفية أن يدعموها بمرويات منسوبة لنبي الإسلام ﷺ، إلا أن عوامل التأثير الثقافي والديني الخارجي واضحة فيها. و بالرغم من كل ذلك فقد استمرت الفكرة حية تتغذى على مرويات منسوبة لنبي الإسلام، وانعكس الإيمان بصدقيتها لدى طائفة كبيرة من علماء

¹ مثال ذلك ما رواه الغزالي في الإحياء (قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟ فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة - وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع - قال: فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه! فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاوننا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن كان صاحبكم صادقاً واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله، لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.) كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا من إحياء علوم الدين.

² انظر في ذلك: قصة أسباب نزول سورة الحجرات في قوله تعالى: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"

³ ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مكتبة المعارف، الرياض، 1972، ص9

المسلمين في العصر الراهن. كما يظهر ذلك عند كل من البوطي و سعيد حوى - رحمهما الله - وغيرهما.

وقد انعكست هذه الرؤية الصوفية على الحياة الإسلامية بنتائج شديدة الخطورة، فتغيير مفهوم العلم استتبعه تغيير مفهوم العمل، ثم التسليم للشيخ والذوبان فيه حيث لا استقلالية للشخص ولا مسؤولية أيضا، كيف يكون مسؤولا و التوكل في الفهم الصوفي هو ترك التدبير؟ كما ذكر ذلك الغزالي حين أورد في كتابه الإحياء: (قال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير، وقال: إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم)¹

ولابن عطاء السكندري كتاب بعنوان {التنوير في إسقاط التدبير}، ذكر في مقدمته سبب تأليفه للكتاب بقوله: (وإن من طلب الوصول إلى الله فحقيق عليه أن يأتي الأمر من بابه، وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه، وأهم ما ينبغي لك الخروج عنه والتطهير منه: وجود التدبير ومنازعة المقادير)². كما أورد في هذا الكتاب من الشواهد والأقوال، ما يساير به عقيدة الجبر، ومما يؤكد ذلك ما أورده من قول أبي الحسن الشاذلي : (إن كان ولا بد من التدبير فدبروا ألا تدبروا.. لا تختار من أمرك شيئا واختار ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء إلى الله تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار)³

وفي الرسالة القشيرية: (أول مقام في التوكل: أن يكون العبد بين يدين الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء؛ لا يكون له حركة ولا تدبير. "ويلق الجابري على هذا بالقول: " هل بجانب الصواب إذا قلنا : التوكل إعراض عن العمل، عن عمارة الأرض التي أمر بها القرآن، وتكريس للجبر وإسقاط للمسؤولية؟)⁴ كما أن للجابري توصيف دقيق في خلاصة أبحاثه عن الصوفية حين قال: (من هنا كانت أخلاق الفناء هي أخلاق

¹ أبو حامد الغزالي ، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ب) كتاب التوحيد والتوكل، ج3 ص363
² السكندري، أحمد ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط1، 2007، ص12.

³ السكندري، أحمد ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، المرجع نفسه، ص13

⁴ القشيري، المرجع نفسه، ص 472

اللاعمل، مبدؤها: ترك التدبير، عدم التفكير في المستقبل!.. والحق أن أخلاق الفناء لا تنتهي إلى فناء الأخلاق وحسب، بل وإلى فناء الأمم¹

نعم، إن الفناء هو نتيجة حتمية ومباشرة لقطع العلائق مع الدنيا، والارتقاء تحت أعتاب الإنسان الكامل الذي يملك من مواصفات الكمال ما يكاد يجعله إلها ويؤهله لسلب إرادات مريديه، وهو ما لم يفعله الخالق سبحانه مع عباده. ولنا أن نتخيل حجم التغيير الذي أحدثته الثقافة الصوفية في عقلية قطاع واسع من المسلمين، تربى على طلب الأسرار والغيبات عبر المجاهدات بالرياضة والخروج عن العوائد، وصحبة الشيخ الكامل طلبا للكمال، ومادامت السعادة قد تحددت في بلوغ الفناء، فلا معنى لأي شيء آخر في هذه الحياة، ومن ثم، ظهر في اجتهادات القوم ما يعزز نمط الحياة وفق هذا التوجه بما في ذلك الأمور المخالفة للشريعة وسنة النبي ﷺ، فقد نقل أبو طالب المكي (ت 386 هـ) عن أبي سليمان الداراني أحد رواد الصوفية الأوائل (ت 215 هـ) قوله: (من تزوّج أو كتب الحديث أو طلب معاشاً فقد ركن إلى الدنيا، وقال بعض هذه الطائفة: كل من أدرك العلوم غير العلم بالله عزّ وجلّ فقد استدرك والذي أدرك العلم بالله فقد تدورك ثم تلا قوله تعالى: "لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ"²

إنها رؤية تختلف جذريا عن الرؤية الإسلامية التي جاء بها القرآن، وجسدتها التجربة العملية لرسول الإسلام محمد ﷺ. وسوف تتمدد كما وكيفا، وتتعاقد عبر الزمن لتشكل في النهاية رؤية كونية جزئية من أبرز تجلياتها إعادة تنميط الحياة الإسلامية وفق نمط خاص، يتباعد عن رؤية القرآن الكريم تباعدا ظاهرا.

ويبقى التساؤل؛ كيف للتصوف أن يكتسب كل تلك المساحة في الفضاء الثقافي العربي قديما ويسجل كذلك حضوره القوي على مستوى التدين الذي تدين به قطاعات عريضة من مجتمعاتنا العربية الإسلامية اليوم؟ الشيء الذي يؤكد شيوخ ثقافة الزوايا

¹ الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، ص 488

² أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005، ص 269.

والأضرحة ومواسم الأولياء، وما تجتذبه اليوم من اهتمام في جل الأقطار العربية. والجواب، أنه بالرغم من كل الانتقادات التي وُجّهت للتصوف، إلا أن أحدا لا ينكر أنه غطى مساحة في بناء الشخصية تم إهمالها من لدن الفقهاء، تلك المتعلقة بتزكية الأنفس وتربيتها ورعاية أحوالها والسعي إلى ما فيه نيل سعادتها. ذلك أن نظرة متفحصة في كتب التراث الصوفية، لا يمكنها أن تغفل وجود معاني متدفقة حول طبيعة النفس البشرية و مداخلها وأسرارها، وذكر بعض مقاصدها المرتبطة برسالة الإسلام نوع ارتباط. فنجد حديثا مطولا عن الغايات التي خلق من أجلها الإنسان، وأحوال النفس الإنسانية وطريق بلوغ السعادة.. وفي هذا السبيل تواصل التراث الصوفي مع مفردات قرآنية جمّة، من قبيل الصبر والخوف والرجاء والتوبة والشكر والإنابة والتقوى... كما تميز الخطاب الصوفي بالحديث عن ما يمكن اعتباره خطة العيش في الحياة بدءا من تحديد الغايات إلى وضع البرنامج العملي، وهي أمور من الحاجات الإنسانية الأصلية في النفس البشرية، بغض النظر عن المضامين التي قدمها المتصوفة في هذا الشأن. وعموما، فقد انتعش التوجه الصوفي في ظل فقه جامد يصرف معظم مهاراته في طرق استخراج الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية، دونما ربط بالمقاصد والغايات من تلك الأحكام - في الغالب الأعم - وهو ما جعل التصوف يملأ هذا الفراغ الذي يعنى بالقلب والوجدان الإنساني وغاية وجوده.

و نظرا لأهمية وقيمة المقاربة الصوفية، وجدنا العديد من العلماء والفقهاء المرموقين يعملون على تقديم شروح أو اختصار كتبهم، والعمل على تهذيبها مما شابها من أمور مخالفة للشريعة. وأشهر من قام بذلك في تاريخ تراثنا الصوفي الإمام ابن القيم في المشرق من خلال كتابه مدارج السالكين، والشيخ أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي المعروف بالشيخ زروق في كتابه {قواعد التصوف} رام فيه الجمع بين الفقه والتصوف (على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة)¹

¹ زروق، أحمد، قواعد التصوف، ضبط وتعليق محمود بيروت، دار البيروت، دمشق، ط1، 2004.

فأما ابن القيم، فقد قدم شرحا مستفيضا لكتاب منازل السائرين للشيخ اسماعيل الهروي، والذي يعتبر من شيوخ الإسلام في عصره. وعلى غرار معظم الصوفية، فإن طريق الوصول إلى الله يكون عبر محطات أو مقامات عبّر عنها الشيخ الهروي بالمنازل وعبّر عنها الشارح - ابن القيم - بالمدارج، فصاحب المنازل يبدأ كتابه بمنزلة التوبة ثم يتبعها الإنابة ثم التذكر والاعتصام....ويقسم كل منزلة إلى درجات يحكمها ترتيب تصاعدي في مستوى الارتقاء الإيماني حيث تكون الدرجة الأخيرة غالبا مرتبطة بفكرة الفناء، وغالبا أيضا، ما نجد الشارح - ابن القيم - يختلف مع صاحب المنازل في هذه الدرجة، كونها خارجة عن حدود الاستدلال الشرعي من الكتاب والسنة، وبذلك أسدى ابن القيم رحمه الله خدمة جليلة للاتجاه الصوفي من خلال هذا الكتاب وأضفى على بعض أجزائه نوعا من الشرعية.

وأما الشيخ أحمد زروق الفاسي (ت 899)، فقد عرف بين أهل التصوف بمحاولته الجمع بين الحقيقة والشرعية، وهو الفقيه الصوفي الذي طاف بلدان شمال إفريقيا، فراعه الكثير من مظاهر الشطح والبعد عن الالتزام بأحكام الشريعة لدى قطاع عريض من المتصوفة، اعتقدوا بإسقاط التكاليف الشرعية، فسارع إلى كتابة قواعد تجمع بين الفقه والتصوف، للاحتفاظ بهيبة الشريعة من جهة، مع الاعتماد على التصوف باعتباره طريقا للوصول إلى الله عبر مقامات الإحسان.. وفي السياق أيضا، نشير إلى أن ابن الجوزي ورغم انتقاده اللاذع لكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي كما قدمنا، عمل على اختصاره في كتاب سماه منهاج القاصدين والذي اختصره بدوره ابن قدامة المقدسي تحت مسمى "مختصر منهاج القاصدين".

والملاحظ من خلال أعمال كل هؤلاء الأعلام، أن التصوف أصبح عنصرا لا يستغنى عنه في معادلة بناء الإنسان وتربيته في المنظومة الإسلامية، بحيث لا يمكن إقصاؤه أو استبعاده. إذ يحسب للاتجاه الصوفي اهتمامه بموضوع السعادة، بصرف النظر عن الطريق التي سنّها من أجل ذلك. والحق يقال، أن مباحث التصوف في مقامات العبادة والقيم الخلقية في تعامل الفرد مع ذاته ومع ربه ومع الناس من حوله، وما اعتمدته أيضا من غوص في

الذات وسبر حقيقة الإنسان وأحوال النفس من إرادة ونزوع وغرائز وصولاً إلى تهذيبها عبر الرياضة... و يمكن القول إجمالاً، أن الاتجاه الصوفي قدم بالفعل معالم منظومة تربوية قائمة على تزكية النفس وتدريبها على الطاعة قصد الوصول للسعادة والرضى، وغيرها من المعاني التي ساهمت في إغناء المعارف المتداولة حول النفس البشرية، واعتمد في بناء منظومته على كثير من نصوص الوحي الإلهي قرآناً وسنة، ونرى أنه وُفق في ذلك المسعى بقدر ما استقى من نصوص الوحي الإلهي على الوجه الصحيح، وهو عزيز. ولكنه أيضاً، وبقدر ما تأثر واغترف من ثقافات غنوصية وفارسية وهندية وافدة، هوى بتلك المنظومة كلياً، وأرسى من خلالها معالم انحطاط في بناء الإنسان وتكوينه الذاتي بالعمل على تكريس السلبية و التواكلية، فأنتجت هذه المنظومة إنساناً مسلوب الإرادة فاقداً للفاعلية.

إن التحول من مرحلة الاستقاء المباشر من القرآن الكريم الذي كان يشكل القاعدة الأساس للرؤية القرآنية الكونية والمنهاج العملي في الحياة الإسلامية، إلى مرحلة اتسمت بتفريخ مذاهب وأفكار تمازجت وتلاقحت بثقافات عصرها، ثم تسلت تدريجيا إلى الحياة العربية الإسلامية، وشكلت بالتدرج مرجعيات لحياة المسلمين، اعتبرت بطريقة ما "بديلة" للمرجعية الأم. أمر يمكن اعتباره لحظة فارقة بين ما قبله وما بعده، على مستوى التجربة التاريخية الحضارية الإسلامية. فقد كان للخصومة والتنازع بين تلك الاتجاهات والمذاهب التراثية، نتائج السيئة في تشرذم الرؤية الكونية التي أسسها القرآن الكريم للإنسان والكون والحياة، وأدى تنازع تلك المذاهب الفرعية والجزئية حول شرعية رؤاها التجزيئية في النهاية إلى اختزال الإسلام في ما تدعيه وما تدعو إليه كل منها.

وكان من أبرز نتائج ذلك التشرذم، فصل الإيمان (العقيدة) عن العمل، وكذلك فصل العمل عن السلوك والقيم الأخلاقية. نعم ، لقد حضرت الأخلاق عند الفقهاء كما عند علماء الكلام، من الأجيال الأولى التي كانت تستبطن في رؤيتها، التكامل الذي أرساه الوحي الإلهي بين هذه المكونات؛ كونها مأسولة في الرؤية القرآنية؛ فلم يخل اشتغالهم التخصصي دون أن يكونوا أقرب في تصوراتهم الذهنية إلى المنظومة المرجعية المتكاملة من القرآن والسنة. غير أنه، وبمجرد الابتعاد زمنيا عن اللحظة الأولى، تمخض كل علم من تلك العلوم الثلاثة الأساسية في التراث الإسلامي على جانب استقلالي يميزه، و هو ما قد يكون مفيدا وإيجابيا إذا أخذناه من زاوية التخصص العلمي في مجال معين، لكن الاستقلالية هنا، كانت تعني تقديم كل مدرسة من تلك المذاهب لرؤية أحادية تعمل - غالبا - على اختزال كل التعاليم الإسلامية فيها، وتبخيس ما عداها من الرؤى الجزئية أيضا. ولم يختف يوما التنازع بين تلك الاتجاهات / المناظير حول شرعية القول في الدين، وكان من نتائجه أن كل مذهب يغالي في قوة انتسابه الشرعي، بل إن بعض علماء المسلمين في علوم الفلك والرياضيات

وغيرها كانوا يجهدون في تقديم المبررات، التي تجعلهم يشتغلون بتلك العلوم، و تبرير أن انشغالهم بها جاء من أجل خدمة الشريعة والفقه...

فلما كان هذا التقسيم للمجتمع الإسلامي تبعا لعلمائه ومذاهبهم قد صار واقعا، طفت إلى السطح قضية الأفضلية تكون لمن؟ فأهل الحديث يعتبرون أنفسهم الطائفة المنصورة، وقد روي عن الإمام أحمد في شأن هذه الطائفة قوله: (إِنَّ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فَلَا أَذْرِي مَنْ هُمْ)¹ ثم حدثت خصومات عنيفة بين الفقهاء والمتصوفة لعل أقدمها تلك التي جرت بين الحارث المحاسبي (ت 243) والإمام أحمد (ت 241) فكان الإمام أحمد يقول : (حارث أصل البلية .. ما الآفة إلا حارث)² . علما أن الإمام المحاسبي هذا كان ممن جمعوا بين الفقه والكلام، واللغة والقرآن³ . فكيف الحال بمن هم دونه بمراحل؟... كما وينقل عن ابن رجب الحنبلي قوله: (الكلام في العلوم الباطنة، من المعارف وأعمال القلوب، وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم. وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره)⁴.

وفي شأن علماء الكلام يقول ابن عبد البر: (أَجْمَعَ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ مِنْ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ أَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ أَهْلُ بِدْعٍ وَرَيْغٍ وَلَا يُعَدُّونَ عِنْدَ الْجَمِيعِ فِي طَبَقَاتِ الْفُقَهَاءِ، وَإِنَّمَا الْعُلَمَاءُ أَهْلُ الْأَثَرِ وَالنَّقْطَةِ فِيهِ..⁵) . و كان الإمام الشافعي يرى أن علماء الكلام ينبغي ضربهم بالجريد والنعال ومن أشعاره المنسوبة له في ذلك :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث والفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

¹ الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه، شرح وتحقيق: أحمد بن فارس السلو، تعليقات الحافظين المؤتمن الساجي والتقي ابن الصلاح، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003. ص 107
² ابن أبي يعلى، أبو الحسين محمد ، طبقات الحنابلة، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكة المكرمة، (د.ط)، 1999. ج1، ص 150.

³ انظر الكلاباذي، التعرف إلى مذهب أهل التصوف، ص12

⁴ الغفيلي، عبد الله بن سليمان، ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف، دار المسير ، ط1، 1998، الرياض، ص449

⁵ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1 ، 1994، ج2، ص 942.

يؤكد لنا مثل هذا النوع من الروايات حجم الصدام الذي كان سائدا بين أتباع المذاهب العقدية والفقهية والسلوكية.. غير أنه ما لبث هذا الصراع أن هدا بين هذه الكيانات جميعها، بل حدث نوع من التوافق لدى المسلم في تشربها مجتمعة داخل كيانه، وأصبح تقليدا متبعا أن ينتسب المسلم إلى مدرسة في الفقه وأخرى في الكلام/العقيدة وثالثة في السلوك. في تلك اللحظة التاريخية كانت تلك المذاهب جميعها قد شكلت جدارا سميكاً بين المسلم والقرآن، إذ تحولت بموجب قواعد ومبادئ تعليمية إلى ما يمكن اعتباره "مناظير" متعددة لا يمكن للمسلم أن ينظر في الوحي الإلهي إلا من خلالها. فانفرط بذلك العقد المنظوم للرؤية الإسلامية في مجال المعارف والعلوم، وخلق إمكانية ظهور علوم إنسان اجتهادية مستمدة من الرؤية الإسلامية. وكان لذلك بالغ الأثر في بناء الإنسان حيث أخذت الأبعاد الاستخلافية والتسخيرية والعمرانية تختفي تدريجياً. ثم ساهمت هذه المدارس التي تركزت تاريخياً في المجال التداولي الإسلامي حينها، في خلق حواجز بين المسلم ومصدره الأم في التربية والتوجيه، بما أهدرته من أعمار وطاقت الناشئة الإسلامية، في تعلم علوم ومعارف تفصيلية، وفق مقاربات تجزئية لنصوص الوحي حسب الفروع والمدارس المتبعة، فكان لذلك بالغ الأثر السلبي في تشكيل شخصياتهم وتصوراتهم، التي عكست مستوى ابتعادهم عن التلقي المباشر من مصدر الوحي. و ظهر أثر ذلك جلياً في قضية هجر المسلمين للقرآن، واكتفائهم بتقليد المذاهب المتبعة. مما أثر تأثيراً سلبياً بالغاً في التجربة الحضارية الإسلامية، ففي الوقت الذي كانت فيه أشعة الوحي تثير أرجاء العالم الإسلامي بفعل قوة الدفع الحضارية زمن الأجيال الأولى، كانت تتشكل عقليات تجزئية ومذاهب تفرعية أعملت معاولها في هدم ذلك الصرح الحضاري، وأسست من حيث لا تدري لدور الانحطاط في التجربة الإسلامية.

إن انتقادنا لمخلفات تقسيم العلوم في التراث الإسلامي أتى بسبب ما أحدثته من تأثير على الإنسان المنشود قرآنياً، فالتقسيم اجترأ النصوص القرآنية من سياقاتها التربوية ومقاصدها الكلية، وأدى إلى فصل العبادات عن المعاملات، واهتم بالأحكام التي تستند إلى

ظواهر السلوك الشكلي في الأداء، وأدى ذلك إلى تغيير في أولويات المسلمين في الحياة؛ نتيجة هجر القرآن روحا ومعنى. وتبرز مقدمة ابن القيم لكتابه {مدارج السالكين} كيف أن قضية هجر القرآن إزاء أقوال وأهواء البشر، صارت واقعا قائما آنذاك، يقول رحمه الله: (درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودرثت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها. ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها... حرّموا والله الوصول بعدولهم عن منهج الوحي، وتضييعهم الأصول. وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها فخانتهم أحرص ما كانوا عليها..)¹

ومثال ذلك ما رأينا في التجربة الصوفية التي قامت على فكرة الوصول إلى الله تعالى، فكرة تقوم على قطع العلائق بالدنيا، وبالناس، وما يرتبط بذلك من تطلعات وأعمال، وأهداف في الحياة الدنيا، كما دعت إلى التوجه نحو العزلة والخمول وتحبيب الفقر، وبيان أفضاله باعتبار ذلك هو بداية الطريق للوصول إلى الله تعالى من خلال رحلة إليه، متمحورة حول الذات، عمادها الذوق والتجربة؛ القائمة على التدرج في منازل أو مقامات يستدعي كل منها أنواعا من الرياضات والمجاهدات، وكأن دين الإسلام قرآنا وسنة لم يكن كافيا، بغض النظر عن فكرة الوصول إلى الله تعالى ذاتها والتي تطرح أكثر من استفهام عن مصدريتها ومعناها. لأن ما يعرفه المسلم من كتاب ربه وسنة نبيه هو إرضاء الله تعالى بامتثال أوامره واجتتاب نواهيه حتى يكون من العباد الصالحين، والمقربين كذلك في وصف أعلى درجات الرضى الإلهي عنهم، قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: 10، 11] وقال سبحانه: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: 19]. لذلك نجد لدى المتصوفة معجمهم الخاص حول القرآن والسنة، وذلك تحت ذريعة عدم كفاية اللغة في التعبير عن مواجيدهم. وبسبب ذلك أظهر القوم تعبيرات جسدية تحت مسمى الشطح. وقد وصل الأمر ببعضهم إلى إسقاط التكاليف الشرعية لاعتبارها مجرد رموز لمعاني باطنية... مما يؤكد أن التصوف دشن مساره خرج الرؤية الإسلامية الكونية، وأعاد تأويل نصوص الكتاب والسنة لتناسب رؤيته الخاصة،

¹ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق أحمد فخري الرفاعي و عصام فارس الحارستاني، دار الجبل، بيروت، (د.ت) ص 28

فامتلت قصص الأنبياء بحوادث وكرامات تخرج الإنسان عن نطاق القوانين البشرية وتدخله في عالم تسخير القوى الكونية له بمجرد أن يسلك سبيل مقامات التصوف، وقد شاع مناخ هذه الأقاويل وتعززت بحكايات القوم المتعددة، وتدفقت في مخيلة العامة من المسلمين وقسط لا بأس به من علمائهم، وتحولت عبر الزمن إلى رصيد من الثقافة الشعبية التي يؤمن بها غالبية الناس في المجتمعات الإسلامية، فينسبون إلى قادتهم معجزات وكرامات تربو عن الحصر. كل ذلك ساهم في انحطاط التجربة الحضارية الإسلامية، بل وغذى في زمن الانحطاط والتخلف الإشباعات الوهمية للذات الفردية والجماعية و المرتكزة على الحلول الجاهزة السريعة التي يحققها الإنسان الكامل القطب أو الغوث بخرقه لسنن الكون والنفس، وهو ما كان يمثل في حقيقة الأمر تعويضا لاشعوريا عن واقع مأمول.

لقد كان لانتشار عقيدة التصوف بأبعادها النفسية والسلوكية دورا خطيرا في تغيير مفهوم القدوة في المجتمع الإسلامي، وذلك بالتركيز على مواصفات الإنسان الكامل، وتعزيز الاهتمام بالأمر القلبية الباطنية على حساب الجوانب العقلية والمعرفية بما يحقق التوازن المطلوب في تنمية الإنسان. إضافة إلى التركيز على البعد الأخروي بشكل مبالغ فيه إلى الدرجة التي يتم معها إلغاء الشعور بالوجود المادي في الدنيا، وأيضا، التركيز على الجانب الروحي إلى الدرجة التي يتم فيها تعذيب الجسد ضمن طقوس الرياضة المعروفة.. فضلا عما في هذا الطرح من انسياق كامل وراء التعاليم البوذية والغنوصية الباطنية وغيرها، فإنه طرح لا يتطابق مع احتياجات الإنسان العادي ومتطلباته، كما لا يتوافق مع التوجيهات القرآنية ومفاهيمها عن الحياة والإنسان والنفس ومقتضى الوجود.

إن الانتقال من كتاب الله المبين إلى معجم المفاهيم الصوفية شديد الإلغاز، و الذي لا يفهمه إلا خاصتهم، كان تعبير حقيقيا عن الانتقال من الرؤية الكونية القرآنية الواضحة إلى ما يشبه ديانات الأسرار التي انتهت إلى القول بأخلاق الفناء. لذلك كان نقد الجابري لازعا لهذا الاتجاه داخل الفضاء الثقافي الإسلامي (وإذا أضفنا إلى ذلك أن الدين الذي قامت هذه الحضارة على أساسه يبشر بقيم إيجابية نحو الحياة، وباسم هذه القيم قامت تلك

الفتوحات واتجهت تلك الحضارة اتجاها عالميا أدركنا أي لغز ينطوي عليه انتشار "أخلاق الفناء" في الحضارة العربية الإسلامية منذ العصر الأموي¹.

ويمكن القول عموماً؛ أن الرؤى المنحرفة جزئياً أو كلياً عن التصور الإسلامي الصحيح، شكلت في مجموعها وأجزائها حاجزاً بين المسلمين ومصادر هدايتهم، ذلك ما خلص إليه أيضاً الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله في دراسته عن التوحيد حين قال: (فأنى ترتفع للمنهج التوحيدي راية؟ وما قوامه إلا بالنصوص الشرعية. وبين هذه وبين مدارك الناس هوة شاسعة، تعمرها بثقلها وكثافتها وساطات التقليد العقدي والفقهي والطريقي؛ مما جعل النصوص الشرعية غائبة عن حياة الناس تربية وتديناً، بل لقد مالوا إلى ضرب من تحريم النظر إليها، باعتبار أن العقل المستقل بالنظر قد انقرض منذ القرون الأولى، وأنه لا يسع أحداً الآن إلا تقليد الأوائل والأشياخ والأقطاب، مهما أوتي من سعة العلم والعقل!)²

كما أشار الدكتور عبد الحميد أبو سليمان إلى ما أحدثه ذلك التجزئ التراشي لنصوص الوحي من تشويه للرؤية القرآنية والابتعاد عن روحها ومقاصدها حين قال: (الرؤية الكونية الشاملة الواضحة الصافية في توحيد الخالق، وغائية الخلق، واستخلاف الإنسان، وقصد الخير والإصلاح والإتقان، وحمل المسؤولية، أصابتها - نتيجة طبيعية - على أيدي جمهرة المفكرين المدرسين المعزولين المنعزلين المنقطعين للدراسة والتأملات والأبحاث النظرية، المركزين على حالات أفراد المجتمع وحاجاتهم، تشوهات خطيرة، أسهمت بحسن نية، وعلى المدى الطويل - في ذبول روح الإسلام وقوة دفعها في رؤية الأمة، ومكنت لفعل عوامل التخلف في كيانها كي تفعل فعلها فيها؛ وتسلم الأمة إلى حالة من السلبية وانعدام الوزن، وتقتل فيها كل إرادة للبحث والتنقيب والتجديد والدفع)³

و أرجع الفاروقي - من المعاصرين - عجز المنهجية الإسلامية التقليدية عن إصلاح واقع الأمة إلى حصر مفهوم الاجتهاد في الفقه، وحب الاغتراب في الدنيا وإهمال

¹ الجابري، نفسه ص430

² الأنصاري، فريد، التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة، ط2015، ص148

³ سليمان عبد الحميد، أزمة الإرادة والوجدان المسلم، دار الفكر، دمشق، ط2004، ص55-56

شأنها وتركها للطغاة والفاستدين والتحليق في المثاليات الصوفية التي تجمدت في صورة انعزالية كرسست الغربية بين العقل والوحي¹. وقد كان لكل ذلك آثاره السلبية على المستوى التكويني النفسي والتربوي، وعلى مستوى بناء الشخصية الإنسانية عامة.. فقد خلقت الرؤى التجزيئية هويات جزئية على شاكرتها. فما من شك أن عملية التجزئة التي أخضع لها القرآن في تراثنا الإسلامي قد جزأت تعاليمه وتوجيهاته، وأفقدتها الفاعلية في الحياة الإسلامية، لأن القرآن منظومة كلية شاملة. فتشوهت الرؤية الإسلامية وغاب عنها مبحث الإنسان عموماً. ومنذ ذلك الحين بدأ التمايز يظهر بين الواقع الإسلامي، والعلوم الإسلامية؛ تلك العلوم التي تضخم جزء كبير منها وتكوّن حتى صار يعتبر حائلاً بين المسلم و الوحي الإلهي؛ الذي أصبح الوصول إليه لا يمر إلا عبر وساطات كلامية أو فقهية أو روحية/صوفية، يقول الدكتور فريد الأنصاري عن ذلك: (الوساطة الكلامية، قد شكلت عقائد الناس تشكيلاً؛ فصارت العقيدة الإسلامية في صورة فلسفية، وفقدت بذلك رونقها القرآني، وثمرتها التربوية، وبقيت تصورات في أذهان الناس، تقرب أو تبعد عن القصد الشرعي، لكنها جُمدت، ولم تبق لها حركيتها، التي تخرج عليها جيل الصحابة الأوائل.

أما الوساطة الفقهية، فقد كانت أدهى وأشد؛ إذ ربطت التعبد اليومي في حياة الناس، بوسطاء مارسوا نوعاً من الكهنوتية على تدين الجماهير² ثم يضيف الأنصاري بخصوص الوساطة الروحية قائلاً: (وانضاف إلى الوساطة الفكرية وساطة أخرى، انحرفت بمنهج الإسلام التوحيدي، في الارتقاء بمقامات الإيمان، من الإحسان في عبادة الله، إلى الإحسان في عبادة الإنسان وقد تتحول أحياناً إلى عبادة الشيطان.. وهذا كان هو المآل الطبيعي للوساطة الروحية)³

وقد كان لذلك نتائجه المباشرة على مستوى الواقع الإسلامي حينها، فعندما كان المغول والتتار والصليبيون، يدكون حصون المسلمين، ويجتاحون بلادهم ويكسرون شوكتهم

¹ الملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرباط، 2012، ص80، بتصرف

² الأنصاري، فريد، التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة، ط2، 2015، ص87

³ الأنصاري، فريد، التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة، ط2، 2015، ص93

..كانت - وفي الغالب الأعم - أولوية الفقهاء متجهة إلى مناقشة جزئيات دقيقة وشكلية في أداء الشعائر التعبدية، وكان الصوفية سادرون بالبحث عن الفناء في عالمهم الخاص، ويستأنسون بذكر بطولات الأولياء والأقطاب والأوتاد، من خلال حكايات كراماتهم في المشي فوق الماء، والطيران في الهواء، وما إلى ذلك، وكان علماء الكلام مشغولون في مناظراتهم وإظهار براعتهم في الاستدلال والحجاج وما إلى ذلك.

وقد ورثنا للأسف، هذه العلاقة التجزئية والوسائطية في التعامل مع القرآن، ففقدنا تلك الصلة الحيوية التي ربطت أجيال المسلمين الأولى به، وجعلتهم يغتنون به اعتقادا وفكرا وممارسة، فكان حظنا من ذلك كله؛ أننا اليوم، نلوك مفاهيم قرآنية بلغة ميتة في حياتنا. أقصد اللغة كمرجعية ثقافية، ولنأخذ مثالا على ذلك القرآن ذاته؛ إنه رغم الأهمية الواضحة له ولدوره بالنسبة للإنسان كما أنبأنا بعض أوصافه القرآنية في اعتباره الهدى والبيان والنور والشفاء والروح...؛ إلا أن جل الاهتمامات التي يبديها المسلمون نحوه تتعلق بنوع من الصلة الشكلية، ممثلة في الحفظ والتجويد غالبا، ويُعتبر ذلك غاية الأمان.. أما أن يكون القرآن محور حياتنا العملية تدبرا وتنويرا واستهداء واسترشادا، فلم يعد مطروحا على القرآن ابتداء. فمصطلحات القرآن الأساسية مثل الإيمان والعمل الصالح والعبادة والتقوى والتوكل والإيمان والرجاء ... تخضب معظمها بالقوالب الصوفية وتشبع بدلالاتها "الأخروية" "الفنائية"؛ حتى لتكاد تكون صلتها بالواقع الدنيوي شبه معدومة، كنها تستدعى اليوم - في الغالب الأعم - من أجل توفير بعض التسكين العاطفي الذي لا علاقة له بحركة الفعل في الواقع، والسبب في ذلك، أنها تسيّجت ضمن منظور تراثي، جمّد معانيها في قوالب العقيدة أو الفقه أو السلوك التي تكّست عبر الزمن، فغابت مقاصدها ضمن الرؤية الكلية للقرآن الكريم عن الأجيال المتلاحقة من المسلمين، ولم تنتج سوى نسخ رديئة وباهتة من السمات المفترضة في شخصية المسلم. وقد ورث المسلم المعاصر هذه المنظومة التراثية المتشردمة، وظللت حياته بظلال سلبية لا تسعفه إن هو أراد التمسك بها والاستناد عليها في مجابهة تحديات واقعه ومستقبله إلا بتكلفات ظاهرة؛ توقع في التلفيق الذي يمارسه البعض في الجمع بين

الأصالة والمعاصرة مثلاً.. فتتضاعف الأزمة الوجودية، ويزداد الارتباك والاضطراب كما نشهده في واقعنا المعاصر.. لذلك، نجد المسلم اليوم، متعطشا للانخراط في أي منظومة للحياة المعاصرة، مكتفيا تجاه دينه وتراثه بنوع من التقديس الطقوسي الشكلي، الذي لا علاقة له بالحياة ولا بشأنه اليومي الخاص أو العام. مع ضرورة التمييز بين الموروث التراثي كمنتج بشري وبين نصوص الوحي الإلهي.

وقد تبين أن المدونات التراثية، كرسّت في معظمها تعاملات تجزيئية أفقدتها الإطار القرآني الناظم لكل ما يستمد منه، وجعلها فاقدة للتأثير في واقع الناس، ولا فائدة ترجى من ورائها في الدنيا. وهو ما يعتبر تعطّيلاً للحضور الحيوي والفاعل للقرآن الكريم في الحياة الإنسانية إمداداً واستمداداً، وقد عبر عن ذلك المرحوم حاج حمد حين قال: (الانفتاح الحيوي على الحيا الكونية لم يسلم من تطويق آخر تدهمه به عقليات التخلف الديني التقليدية نفسها. ركزوا هذه المرة على (النزعة الأخروية) وجعلوها الحقيقة النهائية التي لا يستقيم معها ذلك التماس الحيوي بين الإنسان والطبيعة، فكرسوا لمفهوم عبوري دُنيوي أكدوا به من جديد عجز الإنسان ومصادرة فعله. بذلك جمّدوا أوصال الإنسان الفكرية وغلّوا كمالاته، فلا ينفعل بالطبيعة مستوعبا لها، ولا يفعل فيها متحرّكا بها... حاجزان دونهما حرية الإبداع الحضاري... حرية أن ينفعل وحرية أن يفعل... بذلك يسيطر العجز على القدرة، والفناء على البقاء، فتصبح علاقة الإنسان بالدين هي علاقة حياة قسرية في عقيدة ضيقة، وليس علاقة عقيدة في حياة. انفصال تام عن الآنية في الزمان وحياة في عالم آخر معاوض)¹

لقد تم إهدار البعد المقاصدي للقرآن والسقوط بذلك في فخ اللغة الميتة؛ التي نتداولها اليوم عن مفاهيم قرآنية لا نرى لها صلة بصميم حياتنا العملية. لذلك بات واضحاً لدينا سبب غياب منهج قرآني في الواقع الفعلي لحياة الناس، نظراً لما تراكم عليه من حجب التعطيل والتجزيء، التي شوّهت رؤيته الكونية الجامعة، وحوّلت الاهتمام به إلى طقوس شكلية في حياة الناس. وهو ما ظهرت آثاره السلبية تدريجياً وورثته الأجيال المعاصرة، التي تحافظ

¹ أبو القاسم حاج حمد، محمد، العالمية الإسلامية الثانية : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى، بيروت، ط2، 2012، ص 658.

بدورها على قدر من التفاعل السطحي، وتتطلع في إقامة نمط حياتها اعتمادا على ما تستهلكه عادة من نتاج الحضارة الغربية المعاصرة، وهي تعتبر في ذلك ضحية - بقدر ما - للموروث التقليدي الذي ساهم بقدر فعال في تعطيل المنهج القرآني وحيويته الحضارية في حياة الناس.

إذا كان القرآن هو الصيغة التي عملت على إعادة صياغة الإنسان العربي، وأخرجت منه ذلك النموذج الحضاري الفريد.. فلنا أن نتصور مقدار الجناية التي تم ارتكابها في حقه؛ حين ظهرت صيغ دينية مجتزأة و مبتسرة، ساهمت في تشويه الرؤية الكونية القرآنية، وتشويه مخرجاتها على مدى عصور، تهاوى فيها المسلمون حضاريا. لاسيما حين دخلوا طور التقليد المدرسي لتلك المذاهب، حيث الاقتصار على المتابعة والتقليد، وغياب الاجتهاد وإعمال العقل، واستشراء الخرافة والجهل، في نوع من الردة الحضارية البائسة.

إذن، فالرؤية الكونية التي أسسها القرآن، بيننا وبينها اليوم مفاوز؛ ما بيننا وبين القرآن. فقد رأينا كيف حجبت علوم ومرويات ومذاهب وأذواق وأفكار وتصورات؛ علاقة المسلم بالقرآن. فصار لكي يستعيد القرآن مصدرا لحياته، أن يبذل من الجهد الكثير لإزالة الحواجز المعنوية والنفسية بينه وبين كتاب ربه. ثم يؤسس لمداخل التعامل مع القرآن منهجيا انطلاقا من القرآن ذاته. ذلك ما يجعله أقرب إلى روح القرآن ومقاصده، فيتيسر له استمداد رؤيته الكونية منه، ويتيسر له كذلك الاستفادة من هداياته في منهاج الحياة العملية.

الباب الثاني

معالم المنهج القرآني في التنمية البشرية

خُلصنا في الباب الأول من هذه الدراسة إلى بيان قصور المنهج الوضعي في تأطير العلوم الإنسانية بما آل إليه من عجز في تفسير الظاهرة الإنسانية، بسبب اختزاله الإنسان في بعد أحادي مادي، وإقصاء كل معرفة لا تخضع لإمكانية التجربة، فانتهى الأمر بالإنسان الغربي إلى أزمة وجودية استطاعت التنمية البشرية بانفتاحها على الحلول الروحية للديانات الشرقية القديمة أن تخفف بعضاً من آثارها، وتستعيد من خلالها نوعاً من التوازن في الحياة. ومع ذلك، فقد بقيت التنمية البشرية بالرغم مما تحمله من جينات المنهج الوضعي والديانات الشرقية مصدراً للنموذج الحياتي بالنسبة للمسلم المعاصر في غياب أي بديل يمثل نموذجاً قائماً في مجتمعه. لذلك وجدنا رُؤاد التنمية البشرية في الوطن العربي يصرون عن عقلية التقليد الحرفي لنموذج " التنمية البشرية " الغربية دونما مراعاة للنماذج الإدراكية ، وهو التخبُّط الذي تعكسه محاولات التبيئة؛ القائمة على دمج آيات القرآن والأحاديث النبوية في تلك المنظومة.

و قد كان من أسباب ذلك؛ تعثرُ منظومة القرآن ونسقها الكلي في التجربة التراثية للمسلمين، فتشوهت الرؤية الكونية في تصور المسلم تشوّهاً عطل قدراته وشلّ فاعليته. بسبب تعدد الرؤى التجزيئية، القائمة على اجتزاء نصوص من القرآن والسنة من سياقاتها القرآنية وإهدار أبعادها المقاصدية. وكان من نتائج ذلك خلو كتب العقيدة من المقاصد التربوية، التي تُركت لأهل التصوف يؤطرونها خارج نطاق العلم، أي باعتماد الذوق، أو ما يعتبرونه علوم الكشف.. لينتهي بهم الأمر إلى الفناء الذي يعني في حقيقة الأمر؛ رفض الوجود الذي منحه الله تعالى للإنسان في الحياة.. ذلك ما خُلصنا إليه في بيان سبب تعطيل المنهج القرآني في حياة المسلمين بشكل عام.

أمام هذا الوضع، تصبح مهمتنا الأساسية والضرورية في الآن ذاته؛ استعادة القرآن كمنهج حياة للمسلم، وهو ما يقتضي العودة إلى المعين القرآني، في صفائه و عذوبته، نستجلي منه مقومات الصلة بالله تعالى، كما هي مبثوثة فيه بلا زيادة ولا نقصان. العودة إلى المنهج

القرآني تقتضي استعادة مفاهيمه ومصطلحاته، واستنتاج مدلولاتها واستنباط توجيهاتها والبحث في مقاصدها. فيكون الواجب هو استعادة القرآن ومن ثم الرؤية القرآنية، ثم، تفعيل مقاصدها وتشغيل أدواتها..

نحن في حاجة إلى إعادة الصلة المباشرة بالقرآن الكريم، لأن التعود على استقبال المعارف الجاهزة عن القرآن والتعامل معه عبر الوسائط، أفقدنا خاصية التعلم المباشر، وما يقود إليه من الدهشة والتساؤل، والتدبر والتأثر... وهو ما أنتج فقرا روحيا ومعرفيا وسلوكيا ووجدانيا. ترتب عنه اغتيال لغة القرآن في حياتنا العملية، وحتى حين استعمل المتصوفة قاموسا قرآنيا في تركية الروح، فعلوا ذلك في إطار منظومة تجزيئية من جهة، ثم أفرغوا تلك المفاهيم من دلالاتها ضمن المنظومة القرآنية، وجنحوا بها نحو تفسيرات مغالية مغرقة في الغيبيات ومنفصلة عن واقع الحياة.

من هذا المدخل يأتي القرآن بقاموسه المائز ليستوعب هذا الطرح الذي عالجته مذاهب وفلسفات مختلفة، ويرتقي به إلى ما يتجاوز هذه الأطر وتلك المعايير المرتبطة بالنجاح والسعادة. فمرجعياته المتعالية تستوعب عناصر الموضوع ذاته ضمن رؤية كلية متميزة بخاصية مصدريتها الربانية التي تتعامل مع الإنسان من منطلق العلم الكامل به.

استعادة القرآن منهجا في حياة المسلم، تقتضي استعادة مصدريته المعرفية بما يتطلبه ذلك من إزالة حُجب تراكمت عبر التاريخ، وانتهت إلى هذا الحال البائس في تعامل المسلم المعاصر مع كتاب ربه، تعاملًا شكليًا وسطحياً يُفقد أي تأثير حقيقي للقرآن في الإنسان. إن استخلاص المصدرية القرآنية شرط لازم لأي نهضة ممكنة بالقرآن. سواء على المستوى الخاص أم العام، الفردي أم الجماعي. وهي الأساس - المصدرية القرآنية - الذي يمكن أن نؤسس عليه استمدادنا لرؤية كونية صحيحة، قادرة على إعادة صياغتنا وتزويدنا بالمعايير السليمة التي يمكن من خلالها بناء "تنمية بشرية" تعكس طبيعة هذه الرؤية ومنهجها العام في الحياة.

الفصل الأول

المنهج القرآني في التنمية البشرية
"مداخل معرفية ومنهجية"

المبحث الأول: القرآن الكريم؛ مداخل منهجية

المطلب الأول: المصدرية القرآنية؛ المفهوم والسياق

بالرغم من كل الجهود التي قدمها علماء المسلمين للتعريف بالقرآن الكريم، فإننا نرى أن حقيقته ووظيفته قد توارت تاريخيا واضمحلت في نفوس أتباعه والمؤمنين به، حتى انعكست اليوم في أساليب سطحية في التعامل معه بما يبعد عن تحقيق مقاصد نزوله. ولذلك نرى أهمية إعادة تعريف القرآن الكريم بما يقرب من حقيقته وأهميته ومقاصده في حياة المؤمنين به، والذي تظهر أهميته كذلك بالنسبة للإنسانية جمعاء. ذلك ما يقتضي التعرف إلى القرآن الذي بين أيدينا و استبيان حقيقة ترتيبه وجمعه.

يخبرنا الوحي الإلهي عبر القرآن الكريم أنه مصدر للحقيقة، مثلما يعتبر الكون مصدرا للحقيقة أيضا. وأن الله تعالى زود الإنسان بوسائل الإدراك للتعامل مع هذين المصدرين واستخراج حقائقهما، وعليه فإن نظرية المعرفة القرآنية تقوم على تكامل ما يستفيد الإنسان من معارف الوحي والكون معا. وهي معارف نسبية في الحالتين؛ إذ لا قدسية إلا للوحي الإلهي ولا حقيقة إلا في الكون، و بقدر ما يجتهد الإنسان في كليهما ينال نصيبه من الحقيقة. وسوف يتأكد لنا من خلال القرآن أن المعرفة التي يقدمها أوسع وأشمل من الكون ذاته حين يتبين أن الكون ذاته جزء من عالم المعرفة يسمى عالم الشهادة، وأن هناك جزء آخر هو عالم الغيب الذي لا سبيل لنا إلى معرفته سوى عن طريق ما أخبر به الوحي الإلهي في القرآن.

من جهة ثانية، حين نقول بالمنهج القرآني في التنمية البشرية، لا يمكننا إغفال أن القرآن ركن أساسي في هذه العملية. وقد أدركنا من خلال المبحث التراثي السابق كيف تم

تشويش مصدريّة القرآن في التجربة التاريخيّة بما ترتب عنه تشويه للرؤية الكونية المستمدة منه. الأمر الذي ينبغي إيلاؤه الأهمية اللازمة هنا، باعتبار ما تم تحديده سابقاً في تعريف المنهج أنه يقوم على ثلاثة أركان ودعائم أساسية؛ فهو يتأثت بمصدر المعرفة ثم الرؤية الكونية المستمدة من ذلك المصدر، ثم الأدوات والوسائل العملية الكفيلة بتفعيله في المجالات المختلفة. لاسيما وأننا وقفنا في ما رصدناه من أسباب تعطيل المنهج القرآني على سببين رئيسيين؛ الأول يتعلق بتشويش المصدريّة المعرفيّة القرآنيّة، حيث تمت مصادرة المصدريّة القرآنيّة لصالح الروايات الحديثيّة والتفسيرية والتاريخية لدى البعض، ولصالح مصدريّة علوم المكالشفة " اللدنيّة" لدى البعض الآخر. والثاني يتعلق بمنهج التعامل مع القرآن، وهو نتيجة حتمية ومباشرة للسبب الأول، وظهرت نتائجها في إهدار البعد المقاصدي للقرآن الكريم وتشويه الرؤية القرآنيّة واختزالها في رؤى جزئية ضعيفة وقاصرة، تبدّت آثارها فيما أنتجت من أجيال سلبية متواكدة.. تعاني آفات الخور والضعف والانحطاط..

وبذلك اكتملت عناصر الأزمة المعرفيّة المنهجية التي تمثلت في فقد الصلة بالقرآن مصدراً أساسياً ومهيماً. وفقد الصلة بالقرآن منهجاً في الحياة. وهو ما لم يتنبه له الكثيرون اليوم وهم يحاولون استعادة دور القرآن من جديد في واقع الحياة المعاصرة، إذ بالرغم من إشارة الكثير منهم إلى مفاصل الأزمة المعرفيّة والمنهجية في التراث الإسلامي. فإن العديد من الدارسين المعاصرين يقولون أن أزمة المسلمين اليوم هي أزمة فكر لا أزمة منهج¹، طالما لدينا كتاب الله تعالى المتضمن لأصح كلام إلهي في الكون .. وهو قول صحيح في عمومته .. لكن التفاصيل تقتضي منا شيئاً من التدقيق في هذا القول.. إذ غالباً ما يتم إغفال الحديث عن منهجية قراءة القرآن، وكذلك إغفال الإشارة لكيفية التعامل مع نصوص السنة النبوية توثيقاً، قبل الحديث عن طرق الاستنباط وأساليبه من المصدريين معاً. وغالباً ما ينتهي الأمر بقبول ما تم الاتفاق عليه سلفاً لدى علماء المسلمين في هذا الأمر الخطير جداً. وحينها يصبح الكلام عن أي مصدريّة للقرآن أو وجود لمنهج قرآني مجرد لغو، لأنه

¹ المقصود بالمنهج هنا وجود مصدر هذا المنهج وهو القرآن والسنة كما يظهر في مدارس الدكتور عمر عبيد حسنة مع الشيخ محمد الغزالي في كتاب (كيف نتعامل مع القرآن) ص148

ينتهي إلى إعادة إنتاج وتدوير ما أنتج سلفا في ثقافتنا بمفاهيم حديثة ومعاصرة. لكنها ترتفع إلى نفس التأويلات والاختيارات للأفكار والمذاهب المتمازجة مع نصوص الوحي الإلهي في تلك المصادر.. نستثني من ذلك بعض المحاولات الجادة خاصة لدى كل من سيد قطب ومحمد الغزالي وأبو القاسم حاج حمد وغيرهم ممن سار على نهج المصدرية العليا للقرآن الكريم.

لذلك، ارتأينا أن تكون أول خطوة نراها أساسية وضرورية في درب التعامل مع القرآن الكريم، هي استعادة القرآن ذاته من أسر الارتهاق التراثي بكافة أطيافه العقدية والفقهية والسلوكية.. والتي سيّجته وفق منظومات محكمة، تكرست عبر التاريخ في أزمنة التقليد والانحطاط. فأنتجت بُعدا وهجرا للقرآن الكريم كمصدر حياة، وكرست تعاملًا سطحيًا وشكليًا مع الكتاب الذي يفترض أن يكون مصدر النور والحياة الحقيقية. فقد أنتج التراث الإسلامي مقولات داعمة لهذا التوجه، حين اعتبر السنة قاضية على الكتاب، وأن الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب، وكما أسلفنا القول، ليست السنة في تلك المقولات سوى مرويّات حديثية منسوبة للنبي ﷺ، والتي تحتاج بدورها إلى منهج قرآني يصادق على موثوقيتها. فقد تضخمت المرويّات الحديثية في التراث الإسلامي عبر تلك المداخل لدى أهل الفقه وأصول الشريعة مثلما تضخمت لدى المفسرين من مدخل الرواية المنسوبة للنبي ﷺ : (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج). وهي الرواية التي اعتبرت رخصة مفتوحة في النهل من التراث الديني السابق للقرآن، ففتحت الباب على مصراعيه لدخول ثقافة أهل الكتاب المحرفة إلى المسلمين، وكان المبرر في ذلك التساهل، اعتبار تلك الثقافة المستوردة مما لا يدخل فيه أمر أو نهي، وإنما هو متعلق بتفاصيل حول قصص الأنبياء أو أخبار الجنة والنار وما إلى ذلك، ولعمري تلك مصيبة المصائب لدى المسلمين ومهلكتهم التي أنتجت - بنسبة كبيرة - البوار والعقم الفكري في حياتهم. لأن قصص الأنبياء باختلافها قصرا وطولا وما تعرضه من أحداث ووقائع لم توضع عبثا في القرآن، ولو كان الإنسان في حاجة إلى مزيد منها لذكره القرآن، بل شدد القرآن في غير ما آية على أن القصص القرآني هو القصص الحق، وأن الغاية من

إيراده هو العبرة مما جرى.. وهو مدخل تربوي قرآني عظيم، بما يكتنزه من ثروة في الخبرات وتجارب الأمم الإنسانية.. يقول سيد قطب رحمه الله: (إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى . ولكنه دستور شامل . . دستور للتربية ، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربها؛ وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لدن آدم - عليه السلام - وقدمها زادا للأمة المسلمة في جميع أجيالها . تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة . كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع)¹. لكن المنحى التراثي في التجربة التاريخية الإسلامية حدد قيمة القرآن في أحكامه الشرعية، وبقيت القصص والأمثال وسنن النفس والمجتمع في مرتبة أقل أهمية، بل دخلت عن طريقها ثقافات دينية محرفة كان لها الدور الكبير في تشويش عقول المسلمين عامة. يضاف إلى ذلك، ما روي من تساهل المحدثين في أحاديث غير الأحكام؛ وهي ما اصطلح على تسميته بأحاديث الفضائل. والتي كانت بدورها وبالا على المسلمين حين شغلهم عن القيام بأعمال حياتهم الأساسية بما أدخلته في ثقافتهم العملية من الأوراد والأذكار مع ما تشمله من قراءة سور بعينها آناء الليل والنهار بزعم وجود فضائل معينة فيها، انتهت اليوم إلى وجود تيار عريض في الثقافة الإسلامية يقصر وظيفة القرآن في ما يسمى بـ"الرقية الشرعية"..

والغريب في الأمر، أن يحدث ذلك على الرغم من أن هذا التراث نفسه يقدم روايات تهدف إلى تحصين المصدرية القرآنية، لعل أبرزها ما نسب للنبي ﷺ أنه قال: (لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه)² والتي فسرت من ضمن ما فسرت به لتبرير منع كتابة الحديث النبوي زمن النبي ﷺ بالخوف من اختلاط القرآن بأي كلام آخر، وهو حديث يتأكد رجحانه على ما يعارضه من روايات في الموضوع بما نقل عن الخلفاء الراشدين من التزامهم بتنفيذ مضمونه إبان خلافتهم. ويتعضد أيضا بما نقل عن جابر بن

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص 261

² رواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق، باب التَّائِبُ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمُ كِتَابَةِ الْعِلْمِ، ح 5326..

عبد الله، عن النبي ﷺ ، أن عمر أتاه فقال : إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال : « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي¹ . وهو ما يبين أن مستوى التتبيه في دائرة التراث الإسلامي لموضوع المصدرية زمن الخلافة الراشدة كان قائما وواضحا. غير أن توالي العصور ساهم ولأسباب متعددة في تضخم المرويات المنسوبة للنبي ﷺ ، لعل من أبرز علاماتها؛ ما نسب للإمام البخاري أنه كان يحفظ 600 ألف حديث ولم يثبت في صحيحه سوى 4732 حديثا مما يبين مقدار الجهود الضخمة التي بذلت في هذا المجال، إلا أنها تبقى جهودا نسبية باعتبارها جهودا بشرية.. وللأسف، أسهمت جهود حثيثة قديما وحديثا في تكريس قراءات معينة لنصوص الوحي الإلهي كانت محكومة في غالبيتها بمضامين تلك المرويات التاريخية، وحاولت غلق كل المنافذ إلى القرآن وعدم النظر إليه إلا من خلالها. بل منها ما كان تعطيلا لأي محاولة للنظر في القرآن وإبداء الرأي في آياته. فمعظم كتب التفسير بالمأثور تبدأ بمقولة منسوبة للنبي ﷺ : (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ)، وقد خصص الإمام الطبري - شيخ المفسرين - في مقدمة تفسيره بابا لذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي، ضمنها سبعة أحاديث بين موقوف ومرفوع ، منها ما نسبته إلى النبي ﷺ أنه قال: من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ². وهو ما جعل السلطة للروايات الحديثية في تأويل القرآن تتعاضم، يوازيناها في ذلك تعاضم الحرج من إبداء الرأي في القرآن. والحديث السابق واحد من الأسلحة التي استخدمت في إضفاء الشرعية على اتجاه تفسيري معين، كما هو الحال عند أصحاب التفسير بالمأثور في هذا الحديث. وعلى غرار ذلك كانت الاتجاهات الاعتزالية والصوفية تتوشح بما يحقق لها شرعية القول في القرآن دون منازعة الغير في ذلك.. والنتيجة أن ساهمت مثل هذه الطروحات مع الزمن؛ في التأسيس لكهنوت ديني في الواقع الفعلي لحياة المسلمين، رغم الاستمرار في إنكار وجود هذه الفئة على المستوى النظري.

¹ البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ، شعب الإيمان، تحقيق ومراجعة وتخريج : عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2003، ج 1، ص 194.

² الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل أي القرآن، المقدمة، الحديث 80

والنتيجة، أن هذا النوع من التعامل مع القرآن يقفز على حقيقة المصدرية القرآنية ذاتها، وما يترتب عن إدراكها من منهجية في التعامل مع كتاب الله. ونقصد بالمصدرية هنا، جعل القرآن مصدرا أولا وأساسيا في بناء المعرفة وإنشائها ابتداء. وقد أخذنا هذا المصطلح مما دبّجه الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في كتابه الماتع { التوحيد والوساطة في التربية الدعوية }، حين أشار إلى هذا المصطلح من أجل التمييز بين التربية المصدرية والتربية المرجعية، وذلك ضمن سياق عالج فيه آفات الموروث التراثي الإسلامي ذاتها؛ عقيدة وفقها وسلوكا. يقول في هذا الصدد : (المصدرية لا تعني إلغاء المراجع، التي هي فهم الناس للتدين، تصورا وممارسة، ولكنها تعني الإبقاء عليها في سياقها المرجعي؛ حتى لا تكون لها أبدا السلطة المصدرية، ذات الطبيعة المطلقة والتعبدية بمعناها المحض، بل تبقى باعتبارها مراجع تتضمن تجارب دعوية، تفيد كأدوات إجرائية، لحسن الاستفادة من القرآن والسنة باعتبارهما مصدرين تربويين خاصة¹ . وهو نفس المنهج الذي نسير عليه في هذا البحث، غير أننا نضيف ملاحظة حول المصدرية الثانية للسنة النبوية من حيث تسويتها في الدرجة مع المصدرية القرآنية، إذا أخذنا بعين الاعتبار؛ أننا لا نمتلك مدونة موثوقا بصحتها حول السنة النبوية، وأن كل ما لدينا هو روايات حديثة يفترض التعامل معها لاستخراج سنة رسول الله ﷺ منها، بما تطمئن النفس إلى صحته واعتماده. وهو ما يتطلب بدوره اعتماد القرآن مصدرا أساسيا في غربلة المرويات الحديثية وتصحيحها. دون أن يعني ذلك السقوط في فخ التطرف المضاد الذي يذهب البعض إلى إنكار السنة النبوية، والاكتفاء بالقرآن، لأن ذلك القول يخرج عن حد المنطق العقلي الذي يقتضي وجود أقوال وأفعال وتقريرات لنبيينا عليه الصلاة والسلام ، ووجود أمة من الصحابة المتبعين لنهجه وطريقته، المحبين لسمته وسنته.. بما يجعل حفظها وروايتها لمن بعدهم، الأمر الطبيعي والصحيح الذي تقتضيه سنة الاجتماع الإنساني.. وإذن، فمشكلتنا ليست مع السنة في هذا السياق،

¹ الأنصاري، فريد، مرجع سابق، ص 21

وإنما مع المرويات الحديثية المنسوبة للنبي ﷺ، والتي تحتاج إلى جهود ومعايير إضافية في التثبت والتدقيق في صحة نسبتها لرسول الإسلام ﷺ.

وما ينبغي التأكيد على استخلاصه هنا، هو أن التعامل البشري مع النص المقدس لا يكسب صاحبه صفة القداسة؛ لا لشخصه ولا لنتائجه، فكل عمل بشري محكوم بقصور طبيعته البشرية و نسبيتها ومحدودية إدراكها. وهو ما يوفر إمكانية تجديد القراءات القرآنية وفق السقف المعرفي الذي تصله البشرية في كل عصر. يقول طه جابر العلواني: (إن القرآن العظيم قد تفضل الله سبحانه وتعالى بحفظه وجعله معصوماً عن أي تغيير أو تحريف ليكون المرجع المطلق للبشرية كلها، تعود إليه في كل زمن وفي كل عصر وفي كل مكان فتعرف منه كيف ترسم مناهج الحياة)¹

لذلك، نجد اليوم العديد من الدارسين يبنهون إلى أهمية استعادة المصدرية القرآنية في حياة المسلمين، فمنهم الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله في المرجع المذكور سابقاً إذ يقول فيه: (فأنى ترتفع للمنهج التوحيدي راية؟ وما قوامه إلا بالنصوص الشرعية. وبين هذه وبين مدارك الناس هوة شاسعة، تعمورها بثقلها وكثافتها وساطات التقليد العقدي والفقهية والطرقية؛ مما جعل النصوص الشرعية غائبة عن حياة الناس تربية وتديناً، بل لقد مالوا إلى ضرب من تحريم النظر إليها، باعتبار أن العقل المستقل بالنظر قد انقرض منذ القرون الأولى، وأنه لا يسع أحداً الآن إلا تقليد الأوائل والأشياخ والأقطاب، مهما أوتي من سعة العلم والعقل!)²

ومنهم الشيخ محمد الغزالي في كتب متعددة وأهمها كتابه {السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث}، ومحمد أبي القاسم حاج حمد في كتابه { منهجية القرآن المعرفية } وغيرهم كثير ممن اعتبروا الإخلال بالمصدرية القرآنية سبباً في ظهور الرؤى التجزيئية المنحرفة جزئياً أو كلياً عن التصور الإسلامي الصحيح، وأنها شكلت في مجموعها وأجزائها حاجزاً بين المسلمين ومصادر هدايتهم. وقد سبق هؤلاء جميعاً المرحوم سيد قطب في معالمه حين كان

¹ العلواني، طه جابر، نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهادي، بيروت، ط2004، ص144.
² الأنصاري، فريد، التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة، ط2015، ص148

يبحث عن العناصر التي جعلت جيل الصحابة يتميزون عن غيرهم من الأجيال اللاحقة في الإسلام، فذكر أن السبب في ذلك كان هو اجتماعهم على القرآن مصدرا لتربيتهم ومنهجهم في الحياة، يقول رحمه الله: (كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله - ﷺ - وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع. فعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها - عن خلق رسول الله - ﷺ - قالت : (كان خلقه القرآن) أخرجه النسائي)¹. ثم يضيف موضحا في هذا الصدد: (كان رسول الله - ﷺ - يريد صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور . خالص الشعور . خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم .

ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده. فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد .. ثم ما الذي حدث، اختلطت الينابيع .! صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم. وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات. واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم، وعلم الكلام، كما اختلط بالفقه والأصول أيضًا. وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبدًا)².

بعد كل هذا، نرى أن نؤصل للمصدرية القرآنية قرآنيا، ونستدعي لهذا الغرض أوصاف القرآن كأداة تحليلية، لتخبرنا عن علاقة القرآن بالتراث الديني السابق، الموسوم بالتحريف في القرآن ذاته. لأن ذلك سوف يساعدنا في معرفة كيفية التعامل مع التراث الديني اللاحق الذي أصابه التحريف أيضا، وأدق وصفين من أوصاف القرآن الكريم يمكنهما مساعدتنا في هذا الإطار هما وصفي "التصديق" و"الهيمنة". ذلك أن تجاوز أزمة الإخلال بالمصدرية القرآنية معرفيا ومنهجيا، يقتضي منا العودة إلى القرآن باعتباره المرجع الوحيد والمصدر الأصيل للخروج من متاهة الروايات الإخبارية "المهيمنة" تاريخيا، وذلك للبحث عن منهج قرآني في التعامل مع تلك الروايات ذاتها، فالقرآن الذي أشار إلى أخطاء أتباع الكتب

¹ قطب ، سيد، معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة، ط 2008، ص15

² قطب، سيد، المرجع نفسه، ص 17

السماوية السابقة في تعاملهم معها، لم يكن ليترك الكتاب الخاتم الذي يتضمن خلاصة رسالات الأنبياء جميعا دون منهج واضح يعصم أتباعه من الوقوع في ضلالات الاختلاف حول معرفة نصوص الوحي من دون ضوابط منهجية. فتوصيفه لما تعرضت له كتب الوحي السابقة من التحريف، كان مرفقا بمنهج يضبط التعامل مع تلك الكتب، وهو المنهج الذي يتلخص في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48]

ووصف " المصدق " ورد كثيرا في القرآن نسبة إليه في العلاقة مع الكتب السماوية قبله، أو نسبة إلى الإنجيل في علاقته بالتوراة من قبل. فيكون التصديق بمعنى إقرار اللاحق منها بصدق السابق عليها؛ كونها جميعها من مصدر واحد هو الله تعالى منزل الوحي. كما في قوله تعالى: {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران: 3] وقوله سبحانه: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ} [الصف: 6] وهكذا، فالقرآن يصدق كل ما يوافقه من مضامين الكتب السماوية قبله. وأما وصف الهيمنة فلم يرد في القرآن إلا مرتين؛ مرة باعتباره اسما من أسماء الله الحسنى، ومرة ثانية باعتباره وصفا خاصا للقرآن الكريم في علاقته بكتب الوحي السابقة، قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: 48]. وإذا كان اسم الله "المهيمن" يفيد معنى الرقيب على خلقه بأعمالهم، وآجالهم، وأرزاقهم . أو الرقيب على كل شئ في كونه. أو الأمين الذي لا يضيع لأحد عنده حق. فإن المعنى التوصيفي للقرآن الكريم بالمهيمن قريب من ذلك؛ إذ يفيد أن القرآن أمين على كل كتب الله السابقة ورقيب عليها، حيث يشهد لها بالصحة والثبات أو التحريف والبطلان.

واعتقد أن هذا المنهج القرآني في التعامل مع الكتب السماوية السابقة والملخص في كلمتي التصديق و الهيمنة؛ حري أن يوظف في التعامل مع مرويات الأحاديث والأخبار المنسوبة للنبي ﷺ كونها موسومة بما تعرضت له تلك الكتب السماوية من قبل من الأكاذيب

والتحريفات. فعلى الرغم من وجود جهود محمودة لتنقية تلك المرويات وتصحيحها، غير أنها لم تفض إلى نتائج تطمئن لها النفس وتوحد الرؤى على أساسها. والسبب في ذلك اتباع منهج معكوس ومخالف لما كان ينبغي عمله؛ وهو اعتماد القرآن أساساً في التعامل مع المرويات الحديثية. وليس معنى ذلك التقليل من أهمية ودور السنة النبوية، وإنما يعني وضع الأسس المتينة التي تغرّب على أساسها مرويات الحديث، وكلما كان المسلم متشبعاً بمعاني القرآن أمكنه ذلك من ترجيح روايات السنة بمعيار دقيق.

إن قيمة المصدريّة القرآنية تكمن في استرجاع مكانة القرآن كأصل للعلم والتربية في حياة الناس، والتأسيس على معارفه وتوجيهاته بهذا الاعتبار، فلا تكون آياته مجرد شواهد وأدلة، بل أصل تبنى على أساسه الأفكار والرؤى والمسارات في الحياة.. وهي خطوة ارتأينا أن توضح في هذه اللحظة المفصلية من مسار البحث، اللحظة التي تفصل بين ما وقفنا عليه من مكامن الأزمة والخلل في التعامل مع القرآن في التجارب التراثية الإسلامية وبين ما نحن مقبلون عليه في بناء منهج قرآني في التنمية البشرية. إن ذلك المنهج لن تكون له قائمة ما لم يُستنقذ القرآن من براثن الركam التراثي الذي أخضعه لنسبته البشرية وأحاله بموجب ذلك إلى كتاب طقوسي جامد لا علاقة له بالحياة. فالواجب استعادة القرآن عبر إعادة الصلة الصحيحة به. وهو ما يقتضي الدخول إليه وفق أدواته ودون مقررات سابقة.

المطلب الثاني: مداخل منهجية في التعامل مع القرآن

من أوصاف القرآن الكريم أنه كتاب شامل لكل ما يحتاجه الناس، وقد ورد هذا المعنى في آيات عدة منه قوله سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: 89]. ويلحظ القارئ للقرآن تناوله لموضوعات متعددة ومتشعبة في أرجاء سورة، على غير معهود البشر في التأليف والتصنيف.. وهو ما يبين أن التعامل مع القرآن الكريم يقتضي الإمام ببعض الحقائق الأساسية المحيطة بنزوله وبترتيبه وتاريخه، لاسيما وأن القرآن الذي وصل إلينا ونجده مجموعا بين دفتي "المصحف" من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، لم ينزل مرتبا على هذا النحو؛ فهو مرتب على غير الترتيب الزمني لنزول السور والآيات. وإنما تم إعادة ترتيبه. كما تخبرنا بذلك الروايات الحديثية التي تقول أن القرآن لم يكن مجموعا في عهد النبي ﷺ في مصحف واحد، وأنه كان ينزل منجما، فيحفظه الصحابة - رضوان الله عليهم في صدورهم، فضلا عن وجود كتبة للوحي عندهم الرسول ﷺ لذلك، فعن أنس رضي الله عنه قال: " جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ : مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ ¹ ، ويقصد بالجمع هنا أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه من الوحي شيء، دعا بعض من يكتب فيأمره بكتابة ما نزل، ويرشده إلى موضعه، وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشده إليه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: (ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا) ² . وعن زيد بن ثابت (قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع. قلت: وهذا يشبه أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الكتاب: الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم ثم كانت مثبتة في الصدور، مكتوبة في الرقاع والخاف والعصب) ³

¹ صحيح مسلم باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار رضي الله تعالى عنهم
² أبو عبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن باب تأليف القرآن وجمعه ومواضع خروفيه وسوره، تحقيق مروان العطية وحسن خرابة ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1995.
³ دلائل النبوة للبيهقي، باب ما جاء في تأليف القرآن، وقوله عز وجل إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون وما ظهر من الآيات فيما نسخ من رسمه وفيما لم ينسخ منه

تفيدنا هذه الروايات وغيرها كثير، في أن هناك نوعاً من الترتيب لآيات القرآن، كان النبي ﷺ يرشد إليه كتبة الوحي، بأمر من جبريل عليه السلام. ومعنى ذلك أن القرآن وإن كان مفرداً في الكتابة، بين العسب والأكتف والرقاع، بحسب ضرورة أدوات الكتابة حينها، إلا أنه كان مرتباً في عقول الصحابة ومحفوظاً في قلوبهم، وفق توجيهات النبي ﷺ التوقيفية. وهو الوضع الذي كان قائماً بعد وفاة النبي ﷺ؛ والذي لم يتغير إلا بعد موقعة اليمامة زمن خلافة أبي بكر رضي الله عنه حين استحر القتل بعدد كبير من القراء، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر الصديق بجمع القرآن في مصحف واحد خوف الضياع على الأجيال اللاحقة. وذلك ما حصل بالفعل. فأصبح القرآن هو هذا المصحف الذي وصل إلينا مبدؤاً بسورة الفاتحة ومختوماً بسورة الناس.

غير أن البعض لم يفهم حكمة وجود القرآن بهذا الترتيب، فأراد الاجتهاد في إعادة ترتيبه على حسب زمن النزول. وتفسيره على ذلك الأساس كما فعل محمد عزة دروزة (ت 1984) بعنوان (التفسير الحديث : ترتيب السور حسب النزول) ظهرت طبعته الأولى عام 1964، ومما قدمه به : (نظهر فيه حكمة التنزيل ومبادئ القرآن ومتناولاته عامة بأسلوب وترتيب حديثين، متجاوبين مع الرغبة الشديدة الملموسة عند كثير من شبابنا الذين يتذمرون من الأسلوب التقليدي ويعرضون عنه، مما أدى إلى انبثات الصلة بينهم وبين كتاب دينهم المقدس)¹. فالسيد دروزة يرى أن ترتيب المصحف الحالي أسلوب تقليدي يؤثر سلباً على الصلة بالقرآن. ومن هؤلاء أيضاً، المرحوم محمد عابد الجابري، حين تفرغ أواخر حياته للدراسات القرآنية و محاولة كتابة تفسير للقرآن مرتباً حسب ترتيب زمن النزول. فجانبه الصواب في ذلك مرتين، مرة بمخالفة الترتيب الوقفي وعدم إدراك حكمته، ومرة باعتماد روايات تاريخية هشة في الغالب لا يمكن معها الجزم بترتيب سور القرآن تاريخياً فضلاً عن آياته. يؤكد ذلك أن تفسير دروزة رتب القرآن مبتدئاً بسورة الفاتحة، باعتبارها أول سور القرآن نزولاً بحسب ما استند إليه في ذلك من روايات تاريخية. في حين بدأ الجابري تفسيره بسورة

¹ دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث : ترتيب السور حسب النزول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2000، ص5

العلق، فإذا كان الاختلاف في ترتيب السور الأولى التي تتوفر بخصوصها معلومات تاريخية أوفر من غيرها؛ فكيف يكون الأمر في غيرها من السور؟

إن ما يؤكد أهمية ترتيب القرآن في قراءته على النحو المطلوب، هو الأمر الإلهي بترتيبه؛ وذلك في قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } [الفرقان: 32]. ولفظة الترتيل استعملت في غير معناها اللغوي غالباً؛ ذلك ما تبيّنه معاجم اللغة العربية؛ فقد جاء في كتاب العين للفراهيدي : (باب التاء والراء واللام معهما ر ت ل يستعمل فقط رتل: الرتل: تنسيق الشيء، وثرر رتل: حسن المتنضد، ومرتل: مفلج. ورتلت الكلام ترتيلاً إذا أمهلت فيه وأحسن تأليفه، وهو يترتل في كلامه، ويترسل إذا فصل بعضه من بعض).¹ و ذكر صاحب المحيط في اللغة (الرتل: تَنَسَّقُ الشيء، ثَغَر رَتْل: حَسَن التَّنْصِيدُ)² وذهب الزبيدي في تاج العروس إلى نفس المعنى مميّزا بين المعنى اللغوي وما صار عليه العرف بعد ذلك في لفظة الترتيل، يقول: (كلام رَتْلٌ وَرَتْلٌ وَالرَّتْلُ أيضاً : الْمُفْلَجُ مِنَ الْأَسْنَانِ وَالْحَسَنُ وَفِي نُسخةٍ : أَوِ الْحَسَنُ التَّنْصِيدُ الشَّدِيدُ الْبَيَاضُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ مِنَ الثُّغُورِ يُقَالُ : ثَغَرُ رَتْلٌ إِذَا كَانَ مُسْتَوِي النَّبَاتِ كَالرَّتْلِ كَكَتِفٍ . وَرَتْلَ الْكَلَامَ تَرْتِيلاً : أَحَسَنَ تَأْلِيفَهُ أَوْ بَيَّنَّهُ تَبْيِيناً بغير بَغْيٍ وَقَالَ الرَّاعِبُ : التَّرْتِيلُ : إِرْسَالُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْقَمِّ بِسُهُولَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ . قُلْتُ : هَذَا هُوَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيُّ وَعُرفاً : رِعايَةُ مَخارجِ الْحُرُوفِ وَحِفْظُ الْوُقُوفِ وَهُوَ خَفْضُ الصَّوْتِ وَالتَّحْزُنُ بِالْقِرَاءَةِ)³ وذلك ما أكدّه الزمخشري أيضاً في أساس البلاغة حين ذهب إلى أن المعنى اللغوي للترتيل هو حسن التنضيد، ثم اعتبر (من المجاز: رتل القرآن ترتيلاً إذا ترسل في تلاوته وأحسن تأليف حروفه. وهو يترسل في كلامه ويترتل).⁴

¹ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط2003، ج8 ص113.
² صاحب بن عباد، أبو القاسم اسماعيل الطالقاني، المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط1، 1994، ج9 ص424.
³ المرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي، مراجعة عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2001، مادة رتل.
⁴ الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998. ج1، ص159.

يتضح مما سبق إذن، أن مصطلح الترتيل يعني في أصله اللغوي حسن التنسيق والتتضيد. غير أن العدول من الأصل اللغوي إلى المجاز كما ذكر الزمخشري، أو العرف كما ذكر الزبيدي، سيجعل هذا العرف والمجاز هما المعنى السائد في تفسير كلمة "الترتيل" في القرآن، وعلى أساسه وفي ضوءه تقرأ الآيات القرآنية وتفسر.

غير أن هناك جهوداً تبذل في مجال الدراسات المصطلحية القرآنية بهدف استعادة محورية الدلالة القرآنية للألفاظ في توجيه المعنى. وفي هذا الإطار، نجد الدكتور أحمد عبادي في دراسته حول (مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج)، يخصص مبحثاً لدراسة مصطلح الترتيل في القرآن؛ أورد فيه أقوالاً عديدة لمفسرين ولغويين مسنودة ببعض الروايات؛ تكاد تتفق في مجملها على أن الترتيل مأخوذ من النضد ومن الاتساق ومن الانتظام على استقامة، ويرى العبادي أن المفسرين قصرُوا ذلك المعنى على الجانب الصوتي منه، فعلق قائلاً: (ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قصر المعنى على الجانب الصوتي من القرآن رغم الحشد الحاشد من الآثار، كأثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعه على تفهم المعاني وتفهمها، أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال وإهمال البعد البنائي/النضدي الذي تتضمنه هذه الكلمة: الأمر الذي يعد تحكما بغير برهان، خصوصاً إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل النص الصريح على أنه للتدبر والاستنباط¹ كما يرى الدكتور عبادي أن (التنسيق بين الآيات، وإن تفرقت منزلاً في القرآن المجيد، من أظهر معاني الترتيل، وأن الجانب الصوتي ملابس له ملابسة الفرع للأصل²)

وعلى هذا الأساس؛ يكون المعنى المستفاد من قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان: 32] من حيث الأصل اللغوي للفظ القرآني؛ أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وذلك لحكمة إلهية اقتضت

¹ عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج، دار أبي رقرق، ص 79-80

² عبادي، أحمد، المرجع نفسه، ص 83

نزوله مفردا وهي تثبيت فؤاد الرسول ﷺ، و أن هذا النزول المفرد للآيات القرآنية مصحوب بالترتيل الذي يعني حسن الترتيب والتنضيد والتنسيق بينها. وهو الذي كان يقوم به النبي ﷺ حين كان يقول ضعوا آية كذا في الموضع الذي يذكر فيه كذا، وذلك أيضا ما يؤكد قول الحق سبحانه : {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ { [النحل: 101، 102] وحين كان النبي ﷺ يستعجل القراءة مخافة أن يتقلت منه، طمأنه الله تعالى إلى التزام دوره فقط في اتباع قراءة القرآن كما أقرأه جبريل عليه السلام، وأنه سبحانه من يتولى جمع هذا القرآن {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: 17، 18] .

وتأكيدا لما سبق، لم يرد لفظ الترتيل في القرآن سوى في موضعين؛ مرة منسوبا إلى الله تعالى كما في قوله: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: 32]، فلو كان الترتيل هو ما ذهبوا إليه من طريقة في تجويد النطق بالحروف لما أمكن نسبة ذلك إلى الله سبحانه لأن القائم بالترتيل وفق الآية هو الله سبحانه، وليس المتلقي مما يجعل استدلالهم في ذلك جد بعيد. كما ورد في موضع آخر بصيغة الأمر للنبي ﷺ في سورة المزمل التي تعتبر من أوائل السور نزولا، وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: 1 - 4] ويقصد بالأمر بترتيل القرآن هنا، قراءته كما هو مرتل بأمر الله، وليس حسب تتابع النزول، وهي عملية تكفل بها المولى عز وجل مباشرة¹، فهو سبحانه من جمع القرآن، وليس لأحد أن يقوم بذلك سواه؛ ولأن المهمة عظيمة وثقيلة، فقد طمأن الله نبيه الكريم أثناء تلقي القرآن بأنه الضامن لذلك الجمع وذلك الترتيب، فقال عز من قائل: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: 16 - 19] فهذه الآية تشرح فقط ما سبق توضيحه في قضية ترتيب

¹ وذلك بخلاف ما ذهب إليه الدكتور أحمد عبادي الذي رتب على معنى الترتيل ترتيبا آخر حين اعتبر الترتيل عملية للربط بين آيات القرآن لتحقيق فهم معين منها؛ وهو خلاف ما رأينا من أن آيات القرآن مرتلة من عند الله تعالى بصريح الآية: "ورتلناه ترتيلا".

القرآن الكريم حين كُلف النبي ﷺ بترتيب الآيات حسب مواضع مختلفة عن ترتيب نزولها التاريخي.

يعتبر بيان هذا الأمر المتعلق بترتيب القرآن، مقدمة ضرورية لمن يريد التعامل مع القرآن تعاملًا منهجيًا. إذ يبرز سؤال هام في هذا السياق يرتبط ببيان الحكمة من إعادة الترتيب الوقفي لآيات القرآن وسوره، في الوقت الذي كانت تنزل فيه على غير هذا النحو.

لم نجد من أولى عناية بهذا الموضوع من الباحثين المعاصرين - العناية اللازمة بالقدر الذي يستحق - سوى المرحوم محمد أبي القاسم حاج حمد الذي لهج بهذا الموضوع في مجمل كتاباته، مبينا الأبعاد المنهجية لذلك، يقول رحمه الله : (إعادة الترتيب يعني نسخا لمرجعية "أسباب النزول" في التفسير وإخراجا للقرآن من التقيد الاجتماعي والتاريخي إلى الإطلاق العالمي، ليتفاعل مع مختلف مناهج المعرفة ومختلف الحقول الثقافية العالمية)¹. وقد بين رحمه الله خصائص القرآن التي تجعله مهياً للإطلاق العالمي؛ وهي كونه مجيداً لا يبلى {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [البروج: 21، 22]، وكرماً متجدد العطاء "إنه لقرآن كريم"، ومكنونا قابلاً للتكشف عن جديد "في كتاب مكنون". ثم يوضح قائلاً: (فالقرآن قابل بحكم منهجيته الإلهية للتعامل مع صيرورة المتغيرات الاجتماعية والتاريخية طبقاً لوحده البنائية العضوية من بعد إعادة الترتيب الوقفي لآياته بما يتجاوز مرحلة التعيين التاريخي المقيدة إلى أسباب النزول وظرفية المكان، وهذا مكنون مستقبلية. ثم إنه قابل للتفاعل مع كل مناهج المعرفة والحقول الثقافية البشرية المختلفة، والتي بمقدوره وحده إعادة صياغتها باتجاه " منظور كوني" يحرر الإنسان من أشكال الفكر المادي والوضعي، حيث يكون الاتجاه بالخلق نحو الحق ودون استلاب لاهوتي لجدل الإنسان والطبيعة.)²

كان لا بد من الوقوف عند هذا الملحظ المنهجي في بناء النص القرآني، لأن التأسيس عليه ضروري في التعرف على القرآن والتعريف به من جهة، وفي التعامل المنهجي

¹ حاج حمد، محمد أبو القاسم ، القرآن والمتغيرات الاجتماعية، دار الساقي، بيروت، ط2011، ص126

² حاج حمد، محمد أبو القاسم ، المرجع نفسه، ص 141

معه من جهة أخرى، وقد كان لعدم مراعاته تأثير سلبي في إدراك الوحدة المنهجية الكلية للقرآن الكريم. ذلك أن القرآن حين نتصفح سورة 114 على المستوى العام، نجده لا يقدم لنا موضوعات محددة أو مبوبة ضمن نطاق السورة أو مجموعة من السور، وإنما قد نجد في السورة الواحدة جملة قضايا وآيات كونية وأحكام وقصص وأمثال... الأمر الذي يؤكد أهمية البحث في الطبيعة التركيبية للنص القرآني، وفي السبل المثلى لاستثمار هذا النص فهما وتنزيلا. فالترتيب الوقفي للقرآن الكريم على غير مقتضى تاريخ النزول، يجعلنا أمام كتاب متعدد القضايا والموضوعات المترامية الأطراف والمساحات، ومتعددة المداخل والأساليب؛ غير أن ذلك كله يتم ضمن نظام تركيبى مرتل وموحد. وهو ما يقتضي التعامل مع القرآن ضمن هذا التركيب المرتل والموحد، لاسيما وأن القرآن ذاته يتضمن تحذيرا من الوقوع في تعصيته كما ورد في قوله تعالى: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر: 91]

وقد أخلف قدامى المفسرين والباحثين في علوم القرآن الموحد مع هذا الملحظ المنهجي في طبيعة تركيب النص القرآني، وتداخل موضوعاته فتعاملوا معه بمنطق تجزيئي لا يتناسب مع طبيعته الكلية، مثل حديثهم في بعض علوم القرآن عن الناسخ والمنسوخ¹، يقول حاج حمد رحمه الله: (من ابتدع علم الناسخ والمنسوخ فقد كان يحاول أن يحل مشكلته هو مع القرآن حين لم يتقهم منهجيته الكلية الرابطة للآيات التي بدت له متضاربة أو متشابهة أو حتى متناقضة مع بعضها أحيانا، فأوجد علم الناسخ والمنسوخ الذي لا يعني سوى إقرار حالة التناقض في تركيب القرآن ومضمونه، فظن بمجرد القول إن في القرآن ناسخا ومنسوخا أنه قد حل الإشكال، وما أدرك بذلك أنه قد طعن في الحق الذي أنزل القرآن)²

نعم، لفتت الوحدة العضوية لبنية القرآن الكريم بعض القدامى، مثل برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ) في كتابه { نظم الدرر في تناسب الآيات والسور }. غير أن هذا

¹ الناسخ والمنسوخ: علم من علوم القرآن في التراث الإسلامي تم بناؤه على ما ورد في قوله تعالى من سورة البقرة: (ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها.. " فعرفوا النسخ على أنه رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه، وباء على ذلك قالوا بوجود العديد من الآيات القرآنية المتعارضة تعارضا حقيقيا، والتي نسخ المتأخر منها سابقه. انظر في ذلك مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني.

² حاج حمد، محمد أبو القاسم، منهجية القرآن المعرفية، دار الساقى، بيروت، ط1، 2013، ص87

الاتجاه لم يحظ بالاهتمام اللازم إلا مع الدراسين المحدثين، بداية مع تفسير المنار، ثم مع سيد قطب الذي اعتمد أسلوب الربط بين الآيات في ظلال القرآن، وبرع في استحضار الآيات النظرية والشبيهة بما يبحث فيه، فخرج منها بخلاصات فريدة وفوائد عظيمة قل نظيرها، وهو ما يجعله أحد رواد هذا النهج - الموضوعي - في القرآن باقتدار. وكذلك، محمد باقر الصدر الذي بنى نظريته في هذا الاتجاه على نقد الاتجاه التجزيئي في التعامل مع القرآن الكريم، يقول: (إن حصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضا. أي أننا سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي من دون أن نكتشف أوجه الارتباط بينهما. ومن دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الأفكار، ومن دون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة)¹

ومقابل الاتجاه التجزيئي، يدعو الصدر إلى اتجاه سماه "توحيدي موضوعي"، ويرى أنه خلافا للتفسير التجزيئي (لا يبدأ عمله من النص. بل من واقع الحياة. حيث يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارتها تجارب الفكر البشري عن ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ ثم يأخذ النص القرآني، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب، وإنما لي طرح بين يدي النص موضوعا جاهزا مشربا بعدد من الأفكار والمواقف البشرية، ويبدأ مع النص القرآني حوار سؤال وجواب...) ²، وقد نال هذا النوع من التفسير اهتمامات كبيرة في العقود الأخيرة، فتعددت الأقوال في تعريفاته، ومناهج البحث فيه، فمن تعريفاته ما ذكر الدكتور مصطفى مسلم في كتابه { مباحث في التفسير الموضوعي } من تعاريف متعددة ؛ نختار منها ما يمكن اعتباره شاملا في هذا الاتجاه، (هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة

¹ الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1989، ص81.

هذا الكتاب قدمه ونقحه وعلق عليه جلال الدين الصغير، وذكر في مقدمته أنه يضم ما سبق نشره في عنوانين من قبل: "مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن"، و "المدرسة القرآنية"

² الصدر، محمد باقر، التفسير والموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، الدار العالمية بيروت، ط1، 1989، ص26

معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع¹

وتعتبر الدراسات المصطلحية في القرآن واحدة من أهم الأدوات التي يتوسل بها منهج البحث الموضوعي في القرآن؛ إذ تساعد على تكوين رؤية شمولية للقرآن وإدراك مقاصده واستيعاب طريقته ومنهجه في القضايا المطروحة عليه، وكلما اتسع التدريب في تلك القضايا كلما توطدت صلة المسلم بالقرآن وبإدراك دوره في الحياة. يقول الدكتور أحمد عبادي: (وكما أن الوحدة البنائية في الكون هي التي مكنت العقل البشري - بعد اكتشافها - من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها: علوم التسخير، وهي علوم قد تم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي مددا قويا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والوظيفية، فإن الوعي بالوحدة البنائية للقرآن الكريم من شأنه أن يحقق للإنسان وحدة معرفية تلمم شتاته المعرفي، وتلوح بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي و مرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلما لرب العالمين في السير سويا على صراط مستقيم)²

من ناحية أخرى، نرى أهمية استحضار ملحظ منهجي آخر يتعلق بترتيب الآيات والصور التي رأينا أنها كانت توقيفية من النبي ﷺ. إذ لا يمكن أن يتم هذا الترتيب بطريقة عبثية أو اعتباطية مع كتاب رب العالمين.

إن نزول القرآن المنجم و التفاعلي أثناء التنزيل، يبين أن لفظ "سورة" و "سور" كان معروفا ومتداولاً بين أتباع القرآن ومخالفيه؛ مؤمنين أو منافقين أو كافرين. فحين تحدى الله سبحانه المشركين المشككين في ما ينزل من الوحي الإلهي على رسوله ﷺ تحداًهم أن يأتوا بسورة من القرآن {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

¹ محسن، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، بيروت، ط3، 2000، ص 16
² عبادي، أحمد، ورتل القرآن ترتيلاً، مجلة الترتيل، محور الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، الرابطة العمدية للعلماء، ع1، يونيو 2013 ص

شُهِدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 23] أو بعشر سور {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: 13]. كما تحدث الله سبحانه عن السورة باعتبارها تمنيا من تمنيات المؤمنين مبينا وقعها على نفوس المنافقين أيضا {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [محمد: 20]. بل بين في سورة التوبة أن المنافقين كانوا يخشون نزول سورة تفضح ما في قلوبهم {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة: 64]. كما بين الحق سبحانه في سورة التوبة النتائج التي تحدث في حالة نزول سورة من عند الله باعتبارها مصدرا لزيادة الإيمان، لكن أثرها يحدث بصورة متعكسة بين المؤمنين والمنافقين. فالمؤمنون تزيدهم إيماننا والمنافقون تزيدهم رجسا، قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: 124، 125]

يتضح من خلال هذه الآيات أن السورة وحدة أساسية في تكوين القرآن الكريم، وهي تبين بما يقطع الشك باليقين أنه عمل توقيفي غير اجتهادي لا من الرسول ﷺ ولا من غيره. بل إن الآيات التي استعرضناها هنا وغيرها في القرآن تشير إلى أن نزول السور جملة واحدة كان هو الأمر المعتاد والطبيعي، كونه حديث مشترك بين المؤمنين والكافرين والمنافقين حول هذا الموضوع، تمنيا من جهة، وحذرا وتحديا وعجزا من جهة أخرى، وأن ما نزل مفرقا من الآيات إنما كان خاصا ببعض السور لطولها مثل السبع الطوال والله أعلم.

وفي تراثنا الإسلامي، يرجح أن يكون أول من أشار إلى أهمية وحدة السورة وتناسب مضامينها هو برهان الدين البقاعي، صاحب كتاب {مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور} يذكر فيه معلومات هامة عن كل سورة ويبين مقاصدها جملة، وهو ما يساعد على منهج تدبر القرآن وفق وحدات السور. وله كتاب {نظم الدرر في تناسب الآيات والسور} المنوّه به آنفا، ويقول في مقدمته: (الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع

القرآن هو أنك تنتظر الغرض الذي سيقى له السورة، وتنتظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنتظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنتظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة والله الهادي. انتهى. وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها..¹

وأما في الدراسات القرآنية المعاصرة، فقد نحا المتخصصون في التفسير الموضوعي إلى القول بوجود وحدة موضوعية للسورة القرآنية خاصة بها، بما يفيد في وجود شخصية مستقلة لها داخل النسق القرآني العام. فأصل عبارة "السورة" مأخوذ من السور الذي يحيط بالشيء ويجعله وحدة مستقلة. يقول محمد الطاهر بن عاشور (السورة قِطْعَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مُعَيَّنَةٌ بِمَبْدَأٍ وَنِهَآيَةٍ لَا يَتَغَيَّرَانِ، مُسَمَّاةٌ بِاسْمٍ مَخْصُوصٍ، تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ فَأَكْثَرُ فِي غَرَضٍ تَامٍّ تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ مَعَانِي آيَاتِ تِلْكَ السُّورَةِ، نَاشِئَةٌ عَنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ، أَوْ عَنْ مُقْتَضِيَّاتِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُنْتَأَسِبَةِ...

وَتَسْمِيَةُ الْقِطْعَةِ الْمُعَيَّنَةِ مِنْ عِدَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ سُورَةً مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْقُرْآنِ، وَشَاعَتْ تِلْكَ التَّسْمِيَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ حَتَّى الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ، فَالتَّحْدِي لِلْعَرَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ [هود: 13] وَقَوْلِهِ: فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ [البقرة: 23] لَا يَكُونُ إِلَّا تَحْدِيًا بِاسْمٍ مَعْلُومٍ الْمَسْمَى وَالْمَدَارِ عِنْدَهُمْ وَقُتَّ التَّحْدِي،²

¹ البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ج1، ص18

² ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، 1984، ج1، ص84

فتكون السورة وحدة متماسكة المعاني والأهداف، تمثل نسقا خاصا من حيث الموضوع أو الموضوعات الأساسية التي قد تكون متباعدة الأزمنة والأمكنة في النزول لكنها منتظمة ضمن خيط ناظم واحد أساسي فيها؛ هو محور السورة.

وقد أظهر هذا الجانب سيد قطب رحمه الله في ظلاله الوارفة بما لم يسبقه - حسب علمنا - أحد إليه. و كتابه في ظلال القرآن مرجع لا غنى عنه لمن يبحث عن تعريف واف بكل سورة من سور القرآن. بإبراز قضيتها المحورية، وما تتفرع عنه من موضوعات مترابطة في خدمة القضية المحورية للسورة. مع تخصيص الحديث عن الأساليب المتبعة في عرض موضوعاتها، والجو العام الذي تتحرك خلاله، وكل ما من شأنه إبراز ملامحها العامة وشخصيتها المتفردة ضمن النسق القرآني العام. يقول سيد قطب (يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص - إذا تغير في ثلثي السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة .. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا).¹

ويبقى التأكيد على أهمية وفوائد المدخل النسقي للقرآن الكريم، سواء عبر الوحدة القرآنية أو وحدة السورة؛ فهو ينقلنا داخل أجواء النص القرآني أو السورة القرآنية باستحضار المقاصد والأهداف، وموضعة المواقف والأحداث، وفهم الأساليب وما تتضمنه من قصص وأمثال، وطرق حوارية أو أسئلة، وغيرها، مما يجعل المدخل النسقي مفيدا لمن يبحث عن التربية والتوجيه والتفاعل المباشر والحي مع القرآن الكريم، وهو المطلوب - قرآنيا - كما سوف نرى في المباحث القادمة. لأنه يجعل التعامل مع القرآن قائما على التلقي المفضي

¹قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص27

للعمل والتنفيذ. وليس الرغبة في التثقيف والخروج بمعلومات ومعارف باردة لا أثر لها في التوجيه.

وما نخلص إليه هنا، هو أهمية اعتماد المدخل النسقي في التعامل المنهجي مع القرآن الكريم؛ سواء في التعامل مع القرآن الكريم كوحدة كلية متكاملة، أو في التعامل مع السورة كوحدة لها اعتبارها المستقل ضمن النسق القرآني الكلي.

المبحث الثاني: مقومات وخصائص المنهج القرآني في التنمية البشرية

المطلب الأول: خصوصية المعجم القرآني في التنمية البشرية

تقتضي المصدرية القرآنية التي تحدثنا عنها في المبحث السابق، إعادة تعرّفنا على القرآن بإعادة بناء تعريفنا له تعريفاً ينطلق من القرآن نفسه. لأن ذلك هو السبيل الأقرب إلى التعريف بالقرآن تعريفاً صحيحاً من جهة، ولأنه من جهة أخرى يقودنا مباشرة للجواب عن سؤال علاقة التنمية البشرية بالقرآن الكريم. بما يزيل كل غموض أو التباس في الأمر.

من خصائص القرآن ومميزاته، تعدد أسمائه وأوصافه، الدالة على شرف المسمى. يقول الفيروز أبادي: (اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته)¹. فأوصاف القرآن المذكورة فيه متعددة، وكل وصف من هذه الأوصاف، جاء باعتبار معنى من المعاني التي تتكامل فيما بينها لتقدم صورة وافية عن القرآن الكريم. و تعتبر تلك المعاني ذات أهمية شديدة لمن يريد التعرف على القرآن من خلال القرآن نفسه. فمن ذلك وصفه بالكتاب المبين والمبارك والمجيد والسبيل والنور الشفاء والرحمة والفرقان.. إن القرآن وهو يقدم نفسه بهذه الأوصاف والأسماء، يعلن عن طبيعته ووظيفته، كما يكشف عن غايته وأهميته للناس عامة، وللمؤمنين به خاصة.

¹ الفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996، ج 1 ص 88

ونرى أن الوقوف عند بعض هذه التوصيفات القرآنية للقرآن، كفيل بأن يوفر لنا صورة عن طبيعة موضوعات القرآن وغايات تنزله. وقد اختلف العلماء قديما وحديثا في تحديد أسماء القرآن وأوصافه، وتمييز بعضها عن بعض، يقول أبو القاسم الغرناطي : (وأسماءه - القرآن - أربعة: القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر. وسائر ما يسمى صفات لا أسماء.)¹

والذي يهمنا في ذلك، ما تدل عليه هذه الأسماء والأوصاف من معاني مكتنزة حول حقيقة القرآن وطبيعته ودوره وغايته... إن إلمامة سريعة بأوصاف القرآن هاته تقدم لنا صورة أكثر دقة في التعريف بالقرآن. غير أننا سنكتفي بذكر بعض منها وفي ذلك مؤشر على بقيتها، تفاديا للإطالة في هذا المطلب. فمن أوصاف القرآن التي سنعرضها؛ الهدى والنور والصرط المستقيم والشفاء، وبيان ذلك فيما يلي:

- القرآن هدى

الهدى وصف من أوصاف القرآن الكريم، ورد في قوله تعالى من سورة البقرة {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] وفي قوله تعالى من سورة النجم: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 23] وفي قوله سبحانه من سورة الإسراء: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: 94]. و الهدى كلمة تدل في معناها اللغوي على الرشاد والدلالة²، وهي في معناها القرآني تفيد أيضا الرشاد وتدل عليه. فقد ذكر القرآن أنها مقالة الجن حين سمعوا القرآن لأول مرة، وذلك في قوله تعالى: {قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: 1، 2] فالهدى متضمن للرشد ومفضي إليه. غير أن لفظ "الهدى" داخل السياق القرآني يأخذ أبعادا أكبر مما ذكر، وذلك حين يذكر في سياق قصة استخلاف آدم عليه السلام، وما جرى من إغواء الشيطان له ولزوجه، ترتب عنه هبوط كل منهما إلى الأرض.

¹ ابن جزي الغرناطي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1416 هـ. ج1، ص13.

² الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990. مادة هدى

فكان أن أعلن الله عن طبيعة الابتلاء المنتظر في هذه الأرض، فقال سبحانه بعدها مباشرة {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38]. وفي سورة طه قال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 123، 124].. إن هذه القصة تحكي التجربة الوجودية ذات الدلالة العميقة في استخلاص التصورات الأساسية لوجود الإنسان واستخلافه في الأرض، فالله تعالى تعهد وفق مخرجات هذه التجربة التي قصها علينا، أن لا يترك الإنسان هملاً، وإنما وعد من يتبع الهدى عند مجيئه بالهداية في الدنيا والسعادة في الآخرة. والمقصود، أن نجاح الإنسان في الدنيا، و فلاحه وفوزه في الآخرة، متوقف على مدى اتباعه والتزامه بما جاءه من الهدى. فهو حين يتبع الهدى يعصمه الله تعالى من الضلال والشقاء في الدنيا. ويؤمنه من الخوف والحزن في الآخرة. لأن اتباع الهدى هو اتباع منهج الله الذي يقود الإنسان إلى السير في الاتجاه الصحيح، وسط معمرة الحياة الدنيا وابتلاءاتها وفتنها، ليتحقق له الرشد في حياته ويكون من الراشدين. و للمرء أن يتصور - مجرد تصور - كيف تكون حياة من كان الله مرشده وموجهه فيها؟ فحين يهيئ لك سبحانه أسباب الرشد، يكون قد هيا لك أسباب الفلاح في الدنيا التي تقود إلى الفوز في الآخرة.

وبالمقابل، يبين الحق سبحانه، أن الإعراض عن اتباع منهجه مآله المعيشة الضنك، ونلاحظ أن القرآن لم يعتبرها حياة، بل معيشة فقط. أي ما يشترك فيه الإنسان وسائر المخلوقات في تأمين حاجات البقاء. و الضنك معناه الضيق كما جاء في مختار الصحاح. أي، أنه يعيش ضيقاً في الدنيا وهي حالة شعورية بائسة تجعل الإنسان لا يهنأ بحال. فمن تنكب هدى الله وحاد عن الاستقامة، وقع لا محالة في الضلال، و تقاذفته رياح الفتن وترصدته أمواج البلايا، فكان مصيره الشقاء والذنك. وذلك الشقاء يتنافى مع اتباع منهج القرآن الذي ذكر في مطلع السورة ذاتها {طه مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى} [طه: 1 - 3] ثم أعاد التأكيد على ذلك في الآية {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَى} [طه: 123]، إن مدار الأمر هنا حول مدى تحقق الإقبال من لدن الإنسان على الهداية واتباعها لتكون مصدر سعادته ورشاده. فذلك وعد الله لعباده المتقين حين يقول عز وجل: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2]

- القرآن نور

تظهر أهمية لفظ "النور" في القرآن الكريم، في ارتباط معناه الأساس بالبعد الكوني في خلق السماوات والأرض، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: 1]. ففي سياق هذا الخلق الكوني، يرد وصف القمر بالنور، و كذلك وصف الشمس بالضياء، و ذلك في مثل قوله تعالى : " { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } [نوح: 15، 16]" وقوله سبحانه : " {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا } [يونس: 5]" . في هذه الآيات تتجلى حقيقة كونية مفادها، أن الشمس مصدر ضوء ساطع من ذاته، بينما القمر يعكس ضوء الشمس عليه فيصعد منه نورا، أي أن النور ليس ذاتيا في القمر، وإنما هو صادر عنه بفعل انعكاس أشعة الشمس عليه. وهذه الحقيقة الكونية يتم استعارتها لبيان حقيقة القرآن وأهميته ودوره بالنسبة للإنسان، وذلك حين يوصف بالنور، فمع أن القرآن في حقيقته المادية مصحف على شكل كتاب كسائر الكتب المتضمنة لصحائف مسطورة بالحروف والكلمات، إلا أنه يختلف عن سائر الكتب بالنور الذي يصدر من معاني كلماته وآياته وحروفه، إذ تعكس تلك الكلمات في حقيقة الأمر مضامين ومعاني من نور الله عز وجل. ذلك النور القادر على إحداث تغيير كلي وشامل في حياة الإنسان، موازينه وقيمه وتصوراتهِ وتصرفاته.. وتغييرها من حال إلى حال، بما من شأنه أن يتحقق معه الهداية والرشاد، كما حدث ذلك مع الجيل الأول الذي نزل عليه القرآن.

و لفظ النور، ورد في القرآن بدلالات ومعاني متعددة حسب السياق في كل مرة. ففي السياق الكوني - كما رأينا - ورد لفظ النور بمعنى ضوء النهار أو ضوء القمر، وأما فيما عدا ذلك، فغالبا ما يرد هذا اللفظ بمعاني الهدى والبيان والإسلام والإيمان.. وهو كذلك اسم

من أسماء الله الحسنى، { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [النور: 35]. وقد قدم الباحث يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل دراسة حول آيات النور ومعانيها في القرآن خرج منها بخلاصة مفادها، أن (النور في هذه المعاني أغلبه معنوي، أي أنه بمعنى نور البصيرة مما يحمل معنى الهدى والعلـم والطاعة والإيمان والسعادة وانتشراح الصدر، وهذا هو الأجدر بالأهمية والنظر والتأمل)¹.

كما ورد لفظ النور في القرآن باعتباره وصفا للرسول الكريم محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: 15] ، وأيضا وصفا لرسالته - القرآن الكريم - كما جاء في آيات قرآنية عديدة، وهو موضع اهتمامنا في هذا المبحث، فمن ذلك قوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } [النساء: 174] إنه النور الذي دُعي المؤمنون إلى الإيمان به في قوله تعالى: {قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا } [التغابن: 8] فالقرآن نور، والغاية من نزوله أيضا إخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } [إبراهيم: 1]. وفي سورة الحديد، يقول الحق سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الحديد: 9]. كما يؤكد القرآن الكريم أن فلاح الإنسان متوقف على اتباع النور الذي جاء به الرسول الكريم {قَالَتِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157]، واتباع نور الله في هذه الآية يعني أن التزام تعاليم القرآن وتوجيهاته للإنسان، واستمداد التصورات والقيم والموازين والأحكام منه ..كفيل بأن ينير دروبه في الحياة، ذلك أن معيشة الإنسان في هذه الحياة تعترىها لحظات من التيه والحيرة والقلق، لا يسكنها ولا يلطفها إلا نور الله في كتابه، الذي جاء ليكشف حقائق الوجود، وحقائق النفس البشرية في هذا الوجود، وما يخالجه من مكامن الضعف، وما يترصدها من ضلالات وأهواء وفتن، لا مخرج منها إلا بنور الكتاب. هذا النور يقود صاحبه في الحياة الدنيا، ينير له المسالك والدروب، وينقذه في لحظات الحيرة

¹ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل، تأملات في آيات النور، ص 94 ، نقلا عن موقع التفاسير www.library.tafsir.net

والاضطراب، ويكسبه الثقة واليقين في حركته وأعماله، وفي سكناته وخطراته، فوصف القرآن بالنور وصف شامل لما يعتبر سببا في تبديد الظلمات التي تواجه الإنسان في الحياة.

و من أعجب معاني النور في هذا السياق القرآني، ما ذكره الحق سبحانه في كونه سببا في إحياء الإنسان، وإخراجه من الظلمات، وذلك في قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: 122] ، إن وصف النور للقرآن هنا وصف حي شاخص، يشمل ويستوعب إحياء هذا الإنسان في كليته، عقله ومشاعره وحركاته وسكناته، فيحيا الإنسان بذلك النور الحياة الحقيقية الموصولة بالله و المستضاءة به، وواضح أن المقصود بالحياة هنا، ليس مجرد الحياة المادية المحسوسة، فتلك لا تعتبر حياة في القرآن، بل هي معيشة في أفضل الحالات وموات معنوي في حقيقة الأمر. ومن تم، فالحياة الحقيقية هي التي يحيها الإنسان بمنهج الله تعالى، تربية وتعلima وتزكية واستجابة والتزاما.

و هذا التصوير المجازي للظلمات والنور في الآية يقدم حقيقة من الحقائق الأساسية الضخمة التي جاء بها القرآن الكريم، حقيقة أن لا وجود إلا لأمرين اثنين متقابلين؛ الظلمات والنور. وأن هناك نور واحد فما سواه ظلمات، ومن أراد النور فليسلك طريقه وليستمه من منبعه الأصيل. فالنور الذي تتحقق به الحياة، هو نور الاتصال بخالق النور، ثم الاستمداد من نوره، كيف لا وقد أخبرنا سبحانه أنه أرسل رسوله نورا وأنزل كتابه نورا. فبدون هذا النور، يبقى الإنسان مواتا في الظلمات. وهو تعبير عن الشرود والضلال والنتية الذي يعتري الإنسان البعيد عن نور الله، مهما بدا لنا ما هو عليه من حياة ظاهرة متألئة لدى البعض على المستوى المادي، لكنها عند من يملك حقيقتها موات وظلمة. يقول سيد قطب رحمه الله: (ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاعة في خواطره ومشاعره وملامحه! ويجد الراحة في باله وحاله و مآله! ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها! و يجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين!)¹

¹قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط3، 1994، ج3، ص 1201.

ثم إن هذا النور، يقود المستنيرين به، ليس في الدنيا فقط، وإنما يستمر ذلك إلى يوم القيامة، منيرا لصاحبه طريقه إلى الجنة، وذلك حين يفقد هذا النور من افتقده في الحياة الدنيا. فحين تقوم الساعة ويخسف نور القمر ويذهب ضياء الشمس، لا يبقى إلا من جاء بنور الهداية، وفي ذلك يقول تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [الحديد: 12، 13]

تكشف الآية عن تلك العلاقة المستمرة والممتدة بين نور الدنيا ونور الآخرة. نعم، لقد صدقوهم القول في أن مصدر نورهم جاؤوا به من الدنيا، إذ تم العمل عليه هناك، حيث الابتلاء والفتن وحيث المعركة الحقيقية مع النفس والشیطان، ولكن دعوتهم للمنافقين بالرجوع إلى الدنيا لالتماس النور، دعوة على سبيل التهكم فقط، حيث لا مجال للعودة إلى الدنيا. فمن لم يتبع نور الله في الحياة الدنيا ويلتزم منهجه فيها بكل مقتضياته، لا سبيل له للاستتارة في الحياة الآخرة.

وتوضح الآيات الموالية في سورة الحديد هذا المعنى في قوله سبحانه: {فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ تَنْفُسُكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَعَرَّكُمُ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [الحديد: 13، 14] نعم، كانوا يعيشون عيشة واحدة، ولكن ليس حياة واحدة، فهؤلاء أضلوا أنفسهم بالفتن ولم يحسموا وجهتهم في الحياة، بأن تكون على منهج الله ووفق رسالته، بل عاشوا بين التربص والارتياب، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مغترين بالأماني الباطلة التي أطمعهم فيها الشيطان أو عاشوا بعيدا عن منهج الله في الحياة. لقد كانوا مواتا وعميا وفق الحقيقة القرآنية التي أكدت مرارا على ترابط الأسباب والنتائج وتلازمهما بين مرحلتى الدنيا والآخرة. فمن لا يملك نورا يضيء طريقه في الدنيا لا يستطيع امتلاكه في الحياة الآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الإسراء: 72] وقال

سبحانه: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْسَى} {طه 125-126}

- الصراط المستقيم

تلتقي الإشارة إلى القرآن الكريم باعتباره النور مع الإشارة إليه باعتباره الهادي إلى
الصراط المستقيم في قوله سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}
[الشورى: 52، 53]

وقد ذكر طلب الهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة باعتباره أهم ما ينبغي
أن يتوجه به العبد لطلبه من مولاه {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6] ومعنى الصراط
المستقيم كما ذكر شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (ت 310 هـ): (أجمعت الأمة
من أهل التأويل جميعاً على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج
فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب)¹

وإذا كانت كلمة صراط تعني في اللغة الطريق، فإن وصف الاستقامة لهذا الطريق
وصف تأكدي دال في هذ المقام، ومعلوم في لغة الرياضيات أن المستقيم هو أقرب مسافة
بين نقطتين. و كذلك الأمر حين يتدبر الإنسان المسافة المقررة بين لحظة وجوده في الدنيا
والغاية التي يرجو بلوغها في الآخرة (دخول الجنة). بين هاتين اللحظتين، حياة ممتدة في
الدنيا طالت أم قصرت، لكن التحدي الذي تطرحه هذه الحياة طيلة هذه الفترة، هو كيف
يحيها الإنسان؟ لاسيما وأن السبل فيها متعددة كما في قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153] ، وحيث أن السبل
متعددة فإن سعي الإنسان كذلك متعدد كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل:
4] هنا تظهر أهمية النور الذي ينير الطريق. فالنور المستضاء به من وحي الله عز وجل

¹ أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل أي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط2000، ج1 ص 170

يسدد الخطى نحو غاياتها بوضوح تام، لأن المشي في الحياة بنور الله هو مشي على صراط مستقيم ، تظهر أهميته حين يقارن القرآن بينه وبين من يمشي ساقطاً على وجهه لا يأمن العثر {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: 22]

فلا بد لمن أراد الحياة وفق سنة الاستخلاف الإنساني في الأرض، وما تقتضيه من عمل وكد، وما يعثرها من فتن وإحن، أن يمتلك رؤية قبلية واضحة تنير له معالم الطريق، تلك الرؤية هي نور الوحي؛ الذي يجعل المستتير به في عقله وروحه ووجدانه، مبصراً للطريق إبصاراً صحيحاً، فتصح حركته الوجودية وتكون النتائج مثمرة. ولذلك استنكر الله تعالى إمكانية المساواة بين المبصر والأعمى فقال {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [الرعد: 16]. فهذا النور هو الذي تتضح به الرؤية، ويزول الغبش فيفرق صاحبه بين الحق والباطل، ويحيا الحياة الحقيقية التي يرتضيها منه خالقه يقول سيد قطب رحمه الله: (وحيث يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة؛ ويتلقى منه تصورات وقيمه وموازنه، يحس يسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الأمور. ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء؛ وتلتزم حقائقها في يسر؛ وتتفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خرجت من يد الله . .)¹

– القرآن شفاء:

وُصف القرآن بكونه شفاء في ثلاث آيات قرآنية، وهي : قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" {يونس: 57}، وقوله سبحانه: " {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82]، وقوله كذلك: " {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي

¹قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط23، 1994، ج

وَعَرَبِيٌّ قُلُّ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ { [فصلت: 44]

ومفهوم الشفاء في القرآن، من أكثر المفاهيم التي أصابها تحريف كبير في الثقافة الإسلامية زمن الانحطاط، وتوارثته الأجيال اللاحقة إلى يومنا هذا. حيث ربط مفهوم الشفاء القرآني بصحة الأبدان، وترتب عن ذلك شيوع ثقافة " الحجاب القرآني " و " الحصن القرآني " وهي صحائف تضم بضع آيات يعلقها المريض على صدره أو توصف له من المعالج. وهذه الممارسة وإن أخذت في التلاشي تدريجيا من واقعنا الحالي لمحدودية نتائجها أمام علوم الطب الحديثة، إلا أن تأثيرها الاعتقادي والثقافي لا يزال قائما. وسند مروجيها في ذلك؛ الآيات القرآنية المنوه بها آنفا، مشفوعة ببعض الأحاديث. وقد بلغ الأمر ببعضهم أن يؤلفوا كتباً كاملة لبيان أهمية الاستشفاء بالقرآن. ومثال ذلك كتاب {شفاء الإنسان بسور القرآن}¹ لصاحبه ماجدة المؤذن. وضعت على غلاف كتابها قوله تعالى: " ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"، وجاء الكتاب في 256 صفحة متحدثا عن علاجات القرآن لأمراض السرطان والصرع وانفصام الشخصية والأيدز...مع تحديد ما ينبغي أن يقرأ من السور لشفاء كل منها.

غير أنه، و بالعودة إلى الآيات القرآنية المتحدثة عن كون القرآن شفاء، ومن أجل استجلاء هذا المعنى - الشفاء - داخل النص القرآني، نرى ضرورة ربطه بالسياق القرآني داخل السورة من جهة، و ربطه بشبكة المفردات المرتبطة به قرآنيا من جهة ثانية. وهو ما يتطلب استعراضا مطولا للآيات وسياقاتها، لا نرى ضرورة اللجوء إليه الآن، لاسيما أن غرضنا هنا إثبات الفهم الصحيح للفظ الشفاء في القرآن، وهو ما يتحقق بذكر بعض الإشارات حول الآيات الثلاث نجملها فيما يلي:

¹المؤذن، ماجدة، شفاء الإنسان بسور القرآن مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (د.م)، (د.ت)

في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 57] حددت الآية موضع الشفاء في "الصدر". وإذا بحثنا في القرآن عن الآيات المتضمنة لهذا اللفظ - الصدر -، نجد معظمها يعبر على أنه مكان لإخفاء ما يريد الإنسان إخفاءه، وأن الله مطلع على كل شيء وعليه بذات الصدر، كما نجد أن هذه الصدر هي أوعية للقلوب، قال تعالى: {وَلِيَبْلِغَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: 154] وقال سبحانه: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]. والقلب هو العضو الذي ينسب إليه المرض في القرآن، وذلك في آيات عدة من قبيل قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: 10] وقوله سبحانه: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} [المائدة: 52] وقوله كذلك: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب: 32]. إذن فشفاء الصدر هو شفاء لما في القلوب - التي محلها الصدر - من أمراض، وهي أمراض لا علاقة لها بصحة الجسم، وإنما ترتبط دلالاتها في سياقات الآيات التي وردت فيها بالنفاق والشبه والشك والإعراض والشهوات وسائر ما يمكن أن نعتبره انحرافات وفساد في النفس والمجتمع، أو ما يطلق عليه في لغتنا المعاصرة بالأمراض النفسية والاجتماعية. فالقرآن والحالة هاته، وباعتباره النور والهدى والصراط المستقيم هو شفاء من كل تلك الأمراض حقا، وبذلك يكون هذا المعنى في الشفاء متناسبا مع طبيعة رسالة القرآن ومتوافقا مع الدور الوظيفي له في حياة الناس، فهو في حقيقة الأمر، شفاء للأرواح والنفوس من عللها المانعة من الهداية. وحين يقترن ذكر الشفاء في القرآن بالرحمة و الهدى كما هو مبين في آيات الشفاء، حينها يتبين أن وصف القرآن بالشفاء، يعكس زاوية من زوايا الصورة التي رأينا من قبل في كون القرآن هو الهدى والنور والصراط المستقيم.

ومع كل ذلك، لا ينبغي أن ننكر ما قد يحصل من شفاء للأبدان بالقرآن، لأن القرآن كتاب مبارك، وبركته تعم كل شيء، فإذا قصد المعتل في بدنه بقراءة القرآن اللجوء إلى خالقه والدعاء لطلب الشفاء، فذلك مما لا يسوغ إنكاره، بل هو من مقتضيات الإيمان بالله.

وإنما يكون الاعتراض عن الاستدلال بآيات الشفاء المتقدمة واعتبارها أصلاً في هذا الموضوع. وتحويل القرآن بموجب ذلك إلى "تراتيل طقسية" تبعده عن أن يكون كتاب حياة أو منهج حياة.

وبعد ، فلا يمكن حصر المعاني والدلالات التي تحبل بها أوصاف القرآن وأسماءه، وهي عديدة ومتنوعة اكتفينا بذكر بعض منها، وكلها تتضافر في إعلان حقيقة القرآن وطبيعته وغايته فهو روح من أمر الله وهو الذكر المبارك والرحمة والبشارة للمسلمين، والهادي للتي هي أقوم، والتبيان لكل ما يحتاجه الإنسان في مسيرة حياته الدنيوية. ومهما ذكر من معاني هذه الأوصاف لن توفي القرآن حقه، لذلك جاء وصفه بالكريم والعظيم، وكفى بها عظمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

و بالنظر إلى أهمية المساحة التي تشغلها هذه القضايا في القرآن، والتي تكاد تغطي مساحة القرآن جملة؛ تتبدى صعوبة الاستدلال على قضايا التنمية البشرية من خلال آيات محدودة من القرآن الكريم، كيف لا والقرآن - كله - هو حياة النفوس والقلوب، وهو الروح الذي جعله الله تعالى نوراً يهدي لاستقامة الحياة كما في قوله تعالى: {كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52]

بناء على ذلك، يمكن القول أن موضوعات التنمية البشرية، تعادل في أهميتها ومساحتها موضوع "التوحيد" الذي هو جوهر الرسالة القرآنية، والذي لا يعتبر - بالمناسبة - بدوره من المصطلحات القرآنية؛ لذلك، يشبه الاستدلال على التنمية البشرية بالقرآن الكريم ما قاله ابن القيم - رحمه الله - حين أراد الاستدلال على شواهد التوحيد في القرآن فقال: (إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه)¹

وينبغي التأكيد هنا مرة أخرى، أن التنمية القرآنية تستوعب مشمولات مواضيع التنمية البشرية الحديثة على مستوى محورية الاهتمام بالإنسان موضوعاً، والوصول إلى أفضل حياة

¹ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج3، ص 378

ممكنة غاية، وبناء عليه، سيكون تركيزنا منصبا حول ما يتضمنه القرآن أصالة ويشمل مضمون التنمية البشرية وغايته.

فإذا كان القرآن هو النور الذي يقود الإنسان في ظلمات الحياة الدنيا، وأنه الصراط المستقيم إلى الهدى والرشاد في الحياة، وأن الاعتصام به سعادة، والإعراض عنه ضنك وشقاء، وأنه شفاء من الأمراض النفسية والاجتماعية التي تنهش في جسم المجتمعات البشرية صغیرها وكبيرها، وأن في اتباعه خروجا من الظلمات إلى النور، وانتقالا من الموت إلى الحياة...إذا كان القرآن هو كل هذا وغيره كثير، أفلا يكون من الإجحاف تعطيل هذا المنهج في حياتنا، واستقراغ الجهد في البحث عن مناهج حياتية غريبة عن هويتنا لإصلاح أحوالنا وتغيير أنماط حياتنا بما يجعلها مفيدة ونافعة؟

المطلب الثاني: الخصائص العامة للمنهج القرآني في التنمية البشرية

مصدر المنهج القرآني هو الرب تبارك وتعالى، وهي الخصيصة الأهم التي تجعل المنهج القرآني مفارقاً لسائر المناهج ذات المصدر البشري، إذ كيف يقارن منهج البشر للبشر مع منهج الله للبشر؟ وحيث أن القرآن رباني المصدر فهو منزّه عن النقص والخلل والاضطراب أو التناقض.. وحين نقول بأن المنهج القرآني في التنمية البشرية يتميز بربانيته، فذلك يعني أن هذه التنمية ستشتغل بمفاتيح من صنع الله تعالى، فهو من أودع الإنسان نظامه التشغيلي في الحياة، يقول سبحانه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14]. فحين يعتمد الإنسان وصفه التنمية القرآنية يكون قد رد الفطرة البشرية لخالقها لينفض عنه ما كسبت، ويزيل ما ران على قلبها من أفكار وممارسات، إذ تضمن له صلاحية المنهج القرآني تلبية حاجاتها الحقيقية التي لا يملكها إلا باريها. وباعتماد المنهج القرآني يركن الإنسان للتي هي أقوم، ويتخلص في الوقت ذاته من ضلالات وأوهام التصورات الجزئية والمذاهب القاصرة، وشقاء الجمع من هنا وهناك. مع ريبة المأخذ وريبة القصد وريبة الممارسة. يقول سيد قطب: (لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وإيحاءات... كان يستنقذ فطرته من الركام، ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها، ويفتح منافذ الفطرة، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها)¹

إن الثقة في ربانية المصدرة للمنهج القرآني، تكسب الإنسان الطمأنينة في خطواته وهو يسير على هذا المنهج، فلا يتزعزع ولا يضطرب ولا يشك، وإنما يمضي بكل ثقة ويقين إلى ما دعاه إليه ربه. فإذا تأمل وتفكر في هذا المنهج القرآني وجده يدعو إلى أن تكون غايته الكلية هي الله سبحانه؛ فينتج عن ربانية المصدر ربانية الغاية كذلك. وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

¹ قطب، سيد، معالم في الطريق، ص28.

أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ { [الأنعام:

[161 - 164]

ثم إن الإنسان كيان واحد، والقرآن تتضمن آياته معالجة كل أبعاده الروحية والجسدية والنفسية والعقلية في كل متكامل. وذلك بما يحقق للمسلم صلاح وسعادة الدنيا والآخرة، فظهرت توجيهاته على ذلك الأساس شاملة لكل أبعاد الإنسان وجوانب حياته الدنيوية والأخروية، لتستوعب كل ما يصدر عنه من تصرفات وحركات وسكنات وخطرات وأفكار ومشاعر.. وهذه الشمولية تمتد لتغطي مختلف مجالات حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، فتشمل جميع متطلبات الإنسان في يومه وغده، دنياه وآخرته، عقله وقلبه، روحه وأشواقه، فكره ونفسه، يقول الأستاذ: محمد قطب مبينا شمول المنهج الرباني (يشمل المنهج الرباني، كل حياة الإنسان وكل نفس الإنسان، لا يأخذ عقله دون روحه، ولا يأخذ وعيه والقوى المعنوية فيه ويترك الجانب الفكري، لا يأخذ دنياه ويترك آخرته، ولا يأخذ اقتصادياته أو اجتماعياته أو سياساته ويهمل أخلاقياته، كلا... إنه شامل لكل كيان الإنسان النفسي، وشامل كذلك لكل واقعه العظيم)¹. وحيث يغطي المنهج القرآني هذه الزوايا كلها في تكامل وتناغم بين عناصرها فإنه يحقق الإشباع الحقيقي للإنسان مما يساعده على الشعور بالرضى والاطمئنان في حياته. والشمول هو تلك الخصيصة التي خرمتها المنهجية التراثية الإسلامية في التعامل مع نصوص الوحي الإلهي كما رأينا في الباب السابق. وأنتجت فقها تجزيئيا وتفسيرا تجزيئيا وعقيدة منفصلة عن الأحكام فانفصلت عن الواقع... فحين ان شمولية المنهج القرآني تظهر أهميتها الشديدة في بناء الإنسان وتربيته وتنميته، إذ تكون خيطا ناظما لكل التوجيهات القرآنية التي تعمل كمنظومة متكاملة لا مجزأة، فتتحقق بذلك فاعليتها في الحياة. ولله در الأستاذ محمد قطب رحمه الله وهو يعبر عن جمالية هذه الخاصية بأسلوبه الرائق الجميل، فيقول: (طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة

¹ قطب، محمد، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ص45

شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئاً من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصل. ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح.

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازاً لا تتناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع¹

كما يحرص المنهج القرآني على التفاعل مع البيئة التي يعمل فيها بروح إيجابية وذلك في حدود المجال الإنساني. وتظهر الخاصية الإيجابية للقرآن في تفاعله مع الواقع من خلال وقائع عديدة ذكرها القرآن، وتضمنت تجاوب الإنسان مع الوحي الإلهي بشكل تفاعلي كبير.. ولعل عبارة " ويسألونك " في القرآن الكريم واحدة من الأساليب القوية في تأكيد هذا التوجه الذي يبين الطريقة التي طبعت نزول القرآن الكريم ممثلة في التدرج، مع بيان الحكمة من ذلك في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} [الفرقان: 32]

والإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض، يكون بمقتضى ذلك الاستخلاف هو محور هذا النشاط الإيجابي تأثيراً وتأثراً. فقد أوجب عليه المنهج القرآني المسارعة والمسابقة لفعل ما يصلحه وينفعه في دينه ودنياه، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا

¹ قطب، محمد، منهج التربية الإسلامية ج1، دار الشروق، بيروت، 1997، ص18

لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ
 مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 133 -
 136]. وقوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:
 21]

إن الدعوة إلى المسارعة والمسابقة لفعل الخير والتزام كلمة الله في الحياة، هي دعوة
 للتحرك بإيجابية فيها، مع ما يقتضيه ذلك من التحرر الوجداني والانطلاق سعياً لمقام أفضل
 عند الله. وحين يظن الإنسان نفسه في مقام ما ليس له؛ يتدخل الوحي الإلهي ليعيد الأمر
 إلى نصابه وموضعه الصحيح، كما جاء في قوله سبحانه: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
 وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحجرات: 14 - 16]

وفي القرآن الكريم آيات عديدة وردت في سياق حادثة معينة حدثت في واقع
 المسلمين، وقد تكون خاصة بفرد أو جماعية، فكان الصحابة الكرام يظهرون حسهم التفاعلي
 مع القرآن الكريم استجابة وتنفيذا لما نزل، أو بالهروع إلى النبي ﷺ في أمر لم ينزل فيه
 شيء بعد. وهو ما يعني وجود حركية إيجابية متفاعلة مع نصوص الوحي في ارتباط صميم
 بشؤون الحياة الفردية و الجماعية. والأمثلة على ذلك كثيرة في آيات القرآن.

والذي يعنينا هنا، هو الالتفات إلى تلك الخاصية في تفاعل القرآن مع الواقع، وهي
 خاصية على جانب كبير من الأهمية في منهج التعامل مع القرآن. فقد جاء القرآن ليترجم
 منهجه في الواقع مستكراً على الذين يدعون للإيمان به ويفعلون خلاف ما يقولون، حيث
 ترابط ذكر الإيمان والعمل الصالح في آيات عديدة من القرآن الكريم بما يدل على أن العمل
 الصالح ثمرة مباشرة للإيمان بالله. يقول سيد قطب: (بصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه

العقيدة معركة حية واقعية... كان يخوض بها معركة مع الركाम المعطل للفطرة في نفوس آدمية حاضرة واقعة... ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الخاص، إنما هو شكل المواجهة الحية للعقائيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية... ولم يكن الجدل الذهني - القائم على المنطق الشكلي - الذي سار عليه في العصور المتأخرة علم التوحيد، هو الشكل المناسب كذلك... فلقد كان القرآن يواجه "واقعا" بشريا كاملا بكل ملابساته الحية، ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع... وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب، فإن العقيدة الإسلامية، ولو أنها عقيدة، إلا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي، ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن، وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة، يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وأخلاقها وواقعها... ومن هذه الملابس ظهر بناء العقيدة لا في صورة "نظرية" ولا في صورة "لاهوت"، ولا في صورة "جدل كلامي"... ولكن في صورة تجمع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها، وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها... كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية له... وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك.¹

ومن أهم خصائص القرآن في التنمية البشرية أنه خطاب يقوم على الجمع بين البعد الفردي/ الذاتي والبعد الجماعي الذي هو غاية أكبر. وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة إلى ما قد يطرحه البعض من استفهامات حين نقول بوجود منهج قرآني في التنمية البشرية بهذا الاعتبار. فيرى أن في ذلك نوعا من الاعتساف في فرض موضوع يعنى بالذات الفردانية على كتاب يرى الكثيرون أن غايته بناء أمة ومجتمع، وحينها قدمنا الجواب بوجود طريقة

¹ قطب، سيد، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ص 42-43

للقرآن تقوم على نوع من التوازن في هذا المجال بين ما هو فردي وما هو جماعي، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فقد يبدأ خطابه إلى الناس كافة، ثم يعقبه بتوجيه خاص للفرد كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]. وكما في قوله سبحانه: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: 281]. ففي الآيتين معا بدء بخطاب للجماعة وتعقيب بتوجيه إلى الإنسان الفرد، كما قد يحدث العكس، بانتقال الخطاب من الفردي إلى الجماعي. ثم إن عناية القرآن بالمسؤولية الذاتية/ الفردية تتأكد عبر آيات عديدة منها قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123]، وقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت: 46] والحساب الفردي في الآخرة الفردية، فالله جل وعلا قد أحصى الناس فردا فردا، وكل فرد سيأتى للحساب فردا أمام الله جل وعلا: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: 95] {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: 94]

فالقرآن يؤكد المسؤولية الفردية في الدنيا وفي الآخرة. وأحكام الإسلام وتشريعاته وما جاء به من حقوق وواجبات دنيوية تخص الفرد في عمومها، فهو المكلف وهو المحاسب أمام الله تعالى. ومهما يكن الخطاب موجها إلى عموم المؤمنين أو المسلمين فإنه ينتهي إلى تكاليف فردية مباشرة. وبذلك تتعزز جدلية الفردي والجماعي في القرآن. إذ بقدر ما تتحقق التمثيلات الفردية للتوجيهات الإلهية بقدر ما تصب في قوة المجتمع الإيمانية والقيمية والسلوكية... نعم إن الإسلام جاء لإحداث تغيير عام غير أنه بين في سنة التغيير ذاتها أنها لا تتحقق اجتماعيا قبل أن تتحقق على مستوى الأنفس، ومن هنا تتعزز تلك الجدلية بين الفردي والجماعي في القرآن. بل إن هناك من يعتبر أن الفردانية أحد مبتكرات الإسلام التي ساهمت في تأسيس الوعي الذاتي والمسؤولية الفردية لدى الإنسان العربي، يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي: (فالإسلام يعتبر الـ"أنا" شعورا ووعيا، والوعي قبس من نور الله. وعلى العكس من هذا، لم يكن الانا، في العصر الجاهلي، مركزا في داخله، بل مشتتا على

الخارج، منعدم الذاتية الخاصة، حسب المشاركة في ذات قبلية مشاعة. فكيف يستطيع، والحالة هذه، أن يصل إلى درجة الوعي مادام شعوره يذوب في شعور جماعي غير محدد، قانونه العصبية الضيقة التي يعبر عنها دريد بن الصمة في البيت الآتي: وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية، أرشد¹

ثم يضيف قائلاً: (فبفضل الدين الجديد، [يقصد الإسلام] حصل انقلاب جذري في ذهنية ووجدان العربي: فعوضاً عن أن يبقى العربي فرداً يذوب في القبيلة، داخل اتصال أفقي، صار شخصاً يشعر بشخصيته في ذاتها، ويتصل، عمودياً بكائن مطلق، الخالق المتعالي الذي سوى بين العربي والعجمي)²

ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى البحث عن المنهج القرآني في العمران الإنساني في هذا المنحى، الذي يجعل اهتمامنا موجهاً إلى ذلك الجانب الفردي الذي يناظر المعنى الخاص للتنمية البشرية.

¹ الحبابي، محمد عزيز، الشخصية الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د.ت)، ص17
² الحبابي، محمد عزيز، الشخصية الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د.ت)، ص23

الفصل الثاني

الرؤية الكونية القرآنية ومقاصدها في التنمية البشرية

المبحث الأول: مقدمة حول الرؤية الكونية القرآنية

المطلب الأول: الرؤية الكونية القرآنية وأهميتها

الحديث عن الإنسان ضمن إطار الوجود، يترتب عنه بالضرورة تحديد العلاقات في هذا الوجود و تفسيرها. و ذلك من خلال ما يتبناه الإنسان من معتقدات ومعايير، يرى من خلالها ذاته والآخر والعالم من حوله. ذلك أن أسس التصور تلك التي يتبناها الفرد في تفسير وجوده وعلاقته بالكون وما فيه، هي التي تحدد اختياراته وتطبع سلوكه.. وترسم هدفه و غايته.. فتتشكل على أساس ذلك رؤيته.. وهي رؤية كونية لأنها ترتبط بالكون.. بكل مكوناته وأبعاده وسننه ومواصفاته؛ من الشساعة، والفسحة والدقة و التعدد والتنوع والاختلاف والتنظيم...إلخ. وقد تعددت - على مر التاريخ - المعتقدات المتعلقة بالله والعالم والإنسان وتتنوع بتعدد وتنوع المرجعيات الثقافية والفلسفية والدينية والعلمية.. وتكمن أهميتها في حاجة العالم إلى إطار عام نفهم من خلاله أنفسنا والعالم من حولنا.

والإنسان بفطرته يتوق لمعرفة الأبعاد الوجودية و الغيبية.. و هو مزود بعقل وبصيرة وحب استطلاع وتوق للمعرفة، وهذه الرغبة لفهم العالم/ الوجود تعنتي على الدوام بتساؤلاته وتراكم خبراته ومعارفه، فتتكون على أساسها رؤاه الوجودية. إذ هو في أمس الحاجة إلى ما يفسر له الوجود من حوله، وما يمنحه معنى لوجوده فيه.. وقد أثبتت التجارب التاريخية الحضارية أنه كلما كانت الرؤية الكونية أكثر وضوحا وتماسكا، كلما أكسبت الإنسان نشاطا وحركة فاعلة وإيجابية في الوجود. فالرؤية هي من تحدد معالم المسار، وتمنح معنى وغاية للأشياء، وكلما تحقق التناغم بين التصورات والسلوكيات والغايات، كلما سدت الفجوة بين ما يسعى إليه الإنسان في الحياة اليومية وبين ما يعتقد ويؤمن به.. فتحدد الرؤية الكونية ضرورة من الضروريات كما يرى سيد قطب، إذ يقول: (ضرورية لأنه لا بد للمسلم من تفسير

شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود.. لابد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية. وحقيقة العبودية "وهذه تشتمل على حقيقة الكون. وحقيقة الحياة. وحقيقة الإنسان" .. وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط.

وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني.. فمن هذه المعرفة يتبين دور "الإنسان" في "الكون" وحدود اختصاصاته كذلك. وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعاً.

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج. فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل، ولابد أن ينبثق منه انبثاقاً ذاتياً وإلا كان نظاماً مفتعلاً، قريب الجذور، سريع الذبول. والفترة التي يقدر له فيها البقاء، هي فترة شقاء "للإنسان"، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية، وحاجات "الإنسان" الحقيقية! الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها - بلا استثناء - وبخاصة في الأمم التي تسمى "متقدمة".

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد. وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة - وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف في الصور والأشكال - وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي، وخصائصه ومقاومته، هو الذي يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ. فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني¹.

¹ قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، ط15، 2002، ص 5-6

إن الرؤية الكونية حين تكون صحيحة، هي بمثابة الإطار المرجعي الذي يمنح الإنسان معنى حقيقيا وإيجابيا في الحياة، وغاية وهدفا وحافزا للفعل والحركة الصحيحة في هذا الوجود. ويشهد التاريخ الحضاري للأمم، أن التجربة النبوية المصاحبة لنزول القرآن الكريم، ما كان لها أن تحقق ما حققته من أكبر تغيير حضاري في التاريخ، لولا قوة رؤيتها الكونية الحضارية.. ذلك أن المجتمع الذي شملته التجربة كان أبعد ما يكون عن أي حضارة بشرية حينها، بحكم الموقع الجغرافي، وطبيعة البيئة البدوية التي نزلت فيها الرسالة، فقد واجه القرآن حين نزوله بيئة مختلطة من الأفكار والأساطير والاعتقادات، التي تسيطر على نفوس الناس وتخلق وضعاً أسماه القرآن بالجاهلية، ووصف عباداتهم وطقوسهم الدينية بالشرك، وكذلك بالكفر. و خاض القرآن في ذلك معركة ضخمة، استخدم فيها مداخل متعددة لهدم رؤى الوثنية وبعث الرؤية الكونية القرآنية، التي أعادت صياغة النفس، فاصطبغت بصبغة الإسلام وفق منهج الله في الحياة. ولم يكن ليتحقق ذلك الإنجاز الحضاري الكبير، لولا رؤية كونية صحيحة أساسها الإيمان بالله ربا وخالقا، يعتبر التوجه له بالعبادة ركنا أساسيا للإسلام، تبني عليه سائر أنظمة الحياة الفردية والاجتماعية. يقول الأستاذ سيد قطب: (لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله... كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به، وما مصيره هناك؟ وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيبا يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره؟ ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟... وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضا، كما يبين له: كيف يتعامل العباد مع العباد؟ وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود "الإنسان"، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الأزمان.)¹

¹ قطب، سيد، معالم في الطريق، ص25

غير أن التجربة التراثية للمسلمين - كما رأينا - ساهمت في تشويه الرؤية الكونية القرآنية، وعطلت فعاليتها في حياة المسلمين، وعملت على تشطيرها مُزعا بين مذاهب واتجاهات مختلفة، كما بيّنا ذلك من قبل. و النتيجة؛ تعطيل الرؤية القرآنية وتشوهاها في نفوس الناس. يقول عبد الحميد أبو سليمان: (رؤية جيل الصدر الأول لا يمكن أن تكون - وحالنا هي النقيض من حال صدر تاريخ الأمة - هي ذات الرؤية الكونية التي نتمثلها اليوم كإرث ثقل من عهدنا المتأخرة، والتي هي في مجملها وتأثيرها رؤية كونية نظرية سلبية تكاد لا يعبر جل الرائج من خطاباتنا إلا عن ترهيبات وذكريات وادعاءات وأحلام وأوهام لا تمثل إلا أعباء ومسؤوليات تلقى على عاتق الإنسان المسلم بشكل عشوائي إملائي، وتتطلب - مستعينة بخطابات الترهيب - ما يكاد يصل في خطاب الإنسان المسلم إلى حد "إلغاء الذات" لتحقيق تلك الرؤية الفوقية الإملائية الترهيبية واستيفاء شروطها وإملاءاتها)¹

نعم، لقد رأينا كيف ساهم الخطاب الصوفي تراثيا في إلغاء ذات الإنسان من خلال مقولة الفناء التي اعتبرت غاية الغايات عند القوم. ولذلك يقول أبو سليمان: (بلغ التشوه العقدي والفكري والحضاري حدا بعيدا من التشوه والسلبية، ومن تفشي الأمراض الحضارية الخطيرة من الخرافة والشعوذة، وبتأثير اكتساب مشروعيتها من محرف النصوص ومجتزئها وموضوعها، ومن تسرب الخرافات الإسرائيلية والغنوصيات الباطنية؛ ليتنامى غبش الرؤية الكونية الإسلامية حتى أعتمت رؤية الأمة وتلاشت الغائية والدافعية في روحها لتتوقف عجلة التقدم والإبداع والإعمار...) ²

فالإيمان الموروث من تراثنا، يتأرجح بين ما عليه عامة المسلمين من توكيلية وخرافية وانتظارية، وكل ما من شأنه تعطيل فاعلية الإنسان بسبب شيوع الطرق الصوفية التي ساهمت في ترويج نسخة مشوهة وسلبية عن معنى الإيمان بالله، لعل من أبرز علاماتها أن اختزلت معركتها الإيمانية في البحث عن اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، باعتباره سرا مخفيا، في محاكاة حرفية لديانات الأسرار في الشرق القديم .. وبين ما

¹ أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط2009، ص 28

² أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المرجع نفسه ص 35

ورثته النخبة من العلماء والوعاظ والباحثين في الدراسات الإسلامية وعلوم الشريعة الذي حولوا الإيمان إلى ركام من القضايا النظرية حول ما يجب وما يجوز وما يستحيل اعتقاده في الله، وما يتفرع عن ذلك من تفاصيل جزئية ومباحث عقيمة لدى معظم المنتسبين إلى هذه المؤسسات الحديثة إلا من رحم ربك.

لذلك فالمسلم المعاصر اليوم؛ غالبا ما تجده فاقدا للرؤية الواضحة والمتبصرة، تطبع العشوائية حركته مجمل نشاطاته في الحياة، لافتقاده مقومات الرؤية القرآنية، بما في ذلك مقوم الإيمان بالله. ذلك أن أكبر مشكلة يعيشها المسلم المعاصر اليوم، تتجسد في انقطاعه عن الصلة بربه من خلال انفصاله عن القرآن، يحدث ذلك وإن كان يقرأ القرآن ويحفظه؛ وربما يحسن تجويد النطق به، لكنه غالبا ما يكون منفصلا - ذهنيا وقلبيا - عن التفاعل مع آياته.. نتيجة ما ترسخ من موروث يعتبر النظر في كتب الله فهما وتفهما من نصيب فئة خاصة من البشر. فقد ورثنا كلاما عن الإيمان لا يثمر في الواقع شيئا أو منبت الصلة بالواقع، في حين نقرأ عن الإيمان ونسمع كيف صنع ويصنع المعجزات. وأنه هو أصل الأصول وطريق الوصول، ولا فلاح ولا فوز ولا طمأنينة في الحياة دون تحقيق هذا الأصل، وجعله غاية الغايات ومنتهى الأمنيات. لذلك يرى الدكتور اسماعيل الفاروقي أن الحركات الإصلاحية في العالم العربي الإسلامي خلال القرنين الماضيين أخطأت خطيئتها الكبرى والمتمثلة في (عجزها عن بلورة رؤية كلية كونية للإسلام، تبرز ارتباطه بكل لحظة من حياة البشر، وبكل أطراف النشاط الإنساني المعاصر)¹.

فلا غرو ان نجد المسلم المعاصر، وهو يحاول النجاح وتحقيق أعلى درجات السعادة في حياته، يتكبد طريقه هنا وهناك، لا يضيره استيراد واستهلاك برامج التنمية البشرية الغربية بكل عُجْرها وبُجْرها، دونما وعي بالرؤى الكامنة وراءها، والنمط الحياتي الذي تكرسه تلك البرامج، ومدى توافقه مع ذلك النمط. نعم، إنه ينجح في مسعاه بقدر ما يقترب من النمط الحياتي للإنسان الغربي على المستوى الاستهلاكي طبعا، إذ لا ننكر وجود إيجابيات

¹ الفاروقي، اسماعيل راجي، التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة، ترجمة محمد السيد عمر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط1،

لتلك البرامج في دنيا الناس؛ وحينها فقط؛ سيكون عليه أن يخضع لأزماتها في بيئتها مع البحث - حينها أيضا - عن حل لمشكلة أخرى تتعلق بتعريف ذاته هو؛ من هو؟

إن معرفة الذات خطوة لا بد منها لإرساء وعي ذاتي حقيقي، وكل وعي ذاتي مؤسس على رؤية كونية واضحة المعالم. وبقدر ما يحصل التناغم والانسجام بين أصول تلك الرؤية ومقتضياتها في الواقع اليومي، بقدر ما يكون النجاح حليف الإنسان في أعماله. وهو ما لم يعد متوفرا في الحالة الإسلامية اليوم. يقول فريد الأنصاري رحمه الله: (لقد فقد المسلم اليوم كثيرا من خصائصه الفطرية - بما هو عبد خالص لله - وكاد يصير جزءا من منظومة الآخر الحضارية، لكن على شكل ذرة تافهة تدور على الهامش خادما غير مخدوم، ومستهلكا غير منتج ومفعولا غير فاعل)¹

إن إدراك الذات، أو الوعي بالأناء، وما يتأسس عليه من نظرة في الحياة؛ واحدة من أهم المشكلات التي يعيشها الإنسان العربي المسلم دون الشعور بها وبخطورتها. فهناك رؤية تطبع كل إنسان في تصوره لذاته وللآخرين من حوله وللوجود والخالق... ويتم إرساء تلك الرؤية عبر البرامج التعليمية ووسائل الإعلام، بحيث نجد في النهاية مخرجات لهذه العملية مجسدة في إنسان بخصائص وسمات معينة ومحددة.. تظهر في سلوكياته وأسلوبه المتبع في الحياة، وتمتد إلى جذور في الرؤية، قد لا يستوعبها نظريا لكن يتحرك على أساسها. هذا ما يحدث عادة. لكن، في واقعنا العربي الإسلامي الحاضر، تكاد لا تجد - لإنساننا _شفرة لملامح معينة أو سمات مشتركة، وذلك بسبب فقدان رؤية حياتية واضحة يتحرك العربي المسلم على أساسها.. بعدما ضاعت تلك الرؤية تراثيا وسط احتراب المذاهب والأفكار. وأما ما بقي منها، فهو أجزاء مشتتة لا يصلح تكوين رؤية صحيحة منها. لذلك فشلت كل محاولات الإصلاح المجتمعية التي انطلقت منذ حوالي قرنين، سعيًا وراء التنمية والنهضة والتقدم. و ستفشل كل المحاولات الفردية سعيًا إلى تنمية بشرية مزعومة، ما لم تتوفر رؤية

¹ الأنصاري، فريد، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، منشورات رسالة القرآن، مكناس، 2007، ص7

كونية واضحة، تتحدد بموجبها نقطة البدء والانطلاق وكل الارتباطات الوجودية للإنسان في الحياة، لتصح بعدها حركته ونشاطه.

وإذا كنا نتفق مع أساسيات التنمية البشرية الحديثة في أن البداية تبدأ بمعرفة الإنسان لذاته، فإن الرؤية الكونية القرآنية تقتضي أن يتم ذلك وفق مرجعية أعلى، وهي القرآن، ولن يعرف الإنسان ذاته حقيقة حتى يعرف ربه.

في الرؤية الكونية تتحدد العلاقة مع الله لتستطير المنطلق و الغاية.. وهي علاقة امتداد و استمداد.. علاقة تحدد موقع الإنسان داخل الكون الرحيب، وتجعل مشاعره تدور في فلك هذه العلاقة سلبي وإيجابا.. قربا أو بعدا.. إذ لا تصح حركة الإنسان في مكان ما دون معرفة سبب وجوده وما يسعى الوصول إليه. فأعمالنا يحكمها وعي وإدراك ونيات..

ومعرفة الإنسان لربه في الرؤية القرآنية، تجعله يتعرف أكثر على نفسه.. فيقف على أجوبة القرآن التي ترسم ملامح شخصيته العامة، ومؤهلاته الفكرية والإدراكية.. بل وحتى صفاته الشعورية و انفعالاته.. و ميولاته النفسية.. وعوائقه الذاتية.. فيستلهم الإنسان صورته من القرآن في أكمل إطار وأشمله.. وهو بين هذا وذاك .. يؤسس لعلاقة ثنائية لا تسمو النفس إلا بها، ولا ترتوي الفطرة إلا بمائها .. ولا تصلح حال النفس إلا باتباع قوانينها.. ولذلك، حينما نتحدث عن مركزية الله في حياة الإنسان.. نتحدث عنها من حيث هي المنطلق والغاية والوسيلة أيضا.. وفق سنن الكون المطردة.. لوجود فيها للطفرة أو الصدفة..

فتبين من كل ذلك، أن طبيعة عملنا في المنهج القرآني، سيكون محورها الأساس استعادة الرؤية الكونية القرآنية في حياة المسلم المعاصر، من حيث كونها الوحيدة القادرة على إعادة صياغته وتشكيله بما يحقق له مقومات نمائه الشخصي، ثم الاجتماعي. لأن توفر هذه الرؤية سوف يساعد على استعادة الدور الاستخلافي للمسلم المعاصر، وإدراك رسالته في الحياة.. يقول عبد الحميد أبو سليمان: (لو أن المسلمين أدركوا أبعاد الرؤية

الإسلامية القرآنية الكونية، ومنظومة الثقافة والحضارة الإسلامية الكلية، والتزاموها في فهم أنفسهم ومجتمعاتهم، وفي فهم إنسانيتهم ودورهم، وفي ترشيد مسيرة حياتهم ومنهج فكرهم ومنظومة حضارتهم، لكان أثر الإسلام على الأمة والإنسانية مضاعفا¹

¹أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، ص99

المطلب الثاني: سورة الفاتحة منهج حياة وخلاصة الرؤية القرآنية

سورة الفاتحة تتضمن التصور الكلي الذي ينبغي ترسيخه في قلب المؤمن، من خلال التذكير الدائم والمستمر، عبر ركعات الصلوات جميعها طيلة اليوم والليل، فهي تكتسب أهميتها من أمرين: أولهما أنها جعلت في مقدمة القرآن أو فاتحته، وفق ترتيب مخالف لترتيب النزول كما أوضحنا من قبل. وفي هذا التوضع للسورة دلالات كبيرة عن أهمية الافتتاح بها في المصحف الشريف. ثانيهما؛ جعلها في كل ركعة من ركعات الصلاة؛ الفريضة منها والنافلة، يؤكد أهمية ما يتم تكراره يوميا من كلمات السورة وآياتها.. فضلا عن وجود تفسيرات تقول بأنها هي السبع لمثاني التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]. وهو ما يزيد في تأكيد أهميتها البالغة.

جاء في التفسير الوسيط الذي أعده مجمع البحوث (وهذه السورة - مع قلة آياتها وإيجازها - تشتمل على مقاصد القرآن كله. فالقرآن نزل لتعريف الناس برب العالمين، وما يتصف به من صفات جليلة، ولحثهم على حمده وعبادته، وإثبات يوم الجزاء، وأن الملك له تعالى في هذا اليوم، وأنه يجب توحيده بالعبادة دون شريك، والاستعانة به تعالى في جميع الشؤون، إذ لا يوجد شيء ولا يتم إلا بمعاونته.

ولهذا يطلب من العباد أن يستعينوا به في أمرهم كله، وأن يهديهم الطريق المستقيم، وأن يكفيهم شر طريق المغضوب عليهم والضالين، وقد اشتملت الفاتحة على هذا كله في إيجاز، فلا غرابة في أن تسمى أم الكتاب، وأن يفتح بها القرآن الكريم، وأن تفرض في الصلاة.¹

ويقول محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: (قَدْ ذَكَرُوا لِتَسْمِيَةِ الْفَاتِحَةِ أُمِّ الْقُرْآنِ وَجُوهًا ثَلَاثَةً: أَحَدُهَا: أَنَّهَا مَبْدُوءُهُ وَمُقْتَتَحُهُ فَكَأَنَّهَا أَصْلُهُ وَمَنْشُؤُهُ، يَعْني أَنَّ افْتِتَاحَهُ الَّذِي هُوَ وَجُودُ أَوَّلِ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ قَدْ ظَهَرَ فِيهَا فَجُعِلَتْ كَالْأُمِّ لِلْوَلَدِ فِي أَنَّهَا الْأَصْلُ وَالْمَنْشَأُ فَيَكُونُ أُمُّ الْقُرْآنِ تَشْبِيْهَا بِالْأُمِّ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ الْوَلَدِ لِمُشَابَهَتِهَا بِالْمَنْشَأِ مِنْ حَيْثُ ابْتِدَاءِ الظُّهُورِ وَالْوُجُودِ.

¹ مجموعة من علماء الأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط3، 1992، ج1، ص15

الثاني: أَنَّهَا تَشْتَمِلُ مُحتَوَيَاتُهَا عَلَى أَنْوَاعِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ وَهِيَ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ: الثَّأَاءُ عَلَى اللَّهِ ثَنَاءً جَامِعًا لَوْصِفِهِ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ جَمِيعِ النَّقَائِصِ، وَإِثْبَاتِ تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَإِثْبَاتِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي مِنْ قَوْلِهِ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنْ قَوْلِهِ: صِرَاطَ الَّذِينَ إِلَى آخِرِهَا، فَهَذِهِ هِيَ أَنْوَاعُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَغَيْرُهَا تَكْمِلَاتٌ لَهَا لِأَنَّ الْقَصْدَ مِنَ الْقُرْآنِ إِبْلَاجُ مَقَاصِدِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَهِيَ صَلَاحُ الدَّارَيْنِ وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلَمَّا تَوَقَّفَتِ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي عَلَى مَعْرِفَةِ الْأَمْرِ وَأَنَّهُ اللَّهُ الْوَاجِبُ وُجُودُهُ خَالِقُ الْخَلْقِ لَزِمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى الصِّفَاتِ، وَلَمَّا تَوَقَّفَ تَمَامُ الْإِمْتِنَالِ عَلَى الرَّجَاءِ فِي الثَّوَابِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ لَزِمَ تَحَقُّقُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. وَالْفَاتِحَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى هَاتِهِ الْأَنْوَاعِ¹

يقول سيد قطب: (إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها..)²

بعض عرض هذه الأقوال التي تؤكد أهمية سورة الفاتحة ومكانتها التي جعلت منها مفتاح القرآن، نتوجه إلى عرض بعض التفاصيل التي تؤكد هذا المنحى، فماذا نجد في هذه السورة ؟

إجمالاً، نتحدث سورة الفاتحة عن القضايا الكلية بما فيها التصورات الكونية الأساسية. فهي تبدأ بتحديد الوجهة لله معرفة إياه بأسمائه وصفاته. فهو الله، رب العالمين، الرحمان الرحيم. و تذكر أن وسيلة التوجه إليه هي التقدم بالحمد له، اعترافاً بفضلته وكرمه في الوجود وفي خاصة النفس. ثم نتحدث ثانياً عن أن الله تعالى هو مالك يوم الدين، وهو اليوم الآخر الذي يتأسس على الإيمان به ثلثة من المعايير الموجهة لحركة الإنسان ونشاطاته في الحياة من مفهومها ومن معنى الربح والخسران فيها.. وتنتحدث ثالثاً عن المهمة الأساسية

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، 1984، ج1، ص133

² قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص21

للإنسان (العبد) في هذه الدنيا، وهي العبادة و الاستعانة. وتحدث رابعا عن أهمية اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء: "اهدنا الصراط المستقيم"، مبينة في الختام النموذج البشري الإرشادي الواجب الاقتداء به في قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]

أمام هذه المعطيات، التي تشكل في ضخامتها أهمية خاصة لهذه السورة. تصبح كل كلمة فيها ذات أهمية خاصة كذلك، وكل تقديم أو ترتيب لكلماتها، يحمل من الدلالات ما يوجب البحث فيه واستكشاف ما يمكن من دلالاته و مقاصده.

تبدأ سورة الفاتحة بعد البسملة بعبارة "الحمد لله"، وهي تعبر عن أهم ما ينبغي التأكيد عليه في علاقة العبد بربه، من التوجه له بالحمد. وهو الأمر الذي يثير في نفس المرء استقهامات عن سبب ما يوجب الحمد؛ سواء بشكل عام كما تدل صيغة العبارة، أو في خاصة نفسه باعتباره قارئاً لهذه العبارة.. بما يتكرر يوميا لأكثر من 17 مرة في حياته .

إذا طرحنا موضوع حمد الله على القرآن، وجدنا هذا المعنى يستدعى في سياق الاعتراف بالنعم و المنح الإلهية، كما يدل على ذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: 39] ، ويستدعى في سياق استشعار فضل الله سبحانه {وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل: 15] وهذا المستوى هو الذي يفهمه عامة الناس في إدراكهم لعلاقة الحمد بالنعم الإلهية.. لكن القرآن يرتقي بمستوى الإنسان ليستشعر نعمة الهداية إلى طريق الحق، يقول الله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: 43]. كما يرتقي بالإنسان ليدرك أن أعظم نعم الله عليه تفردته بالخلق والأمر، وأنه الواحد الذي لا شريك له وذلك في قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111] ، فيحمد الإنسان الله تعالى الذي جعله يتنعم بالتوجه بالعبادة لرب واحد {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 29]. ثم يدرك

في هذا السياق، نعمة نزول القرآن ووجوده في حياته، فيقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف: 1]

إن مواطن الحمد كثيرة ومتعددة، بل كونها نعم الله تعالى على العبد فهي لا تحصى، وعبرة "الحمد لله"، ينبغي أن تثير في نفوسنا تذكر النعم التي غالبا ما يتم تناسيها بطول الإلف والعادة. إن توجهنا إلى الله تعالى يقوم على البدء بالحمد له، كفيل بأن يحدث توجهها في حياة الإنسان قائم على استشعار النعم بما يبث فيه مشاعر الطمأنينة حين يتدبر نعم الله تعالى عليه، كما يشعره استذكار النعم السابقة ووقوفه بين يدي المنعم في إرساء حالة من الطمأنينة بما هو عند الله .. ومشكلة الإنسان الدائمة نسيانه النعم التي كانت في ما قبل حاجات ملحة، والتطلع إلى حاجات ونعم جديدة، وهي حاجات لا تتوقف ولا تنتهي، إذ كلما حقق منها ما كان يظنه منتهى آماله وسعادته في الدنيا، ظهر له من الحاجات غيرها؛ ما يعتبر أولى وأهم.. وغالبا ما ترتبط هذه الحاجات بالجانب المادي المتعلق بمتع الحياة وشهواتها.. فيأتي هذا التوجيه الرباني ليعيد ضبط البوصلة للإنسان في الحياة، على مستوى التوازن في التعامل مع نعم الله المادية والمعنوية، مع إيلاء نعمة الهداية ما تستحق من مكانة وقيمة في الحياة من جهة. وعلى مستوى الوعي بخطورة الانجراف إلى نمط من الحياة قائم على البحث عن الحاجات وعدم الالتفات إلى النعم. إنه نمط التكاثر الذي وصفه الحق تعالى في قوله: {الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [التكاثر: 1، 2]

وتجدر الإشارة إلى أن التوجه إلى الله تعالى بالحمد يستمد قيمته من قيمة المتوجّه له، فهو رب العالمين. فربوبيته لكل شيء بما فيه الإنسان تقتضي التوجه والخضوع له وحده سبحانه، وهو من كليات التصور والرؤية التي يشكلها القرآن في ذهن الإنسان، فتتحدد على أساسها، وجهة الإنسان في الحياة، وما لم تحدد تلك الوجهة في حياة الإنسان، فلن يستقيم له أمر، ولن ينتظم له شأن، على مستوى الرؤية العامة أو الكلية، فإدراك الغاية محدد أساسي لطبيعة الحركة والفعل والاختيار للطريق في الحياة. يقول سيد قطب رحمه الله: (أما شطر الآية الأخير: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة

هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية.. والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد و على المتصرف للإصلاح و التربية..

والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين - أي جميع الخلائق - والله - سبحانه - لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا. إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربّيه. وكل العوالم والخلائق تحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين.

والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة.

والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة. وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة¹

وتستمر السورة في أسلوبها التعريفي بالله تعالى من جهة، وما ينبغي أن تتشبه تلك المعرفة به سبحانه، من توجه وحركة في الحياة من جهة أخرى، فيأتي وصفه سبحانه باسمين من أسمائه الحسنى، لا يجتمعان لغيره، وهما؛ "الرحمن الرحيم" ليستروح الإنسان ظلال معاني هذين الاسمين، وما يشعّنه من إيجابية في الحياة. وكما هو معلوم، فله سبحانه عديد الأسماء الموثقة في ثنايا القرآن المجيد، ولكنه اختار منها لسورة الفاتحة، اسمين لمعنى الرحمة، بلفظين مختلفتين.. يقول سيد قطب: (ووصفه - سبحانه - في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها.. وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن).²

ولندرك قيمة المعنى في هذين الاسمين في هذه السورة؛ لنا أن نتصور كيف لو اختار الله سبحانه اسمين آخرين يترددان على مسامعنا كل يوم مثل (الجبار المنتقم)، لنرى حجم ونوع الظلال التي تنعكس لهذه المعاني في الحياة.. ومن ثم ندرك السر في اختيار الله تعالى

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص22

² قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص21

لهذين الاسمين.. الذين يُشعّان في حياة من يتربى على ذكرهما؛ رحمت مظللة ودائمة، ومفتوحة لكل عاص وأبق و يائس.. فلا يأس بوجود رحمة الله تعالى.. التي تحفنا في كل أجزاء ومناشط حياتنا.. فبعض الناس يدرك معنى الرحمة بنزول الغيث وإحياء الأرض وإخراج خيراتها للإنسان، ولكن رحمة الله أسمى وأكبر من أن تُحصر في هذا المعنى الضيق، يقول ابن القيم رحمه الله: (فمن أعطى اسم (الرحمن) حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلاء، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الأبواب أمرا وراء ذلك...) ¹

وفي قوله تعالى: "مالك يوم الدين"، بيان لحقيقة من حقائق الإسلام الكبرى المؤسسة للرؤية الكونية، وهي أن هذا العالم بما فيه من الخلائق يمضي إلى غاية محددة ومعلومة. وعلى أساس تلك الغاية تتحدد حركة الإنسان في الوجود. يقول سيد قطب: (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) .. وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها، كلية الاعتقاد بالآخرة.. والملك أقصى درجات الاستيلاء و السيطرة. ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة.. و كثيراً ما اعتقد الناس بالوهمية الله، وخلقته للكون أول مرة ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء.. والقرآن يقول عن بعض هؤلاء: «وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ: اللَّهُ» .. ثم يحكي عنهم في موضع آخر: «بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون: هذا شيء عجيب. إذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد» ! والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض فلا تستبد بهم ضرورات الأرض. وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات. ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور. وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار

¹ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: أحمد فخرى الرفاعي وعصام فارس الحرساني، ج1، ص 31

الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين.. ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والרגائب، والطلاقة الإنسانية اللاتقة ببني الإنسان. بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية. مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده، والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال.¹

وفي المقطع الثاني من السورة، تتحدد المهمة العملية للإنسان المؤمن في هذه الحياة وهي عبادة الله سبحانه والاستعانة به وحده. وعبرة الاستعانة تشير إلى طبيعة الإنسان المفترقة و الضعيفة، وحاجته الدائمة إلى ربه، وتشير أيضا إلى طبيعة الحياة، وما يكتنفها من مصاعب وتحديات، لن يقو الإنسان على مجاراتها بمفرده، فهو في حاجة دائمة لطلب العون من ربه. ولذلك كانت ملازمة للعبادة، فالتوجه إلى الله سبحانه بالعبادة وحده هو ما سيكفل للإنسان مدد ربه له بالعون والتأييد والنصرة. فالله تعالى يتولى المؤمنين من عباده ويدافع عنهم. قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: 257]. وقال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } [الحج: 38]

يأتي المقطع الأخير من السورة في صورة دعاء إلى الله سبحانه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم. فتتحدث عن مقصد الهداية، مبينة ما ينبغي التوسل به إليه، وهو الدعاء الذي يستشف من صيغة العبارة " اهدنا الصراط المستقيم". و الاهتداء بالوحي؛ هو الركن الأساس لكل ما تقوم عليه الحياة في الدنيا والآخرة. و عدم استيعاب هذا الأمر بالوعي اللازم لأهميته ووظيفته الحياتية، أفقد المسلم المعاصر بوصلته في الحياة وجعله يتتبع الفتات الساقط من موائد الحضارات البائدة والحديثة كما رأينا في مبحث التنمية البشرية في

¹ في ظلال القرآن ، ج1، ص24

الواقع العربي. وصدق فيهم قول ابن القيم رحمه الله : (مَنْ رَغِبَ عَنِ الْهُدَى بِالْوَحْيِ؛ ابْتُلِيَ بِكَنَاسَةِ الْأَرَاءِ، وَزِيَالَةِ الْأَذْهَانِ!)¹

فعلى المسلم أن يديم الطلب إلى الله تعالى بأن يهديه الصراط المستقيم؛ ولأهمية هذا المطلب تستطرد الآية في تحديد الفئة التي ينبغي الاقتداء بها في اتباع الصراط المستقيم " صراط الذين أنعمت عليهم" مع التحذير من اتباع سلوك المغضوب عليهم أو الضالين.

وتقتضي معرفتنا بالصراط المستقيم معرفة الله المرشد لهذا الصراط، ومعرفة منتهى الصراط وغايته، ثم معرفة ما ينبغي فعله لاستدامة الاستقامة على الصراط. لذلك حذرنا الله تعالى من السقوط في درك الغفلة، و على دوام اليقظة قال تعالى {وَأِمَّا يُنَسِّئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: 68]. و الشيطان في القرآن أهم من إبليس المذكور في قصة آدم عليه السلام، فالشيطان لفظ قرآني يخص كل من يمارس الوسوسة بالشر في حياة الإنسان بقصد قطع العلاقة مع الله، سواء كان من الجن أو الإنس.، قال تعالى: {كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: 112] وقال سبحانه: {الَّذِي يُوسَسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس: 5، 6]

و رغم عظم القضايا والمطالب في هذه السورة. إلا أن الممارسة الشكلية الموروثة في التعامل مع القرآن الكريم، لم تطور آليات عملية لأجراً فعل التلقي التفاعلي للقرآن بما يخدم تفعيل تأثيره ونظامه الكلي في حياة المسلم. لا سيما في مثل سورة الفاتحة، حيث يتحول التكرار لآياتها من خانة التأكيد والتربية، إلى خانة العادة القاتلة لكل حيوية أو تفاعل مباشر حي. فتتعطل الرسائل والآيات وتستحيل تراتيل مألوفة ومبرمجة.

وسوف تتأكد مدى حاجة الإنسان إلى ذلك التفاعل الحيوي مع القرآن، تلاوة وتدبرا، عندما نطلع على بعض معالم الرؤية الكونية في المبحث القادم، لنرى حقيقة الإنسان وحقيقة الحياة، وما يستدعيه أمر مثل الاستقامة من حاجة دائمة للصلة بالله، وتجديد العهد معه في

¹ ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين 1، ج، ص 165

كل وقت وحين. فإذا كان المؤمن يطلب الهداية باستمرار إلى الصراط المستقيم من خلال سورة الفاتحة، فإن سورة الأعراف تخبرنا بوعيد الشيطان القائم والمستمر، {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 17]

وتختتم سورة الفاتحة بقول آمين، التي تفيد طلب إجابة الدعاء، والدعاء في القرآن، هو الأمل الذي ينبغي أن يُظلل حياة الإنسان، فيحيا بالأمل الدائم في الله، مهما ساءت الظروف والأحوال، وهو أمل مبني على اليقين في وعد الله، القائل سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186].

إن الأمل والرجاء في الله هو الذي يبيت في النفس الثقة والطمأنينة إلى قدر الله ورحمة الله و تدبير الله، فلا يأس ولا قنوط ولا خوف بوجوده سبحانه وتدبيره أمر عباده.

المبحث الثاني: مرتكزات الرؤية القرآنية في التنمية البشرية

المطلب الأول: الله تعالى في الرؤية القرآنية

1- العلم بالله في القرآن الكريم:

تتحدد نقطة الانطلاق في تمثُّل الرؤية الكونية القرآنية عند المسلم في الارتكاز على مصدرية الوحي الإلهي، الذي يزوده بحقائق عن الله والكون والحياة و عن ذاته أيضا. أي، أن نقطة الانطلاق في استمداد هذه الرؤية تقع خارج ذاته. مقابل ما رأيناه في المنهج الوضعي الذي يعتبر الإنسان مرجعية ذاته. وتقوم أهمية استمداد رؤية القرآن الوجودية من مصدر خارجي هو الله تعالى على فكرة رد الصنعة للصانع، والمخلوق للخالق. صحيح أن الإنسان خُلِق مُزَوِّداً بوسائل الإدراك وبفطرة الاستعدادات الأولية للاهتمام في الحياة، إلا أن الله تعالى أكرمه بإنزال الكتب وإرسال الرسل لتكون هدايته في الحياة على صراط مستقيم، صونا لطاقته الإدراكية وجهده الذاتي من التبدُّد في ظلمات الحيرة والاضطراب. من هنا، كانت رسالة الوحي الإلهي للإنسان تبصيرا له بحقيقته وحقيقة الوجود من حوله، وأول تلك الحقائق تعريفه بخالقه، لتكون تلك، نقطة البدء التي من خلالها تتحدد غايته وأدواره وارتباطاته في الوجود.

إن ما رصدناه من خلل منهجي خطير في التعامل مع التنمية البشرية في عالمنا العربي، ترتب عنه استدعاء طقوسها الدينية والاستسلام لطبيعة خصوصيتها المادية ذات الجذور الوضعية الظاهرة كما أوضحنا ذلك من قبل، ليُحتَم علينا إعادة التأسيس للرؤية الكونية القرآنية للمسلم المعاصر انطلاقاً من قاعدة توحيد الألوهية، لأنها القاعدة الأساس التي يُثمر تمثُّلها على الوجه الصحيح مستويات من التأثير الإيجابي في الإنسان نفسي وعقلي ووجدانيا وسلوكيا. وذلك حين يُعبر ذلك التمثُّل تعبيراً صحيحاً عن حقيقة الإيمان بالله.

ومن هنا، تتضح أهمية العلم بالله عز وجل، حتى يكون تمثله في ذات الإنسان تمثلاً صحيحاً. فإذا كان العلم بشرف المعلوم، فإن أشرف ما يمكن أن يعلمه الإنسان هو العلم بالله تعالى، لما يتضمنه من مقاصد جليلة، تدعو إلى تعظيم الله تعالى وخشيته ومحبته واستشعار مراقبته.. مما من شأنه أن يحقق المقصد العام من العلم به وهو الإيمان به سبحانه. وبقدر العلم به سبحانه بقدر ما يزداد الإيمان به. قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: 19].

يبين القرآن الكريم تصور العرب في الجاهلية لمفهوم الألوهية في آيات عديدة منها، قوله سبحانه: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [مريم: 81] وقوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس: 74، 75] وهو ما يظهر أن ثقافة الجاهلية كانت تعتقد في قدرة الآلهة وسطوتها. وعلى أساس من ذلك الاعتقاد، استحققت منهم اللجوء لطلب النفع ودفع الضرر..¹ إذ يخبر القرآن الكريم أنه بالرغم من تأكيد جميع رسل الله على مبدأ توحيد الألوهية، فإن الانحراف عنه، أو إدخال بعض التصورات الشركية عليه، غالباً ما كان يطبع تصرفات البشر تجاه خالقهم. ولأن الإيمان بالله ربا واحداً، وإخلاص العبودية له قضية أساسية في تاريخ الرسالات السماوية؛ فقد أرسل الحق سبحانه رسله تترى من أجل تصحيح ما يفسد في تصورات الناس، وبيان التصور الصحيح لقضية توحيد الألوهية. وهو ما لا يمكن تحقيقه دون تعريف العباد بالله خالقهم، وذلك ما نرصده من خلال طرق ثلاثة في القرآن. أولها؛ من خلال أسمائه وصفاته، و ثانيها؛ من خلال آياته في الأنفس، وثالثها؛ من خلال آياته في الآفاق. و سوف نقصر حديثنا في هذا المطلب على الطريقة الأولى، وسيأتي الحديث لاحقاً - ولو عرضاً - عن آيات الأنفس وآيات الآفاق. في المطالب القادمة.

يتحدث القرآن الكريم عن أسماء الله الحسنى، و الاسم عند النحاة: هو ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمن. وحين نقول: أسماء الله تعالى، أو أسماء الله تعالى

¹ المودودي، أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب محمد كاظم سباق، دار القلم، (د.م)، ط5، 1971،

وصفاته، أو الأسماء والصفات، فإننا نقصد أسماء الله تعالى الحسنى التي تسمى بها سبحانه في كتابه ودلت على صفاته. حيث يكون لكل اسم صفة تشتق منه، كما هو معتمد في هذا الباب. وذلك مثل اسم الرزاق الذي تشتق منه صفة الرزق، وهكذا.. ومما يدل على أهمية موضوع "أسماء الله"، كثرة ورودها في القرآن الكريم، يؤكد ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: (والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله، أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة الذكر أسماء الله وصفاته، أعظم قدرا من آيات المعاد، بأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك)..¹

وقد وصف الحق سبحانه أسماءه بالحسنى، ودعا عباده إلى دعوته بها. فسبيل معرفته -سبحانه- لا تكون إلا بمعرفة أسمائه الحسنى، وصفات كماله العلى. ومن ثم، تتضح الضرورة الملحة للمسلم التي تلزمه بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته، إذ هي سبيله إلى الإيمان به وطاعته سبحانه، وتلك أشرف غاية للإنسان في الوجود. وهو القائل سبحانه: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 180]. والإلحاد في لغة القرآن من اللحد وهو الميل؛ أي أن الملحدين في أسماء الله تعالى يميلون وينحرفون عن الاعتراف بحقائقها في عالم الواقع. ومن صور تلك الانحرافات نسبة الولد والشريك له سبحانه، أو جعل ألوهيته تخص جانبا دون آخر، كما هو حال من يعتقد أن الإله يحكم في العالم الآخر ولا شأن له بالناس على الأرض.. الأمر الذي يخل بمعاني ودلالات أسمائه سبحانه. قال ابن القيم رحمه الله: (وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج معانيها عنها)².

ولابن القيم - رحمه الله - في جل مصنفاته، لوحات فاتنة من جمال التعرف على الخالق بأسمائه وصفاته، مُقدما بذلك نموذجا تطبيقيا للحياة في ظلالها و التنسّم في أكنافها، قل نظيره في هذا الباب، ومن كلماته في ذلك : (ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائح

¹ ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، درء تعارض العقل والنقل، الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1991، ج2، ص310.

² ابن القيم، محمد بن أبي بكر ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق أحمد فخري الرفاعي و عصام فارس الحرساني، دار الجبل، بيروت، (د.ت)، ج1، ص54.

وثناء تقصر بلاغات الوصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فله سبحانه محامد ومدائح و أنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت لفكر¹

فيتضح إذن، أن أعظم منفعة من منافع المعرفة بأسماء الله الحسنى وصفاته، تعرف المسلم على ربه من خلالها، لأن كل اسم منها يتضمن صفة من صفات كمال الله تبارك وتعالى، الدالة على عظمته وجلاله. فيتحتم على كل مسلم أن يعرفها، إذ لا يمكن أن يعبد إلهاً يجهله. كما أن سياق ورود أسماء الله وصفاته في القرآن، يؤكد توجيهها تعليمًا وتربويًا من الله تعالى في أن يتعرف عليه عباده من خلالها. يظهر ذلك جليا سواء من خلال افتتاح أول سورة نزولا في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1] أو من خلال الافتتاح بأول سورة في المصحف ترتيبا، وذلك في قوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } [الفاتحة: 2 - 4]. إذ يعرفنا الله تعالى عن نفسه ابتداء من سورة الفاتحة التي تفتتح باسم الله و بذكر أسمائه الرحمن الرحيم ومالك يوم الدين ورب العالمين. أو في بعض الآيات التي تختتم بأسماء الله الحسنى من مثل قوله تعالى: { اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [المائدة: 98] وقوله سبحانه: {وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة: 260] وكذلك في الآيات التي تعرف الإنسان بأفعال الله سبحانه وعظيم قدرته، كما في قوله سبحانه: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [البقرة: 235] وقوله عز وجل {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [البقرة: 24] و{وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال: 24]، [25].. وقد خص الدكتور جمال اسطيري موضوع الأسماء الحسنى بدراسة حول مقاصد ختم أي القرآن بها، انتهى فيها إلى نتائج مهمة منها: (إن مما يساعد على فهم معاني أسماء الله الحسنى التي ختمت بها أي القرآن تدبر مقاصد السور العامة والخاصة وربطها بها، وكذلك

¹ ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الفكر، بيروت، ط1، 2005، ص250.

الكشف عن علاقات الترابط والتناسق بين السياق العام والخاص وبين الختم بأسماء الله الحسنى.

ضرورة فهم أسماء الله الحسنى في إطار الوحدة التناسقية بين آيات القرآن الكريم، فالقرآن كل لا يتجزأ في معانيه.¹

بذلك، تتأكد أهمية معرفة أسماء الله وصفاته في القرآن الكريم، التي يتعدد ويتنوع ذكرها داخل فضاء القرآن الكريم وتكاد تشمل كل سورة وآياته. والتي يُعرّف من خلالها الحق سبحانه عباده بعلمه الواسع وإحاطته الكاملة، بكل ما يصدر عن عباده وما يخطر في نفوسهم، فيدركوا من خلالها جلال الخالق وعظمته، العليم بكل ما في الوجود، دقيقه وجليله، في الكون الواسع الأرجاء، وفي أعماق النفوس وأغوارها، مما من شأنه أن يثمر الخشية منه والإجلال له سبحانه، والتعظيم لحرماته والرضا بقضائه، ولزوم طاعته، محبة وافتقارا إليه، وطمعا في مرضاته. فأسماءه وصفاته سبحانه دالة على جلاله، وعلى كماله المطلق، وعزته وجبروته مما يوجب الامتثال لأمره والحذر من عقابه، فهو الرحيم بعباده حين يرسل الرسل وينزل الكتب ليرشداهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، وهو العليم والمحيط بكل شيء في الوجود، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي توجب الحياء منه سبحانه واستشعار مراقبته في كل الخطرات والسكنات فضلا عن الأعمال دقيقها وجليلها، وتثمر حبه والرجاء في عفوهِ، وكرمه.. فحق أن تأله النفوس وتفتقر إليه وتأنس بقربه وذكره، وتضيق، بضنك العيش حين تعرض عن طريقه.

و في سياق التعرّف إلى الله تعالى من خلال أسمائه وصفاته، تأتي آية الكرسي التي نالت شرفا عظيما في القرآن بسبب ما اختزنته آياتها القليلة من عديد الأسماء والصفات. فقد بدأت بصفة الوجدانية " الله لا إله إلا هو"، ثم استعرضت مجموعة من أسماء الله الحسنى الدالة على صفات الكمال الإلهي وتنزيهه عن النقص.. ثم تتضافر تلك الأسماء والأوصاف

¹ اسطيري، جمال، " مقاصد ختم أي القرآن الكريم بأسماء الله الحسنى"، ندوة جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه، المجلد الرابع، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ط 1، 2013، ص 2165

جميعها في تعريف الله سبحانه نفسه لعباده. وفي هذا السياق، يعتبر اسم "الله" من أهم أسماء الله تعالى، فهو الاسم الذي تفرد به الحق سبحانه وجعله من أخص أسمائه، وذكر بقية الأسماء مضافة إليه. كما يعتبر اسماً جامعاً لبقية الأسماء. وقد اختلف أهل اللغة في لفظ الجلال "الله" بين من يعتبره اسماً مشتقاً من أصل الإله كما ذكر ذلك سيبويه¹. وبين من يقول أنه اسم جامد غير مشتق، جاء في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير في مادة (ء ل هـ -): (أَلَهٌ يَأْلُهُ مِنْ بَابِ تَعَبٍ إِلَاهَةٌ بِمَعْنَى عَبْدَ عِبَادَةٍ وَتَأَلَّهَ تَعَبَدَ وَالْإِلَهُ الْمُعْبُودُ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُمَّ اسْتَعَارَهُ الْمُشْرِكُونَ لِمَا عَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْجَمْعُ آلِهَةٌ فَالْإِلَهُ فِعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِثْلُ كِتَابٍ بِمَعْنَى مَكْتُوبٍ وَبَسَاطٍ بِمَعْنَى مَبْسُوطٍ وَأَمَّا اللَّهُ فَقِيلَ غَيْرُ مُشْتَقٍّ مِنْ شَيْءٍ بَلْ هُوَ عَلَمٌ لَزِمَتْهُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ)²

وكما اعتدنا في هذا البحث، من عدم الدخول في تفاصيل لغوية تبعدنا عن جوهر الموضوع، فإننا نختار ما ذهب إليه ابن القيم، حين يؤكد على أنه لا أهمية لهذا الاختلاف، فيقول: (إن جميع أهل الأرض علمائهم و جهالهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لا يعرفه، وعربهم وعجمهم، يعلمون أن "الله" اسم لرب العالمين، خالق السموات والأرض، الذي يحيي ويميت، وهو رب كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يُراد به هذا المُسمَّى، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى، وإن كان الناس متنازعين في اشتقاقه، فليس ذلك بنزاع في فهم معناه)³.

إن ما يهم في معرفة أسماء الله وصفاته، إدراك دلالات معانيها القائمة والمحيطية بالإنسان في كل شأن من شؤونها. ذلك أن معاني هذه الأسماء والصفات، تتكامل في التعريف بربنا الخالق، رب السموات والأرضين، ورب كل شيء ومليكه، وأنه هو رب العالمين جميعاً. الخافض الرافع، المعز المذل، المحيي المميت، الأول والآخر والظاهر

¹ روي عن سيبويه أنه اسم مشتق، فكان في الأصل "إلاه" مثل "فعال"، فأدخل الألف واللام بدلاً من الهمزة؛ مثل: الناس، أصله: إناس. نظر: الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ج2 ص195

² الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ت)، ص 119

³ ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1983، ج2 ص750

والباطن، الرازق والقاهر والحفيظ والعليم و العزيز الجبار... الذي رفع السماء بلا عمد، وأجرى الفلك في البحر بأمره و بسط الأرض فراشا لعباده، وجعل الليل سباتا والنهار ومعاشا و الشمس والقمر حسبانا، مالك الملك لا شريك له في ملكه و لا راد لقضائه و لا معقب لحكمه.. تلك فقط؛ بعض عبارات القرآن في التعريف بذي العزة و الجلال. و من تدبر القرآن وجد فيه من تلك المعاني أوفاهما وأكملها؛ متناثرة النظم في ثنايا الآيات كتناثر النجوم في السماء.. تؤكد جميعها على وحدانية الألوهية وتقرّد الله سبحانه بخصائص الجلال والكمال.

والإنسان حين يدرك حقيقة تلك المعاني مجتهدا في أن يعيش معها وبها في حالة من التدبر المستمر، ينتفع بما يحدثه ذلك التدبر فيها من تصحيح أفكاره وتصوراته واعتقاداته.. كما ينتفع بما تلقّيه ظلال معانيها الإيجابية على نفسيته ومشاعره، وكل ذلك يجعله مُدركا لحقيقة ربه وحقيقة نفسه إدراكا صحيحا.. فيعرف شدة حاجته وافتقاره إليه، و يشهد ما عند ربه من الرحمة به والخير له في دنياه وآخرته.. ثم تتأكد له تلك المعاني في كل شأن وكل موقف وكل حادثة، بل وفي خطراته ومشاعره.. حينها تثمر له تلك المعرفة إيمانا راسخا ويقينيا بربه.. وكمثال على ذلك، نقول أن من أسماء الله الرزاق؛ فالله سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، لذلك لا يكون ولا ينبغي طلب الرزق إلا منه سبحانه، ومن آياته في الرزق قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ} [الذاريات: 22، 23] وقوله عز وجل: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: 82]. غير أن معظم ما يصيب الناس في علاقاتهم مع أنفسهم ومع الناس، تنافس الحياة الدنيا، واستباق فرص التقدم فيها. فتظهر منهم سلوكيات قائمة على الغش والتحايل والخداع والتربص و المكر... تلك السلوكيات تعبر عن حقيقة ما يؤمنون به، وهنا مكنم الخطر. إن الإيمان باسم الرزاق حقيقة؛ كفيل بأن يغير الكثير من سلوكيات المسلمين اليوم، في علاقتهم بالمال، والتنافس في السوق والتجارة والأعمال.

ومثال ثان؛ حين نقول أن الله تعالى سميع بصير. فإن علم العبد بذلك وإيمانه به، ينشئ في قلبه دافعا قويا لاستشعار مراقبة الله تعالى، وينعكس ذلك في سلوكاته وممارساته، ثم إنه ينمو ذلك الشعور في سلم المحبة لله، السميع لكل شيء، والبصير بكل شيء، الذي لا يضيع عنده مظلوم، فهو من يحاسب عباده، وهو بهم عليم، و لا يذهب عنده عمل سدى. فيثمر ذلك الخوف منه وحده، والعمل إليه سبحانه، والرجاء في عفوه ومغفرته ورضوانه، والثبات على الحق في المواقف العملية في الحياة... إلى غير ذلك مما يثمره التعبد لله بالأسماء والصفات وينفع به صاحبه في دنياه قبل آخرته.

إذن، فأسماء الله وصفاته ليست ألفاظا للتبرك و التردد؛ على غير مقتضى الفهم لمعانيها ودلالاتها، المرتبطة بصميم الحياة التي يعيشها الإنسان. ومن ثم، كان الإيمان بالله تعالى مؤسسا على الإيمان بها، والتخلق بمعانيها في دنيا الناس وواقعهم المعاش، بكل ارتباطاته وتشعباته. وحين يعرف الإنسان ربه من خلال أسمائه وصفاته، يكون قد عرف نفسه حقيقة؛ عرف ما لله من واجب التعظيم لكماله وجلاله، وعرف ما عليه من الضعف والافتقار إليه سبحانه. فاستوجب ذلك عبادته و طاعته وتقواه قدر الاستطاعة. وكذلك الاستعانة به والتوكل عليه في كل أمر. وكل ثمار العلم به سبحانه سواء تلك المُحصّلة عن طريق الأسماء والصفات، أو من خلال ما يُجَلِّيه سبحانه للعبد من حقائق عن نفسه و عن الوجود يمكن استيعابها في عبارة "الإيمان بالله". وهي عبارة ثقيلة المعنى في ميزان العقائد والتصورات التي ينشأ عنها وتتحدد على أساسها نوعية الحياة التي يريدها الإنسان في هذا الوجود. فماذا يعني "الإيمان بالله"؟

2- الإيمان بالله في القرآن الكريم:

لم يكن تعريف الله تعالى نفسه لعباده بما أخذه ذلك من مساحة هامة تتخلل ثنايا النص القرآني إلا لغاية عظيمة تهّم الدور الاستخلافي للإنسان في الأرض، الذي يتأسس من منطلق الإيمان بالله تعالى. غير أن تداول هذا المصطلح في واقع المسلمين اليوم لا يحمل ذات الحمولة، ولا ذات المركزية في حياتهم أيضا، وذلك في الغالب الأعم.

تتحدد مهمتنا إذن؛ في استنقاذ هذا المصطلح المتداول بيننا اليوم بوصفه موروثاً من الموروثات التي خضعت لانحرافات وتأويلات في الفهم - في التجربة التراثية - جعلت منها تتحول إلى ما أسميناه سابقاً بـ "اللغة الميتة"، حيث فقد هذا المصطلح دلالاته الحقيقية والعميقة، وجعلت منه تعبير يكاد يكون صورة بلا مضمون. وهو ما يتطلب منا العودة إلى موضوعة هذا المصطلح ضمن نسقه لقرآني من أجل استجلاء مفهومه وحقيقته، فهو الكفيل بتصحيح العديد من التصورات الضبابية حول هذا المصطلح، والسائدة في ثقافتنا اليوم.

الإيمان لغة من مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن. وقد اتفق اللغويون و مفسرو القرآن على أن الإيمان في اللغة معناه التصديق، وضده التكذيب. وفي الاصطلاح الشرعي؛ استقر المسلمون على تعريف الإيمان من خلال حديث جبريل عليه السلام أنه هو: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. غير أن الاستعمال القرآني غالباً ما يكتفي بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر. وذلك لاستيعابهما كل بقية الأركان المعروفة. كما استقر في الثقافة الإسلامية؛ اعتبار الإيمان والإسلام وجهان لعملة واحدة؛ فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر ما لم يجتمعا، فإن اجتمعا دل الإسلام على الجانب العملي من أداء الشعائر والعمل الصالح، ودل الإيمان على رسوخ الاعتقاد بالله في قلب المؤمن.

في القرآن الكريم، وتظهر مركزية هذا المصطلح واضحة، يؤكدّها الإحصاء العددي لجذر "آمن" الذي يناهز ذكره في القرآن حوالي 950 مرة. فهو مفهوم - الإيمان بالله - محوري في القرآن الكريم ومحوري في حياة المؤمنين به. و أول ما يظهر من الحقائق المتعلقة به في القرآن؛ أنه نوع من الإيمان بالغيب الذي يتجاوز حدود الواقع الحسية، ويرقى بالإنسان فوق مرتبة الحيوان ليدرك آيات الغيب المحيطة بعالمه المادي، فيتسع تصوره للوجود وينفتح قلبه للإيمان برب الوجود؛ الغائب منه والمشهود. أما ثاني الحقائق التي يُظهرها السياق القرآني في تناوله لمصطلح الإيمان، تلازم اقتران ذكر الإيمان بالله فيه بالعمل الصالح، وما يرتبه القرآن عن الالتزام بهما مجتمعين من حياة طيبة في الدنيا و فوز بالجنة في الآخرة. ذلك ما توضحه الآيات الآتية:

يقول تعالى : {وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: 9] ، ويقول سبحانه: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: 124] ويقول عز وجل {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110] وقوله أيضا: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: 30]. ففي هذه الآيات صيغ لفظية متنوعة تؤكد أهمية ذلك تلازم الإيمان والعمل الصالح، كما توفر هذه الآيات وغيرها في القرآن كثير، قاعدة قرآنية واضحة؛ في أن الإيمان الحق يثمر عملا صالحا، وأن كليهما ركيزتان أساسيتان لما يتحقق للإنسان في الدنيا والآخرة.

تشير الحقيقتان السالف ذكرهما إلى محورية الإيمان بالله في الرؤية القرآنية. التي يكون على أساسها الله تعالى هو محور حياة الإنسان؛ لكن بعيدا عن أي فهم سلبي لهذا الحضور كما أشاعه في ثقافتنا غالبية التراثي الصوفي. وسوف يتبين لاحقا أن محورية الله في حياة المؤمنين به لا تلغي تطلعات الإنسان الشخصية الخاصة، ولا طموحاته وأهدافه في الحياة، التي من واجبه السعي إلى تحقيقها ليمارس من خلالها دوره الاستخلافي بكل فعالية.

تعني محورية الله في حياة الإنسان أن يكون إيمانه بالله، نقطة ارتكاز لتجميع طاقاته وقواه الفاعلة التي لتقوده في الاتجاه الصحيح للنماء والتطور، يقول سيد قطب: (والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة؛ فهي في حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها في كل اتجاه؛ وتستلهمها في الشعور والسلوك، وتستهديها في مواجهة الكون والحياة، وترجع إليها في كل صغيرة وكبيرة)¹. وقد ذكر القرآن شواهد عديدة لما يحل بالإنسان، حين يفقد الوجهة إلى خالقه، فيتخبط في ظلمات الجهل وينغمس في طقوس الضلال، وما يترتب عنها من مفاسد في مسالك حياته. لذلك يكون الإيمان بالله أكبر تحوّل يمكن أن يقع في حياة الإنسان، كونه ينتشله من الضياع والتردد والحيرة والقلق الوجودي والاضطراب النفسي.. و

¹قطب، سيد، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2001، ص 11

ينقله من دروب التشتت بين القوى البشرية والأرضية والاعتبارات المادية والمعنوية، نحو عبودية الواحد الخالق، عبودية تحرره من أي ارتهان لأية قوة مهما علت في الأرض، وتلك لحظة فارقة في حياة الإنسان لمن يدرك حقيقة الإيمان، ودوره في إعادة صياغة النفوس البشرية، وتشكيلها على غير ما عهدت من ذاتها. ومن ثم، تظهر الأهمية المركزية لهذا المفهوم، وثقله في حياة المؤمن كما تجلى في القرآن الكريم. يقول محمد قطب مؤكدا هذه الفكرة: (فعلى أساس هذه القضية يتحدد منهج حياة الإنسان في الأرض.. اعتقاده وفكره، أخلاقه وسلوكه، تصوراته وتصرفاته، علاقته بربه وعلاقته بنفسه و مجتمعه، وعلاقته بالكون كله من حوله.. حربه وسلمه، سياسته واقتصاده، علومه وفنونه.. وكل شيء في حياته.

وعلى أساس هذه القضية ذاتها يتحدد مصيره في الآخرة.. إلى الجنة أو النار.. إلى نعيم مقيم أو عذاب مقيم.. هل يمكن أن يوجد في حياة الإنسان أخطر من هذه القضية التي تجمع في طياتها قضايا الوجود كله؟¹

وباعتبار القرآن الكريم منهج حياة؛ فإنه لا يحدثنا عن تعريف للإيمان أو شروطه، مثلما تحدثنا الكتب البشرية، أو مثلما صار عليه الأمر فعلا في التجربة التراثية الإسلامية، حين أصبح هذا الموضوع من نصيب علم الكلام والعقيدة، بل نجد للقرآن الكريم طريقته الخاصة، وأسلوبه المميز. إذ غالبا ما يتحدث عن تجليات الإيمان في الحياة، سواء من خلال مواكبة نزول الآيات ضمن سياق تفاعلي مع الوقائع الزمنية الحية والمباشرة في المجتمع الإسلامي حينها. أو بما يربي عليه الحق سبحانه هذا المجتمع بأساليبه القائمة على استدعاء صور الإيمان في تجارب الأمم السابقة وقصص المرسلين وأقوامهم.. وغيرها من الأساليب التي تجعل الصلة الإيمانية بالله حية في النفوس، و متفاعلة مع الأحداث الواقعة في الزمان. وليست معرفة باردة جامدة، من أجل الاستهلاك المعلوماتي، والترديد الكلامي كما صار عليه الأمر في التجربة التراثية. التي فقد خلالها الإيمان قوته الدافعة وطاقته المحركة.

¹ قطب، محمد، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2010، ص22

من هنا، تبرز أهمية التعرف على قضية الإيمان بالله تعالى، وما تمثله حين نُقرأ داخل مجالها الطبيعي - القرآن الكريم - حيث تظهر حية متفاعلة. وهو ما يدفع إلى العمل على استجلاء معاني الإيمان ضمن النسق القرآني.

إن أهم وأبرز ما يقرره القرآن في مسألة الإيمان بالله؛ أنها مسألة اختيارية يمارسها الإنسان بإرادته، ليعبر عن اختياره بحرية كاملة، قال تعالى : {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} [الكهف: 29]. وقال سبحانه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: 256]. والمؤمن حين يؤمن بخالقه اختيارا يكون في انسجام ووثام مع فطرته، هذا الإيمان بالله تعالى، على بساطته و فطريته، يجيب عن الأسئلة المصيرية للإنسان، وينقذه من مكابدة آلام الحيرة والضياع المتحقق لا محالة بغير هدى من الله، إيمان المؤمن يمنح صاحبه رؤية واضحة في الحياة تكسبه ثقة الوجود والحركة فيها.. والله غيب من عالم الغيب ، والإيمان بالغيب أول صفات المتقين التي افتتحت بها سورة البقرة، وحين يوفق المؤمن إلى الإيمان بربه والأنس بمخلوقاته، ويشعر أنه تحت عين الله التي لا تنام و لا تغفل، يكسبه ذلك يقظة الضمير والمشاعر، وفقه الحركة والسلوك. يقول ابن القيم: (إن في القلب شعث : لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة: لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن : لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات : لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقاءه ، وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب، وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته ودوام ذكره والاخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا)¹

ولا شك أن اختيار الإيمان بالله تعالى، لا يبنى بناء سليما إلا معرفة صحيحة بالله سبحانه، والتي عرضنا طرفا أساسيا منها في الفقرة السابقة حين تحدثنا عن أهمية التعرف إلى أسماء الله وصفاته في القرآن الكريم. والمؤمن بتعرفه على ربه من أسمائه وصفاته، لا

¹ ابن القيم، شمس الديم محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، ج3، ص156.

تنتظم حياته دون إخلاص الوجهة كاملة إليه، والتربية على معاني تلك الأسماء والصفات؛ حقيق بتشرب المؤمن معانيها في عقله وروحه ووجدانه، فلا يصدر عنه شيء إلا من مقتضياتها. وكمثال على ذلك، ما ذكره القرآن عن إبراهيم عليه السلام حين عرّف بالله لقومه ، مستشهدا بمدخلية أسماء الله وصفاته في حياته العملية وشأنه اليومي، وذلك في قوله تعالى: {وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: 69 - 83]. فإبراهيم عليه السلام يستنكر على قومه عبادة من لا يسمع ولا ينفع ولا يضر... ثم يعرف بإيمانه بربه وما يثمره في خاصة نفسه وحياته، باعتباره الخالق والمطعم والهادي والمحيي والمميت والغفور والواهب...إلخ.

حين يحدث هذا الاختيار الحر للإيمان بالله متحققا بمعرفة الله معرفة صحيحة؛ حينها فقط؛ يكون الإيمان بالله قد أحدث نقطة التحول الكبرى في حياة الإنسان، النقطة التي يتأطر بموجبها كل نشاط إنساني ضمن مجال ذلك المنطلق وتلك الغاية. وتلك هي البداية الصحيحة التي يتحول الإيمان بموجبها إلى صلة دائمة وداعمة لصاحبها، وهي صلة يولي القرآن أهمية لاتصالها وديمومتها، أخذا بعين الاعتبار طبيعة ونوع الحياة التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا والقائمة على الاختبار والابتلاء بأنواع الفتن الظاهرة والباطنة.. لذلك، يعتبر القرآن الإيمان أهم قيم الحياة التي تنتشل الإنسان من عالم الظلمات والموت، إلى عالم الحياة الحقيقية، المستنيرة بنور الله كما يدل على ذلك قوله تعالى: {أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122] . وقوله سبحانه : {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ

أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الشورى: 52]

فعلى أساس هذا الإيمان تتحدد المعايير الكبرى، والموازن المميزة بين الحياة في الظلمة والحياة في النور، وبين العمى والإبصار.. يقول عز وجل: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} [غافر: 58]. ومن خلال ذلك، نفهم سر شمولية توجيهات القرآن للإنسان في حياته العملية، التي تستوعب مختلف نشاطاته على أساس من الإيمان. فمن حيث المواقف الأساسية والعلاقات الأسرية والاجتماعية وسائر الأعمال جليها ودقيقها، إذ أنه في كل ذلك، تكون صلة الإيمان هي الأوثق في حياة المؤمن من أي صلة أخرى، كما في قوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22]. وعلى مستوى ممارسة الشأن اليومي، ينبغي الحرص على بقاء تلك الصلة بين المؤمن وربّه صلة حية ومتفاعلة، لأن فعاليتها تظهر في خضم شؤون الحياة المختلفة والمتعددة.. حيث لا يصدر من مؤمن سلوك أو تصرف بغير مقتضى إيمانه بربه، إن درجة صوته في حضرة الرسول الكريم ﷺ أثر من آثار الإيمان بالله، بل هي نوع من الامتحان لتقوى صاحبها، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: 3].. وتمتد آثار تلك الصلة الإيمانية في حياة الإنسان العملية يحظى من خلالها بكنف الرعاية الإلهية. بل وتسري آثارها إلى حفظ الإنسان مما يخبئه له المستقبل البعيد. ذلك ما نستشفه من قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح حين أخبر بسبب قتل الغلام، الوارد في قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [الكهف: 80].

من هنا نفهم أهمية الدعوة إلى صلة إيمانية دائمة بالله سبحانه، حين تكون محورا لحياة المؤمن، ومن هنا أيضا؛ نفهم الحكمة من دعوة الله سبحانه في آيات كثيرة إلى الإكثار من ذكره، وعدم الانشغال عنه بالأموال والأولاد والتجارة؛ كما في قوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون: 9] وقوله سبحانه: { رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [النور: 37، 38] وتتأكد أهمية تلك الصلة الإيمانية، حين يتحدث القرآن عن اعتبار انقطاع صلة المؤمن بربه هو بداية خسارانه، يقول تعالى: { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام: 12]. فالانقطاع عن الإيمان فقدان لمصدر القوة في الوجود، وفقدان لزام قيادة النفس، فتظهر من الإنسان سلبياته، التي تعكس مخاوفه وضعفه، ثم تتحول حياة الإنسان إلى متاهة من البحث عن الأمان النفسي، وتهجم عليه أنواع الوسواس والقلق والحيرة والاضطراب.. فانقطاع صلة العبد بربه يعني وقوعه فريسة للشيطان، الذي توعد العباد جميعا بذلك الوعيد الوارد في قوله تعالى: { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف: 16، 17]

في هذا السياق نتبين أهمية الوصفة الوقائية للإيمان بالله قبل العلاجية ففي سورة الفاتحة، تأكيد دائم ومتجدد في حياة المؤمن على مدار اليوم من خلال الصلوات المفروضة - على الأقل - على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]، و هي العبارة التي تؤكد على حاجة العبد لدوام الاستهداء بربه، وتؤكد حاجته وافتقاره لتلك الصلة الدائمة، الأمر الذي يستطيع كل إنسان أن يفهمه و يستشعره في ظل ما يكتنف حياته من تقلبات، وما ينتج عنها من أحوال نفسية، ليس لها من حل عملي سوى دوام الإقبال على الله تعالى. من أجل ذلك، كان الإيمان أبرز تحول حقيقي يمكن أن يحدث في حياة الإنسان، ويقوده لأكبر تغيير إيجابي في حياته. ولذلك تكفل القرآن ببيان حقيقة الإيمان

بالله وصوره وعلاماته. و استخدم القرآن مفهوم نفي الإيمان في آيات عديدة؛ تصحيحاً للموازنين في تقييم الأمور وردّها إلى حقيقتها، ففي حديثه عن المنافقين يقول تعالى: { وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [البقرة: 8 - 10]. فكشف حقيقة خداعهم، ونفى عنهم ما يدّعون من إيمان، مبيناً مصدر الخداع لأنفسهم بقوله "في قلوبهم مرض". فهم يفقدون خاصية الإحساس الحقيقي والإدراك الصحيح للأشياء، فتتولد في نفوسهم أحاسيس كاذبة، فيبين الحق تعالى ما يحل بموازنينهم وتصوراتهم، في مثل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ } [البقرة: 11، 12]. كما تبين الآيات القرآنية أن حقيقة الإيمان مقرّها القلب، ولا علاقة لها بادعاء اللسان، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: 41].

كما يبين القرآن كذلك، أن حقيقة الإيمان أمر يعلمه الله وحده، وليس من شأن الإنسان أن يفتش في قلوب العباد، يقول تعالى: { وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ } [المائدة: 61]. و لكن القرآن ينصب علامات للإنسان، يدرك من خلالها موقعه من قضية الإيمان، وفي ما يلي عرض لمجموعة من الآيات التي تزودنا بهذه العلامات وتغني رصيدنا من معايير الإيمان بالله تعالى:

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ} [السجدة: 15 - 18]

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ} [البقرة: 121]

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]

{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ} [المائدة: 81]

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 92]

{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا
إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22]

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]

كما نصب القرآن علامات كاشفة لسلوك المنافقين ومدعي الإيمان، حتى تكون بمثابة
المعايير التي تكشف لأصحابها حقيقة أنفسهم و تقيم الحجة على كذب ما يدعون. قال
تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ

يَتَحَاكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 60-65]

و يستمر القرآن في بيان حقيقة الإيمان، في ما يقرره حين ينفي هذه الصفة عن يدعيها دون أن يتمثل حقيقتها في نفسه. وهي حقيقة قابلة للاختبار في أرض الواقع. لذلك كان القرآن واضحا في بيان ما يستدعيه وصف الإيمان، و الإنكار على من لم يصل إلى هذه المرتبة ممن يدعيها، مميزا بين الانتساب إلى الإسلام والانتساب إلى الإيمان. ذلك ما نقرأه في سورة الحجرات، حين استنكر الحق سبحانه على الأعراب ادعاءهم وصف الإيمان، فقال تعالى : {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحجرات: 14] ففي الآية تصحيح لما ظنه الأعراب إيماننا بمجرد نطقهم بالشهادتين، إذ ينفي عنهم الله تعالى ذلك، مبينا أن ما هم عليه ينطبق عليه وصف الإسلام، ليبين لهم بعد ذلك، في الآية الموالية، حقيقة الإيمان حين تستقر في القلوب، وما يترتب عنها من تحول عميق الجذور واضح التجليات في حياة الإنسان، فالإيمان هو إيمان بالله ورسوله دون أن يلابس ذلك شك أو اضطراب أو تزعزع، إذ يثبت ثباتا نهائيا ليتحول في الواقع العملي إلى جهاد بالمال والنفس في سبيل الله، حينها فقط يكون المؤمن صادقا فيما يدعيه. يقول سبحانه : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحجرات: 15] فالجهاد بالمال والنفس هنا بمثابة معيار اختباري لحقيقة الإيمان. وغالبا ما يربط المسلم المعاصر هذه الآيات بوقائع الجهاد القتالي التي حدثت زمن

النبي ﷺ وروثها كتب السيرة النبوية، أو بما يمكن أن يحدث مع أعداء مفترضين في المستقبل، وهو بذلك يقصر الجهاد على معنى القتال، ويعطل اعتمادا على ذلك معنى الآية في حياته العملية، ويصير غير معني بها مباشرة. لكن تجليات الجهاد في سبيل الإيمان متعددة، فالقرآن يحفل بالحديث عن تجليات الإيمان الجهادية التي لا يمكن حصرها في الأسلوب القتالي، ولا في ما اعتبره البعض عملا قلبيا كما ادعت بعض المذاهب الصوفية. ومثال ذلك ما ذكرته مقدمة سورة المومنون، التي بينت هذه التجليات وشموليتها لشؤون الحياة بأوضح صورة، يقول تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: 1 - 11]. من نتائج دلالات الآية أن على المسلم أن يكون إيمانه بالله مركزيا في حياته تتحدد على أساسه كل العلاقات والارتباطات والاعتقادات والتصرفات... وعلى أساس الإيمان بالله، يكون الالتزام بما شرع من أحكام تنظم علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بنفسه وبالناس وبالكون من حوله. وعليه، فما من توجيه في القرآن إلا ووجب التدبر في صلته بحياتنا اليومية والشخصية وجوانبها الفردية والجماعية... ففيها يظهر أثر وجود الإيمان من عدمه. والواقع أن الحياة التي نعيشها - كما سنرى في المطلب الثالث - في الدنيا هي في الأصل قائمة على معيار اختياري، لقوله تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: 2]. إذ يخبرنا القرآن الكريم أن تعريض الإنسان للشدائد والمحن، من شأنه أن يوقظه من غفلته عن الله ليعيد حساباته في الحياة، و ينظر في نتائجها ومآلاتها. إن محورية الله لا تظهر في حياة الإنسان إلا وهو يمارس دوره الاستخلافي في واقع الحياة العملية، بما تتطلبه من كد وسعي واقتحام لعقباتها المتجددة والمستمرة وفهم لدواليب صراعاتها وما تخلقه من تحديات وفرص التنافس، وغيرهما مما هو من صميم سنة الابتلاء للإنسان في هذه الحياة. وما

تستلزمه من الصمود في وجه تلك الأعاصير النفسية والاجتماعية التي تحف بالإنسان من كل جانب حين يخوض بإيمانه خضم معارك الحياة، و ما تستدعيه من الثبات على قيم وسلوكيات وأخلاق الإيمان هو التحدي الحقيقي، وهو الابتلاء وهو النجاح والسعادة أيضا. فالإيمان بالله - كما رأينا - ليس كلاما عابرا يقال باللسان وانتهى. إنه عقيدة وعهد يربط المؤمن بربه، بدوام الخضوع والعبادة والاستجابة له في كل حال وأمر. وأمر هذه صفته؛ لا تظهر حقيقته إلا في المواقف الشديدة، والأحداث العصيبة التي يبتلى بها المؤمن، فيمحس الله ما في قلبه. قال تعالى في موقف مثل هذا {إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ رَأَيْتِ الْأَبْصَارَ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْإِدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} [الأحزاب: 10 - 15]

ولعل المولعين بتحويل القرآن إلى كتاب للتاريخ، يجدونها فرصة في الحديث عن مثل هذه الآيات باعتبارها كانت ظرفا خاصا زمن الرسول ﷺ، وأنه في غياب مثل هذا الظرف - القتالي - تتحول مثل هذه الآيات إلى مصدر للمعلومات عما جرى. و الحقيقة أن الجهاد في القرآن كلمة عامة، القتال أحد أنواعها. فالاختبار المعيارى يبقى على عمومه في ما تتطلبه الحياة من الجهاد دون أن يُسقط ما قد يقتضيه من قتال - إذا توفرت شروطه - إذ هو أعلى مراتب التضحية بالنفس في سبيل الله. و يبقى الإمكان الفعلي لاختبار إيمان المؤمن قائما، ويستدعى في مواقف الحياة وتحدياتها المختلفة والمتجددة كل يوم، بما يفرض على الإنسان إعلان اختيارات وتوجهات و إبداء مواقف أو غير ذلك مما هو من صميم معنى الجهاد، خصوصا وأن تلازمه مع معيار الاختبار بالإنفاق في سبيل الله كفيل بكشف حقيقة الإيمان لصاحبه بالدرجة الأولى، فقد أخبرنا الله تعالى عن جانب من حقائق نفوسنا

المطبوعة بحب المال {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: 20]. ففي مثل هذه الوضعية الاختبارية الحقيقية في واقع الحياة تظهر للإنسان حقيقة نفسه أولاً، وحقيقة ما يدعيه من إيمان بالله ثانياً. لذلك كان الإيمان بالله يعني في حقيقته الحرية، لأنه تحرر للنفس من سائر ما يمكن أن يستعبد بها من شهوات و أهواء، وشتى ما يمكن أن تقيم له النفس من وزن وقيمة في الحياة.

والعبرة؛ أن إيمان المؤمن، تظهر تجلياته حين يتحرك به صاحبه في واقع الحياة، ليوواجه به ومن خلاله تقلباتها ومعاركها في عوالم التصورات والأفكار والسلوكات، وفيما يستجد على الدوام من المواقف والأحداث.. ففي كل ذلك تظهر حقيقة الإيمان التي تختبر في ميدان الواقع وابتلاءات الحياة . ففي هذا السياق فقط، تتكشف حقائق الإيمان. والقرآن الكريم يزخر بأنواع من الابتلاءات الإيمانية الكاشفة لمستوى الإيمان في النفوس ومقدار تجلياته في الحياة، وكلها تتضافر لتبين أن الإيمان بالله حين يحتل قلب العبد تظهر له من التجليات في عالم الواقع ما قد يفاجئ به صاحبه ذاته، ونمثل لمثل هذا النوع من الاختبارات الإيمانية بما حدث للمهاجرين حين حلوا ضيوفاً على الأنصار. وهي الواقعة التي تصفها سورة الحشر بقوله سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9] يستحضر الدكتور مجدي الهلالي تلك التجربة الإيمانية محاولاً إسقاطها - افتراضياً - على الواقع الحالي الذي نعيشه، قاصداً إلى بيان قيمة الإيمان، وأهميته حين يحل في قلب المؤمن من جهة، وإلى أعمال مبدأ الاختبار الإيماني الذي يكشف لنا ما نحن فيه من مستويات الإيمان ودرجاته؛ يقول الدكتور مجدي الهلالي: (فهب أنك .. قد عُدت إلى منزلك في يوم من الأيام فوجدت رجلاً في انتظارك وبصحبه زوجته وأولاده، ومعه رسالة من أحد أصدقائك الذين لا يمكنك أن ترد لهم طلباً، يخبرك فيها بأن حامل رسالته أخ لك في الله، قد تعرض لمحن وابتلاءات كثيرة ، وهو الآن بلا مال ولا مأوى ، وعليك أن تستضيفه وعائلته في منزلك ، وأن تقسم معه مالك ،

وطعامك ، فضلاً عن مسكنك ، وليس لهذه الاستضافة مدة معلومة ، فقد تمتد شهوراً أو سنين ...

فماذا تتوقع أن يكون رد فعلك تجاه هذا الأمر ؟!

هل ستكون سعيداً بهذه الرسالة وما تحتويه ؟ أم سيضيق صدرك ويشد غمك ، فالراتب لا يكفي إلا بالكاد ، والمسكن يضيق بأفراد الأسرة ، فكيف سيكون الحال لو تم اقتسام الراتب والمسكن بينك وبين أخيك ؟

وحتى إن كنت موسراً ؛ فمن يتحمل أن يتعايش مع أناس لا يعرفهم ولا يعرف طباعهم وأسلوب حياتهم ؟

.. لا أكتمك القول - أخي - بأنني قد تخيلت نفسي في هذا الموقف ، فتوقعت مقدار الحرج الذي سيصيبني ، ومدى الضيق الذي قد يتولد في صدري والذي قد يزيد بطول مدة الاستضافة ، ومن المتوقع أن تدور أمنيته وقتها حول إمكانية كون هذا الرجل قد أخطأ في العنوان ، وأن المقصود شخص آخر غيري ، وقد أسارع بالاتصال بمن كتب الرسالة محاولاً التملص من هذا العمل ، وأتعلل بظروف كثيرة تحول بيني وبين استضافة هذه الأسرة ، وإن وافقت على استضافتها فستكون موقوتة بمدة محددة ، وسأجتهد في أن تكون هذه المدة قصيرة قدر الإمكان ...

.. هذا الموقف - الذي نتمنى ألا نتعرض له - قد تعرض له الأنصار في صدر الدعوة ، فلقد خرج المهاجرون فارين بدينهم من مكة تاركين فيها ديارهم وأموالهم ، وتوجهوا إلى يثرب تنفيذاً لأمر الله ورسوله ﷺ .. هاجروا إليها دون أن يكون لهم فيها مأوى ، ولم يكن معهم من الأموال ما يُمكنهم من الإنفاق على أنفسهم ، أو اقتناء مساكن تؤيهم ، وفي المقابل كان أهل المكان من الأنصار فقراء ، فضلاً عن أنهم لم يكن بينهم وبين المهاجرين سابق صلة أو معرفة ، ومع ذلك كان عليهم أن يستضيفوا إخوانهم المهاجرين استضافة كاملة .. فماذا كان تصرفهم تجاه هذا الأمر ؟!

تُجيبنا كتب السيرة بأنهم كانوا في سعادة غامرة بتلك الاستضافة إلى حد تسابقهم وتنافسهم فيما بينهم للفوز بكل مهاجريّ يصل إلى المدينة .. هذا التسابق والتنافس الذي كان على أشده جعلهم يلجأون إلى إجراء القرعة لتحديد الفائز باستضافة الوافد الجديد .. نعم ، لقد حدث هذا ، حتى قيل : ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة .

ولعلك - أخي القارئ - تعجب من هذا التصرف الذي نعجز عن القيام به ، ولعلك كذلك تتساءل معي : ما الذي جعلهم يصلون إلى هذا المستوى ، وهذا السلوك الذي يفوق طاقات احتمال البشر ؟

يُجيب القرآن على تساؤلاتنا ، ويبين لنا السبب الذي دفع هؤلاء الأنصار لهذا الإيثار العظيم مع فقرهم وشدة حاجتهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ [الحشر/9] .

فالآية الكريمة تصف هؤلاء بأنهم تبوءوا الدار : أي استوطنوا يثرب قبل مجيء المهاجرين ، وتقول عنهم الآية كذلك بأنهم استوطنوا الإيمان..

ولكن كيف يُستوطن الإيمان ؟! أليس من المعلوم أن الإيمان هو الذي يدخل القلب

!؟

.. نعم هو كذلك، ولكن من شدة تمكّن الإيمان منهم : فكأنهم هم الذين دخلوا فيه

واستوطنوه ، والدليل على ذلك هو هذا الفعل العجيب : الإيثار مع الحاجة ..¹

يؤكد هذا التحليل الذي قدمه الدكتور الهلالي ما سبق بيانه عن ما تحمله عبارة "الإيمان بالله" من الحقائق الضخمة والثقيلة، و هو ما يتأكد في مواضع عدة من سور القرآن وآياته، التي تبين لنا كيف يحدث الإيمان بالله انقلابا جوهريا في حياة الإنسان يعيد على أساسه ترتيب أولوياته وضروراته، بل وتظهر من مواقفه ما قد يُحسب من المعجزات، ومثال

¹ الهلالي، مجدي، نظرات في التربية الإيمانية، ص2-3

ذلك، سحرة فرعون الذين جيء بهم لمقارعة موسى عليه السلام. فبعد أن تأكد لهم من معجزاته حقيقة دعوته آمنوا بربهم إيماناً يقينياً. وفي مشهد واحد؛ تحولوا من سحرة يطلبون الأجر والقربى من فرعون {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الأعراف: 113، 114]، إلى أطواد شامخة في الإيمان تتحدى القتل والصلب. وقد سجل ذلك الموقف العظيم في قوله سبحانه: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: 71 - 73] هكذا ينقلب التصور في حياة الإنسان، فيميز بين الحياة الدنيا الزائلة والحياة الآخرة الباقية. لقد تحولت غايتهم في الحياة من طمع في أجر، وفي تقرب من "جاه" إلى ما تلخصه عبارتهم: "والله خير وأبقى".

بالمقابل، يخبرنا القرآن الكريم، أن هناك من يسقط في اختبار الإيمان، ولو كان أمراً صغيراً أو تافهاً، فإذا كان الإيمان تعبيراً عن الجزم والقوة في الاعتقاد بالشيء، لا يقبل الشك أو الارتياب الذي يكون صاحبه مترعزعا بين تحقيق مقتضيات الإيمان في حياته، وبين ما يرى فيه تحقيقاً لمصالحه الشخصية، فإن البعض ممن لم تستقر حقيقة الإيمان في نفوسهم، يعجزون عن حمل تكاليفه، من أولئك الذين يخبر عنهم الحق سبحانه في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: 11] وفي قوله سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: 10، 11] لذلك يؤكد القرآن الكريم على كلية الإيمان وعدم قابليته للتجزئة، فيقول سبحانه: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ} [البقرة: 85].

على هذا الأساس، نؤكد حقيقة الإيمان بالله، تلك الحقيقة الضخمة التي تجعل منه أكبر تحول ممكن في حياة الإنسان. والتي تتغير على أساسها قيم الحياة وموازينها.. وبقدر ما يكون للإيمان من تبعات وتكاليف، تختبر في ميدان الحياة، بقدر ما تعظم آثاره ونتائجه في حياة الإنسان، فالمؤمن بربه حق الإيمان، يتولاه الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يخرجهم من الظلمات إلى النور، كما في قوله سبحانه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: 257]. وهو النور ذاته الذي يقوده إلى جنة الآخرة. يقول سيد قطب: (إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره. تشرق به روحه فتشع وتصفو وتتسع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً.. نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش، بينة بغير لبس، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هودة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه.. نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله ويمضي في طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات، ولا يخبط هنا وهناك. فالطريق في فطرته مكشوف معروف.

وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد. فأما ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة.. ظلمة الهوى والشهوة.

وظلمة الشرود والتهيه. وظلمة الكبر والطغيان. وظلمة الضعف والذلة. وظلمة الرياء والنفاق. وظلمة الطمع والسعر. وظلمة الشك والقلق... وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله، والتلقي من غير الله، والاحتكام لغير منهج الله.. وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد. نور الحق الواحد الذي لا يتلبس. حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف.. وكلها ظلمات..!)¹

¹ قطب، سيد، في ضلال القرآن، ج1، 293

وبعد، فلم نستكمل بعد عناصر هذا الموضوع الذي يشغل مساحة القرآن كلية، وإنما ذكرنا ما يشير لحقيقته وأهميته، وبعض علاماته، إضافة إلى أن الاقتضاء المنهجي لتوزيع عناصر الموضوع جعلنا نؤجل بعض النقاط المتعلقة بمقاصد الإيمان في التنمية البشرية ومتطلبات الإيمان العملية إلى مباحث ومطالب لاحقة.. وكل ما أردنا تقريره هنا، أن قضية الإيمان تحمل من الحقائق الضخمة ما يحول مجرى حياة الإنسان، ويقلبها من حال إلى حال مختلفة تماما. فليست قضية الإيمان قضية قول باللسان فقط، وليست قضية الشرك عبادة غير الله فقط، إنما القضية ما يترتب عن كل من الاتجاهين من نوعية في التصور تنعكس على نوعية من الحياة، أو نمط من الحياة، ففساد الاعتقاد الشرقي لا ينحصر في ذاته وإنما يتحول إلى فساد في الحياة ونوعيتها. والإيمان الحقيقي ينعكس اهتداء ونورا لصاحبه؛ ينير له مسالك الحياة ودروبها. الإيمان بالله وجهة في الحياة تؤطر مشاعر الإنسان وأهدافه وغاياته وسلوكاته في نظام متناغم. متوازن يهدف إلى نيل مرضاة الله ويترتب عنه في الواقع العملي حياة طيبة وطمأنينة نفسية ملؤها الثقة والكفاية بالله. الإيمان بالله أصل، وكل ما نسعى و نهدف الوصول إليه أو نطمح تحقيقه ينبغي أن ينضبط بهذا الأصل.. حينها تكون الحياة متناغمة منسجمة ومتناسقة بين ما يعتقد الإنسان، وما يفعله ويجتهد فيه، وما يرغب في تحقيقه والوصول إليه، من حياة طيبة في الدنيا وسعادة في الآخرة. الإيمان بالله محور الرؤية الكونية التي جاء القرآن لإرسائها في نفوس الناس، وعلى أساس الإيمان بالله وبحسب الموقف الذي يتخذه الناس من ذلك يتم تصنيفهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين.

لقد كان اتباع طريق الإيمان بالله ولا يزال؛ وعدا صادقا من الرحمن لسعادة الدارين، وذلك في قوله عز وجل: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ} [طه: 123، 124]

تبعا لذلك، وجب أن يكون الإيمان بالله أكبر أولوية في حياة المؤمن، لأنه يوحد مرجعيته في الحياة، ومصدر التلقي الذي إليه التحاكم، ومنه تنطلق الحركة في الواقع

الوجودي للإنسان، وعلى ذلك الأساس يتحقق وعد الله تعالى له بالفلاح، قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51]. ومما يؤكد أهمية الإيمان بالله إخبار الحق سبحانه ان دعوة الإيمان بالله هي التي جاء بها جميع الرسل {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25]

ولذلك ركز القرآن على قضية الألوهية، باعتباره يحمل الرسالة الخاتمة التي تتضمن خلاصة رسالات الأنبياء للبشر. فالأمر لا يتعلق فقط بتنزيه الله سبحانه عن المشابهة والمماثلة في صفاته الذاتية، وإنما يتعلق بترجمة الإيمان به في حياة الإنسان العملية، وتلك هي الغاية من تحقيق العبودية لله تعالى. أي، أن الإنسان بهذا الفهم والتطبيق للإيمان سوف يحيا أفضل حياة ممكنة له في الوجود.

والمسلم المعاصر حين يخضع لمناهج تربوية تعلمه أن الإيمان بالله هو توحيد بالعبادة، وأن الشرك عبادة الأصنام في الجاهلية.. يتلفف تصورا مشوها عن أهم المفاهيم الأساسية في دينه، وهو يمثل ذلك التصور، لا يرى في قوله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 29] خطابا يعنيه في خاصة نفسه، ومستوى إيمانه وعبادته. إنها بالنسبة له معلومات عن المشركين زمن النبي ﷺ. صحيح أنه مثل ضربه الله تعالى للمشرك الذي يحاول إرضاء آلهة متعددة، فيحтар بين من يرضي منهم في الوقت ذاته، مما يؤثر على نفسيته وسلوكه، وفي اتجاهاته واختياراته ومساراته في الحياة. لكنه أحد معايير الإيمان الأساسية في القرآن، وهو معيار الإخلاص، والبعض منا قد يعتقد أنه بعيد عن هذه الصورة التي ذكرت في سياق الحديث عن المشركين، لكن السؤال الذي تطرحه القراءة التدبرية المفترضة، يتحول إلى اختبار الآية على النفس تجريبيا في واقع الحياة. فحينها سيظهر للإنسان من ذاته حقائق مهولة، وربما تكشف له من خبايا نفسه ما لم يكن يحتسب، مما يستدعي التحقق والمراجعة وإعادة ضبط البوصلة في الحياة. وكم نشهد في واقع الحياة من

تصرفات أناس - ملتزمين بأداء الشعائر الدينية الظاهرة - تثير التساؤل حول إلههم الحقيقي. فلم يكن عبثاً ولا تكراراً، تركيز آيات عديدة في القرآن على موضوع الإخلاص، إخلاص العبودية لله سبحانه. ومن ذلك جعل سورة باسم الإخلاص تعدل ثلث القرآن رغم قصرها

فالإخلاص هو الذي يجعل من الإيمان بالله وما يقتضيه من توجه له بالعبادة نوعاً من التحرر من كل الارتباطات والانظمة الاعتقادية والتصورات والمذاهب والتوجهات وما يستدعيه ذلك من خضوع لمختلف القوى والمذاهب سياسية أو دينية أو غيرها، سواء باسم المصالح الشخصية، أو باسم التشفع بالوسطاء والأولياء والأقطاب. وبمقدار التمسك بهذا الإيمان تكتسب الشخصية الإنسانية مقومات القوة والاستقلالية والمسؤولية وعلى رأسها جميعاً مقوم الحرية، لأن، الإيمان بالله تعالى وحده هو تحرر من الخضوع لغيره من القوى الظاهرة والخفية وتحرر أيضاً من الأهواء وعبادة الذات..

الإيمان بالله نقطة مركزية في حياة الإنسان لأن تحققه في الذات يثمر واقعا مختلفاً؛ قوامه الالتزام التام بالأحكام العملية والسلوكية التي تترجم حقيقته في الواقع. فالمؤمن يحتكم إلى ربه ولا يرضى بغير حكم ربه بديلاً؛ لقوله تعالى: {قُلْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} لذلك يقرن الحق تعالى بين العديد من الأحكام العملية وشرطية الإيمان التي تأتي كجملة تعقيبية بعد تلك الأحكام من قبيل قوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [الأعراف: 85]

ذلك أن أول محدد من محددات الإيمان بالله تعالى هو الالتزام بجميع أوامره واجتناب جميع نواهيه ومحاولة الاستمرار على ذلك قدر المستطاع، مستعيناً بالتوكل والرجاء والخوف والرغبة والرغبة .. وكلها من مقتضيات الإيمان التي تلمس أوتار القلوب وتحسن توجيهها وتربيتها اعتماداً على مدخل التلاوة القرآنية للصور التي تملك هذه المفاتيح. والتي تثمر معية

الله واستشعار قربهِ وتأييده ونصره، فالولاية والنصرة من أهم موضوعات القرآن الكريم والإيمان المبني على هاتهِ المعاني يكسب صاحبه قوة وأنفة وشعورا بالاعتزاز بربه ودينه {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8] كما تثمر قيم الإيثار والتضحية والشجاعة، فلا يخاف المؤمن من بذل المال والنفس استجابة لأمر الله.. لإيمانه بأنه مستخلف في ذلك المال، مكلف بالإنفاق منه ضمن معايير واضحة بين الزكاة الواجبة وصدقات التطوع. فهو مطمئن النفس بما ينفق لا تحكمه الهواجس ولا يستبد به قلق المستقبل، مادام يرضى عهد ربه وميثاقه في الإيمان والعبادة. وهي طمأنينة لا يعدلها شيء في الحياة مهما كان وكيفما كان. وهي أهم ما يفقده إنسان اليوم بالرغم من حياة الوفرة والإشباع المادي الذي اعتقد فيه البعض سبيلا للسعادة في الحياة. وقد يحدث لدى البعض نوع من الاستمتاع المادي في الدنيا، لكنهم بعيدا عن التزام منهج الله في الحياة يكونون أشبه بالأنعام، ذلك حكم القرآن وميزانه في تقييم الأمور، يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: 12]

فمنهج الله في الحياة الذي يعتبر الإيمان بالله أساسه ولبه، يحتكم إلى قيم وموازن ثابتة يزن بها الناس والحقائق والأشياء، فيميز من خلالها الحق من الباطل، والفضائل من الرذائل، عملا بميزان الله تعالى القائل سبحانه: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: 7 - 9]. وتظهر أهمية الميزان حين يقرن سبحانه بينه وبين الكتاب الذي جاء به الأنبياء، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ} [الشورى: 17]. وحين يعمل المؤمن ميزان الله في حياته، يتحقق له النور الذي وعد به الدنيا قبل الآخرة فميزان الله يحدد أفضلية الناس، كما في قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13]، كما يحدد الربح من الخسارة، يقول تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الأنعام: 11]

[الكهف: 103 - 105]. ويقول سبحانه: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة: 16].

إن منهج الله في الحياة هو الذي يحقق للإنسان حالة السواء التي تظلمه في مختلف مناشط حياته، فتجعله شخصا متوازنا ثابتا في إيمانه مدركا لطبيعة دوره في الحياة وما يتطلبه من عمل صالح في الحياة الدنيا لجعلها حياة طيبة تقود إلى جنة الآخرة .

إن الله تعالى كمرتکز أساسي في الرؤية الكونية القرآنية يقوم على أمرين: العلم به والإيمان به، وكلاهما مرتبط بالآخر ارتباطا جدليا، ولم يكن عبثا أن يرفع الله تعالى مكانة من يجمع بين الإيمان والعلم من مخلوقاته، مصداقا لقوله سبحانه: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: 11].

إن العلم الصحيح بالله تعالى من خلال تعرّف أسمائه وصفاته، يقود إلى معرفة حقيقية بالنفس، حيث يدرك الإنسان أن لا طمأنينة له إلا بدوام الاتصال بربه، وأن نفسه لن تسكن مادامت بعيدة عن مولاه وخالقها.. فالعلم بالله يكشف للإنسان حقيقة ذاته، من ضعف وافتقار إليه سبحانه؛ الخالق المبدئ والمعيد، فإليه يكون الرجاء ومنه يكون الخوف وعليه يكون التوكل، فحق له الثناء والإجلال والتعظيم، والتوجه له بالعبادة والاستعانة. وقد تميزت خاتمة سورة الحشر، بعرض مطول - مقارنة بباقي السور - لأسماء الله الحسنى، يقول تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: 22 - 24]

وبذلك، تتضح أهمية معرفة الله تعالى باعتبارها أهم أركان الإيمان، بل وأفضلها على الإطلاق، فبحسب معرفة العبد بربه تكون درجة إيمانه، إذ كلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه به، وكلما نقصت معرفته نقص إيمانه، و لا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته

وفهم معانيها؛ فإذا كانت الغاية من خلقه سبحانه الإنس والجن هي عبادته؛ فإن تلك العبادة لا تصح من دون معرفته، التي تدل على ما يليق بجلاله وكماله سبحانه. وأقرب طريق يوصل إلى معرفة الله تعالى تدبر أسمائه وصفاته في القرآن الكريم، مما يدعو إلى محبته، و يوجب خشيته، وخوفه، ورجاءه، وإخلاص العمل له، وهذا هو عين سعادة العبد.

المطلب الثاني: الإنسان في القرآن الكريم

تناول القرآن جملة حقائق عن الإنسان، تعتبر ضرورية لكل من أراد فهم الرسالة القرآنية ودورها بالنسبة للإنسان، فمن تلك الحقائق؛ يذكر القرآن أصل نشأة الإنسان، ويتحدث عن عناصر تكوينه، وعن تكريمه من بين الخلائق، و استخلافه في الأرض، وعداوة الشيطان له.. وفي ما يلي نبذة مختصرة لما نص عليه القرآن من تلك الحقائق؛ فأولها؛ ما ذكره عن خلق الإنسان، يقول عز وجل : {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } [السجدة: 7 - 9]

يتم إخبارنا من خلال هذه القصة، أن الإنسان خلق من الطين، ثم تمت تسويته، ونفخ روح من الله تعالى فيه. وأن تلك التسوية ارتبطت أيضا بامتلاك حواس الإدراك التي تستوجب الشكر، فبها يكون للإنسان تميزه عن غيره من الكائنات. فنصبح إذن، أمام عنصرين أساسيين في تكوين هذا الإنسان؛ المادة (الجسد) والروح (النفخة العلوية). ويخبرنا الحق سبحانه أن الروح أمر خارج عن قدرات المعرفة الإنسانية. فمن ناحية المرجعية القرآنية؛ وجب التوقف عن أي بحث في هذا المسمى، لأنه من أمر الله بنص الآية {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]. ولم يتحدث القرآن الكريم عن قضيتي الطين والروح المكونين للإنسان إلا في سياق قصة الخلق، ليظهر الحديث بعد ذلك عن "النفس" ككيان موحد للإنسان. مما يشي بأن النفس هي الأمر المترتب عن نفخة الروح في الجسد، فهي تعبر في القرآن عن كينونة الإنسان الكلية، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21] وقوله سبحانه: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44]. كما يشهد لذلك المعنى؛ العديد من الآيات القرآنية، ومنها على سبيل المثال الآيات المتحدثة عن مجازاة النفس، كقوله تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر: 17]، و أن النفس هي التي تُوفى أعمالها وتذوق الموت، قال تعالى: { فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَاَهُمْ لِيَوْمٍ لَا

رَبِّبَ فِيهِ وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ { [آل عمران: 25]... فالنفس في التعبير القرآني تعني ذات الإنسان وكيانه الكلي.

هذا الكيان الكلي المسمى بالإنسان، هو الذي حكى القرآن قصة استخلافه في الأرض؛ والتي هي قصة آدم وحواء، وما حدث في ذلك المشهد العظيم، الذي دار فيه حوار بين الخالق عز وجل والملائكة وآدم وإبليس، يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ { [البقرة: 30 - 37]

يعتبر استخلاف الله تعالى للإنسان علامة من علامات التكريم الإلهي لهذا المخلوق، وهو ما يتأكد في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70]، و هذا التكريم الإلهي للإنسان هو ما أغاظ إبليس منه كما ذكره الله تعالى في قوله: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 62]. وسوف تتوالى مظاهر التكريم الإلهي للإنسان تترى، فمنها؛ تخصيصه ببعثة الرسل وبمخاطبته بالوحي خطابا مباشرا وغير مباشر. وبجعله في أحسن تقويم تكلاًه عناية الله تعالى وترعاه فيستشعر عظمة الله فيه، لأنه صنعه، وخلق، ويرى اختلافه فيدرك أنه خلق فريد متميز في كل شيء، مجهز بأدوات المعرفة والتفاعل والحراك والاندماج ومؤهّل للنهوض بمهمته

الاستخلافية. فمن مقتضيات هذا التكريم؛ أن يكون الكون بكل مخلوقاته مسخرا للإنسان، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [إبراهيم:32-34]. كما يعتبر من مقتضيات التكريم الإلهي للإنسان، أن يكون هذا الإنسان حرا ومسؤولا ومكلفا.. بما يمكنه من أداء مهمته الاستخلافية.

من جهة أخرى، أظهر الله تعالى الغاية من خلق الله تعالى جميع مخلوقاته في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 27، 28]، ثم بين أن هناك غاية لخلق الإنسان ووجوده في الدنيا تنتهي برجوعه إلى ربه من أجل الحساب والجزاء، فقال سبحانه: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115] وأما التكليف؛ فهو الذي أعلن عنه سبحانه في قوله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] مبينا أن الغاية من خلق الإنسان إلى جانب الجن هي عبادة الله تعالى وحده.

يتضح من خلال هذه المقدمة التعريفية القصيرة عن الإنسان في القرآن الكريم، أنه يعتبر هو محور الاهتمام الأساس في الرسالة القرآنية، حيث التكريم والاستخلاف، وحيث التكليف والجزاء من أبرز العلامات الدالة على ذلك. ولكي يتمكن الإنسان من ممارسة استخلافه في الأرض، زوده الحق سبحانه بمجموعة من الحقائق عن نفسه وطبيعته، وما يعترئها من قصور وضعف وسلبية.. وأرشده إلى مقومات نهوضه وما يكفلها من منهج أوضحه الله تعالى له في كتابه. منهج يكفل لصاحبه حياة طيبة في الدنيا وجزاء حسنا في الآخرة، قال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97] ثم بين أن الحياة الطيبة في الدنيا وفق منهج الله تعالى تنتهي إلى سعادة ونعيم في الآخرة، وهو نعيم أبدي مقابل الشقاء الأبدي

لمن خالف ذلك المنهج الرباني، يقول تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ} [هود: 105 - 108]

إن حجم النتائج المصيرية لما يترتب عن اتباع المنهج الإلهي في الدنيا والآخرة، كفيل بتدقيق الإنسان النظر في معالم هذا المنهج من أجل تصحيح تصوراتهِ ومسلكيّاته، وعلاقاته بذاته وبالكون وبخالقه.. وهو ما يكفله له القرآن، الذي يرسم ملامح عامة عن طبيعته ودوافعه، و عن نزعاته وأنماط سلوكياته، في كل أحواله المتضادة إيجاباً وسلباً، في صور مختلفة، ووفق نماذج عديدة، لم تستثن كافرين، أو مؤمنين، أو نبيا، لأن غرض القرآن، هو عرض حقيقة النفس البشرية بكل أنماطها وفي شتى أحوالها.

أول ما يسترعي انتباهنا معرفته عن الإنسان، هو ما ارتبط بأصل خلقته، فقد أخبرنا القرآن أن الإنسان خرج في أصل تكوينه مزوداً بفطرة، وهي التي ذكرها الحق تعالى في قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30]. والفطرة كما جاء في لسان العرب هي : (الخِلقة التي يُخلق عليها المولود في بطن أمه. قال: وقوله تعالى: "الذي فطرني فإنه سيهدين" أي خلقتني)¹. إذن، فالله قد فطر عباده على الاهتداء إليه، فتكون الفطرة هي ما جُبِل عليه الإنسان من إدراك الخالق، واستعداد للخير، وتبدو كأصل ملازم للإنسان منذ تخلّقه وولادته، قبل أن يتأثر بأي تشيئة أو وراثة أو مصدر آخر، كما يؤكد ذلك، الحديث المروي عن رسول الله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه). فالإقرار بالله رباً وخالقاً، أمر جعله الله فطرياً في الإنسان. يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله موضحاً ذلك: (ففطرة الله التي فطر الناس عليها، هي صورة الروح المؤمنة، المجبولة على صفاء الإخلاص لله، بما هو رب العالمين، الخالق وحده لكل شيء،

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (د.م)، (د.ت) مادة فطر.

المستحق وحده للعبادة دون كل شيء)¹. ويرى الأنصاري رحمه الله أن الفطرة لها معاني ممتدة في الإسلام، تبتدى في الأول باعتبارها الهيئة الإيمانية، ثم تتجلى بعد ذلك في هيئة جسمانية ومظاهر جمالية. فهي في الأصل مرتبطة بعالم الغيب، ويتأسس هذا المعنى على قوله سبحانه : {إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: 172 - 174]

يعرف الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله الفطرة بقوله: (الفطرة.. هي ذلك السر الكامن في قلب الروح، إنها الجوهر المكنون للخلق الإنساني، والسر المصون للوجود البشري، فهي أهم اللطائف، ومرجع الأسرار في المعنى الوجودي لحقيقة "الإنسان". بكمالها يكمل مفهوم الإنسان، وبنقصها ينقص معناه، و بانخراطها الكلي يخرج عن طبعه وحده إلى درك المعنى البهيمي لجنس الحيوان !)²

إن فطرية الإيمان كما حددها القرآن، ذات أهمية بالغة في تعامل الإنسان مع ذاته، فهما وتوجيها وتربية، إذ سيدرك بمجرد أن يصيبه العطب وتتعلل فاعليته الاستخلافية وفق المنهج الإلهي. مكن الخل و نوع العمل المطلوب متجها إلى إعادة ترشيد الذات بإزالة الركam الجائم على فطرته، وبعثها لأداء دورها ووظيفتها في الحياة من جديد. فتتحقق التزكية التي هي من وظائف الرسل عليهم السلام. وفي غياب الرسل، يبقى كتاب الله - القرآن - هو الوحيد المؤهل للقيام بهذا الدور. لذلك كان هو النور والهدى والبصائر في حياة المؤمنين به. يقول محمد قطب : (وكما قلنا إن القدرة على النطق كامنة في كيان الطفل ، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها.. فذلك مقدرة الفطرة على الاهتمام لوجود الخالق كامنة في داخلها، ولكن أمورا خارجية توقظها وتحركها وتنميتها..)³

¹ الأنصاري، فريد، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، ص 108

² الأنصاري، فريد، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، ص 106

³ قطب، محمد، دراسات في النفس الإنسانية، ص 216

كما خلق الإنسان مُزودا بإرادة الاختيار بين طريقي الخير والشر، ومزودا بحرية الاختيار كذلك، فقد جعله الله سبحانه قابلا للاهتداء إلى الخير أو الشر، يقول تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 2، 3] ويقول سبحانه مبينا إرادة الإنسان في الاختيار بين الطريقين: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: 7 - 10]. فالإنسان حر مريد ومسؤول عن اختياره وتحمل نتائجه، وقد بين الله تعالى له نتائج كل اختيار يختاره في آيات عديدة منها قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَقَقًا} [الكهف: 29 - 31]. وبذلك تتحدد عناصر تكليف الإنسان بما يمتلكه من إرادة وحرية وقدرة، وهو تكليف في حدود المستطاع والقدرة البشرية، قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة: 286] والإنسان في كل ذلك مسؤول عن اختياراته، يتحمل نتائجها في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: {أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم: 39 - 42]

كما تخبرنا قصة الاستخلاف القرآني للإنسان التي عرضناها سابقا، أن الله تعالى قد خصَّ الإنسان بمميزات تميزه عن غيره من سائر الخلائق كلها، وتجعله أهلا لتلك الخلافة. وقد صرحت الآية بنوعية المؤهل الذي استحق به آدم الاستخلاف، حين رد سبحانه على الملائكة بقوله: {قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ { [البقرة: 30 - 33]

تظهر مدخلية العلم واضحة في كونها مؤهل الاستخلاف. فهذا الإنسان مزود بالقدرة على التعلم، و التطور والتنمية من خلال العلم والتعلم، وهي نعمة عظيمة تستوجب الشكر لله سبحانه، كما دل على ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل: 78] فالإنسان أوتي ما به يدرك عالمه اعتمادا على ما زوده الله تعالى به من حواس إدراكية. مثل السمع والبصر والفؤاد...

ومن جهة أخرى، رصد القرآن خصائص الإنسان في شموله وکلياته بأنماط شخصيته ونزعاته وانفعالاته في هداه وضلاله، ورشده وغيه، وثباته وتخاذله، وفي شتى أحواله. ونقصد بالخصائص هنا تلك الحقائق القرآنية عن طبيعة الإنسان والتي تكشف جوانب هذا الكائن ومدراج تنقله بين "أحسن تقويم" و "أسفل سافلين" كما ورد في سورة التين. واللافت للانتباه، اقتران ورود لفظ الإنسان بصفات سلبية في ارتباط بأصل الخلقة، وبصيغة العموم، مما يدخلها في دائرة الخصائص العامة للإنسان، وينقلها إلى مرتبة الصفة الذاتية الملازمة للإنسان، وذلك بحكم الغلبة فيما يقع من الناس لا بتحققها في أعيانهم جميعا. لذلك نرى ضرورة وأهمية التعرف عليها و التعريف بها، فهذه المعرفة محطة أساسية وضرورية نحو بناء أي فهم لمنهج التنمية الإنسانية القرآنية. فمن هذه الخصائص:

- الضعف: الضعف كما في لسان العرب: خلاف القوة. يقول ابن منظور: (الضَّعْفُ وَالضُّعْفُ خِلَافُ الْقُوَّةِ وَقِيلَ الضُّعْفُ بِالضَمِّ فِي الْجَسَدِ وَالضَّعْفُ بِالْفَتْحِ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَقِيلَ هُمَا مَعًا جَائِزَانِ فِي كُلِّ وَجْهٍ)¹. يقول الله تعالى في واحدة من الآيات الكاشفة للحقائق عن الإنسان أنه مخلوق ضعيف، {وَوُضِعَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 28] ويرتبط وصف الضعف للإنسان في آيات عديدة؛ منها تلك المتحدثة عن أصل خلقتها، فمرة يذكر أنه خلق

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (د.م)، (د.ت) مادة ضعف.

من طين، وهي مادة كانت حجة لإبليس في الاعتراض على السجود لآدم، يقول تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 12]. ومرة كذلك حين يتحدث عن أصل الخلق الإنساني المتسلسل من نقطة، فقال سبحانه:

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: 77]

فهذه الآيات تدل أن الله تعالى، خلق الإنسان ضعيفاً من ناحية أصل الخلقة، والذي يمكن أن يفسر بالضعف الجسدي والعقلي والنفسي، غير أن الآية تبقى على عمومها، ولعل الأقرب إلى تحديد معنى الضعف في الآية السابقة هو ذاك الذي يرتبط بضعف العزيمة و العجز أمام مغالبة الشهوات، وهو المستخلص بالنظر إلى السياق القبلي للآية، حيث يقول سبحانه: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 27، 28]. فالسياق يدل على حاجة الإنسان لتكاليف اليسر التي تراعي ضعف إرادته، و عجزه عن مغالبة الشهوات، التي تعتبر من مصادر ضعفه. وعموماً، فإن شواهد الواقع تدل على أن الإنسان ضعيف جسدياً أمام قوى الطبيعة و بعض مخلوقاتهما، وضعيف أمام مغريات الحياة وشهواتها. وهو ما تؤكد منذ تجربة آدم مع إبليس في الجنة، حين سقط آدم عليه السلام في الغواية، بالرغم من طبيعة الابتلاء التي تبدو ميسرة حين ترتبط الحرمة بشجرة واحدة مقابل كل أشجار الجنة.. وفي إغواء إبليس لآدم وزوجه ما يبرز بعض كامن الضعف عند الإنسان، فهو نزوع إلى الخلود و التملك اللامحدود، {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: 120]، يقول سيد قطب تعليقا على الآية: (لقد لمس في نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحذور)¹

- العجلة:

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص 2354

العجلة في اللغة طلب الشيء قبل أوانه، جاء في الصحاح للجوهري (والعَجَلُ والعَجَلَةُ: خلاف البطء، وقد عَجَلَ بالكسر. ورجل عَجِلٌ وعَجَلٌ، وعَجُولٌ.. والعاجِلُ والعاجِلَةُ: نقيض الآجِلِ والآجِلَةِ. وعاجِلُهُ بذنبه، إذا أخذه به ولم يمهله).¹ ورد وصف القرآن للإنسان بالعجول ارتباطاً بأصل خلقته في قوله تعالى: { خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء: 37] وفي قوله سبحانه: { يُؤَيِّدُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } [الإسراء: 11]. والآيتان معا تشيران إلى أن الإنسان مفطور على الاستعجال. تأكد ذلك في قصة آدم عند الأكل من الشجرة، وفي قصة موسى عندما ذهب قبل موعد ربه له، فعاتبه الحق سبحانه قائلاً: { وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } [طه: 83]، ولما كانت نتيجة عجلته، فتنة قومه من بعده، فقد عاتبهم بدوره بنفس السبب حينما رجع إليهم، كما بين الله تعالى ذلك في سورة الأعراف بقوله: { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ } [الأعراف: 150] جاء في الصحاح، وقوله تعالى: (" أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ بَكْم " أي أَسَبَقْتُمْ)².. وملخص معاني العجلة والاستعجال في القرآن، أنها صفة سلبية يقع فيها كثير من الناس، فهي مرتبطة بالانفعال، وبالتسرع في الأحكام. كما وأنها صفة غير محمودة حتى حين يرى الإنسان أنه يستخدمها فيما هو إيجابي مثل استعجال موسى لقاء ربه، وكذلك في حادث نهى النبي محمد ﷺ عن الاستعجال في ترديد القرآن مع جبريل - عليه السلام - رغبة منه في حفظ كلمات ربه. فقال تعالى: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة: 16 - 19]. فيتبين أن العجلة في الإنسان طبع أصيل فيه، وهو أحد أسباب ضعفه، من هنا نفهم ما يدعو له القرآن في المقابل من التزام الصبر الذي - لأهميته - يجعل له الله تعالى أجراً غير محدد بحساب، يقول سبحانه: { إِنَّمَا يُؤَفِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: 10]

¹ الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990. مادة عجل.

² الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990.

- الهلع والجزع : الهلع والجزع صفتان متلازمتان في القرآن، في قوله تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ } [المعارج: 19 - 22] وهلوعا: صيغة مبالغة تشير إلى شدة الجزع، يقول ابن سيده: (والهلع - شدة الحرص وقلة الصبر)¹ . وأما كلمة جزوعا فهي صيغة مبالغة أيضا، و تشير إلى شدة الضجر. والتوصيفان معا؛ يعبران عن حالة من الحالات النفسية للإنسان يكون فيها متعلقا بالأسباب المادية الظاهرة بعيدا عن الله، فيشج بالمال وينسى فضل المعطي، فيعيش حالة القلق الدائم، الناتج عن ضعف الثقة بالله أو انعدامها بالأساس، مترددا بين الجزع والهلع. يقول سيد قطب في ظلاله عن هذه الآية: (هلوعا.. جزوعا عند مس الشر، يتألم للذعته، ويجزع لوقعه، ويحسب أنه دائم لا كاشف له. ويظن اللحظة الحاضرة سرمدًا مضروبا عليه ويحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به.

فلا يتصور أن هناك فرجا ولا يتوقع من الله تغييرا. ومن ثم يأكله الجزع، ويمزقه الهلع. ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه، ويعلق به رجاءه وأمله.. منوعا للخير إذا قدر عليه. يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره، ويحتجنه لشخصه، ويصبح أسير ما ملك منه، مستعبدا للحرص عليه! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه. ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه، وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به.. فهو هلوع في الحالتين.. هلوع من الشر. هلوع على الخير.. وهي صورة بائسة للإنسان، حين يخلو قلبه من الإيمان.²

- البخل: من أكثر الصفات شيوعا عن الإنسان في القرآن الكريم؛ صفة البخل. وهي ترد بوصف "منوع" وفق الآية السابقة معطوفة على صفتي هلوع وجزوع. ويتمثل البخل في حب الإنسان لجمع المال وخشيته من إنفاقه، أو الحرص على إخفاء النعم التي وهبها الله تعالى له. ويقرر القرآن في آيات واضحة أصالة هذا الوصف في الإنسان، فمنها قوله

¹ ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996، ج1، ص233.

² قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص3699

تعالى: {قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا} [الإسراء: 100]. وقد بين القرآن أن حب المال من الصفات الجبلية في الإنسان، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: 20]، لكنه، دعا بالمقابل، وفي إطار التزامات الإيمان إلى عدم الانجراف وراء هذا الحب الذي يقترب بحب الدنيا عموماً، الأمر الذي قد يأخذ الإنسان بعيداً عن الحدود الواجبة لاستقامة معادلة التوازن التي أرادها الله سبحانه بين الحياتين الدنيا والآخرة. فقد بين القرآن عواقب طغيان الحياة الدنيا على الفرد مقابل الحياة الآخرة. إذ ما أن يمتلك الإنسان مالاً وفيراً يظن أنه يغنيه، أو منصباً اجتماعياً يظن أنه يقويه. حتى تظهر له من نفسه سلوكات تكشف له حقيقة التي لم يكن يعرفها. يقول تعالى مقررًا هذه الحقيقة: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْعَىٰ أَنْ رَأَىٰ اسْتَعْنَىٰ} [العلق: 6، 7]

- الظلم: من أبرز معاني الظلم في القرآن؛ أنه توصيف لمعصية الله تعالى وعدم طاعة أوامره، ففي قصة استخلاف آدم وزوجه، نهاهما الله تعالى عن الأكل من الشجرة المحرمة معتبرا فعل ذلك ظلماً، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 35]

ويرد الظلم في القرآن كذلك بصيغة من صيغ المبالغة أيضاً؛ لتوصيف الإنسان بـ"الظلم"، فيكون مرة مقرونا بتوصيف الجهل كما في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72]، ومقرونا مرة بتوصيف الكفر كما في قوله تعالى {وَاتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 34]. فيكون معنى الظلم هنا كفر نعمة الله تعالى، إذ غالباً ما يقابل القرآن بين شكر النعمة والكفر بها، في مثل قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].. كما يعتبر القرآن الشرك بالله تعالى من أعظم الظلم، وفي ذلك يقول تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]. هكذا، يكون الإنسان ظالماً لنفسه سواء عندما يشرك بالله ولا يخاف عقابه، أو للآخرين حين يعتدي على حقوقهم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا { [النساء: 10] أو عندما يظلم الله تعالى بعدم الثقة في قدرته وما ينبغي لجلاله وكماله.

- الغرور: عَرَفَ الله تعالى بحقيقته للإنسان من خلال أسمائه وصفاته، ومن خلال مظاهر عظمته وآياته في الأنفس والآفاق، كما وعَرَفَ الإنسان أيضا بحقيقته من خلال مثل الأوصاف التي تأتي على ذكرها في هذه الخصائص. وهو ما يعتبر كفيلا بلزوم الإنسان حدوده وواجباته، تجاه نفسه وتجاه خالقه، وحيث هو يخرج عن إطار تلك الحدود؛ فإن الله تعالى يستقهمه استقهما استتكاريا عن سبب غرور هذا الإنسان، كما في قوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ { [الانفطار: 6 - 8]. وقد حذر القرآن أيضا من الاغترار بما يبدو على الكفار من نعم فقال عز وجل: { لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبُنُسَ الْمِهَادِ { [آل عمران: 196، 197]. والغرور، بفتح الغين؛ اسم من أسماء الشيطان. وفي القرآن تحذير من الاغترار بالدنيا ومن الشيطان (الغرور)، قال تعالى: { فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ { [فاطر: 5]

- اليأس:

ورد اليأس في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، كلها بصيغة المبالغة (يؤوس). واليأس في اللغة يعني القنوط وقطع الرجاء في حصول الشيء. وهي حال شعورية يقررها القرآن الكريم من ضمن ما يقرره من حقائق الإنسان النفسية، كاشفا الحالة التي يعتري الإنسان فيها هذا النوع من الشعور. وذلك حين يمسه الشر فيسود قلبه الإحباط والقلق، وتتلاشى ثقته برحمة ربه، كما دل على ذلك قوله تعالى: { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا { [الإسراء: 83] فالآية تقرر أن الإنسان عادة ما لا يلتفت إلى نعم الله، سواء بالمال أو الصحة أو غيرها، فيكون سلوكه هو الإعراض والنأي. فالنعمة لا تحرك الإنسان إلى الله، وإنما يحركه ما يجتاحه من النوائب والآلام والمحن العصبية، والتي كلما كانت شديدة كلما كان لجوؤه إلى الله تعالى أكبر. ومما يؤكد أصالة هذه الصفة في

الإنسان، تكرارها في القرآن بصيغ مختلفة، والأعجب في ذلك، أن الإنسان غالباً ما لا يرعوي بما أنعم الله تعالى عليه من كشف لمصيبتة، أو رفع للأذى عنه، بل يعود لما كان عليه من الإعراض والبعد عن طريق الله.. وذلك ما نجد مصداقه في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَٰ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: 22، 23]. وفي قوله سبحانه: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 65، 66]

لقد بين القرآن أن اليأس نوع من الكفر بالله تعالى، ففي قصة يوسف، يخاطب يعقوب عليه السلام أبناءه الذاهبين للبحث عن أخيهم بقوله: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87] وهو تعبير موح عن قوة العلاقة العكسية بين الإيمان واليأس، والله تعالى يقرر ذلك ضمن ما يقرره من الحقائق النفسية عن الإنسان، تنبيهها له بعدم الوقوع فيها، وعلامة له على مستوى ودرجة إيمانه.

-- الخصومة والجدل: من أكثر الصفات التي ينفرد بها الإنسان عن سائر المخلوقات، صفة الخصومة والجدل. وقد وردت في آيات عدة منها قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [النحل: 4] وقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: 54] فالخصام طبيعته والجدل عادته. يفعل ذلك حين ينسى حقيقته وأصله ومنشأه، لذلك يربط الله تعالى في سياقات قرآنية عديدة بين ما كان عليه الإنسان في الأصل وبين ما صار إليه من الخصام والجدل في آيات الله. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: 77].

هذه بعض الخصائص العامة المشتركة بين الناس، وهي لا تعبر عن حقيقة الإنسان، وإنما تذكر جانبا من هذه الحقيقة، فكلها صفات سلبية عن الإنسان الضعيف الهلوع اليؤوس والكفور... وغيرها مما يدور في دائرة الضعف والنقص والقصور والسلبية.. والحقيقة أن القرآن يريد أن يبلغنا هذه الرسالة عن الإنسان باعتبارها حقيقة، ولكن ليست حقيقة ثابتة. فقد جاءت الرسالات وبعث الأنبياء ليعالجوا هذه النقائص، ويرشدوا الفعل الإنساني نحو ما يصلح حاله في الدنيا ويسعده بالجزاء الحسن في الآخرة.. فالمنهج القرآني يعرض حقيقة الإنسان في أبعادها الشاملة، إذ كما للإنسان نقاط ضعف سلبية، يمتلك بالمقابل ما يؤهله ليكون خليفة في الأرض، وما ما يجعله أهلا لذلك التكريم العلوي الجليل الذي ناله من الحق سبحانه، حين أمر الملائكة بالسجود له. يقول سيد قطب: (وهو - الإنسان - كائن كريم على الله ، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود- على الرغم من كل ما في طبيعته من استعداد للضعف والخطأ، والقصور والتردي - ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة، ولحمل أمانة الاهتداء، وللتبعية، يجعله كائنا فريدا، يستحق تكريم الله له، واختصاصه بمقام الخلافة في الأرض عنه - سبحانه - وقبول توبته، كما يستحق تلك العناية الإلهية به إرسال رسله ورسالاته.. وهو أكرم من كل ما هو مادي، لأن كل ما هو مادي مخلوق له).¹

وفي حديث القرآن عن الإنسان أيضا، لا يمكننا إغفال ظاهرة تركيزه على مفهوم جوهري في هذا الكائن، عليه مدار كل شيء فيه، وهو "القلب". فقد ورد هذا اللفظ في القرآن مفردا 19 مرة و بصيغة الجمع 112 مرة، كما ورد مرة واحدة بصيغة المثني في سياق نفي إمكانية وجود قلبين لإنسان واحد، قال تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب: 4] وهي آية تشير إلى حقيقة أن الإنسان وحدة كلية لا يمكن أن يصدر عنها الشيء ونقيضه، سواء تعلق الأمر بنوع الاعتقاد أو الأفكار أو المشاعر... وقد جعل الله تعالى للإنسان قلبا واحدا ليكون منهجه في الحياة منهجا واحدا، منبثقا من تصور واحد للوجود، فيحيا بموازين وقيم ذات نسق واحد، وحين يحدث أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن

¹قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط4، 1993، ص368

تكون تلك علامة النفاق، وأشد ما يمقت الله أن يقول الإنسان عكس ما يفعل، يقول تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3].

وقد اختلف العلماء قديما وحديثا في المقصود بالقلب الوارد في القرآن، فمنهم من اعتبره العضو المادي في الصدر، ومنهم من قال هو العقل بحكم ما ينسب إليه القرآن من أفعال عقلية كما في قوله تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]. وقد انتهى بنا البحث عن حقيقة مضمون هذا اللفظ في القرآن إلى اختيار تعريف الإمام الغزالي له، حين قال: (لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين: أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الادميين).

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة، أو تعلق المتمكن بالمكان¹.. وهو نفس ماذهب إليه صاحب تفسير المنار، حين قال عن القلب: (وَهُوَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْمُضْغَةِ الصَّنَوْبَرِيَّةِ الشَّكْلِ الَّتِي فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ جَسَدِ الْإِنْسَانِ، إِذَا كَانَ مَوْضُوعُ الْكَلَامِ جَسَدَ الْإِنْسَانِ، وَيُطْلَقُ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَإِدْرَاكِهِ وَعِلْمِهِ وَشُعُورِهِ وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي أَعْمَالِهِ، عَلَى الصِّفَةِ النَّفْسِيَّةِ وَاللَّطِيفَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ الْحُكْمِ فِي أَنْوَاعِ الْمُدْرَكَاتِ،

¹ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت) باب بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء.

وَالشُّعُورُ الْوَجْدَانِي لِلْمُؤَلِّمَاتِ وَالْمُلَائِمَاتِ، أَعْنِي أَنَّهُ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْعَقْلِ، وَبِمَعْنَى الْوَجْدَانِ
الرُّوحِيِّ¹.

إن ما يلفت انتباهنا في حديث القرآن عن الإنسان، آياته المتعددة التي تبرز أهمية القلب ومكانته في الكيان الإنساني، ودوره في إثبات الحقائق وتغييرها عن الإنسان. فلقلب في القرآن منزلة الشرف، ومن أدلة ذلك، إخبار الحق سبحانه بنزول القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ، يقول تعالى: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } [الشعراء: 193، 194]. والقلب يمثل في آيات عديدة حقيقة الإنسان، فهو إما وعاء للإيمان أو وعاء للكفر.. إذ عن طريقه تثبت متعلقات الإنسان أو يتم نفيها، فمن ذلك متعلق الإيمان. إذ لا إيمان لمن لم يثبت الإيمان في قلبه، وقد مر معنا في المطلب السابق، أن الارتباب نوع من الشك المبطل لإيمان صاحبه، يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: 41]. ويقول: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } [آل عمران: 166، 167]. وتعتبر سورة التوبة التي نزلت كاشفة وفاضحة للمنافقين زمن الرسول ﷺ، كاشفة لهاته الفئة من الناس في المجتمع، إذ نجدها حافلة بالحديث عن أحوال قلوبهم، وما يتردها من شك وارتباب، وما يعتمل فيها من حقائق نفوسهم التي لا يظهرونها، وفي ما يلي بعض من تلك الآيات:

¹ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1990، ج9، ص351

{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة: 8]

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 14، 15]

{لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُنْتَقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ } [التوبة: 44 - 46]

{ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ } [التوبة: 64]

{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ } [التوبة: 75 - 77]

{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } [التوبة: 87]

{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[التوبة: 110]

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ } [التوبة: 124، 125]

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } [التوبة: 127]

ولبيان أن القلب هو حقيقة الإنسان وجوهره، نعرض لبعض الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة، فالقلوب هي محل الكسب في الإنسان {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: 225] وهي التي تؤمن فتكون محلا للإيمان ولنزول السكينة {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: 4] وهي محل الابتلاء والتمحيص {وَلِيَبْلِغَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: 154]. وهي مستودع الخير في الإنسان {إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ} [الأنفال: 70]. وكذلك هي محل الطمأنينة في الإنسان {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]. وبالمقابل، يحدثنا القرآن عن عوارض تحدث لهذا القلب، وتؤكد محوريته أيضا في كيان الإنسان، وأن عليه مدار كل شيء، فهو محل تزيين الأعمال {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح: 12]. ومحل القسوة {قَوْلٍ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الزمر: 22]. و المرض من أهم أوصاف القلب في القرآن؛ فالقلوب هي التي تمرض، وهي التي يفترض طلب شفائها حين يتحدث القرآن عن المرض، يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: 8 - 10]. ويذكر القرآن علامات مرضى القلوب، فمنها؛ اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين، فتكون علامة من علامات النفاق التي ذكرها الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: 51، 52] وفي قوله سبحانه: {ذُ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 49]. وكذلك في قوله

تعالى {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: 124، 125] وقد ربط القرآن بين المنافقين ومرض القلب في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: 9 - 13] .. مثل هؤلاء المرتابين من المنافقين يعاقبهم الله عز وجل بالحرمان من التبصر بالحق والهدى ، كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: 52 - 55]

كما يبين لنا القرآن الكريم، أن الإنسان الذي يبلغ في الكفر والنفاق والمعصية حده الأقصى، يعاقب بالطبع والختم على قلبه، فلا يهتدي بنور الإيمان ولا يصل ذلك النور إلى قلبه، فيصير قلبا مختوما ومطبوعا بالكفر، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: 6، 7] وقال سبحانه: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 58، 59].. ولما كان قلب الإنسان هو جوهره، وحقيقة كيانه الوجودي، فإن الختم والطبع وما سبق ذكره مما يعترى القلب هو مصيب لحقيقة الإنسان الكلية. فما لم

يستجيب الإنسان إلى ربه، ويسارع إلى التزام طريقه، طريق العبادة التي تحيا بها القلوب، فقد تقوته فرصة تلك الاستجابة فلا يستطيع إيجادها بعد ذلك، فيطبع على قلبه ويختم له بالكفر، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: 24]. ويبين الله تعالى أن التمادي في النفاق يفضي إلى الطبع على القلوب، فلا يؤمن أصحابها بعد ذلك، قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: 1 - 3] وقال عز من قائل: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: 16]. وقال أيضا: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاْفِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [النحل: 106 - 109]. كما يؤكد الله تعالى أن النفاق يكون عقوبة في قلب صاحبه في قوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة: 75 - 77]

يبرز القرآن بعد ذلك، تجليات مرض القلب ونفاقه في الحياة، فمن ذلك أن يصبح قلبا لاهيا، وهو المذكور في قوله تعالى: {قُتِرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهِيَّةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: 1 - 3] ويصبح هذا القلب مشمننزا من ذكر الله وحده فرحا بغيره، كما في قوله سبحانه: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: 45].. مثل هذا القلب يصبح مغطى عن الحق، لا يصل إليه، وقد ذكر معنى الغطاء في

عبارة الأكنة التي ذكرت في القرآن أربع مرات منها قوله تعالى : {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: 25، 26] وذكر معنى غطاء القلب أيضا في كلمة "غمرة" الواردة في قوله تعالى: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} [المؤمنون: 63].. وفي سياق الحديث القرآني عن بني إسرائيل ذكر ما نسبوه إلى أنفسهم بقولهم : {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: 88]

وقد سمى القرآن الكريم ما يغطي القلب من أحجبة المعصية والإفساد والنفاق، فيغمره عن نفاذ نور الهدى إليه بالران، في قوله تعالى: {كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14] و حذر الله تعالى المؤمنين من التماذي في البعد عن سبيل الاستقامة، فتقسو القلوب عقوبة من الله على ذلك، يقول تعالى: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الحديد: 16، 17].. كما حكى القرآن تجربة قسوة قلوب بني إسرائيل حتى تكون لنا عبرة، فمن ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [البقرة: 74] وبين سبحانه أن قسوة القلوب حائل دون الاهتداء بسنة البلاء في عبادته : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 42، 43]

ولكن بمقابل ما يعترى القلب من اعتراءات سلبية. تجعله مريضاً، قابلاً للغمر، والران، والقسوة.. منتهيا إلى الطبع والختم.. نجد توصيفات أخرى، إيجابية، تتحدث في

القرآن عن القلب السليم الذي يتمتع به المؤمن في الدنيا، فيكون علامة إيمانه ودعوته لرب العالمين، كما هو الشأن بالنسبة لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَتُنْفَكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } [الصافات: 83 - 86]، وكما تتحدث آية أخرى أن نجاة العبد يوم القيامة لا تكون لغير من جاء ربه بقلب سليم، يقول عز وجل: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88، 89]

والقلوب السليمة في الدنيا هي محل التقوى، قال تعالى: {وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج: 32] وهي محل الخشوع { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الحديد: 16، 17] ومحل الطمأنينة قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28] والقلب كذلك هو محل تزيين الإيمان، قال تعالى : وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } [الحجرات: 7] والقلب هو محل الامتحان والابتلاء من الإنسان، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: 3] كما ينسب القرآن إلى القلب الجانب العاقل من الإنسان، وذلك في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج: 46] ويشي الله تعالى على عباده الذين توجل قلوبهم بذكره، يقول سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال: 2] وحين أمر الحق سبحانه بتدبر القرآن، جعل القلب مناط ذلك التدبر فقال سبحانه: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: 24]

كل ذلك يؤكد حقيقة أن القلب هو محور الإنسان وجوهره الأساس.. فكل ما قد يقع من تغيير إيجابي أو سلبي في حياة الإنسان لا بد أن يمر عبر القلب، من هنا نفهم لماذا كان بعض اللغويين ينسبون مسمى القلب إلى كونه موضع التقلب في الإنسان، {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: 110] ومن هنا نفهم أيضا سر ذلك الدعاء الذي كان يقوله الرسول ﷺ: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)¹.

¹ سنن الترمذي، باب مَا جَاءَ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْ الرَّحْمَنِ.

المطلب الثالث: الحياة في القرآن

بعدما أثبتنا في الباب الأول مدى تأثير مفهوم الحياة في التجربة التاريخية للمسلمين بالصبغة الصوفية، التي أظهرت من العلامات الواضحة ما يجعلها بعيدة عن الرؤية القرآنية، فإن عملنا في هذا المطلب، سوف ينحو إلى إعادة تعريف الحياة كما وردت في القرآن الكريم. باعتباره المرجع والمعيار لكل الأقوال والآراء والمذاهب .

يرد لفظ "حياة" في القرآن الكريم بمشتقاته المختلفة 184 مرة، ويرجع أصل الكلمة في اللغة إلى حيي يحيا، ضد مات، جاء في لسان العرب لابن منظور: (حيا) الحَيَاءُ نقيض الموت كُتِبَتْ في المصحف بالواو ليعلم أن الواو بعد الياء في حَدِّ الجمع¹. وجاء في الصحاح: (الحياة: ضد الموت والحَيُّ: ضدُّ المَيِّت. والمَحْيَا مَفْعَلٌ من الحياة. تقول: مَحْيَاي ومماتي)²

و يرد لفظ "الحياة" في القرآن الكريم بدلالات من أبرزها الوجود الذي يقابل العدم، فهي تدل على فترة يعيشها الإنسان على الأرض من الولادة إلى الموت، كما دل على ذلك توجيه الله تعالى لآدم وذريته بعد الخروج من الجنة إلى الأرض فقال: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: 24، 25] وقد جعلها الله تعالى حقا واجبا للإنسان، ولا يحق لأحد أن يسلبه إياها. ويمكن أخذ صورة عن الحياة في القرآن من خلال الوقوف على تمييزه بين الحياتين الدنيا والآخرة، ومفهومه للحياة الطيبة، و حديثه عن سنن الحياة وفي مقدمتها سنة الابتلاء. وفيما يلي تفصيل ذلك.

1- الحياة في القرآن بين الدنيا والآخرة:

وردت مفردة "الحياة" معرفة في القرآن 62 مرة، مقرونة بكلمة "الدنيا" في 60 موضعا منها. وهذا الاقتران بين اللفظين هو اقتران وصف وموصوف. إذ الحياة بوصفها دنيا، تتخذ

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج14، ص211

² الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990، ج1، ص159.

أبعادا مترابطة من حيث المعنى... فهي دنيا في مقابل أخرى باعتبار مرحليتها، إذ تدل على الحياة التي تأتي قبل الحياة الأخرى أو الآخرة، فتتميز بذلك عنها رفعا للخلط واللبس.

وهي دنيا باعتبار مدلول لفظ الدنيا عن الشيء الزهيد المنخفض القيمة مقارنة بآخر وهو المعنى الذي نجده في الآية الكريمة: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: 24]، فجاءت الحياة هنا مضافة للإنسان بلسان المقال وضمير المتكلم المفرد، غير منعوتة، لكن سياق الكلام يجعل التقدير حياتي الحقيقية أو الآخرة، وكأن الحياة الأولى لم تكن في الواقع حياة وإنما الآخرة هي امتداد للأولى بفاصل الموت.

فالدنيا ليست مضمومة في القرآن على الإطلاق. إذ كيف تكون كذلك و يخصصها الله تعالى لاصطفاء عباده {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: 130] وكيف يمتدح عباده الذين يدعونه بأن يؤتيهم حسنة في الدنيا كما الآخرة، وذلك في قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة: 201، 202]. ثم إن الله تعالى جعل الدنيا والآخرة مجالين للتفكر على السواء، فقال سبحانه: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [البقرة: 219-220] ويصف الحق سبحانه المسيح بكونه وجيها في الدنيا والآخرة... كما يقرر القرآن الكريم اشتغال الحياة الدنيا على ما يعتبر زينة المال والبنون من جهة، واشتغالها على الباقيات الصالحات من جهة ثانية، يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: 46]

وحيثما يتحدث القرآن الكريم عن الحياة الدنيا في مقابل الحياة الآخرة يحذر من:

_ الاغترار بالحياة الدنيا و متاعها الزائل {فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ

الْعُرُورُ} [لقمان: 33]

{ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الجاثية: 35]

_ الغفلة عن الدار الآخرة

{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7]

_ الضلال و الكفر في الحياة الدنيا

{الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف:

[104]

_ إثثار الحياة الدنيا على الآخرة

{ فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [النازعات: 37، 38]

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ } [النحل: 107]

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [الأعلى: 16]

و أما المنهج القرآني في تربية النفوس و ترشيد الصلة و العلاقة، و تصحيح فهمنا للحياة فهو ما عبر عنه في الآيات الكريمة :

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: 162]

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: 51]

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: 97]

{قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الأعراف: 32]

و هذا ما فهمته قلوب السحرة بعد إدراك الهدى بيقين لا يخالجه الشك فقالوا :

فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: 72]

فحينما تغلب كفة الحياة الدنيا بكفرها و ضلالها تتعطل الغاية و يقع الخل و تنفصل

الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة. أما عندما تكون الحياة الدنيا برشدها و إيمانها و عملها

الصالح ، يتحقق التوازن و تتحول إلى صراط يمتد ليوصل أهله إلى الحياة الآخرة.

و لعل أبلغ آية تدل على الغاية من الحياة الدنيا، قوله تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...} فهي تدل بشكل جازم لا يدع مجالاً للشك أنها دار سعي أي فعل و حركة و توكل و تدافع... و ضد الضلال الهدى، فالسعي بذلك يجب أن يكون على هدى و نور و بصيرة، لتكون بذلك الحياة الآخرة امتداداً للحياة الدنيا، امتداد آخر لأوله و جزاء لعمله و نتائج بأسبابها. أما القرآن الكريم، فقد عبر عن الحياة الحقيقية - الحياة الآخرة - بقوله: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 64]. قال ابن منظور: (وفي التنزيل وإن الدار الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ أي دار الحياة الدائمة)¹. لكن الحياة في تلك الدار مسبوقة بحياة أولى؛ هي حياة الإنسان الدنيا.

و اقتضت حكمة الله و مشيئته سبحانه أن تكون الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، و أن يكون الثواب فيها موصولاً بثواب الآخرة، يقول تعالى: { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: 148]

و قد خص الله تعالى أوليائه بالبشرى في الحياة الدنيا كما في الآخرة. قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: 62 - 64]

فأين مكن الخلل في استيعاب مثل هذا التصور الواضح الجلي عن الحياتين الدنيا و الأخرى في القرآن الكريم؟

إن الأمر واضح بالنسبة لمن للمخالفين لمنهج القرآن ممن لا يؤمنون بالله، فهم ينكرون حياة ما بعد الموت يقول الله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: 24]. أما المسلم المؤمن بربه و بمنهجه في الحياة، فتختل موازينه حين يسيء فهم المعادلة القرآنية للحياتين، و ذلك حين يقع في تطرف الاختيار و التغليب الأحادي بينهما، فإما يدعي أن الإسلام يلغي الحياة الدنيا، كما فعل غلاة المتصوفة في قضيتي العزلة و الفناء. و يتناقض في ذلك مع سنة الله في الوجود و مبدأ الاستخلاف

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (حيا) ج 14، ص 211

الإنساني. و إما ينحرف إلى اختيار التصور الكفري بشكل لا واع، و هو في الحالتين، يتناقض مع التوجيه القرآني القائم على ترجيح ميزان الحياة الآخرة على الحياة الدنيا دون أن يعني ذلك إلغائها أو استبعادها. فلإنسان في الحياة الدنيا أن يستمتع بطيبات الرزق الحلال كما في قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 31 - 33]. و له أن يملك فيها؛ فقد أخبر القرآن بما آتاه الله سبحانه لبعض الأنبياء من الملك، و ذكر أن سليمان عليه السلام طلب ملكا لا ينبغي لأحد من بعده و أن يوسف عليه السلام طلب الولاية على خزائن الأرض... كما ذكر القرآن قصة قارون، و ما آتاه الحق سبحانه من الأملاك العظيمة. و بين أن المشكلة لم تكن في مقدار ما يملك، و إنما كانت في تصويره عن المال الذي انعكس في سلوكه، فعقّب القرآن بالتوجيه اللازم الذي كان ينبغي اعتماده، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصاص: 76، 77]

2- الحياة الطيبة في القرآن:

تحدث القرآن أيضا، عن مستوى آخر من الحياة، يتجاوز معنى الحياة البيولوجية إلى معنى أسمى و أرقى، يكون فيه الإنسان موصوفا بالحياة ما دام متبعا لمنهج الله في حياته، لأن ذلك المنهج هو السبيل إلى إحياء الإنسان حياة نوعية، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24]

ويتأكد هذا المعنى في قوله عز وجل: {أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122]. فالإنسان المؤمن المدرك لحقيقة الحياة وغاية الخلق، قلبه ينبض بمعنى الوجود، فتسري الحياة في عروقه ويتمثل الإيمان في أقواله وأفعاله وسلوكه، فيكون من زمرة الأحياء. وأما الإنسان الذي ضل عن معنى وجوده، فقد أظلم قلبه وتبدل حسه فمثله كمثل الميت لا يهتدي، فيلحقه كفره بزمرة الأموات وإن كان معدودا على الأحياء....

إن هذه الحقيقة القرآنية عن الحياة من أخطر الحقائق التي يمكن أن تلقى في روح الإنسان فيستشعر ضخامتها وثقلها، حين يدرك أن ظلمات الجهل والكفر، تعبير عن الموت الحقيقي للإنسان ما لم يعمل على إحياء نفسه بالإيمان وبنور القرآن، حتى يكون حيا حقيقة لا حكما. والإنسان الحي بالمفهوم القرآني إما يعيش حياة الإيمان بالله وعلى منهجه، وإما هو باحث عن هذا النوع من الإيمان مستعد بفطرته للالتزام الحق واتباعه، فتتطبق عليه صفة الحياة الحقيقية.

وهذه الحياة الإيمانية هي التي يعبر عنها القرآن بالحياة الطيبة. قال عز وجل : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: 97]. يقول القاسمي في محاسن التأويل: (وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء. وعشق الروح مما كانوا يستعبدون له.

والاستكانة إلى معبود واحد. والتتور بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها. هذا في الدنيا. وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى)¹. ولأهمية هذا النوع من الحياة استعمل القرآن أسلوبا والتوكيد مرتين في كل من لفظي الإحياء والجزاء، "فلنحيينه"، و "لنجزينهم" كما يلفت النظر في الآية الكريمة البدء بخطاب الفرد ، والانتهاى بخطاب الجماعة ، وهو الأسلوب الذي يستخدمه القرآن للتأكيد على أن

¹ القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ، ج6، ص407.

التغيير الجماعي أو المجتمعي ، لا يتأتى إلا من خلال آلية تغيير الأفراد . فما الحياة الطيبة ؟ وهل هي حياة الترف والتملك ؟

إن الإيمان بالله والعمل الصالح صنوان لا يفترقان، وهما أساس ما يمكن تحقيقه من الحياة الطيبة، يقول سيد قطب رحمه الله: (العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض. لا يهم أن تكون ناعمة رغبة ثرية بالمال. فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه. وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب. وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.. وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله).¹

وإذن، فلا تلازم للحياة الطيبة بمستوى الرغد المادي كما يعتقد الكثيرون، وإنما يخضع الأمر لسنة الابتلاء العامة في الحياة وما يعتملها من اختبارات وفتن. وهكذا تصبح مسألة الغنى والترف مسألة اختبارية في القرآن وليست تعبيراً عن فضل ما للإنسان.. يحدث ذلك للكافر والمؤمن على السواء.. فبالنسبة للأول، يقول تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ} [المؤمنون: 33، 34] وأما بالنسبة للمؤمن؛ فالعطاء الإلهي، يتحول بدوره إلى فتنة في سلسلة من الفتن التي تؤكد طبيعة الحياة الدنيا التي هو فيها وما ينبغي عليه فعله لاجتياز ابتلاءاته وفتنته، يقول سبحانه في ذلك: {وَأَلِّوْا اسْتِقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن: 16، 17]

¹ قطب ، سيد، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2193

بالنظر إلى ما ذكره القرآن عن ضعف الإنسان وهلهه وحبه الفطري للمال كما رأينا في مطلب التعريف بالإنسان من جهة، وبالنظر إلى طبيعة الحياة القائمة على الابتلاء والفتن من جهة ثانية.

فالقرآن الكريم يتحدث عن طبيعة الحياة باعتبارها قائمة على الابتلاء في الدنيا، ابتداء بما أخبرت به بعض الآيات عن هذا الأمر - بشكل مباشر - مثل قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [المك: 2]. وقوله سبحانه: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الكهف: 7] ، أو من خلال ما يمكن استخلاصه من عرض القرآن لقصة آدم ضمن سياقات قرآنية متعددة لذلك المشهد الذي تقرر فيه أن يكون الإنسان خليفة، وأن يختبر بالأكل من كل ما شاء من شجر الجنة باستثناء واحدة محرمة، فيفشل في الاختبار كما أخبر بذلك الحق سبحانه في قوله : {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة: 35، 36]. وقد توقف الشهيد سيد قطب رحمه الله عند هذه القصة؛ ليخرج منها بفوائد تخص غائية الابتلاء في قصة الاستخلاف الإنساني في الأرض، يقول في ذلك : (لقد قال الله تعالى للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» .. وإن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى. ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟

لعلني المح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً. كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين.

إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحو من بعد السكر، والندم وطلب المغفرة.. إنها هي تجربة البشرية المتجددة

المكرورة! لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً..¹

3- سنن الحياة في القرآن:

يكتمل لدينا من خلال تجربة آدم التي عرضناها آنفاً؛ عناصر التصور القرآني للحياة، والتي يمكن تلخيصها في الأمرين الآتين:

- الأمر الأول: الحياة الدنيا بمواصفاتها المعهودة؛ جعلها الله تعالى فتنة وابتلاء للإنسان. كما بينت ذلك الآيات الأولى من سورة الملك، مشيرة إلى طبيعة الحياة ومقصدها العام، قال تعالى: {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: 2]

- الأمر الثاني: أن الله تعالى هياً الحياة الدنيا بما يجعلها ملائمة لهذا الدور - الابتلاء - والذي يتطلب جهداً ومصابرة، يقول تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: 7]. فالأرض التي أرادها الله تعالى مقراً - مرحلياً - لحياة الإنسان في الدنيا، جعلها مزينة مزدانة بكل ما عليها من فتن، معدة للإغراء بزينتها وجمالها، حيث الإنسان الضعيف الهلوع المفطور على حب الشهوات.. ضائع في هذه الفتن لا محالة ما لم يعتصم بحبل الله. فالموقف إذن موقف تجربة وابتلاء "لنبلوهم" وهو قائم مادامت الحياة قائمة، وغاية الابتلاء إظهار أحسن العمل، الذي به تزكو النفس وتترقى في معراج الإيمان، الذي يتعزز بدوره من خلال الثبات في المواقف العصيبة في الحياة. والابتلاء الأهم في حياة الإنسان هو ابتلاء الإيمان، والذي يعبر عنه بالفتنة في قوله تعالى: {أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 2، 3]. فسنة الابتلاء سنة إلهية قائمة وماضية في ترقية الإنسان بصدق استجابته {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 3] وبه تنكشف حقيقة النفس لصاحبها قبل كل شيء، فحين يقول الله سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: 31] لا يقصد أنه لا

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص59

يعلمها هو - حاشاه - فهو العالم العليم بما كان وما يكون وما هو كائن. لكن العلم المقصود هنا، علم ظهور حقيقة النفوس لأصحابها في ابتلاء الجهاد القتالي، وهو ابتلاء جزئي من ضمن الابتلاء العام الذي ذكرته مقدمة سورة العنكبوت. والتي تتحدث كما رأينا عن مفهوم الفتنة؛ المجاور لمفهوم الابتلاء في القرآن. فما الفرق بينهما؟

يعتبر اللغويون أن الابتلاء لفظ مأخوذ من مادة (ب ل و) التي تدل على نوع من الاختبار. وأما الفتنة في اللغة فمأخوذة من (ف ت ن) التي ترجع في أصلها إلى إحراق الشيء بالنار لتظهر جودته من رداءته. ويبدو لي أن الفرق بينها متعلق بالدرجة، فالفتنة تكون أشد من الابتلاء، يؤشر على ذلك أنه إذا كان الابتلاء سنة متداولة ومستمرة، فإن الفتنة لا تكون إلا مرة أو مرتين في العام كما جاء في قوله تعالى: { أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ } [التوبة: 126]. ويؤكد ذلك الفارق في المستوى بينهما، تصريح القرآن في توصيف اجتماع البلاء بالخير والشر بالفتنة فقال سبحانه: { وَنَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء: 35] والابتلاء والفتن، سنة ماضية في الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، إذ الابتلاء يكون لتمحيص المؤمنين، كما في قوله تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة، 155-157]. وفي قوله سبحانه: { لَنَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [آل عمران: 186]. ويكون الابتلاء لغير المؤمنين، بل يجعل ابتلاء المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين، يقول سبحانه: { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ } [محمد: 4]

والغرض من تبين طبيعة الحياة في القرآن، وأنها قائمة على الابتلاءات والفتن، كشف حقائق الإنسان لنفسه وتبين مستوى إيمانه وترقيته إلى حال إيمانية أرقى، و لمستويات أفضل من الجزاء الذي أعده الله تعالى للإنسان في حياته الباقية.. إلى غير ذلك من

المقاصد الإلهية العظيمة في هذا الشأن. مما يكون له الأثر الحاسم في قرار الترجيح بين الحياتين؛ الدنيا والآخرة. بما يفضي إلى أن يكون سعيه في الحياة الدنيا موصولاً ببوصلة الحياة الآخرة، فيتحقق له الفلاح المرجو.

إذن، هناك وجهة لهذه الحياة محددة في الآخرة، وطبيعة لهذه الحياة الدنيا محددة في الابتلاء، والإنسان وُجد فيها ليكون خليفة، ويؤدي أمانة الاستخلاف، مع ما يستحقه ذلك من جد والتزام بمقتضيات الإيمان والاستخلاف قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115] فليس هناك عبث، وإنما ببوصلة الرجوع إلى الله تحدد طبيعة السير في الحياة الدنيا، وأن يكون على استقامة، فأسوأ النتائج، أن يصل الإنسان إلى مالم يكن يريد أو يسعى إليه في حياته الدنيا. فقد حذرنا الله تعالى من إجراء مقايضة خاسرة، يضل فيها سعينا في الدنيا، فنخسر يوم لقائه ذلك الخسران المبين الذي ذكره سبحانه في أواخر سورة الكهف: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا} [الكهف: 103 - 106] فمن أجل هذا الامتحان، ومن أجل هذا الموقف العظيم، ركزت آيات قرآنية عديدة على بيان الفارق الجوهرى الكبير بين الحياتين الدنيا والآخرة. فدعت إلى عدم الاغترار بالحياة الدنيا وبمظاهرها، في مثل قوله سبحانه: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [لقمان: 33]. وقول عز من قائل: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: 79، 80]. وبَيَّنَّتِ السبيل إلى مجانبة فتن الدنيا، وسبل الاستقواء عليها، باليقين في الله والصلاة والاصطبار، فقال تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 131، 132]. كما بيَّنت كيف ينبغي إقامة العلاقات اجتماعيا

بناء على هذا المرتكز الأساس لتصور الحياة، وفي ذلك يقول سبحانه: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [النجم: 29، 30]

وقد زودنا القرآن ببعض السنن التي تساعدنا على النجاح في الابتلاء، ومن ثم؛ النجاح في الحياة.

والسنن في اللغة جمع سنة، وتعني الطريقة حسنة كانت أم قبيحة. وفي القرآن الكريم، ترد السنة بمعنى طريقة الله تعالى في معاملة عباده، حيث جعلها محكومة بسنن مطردة وعامة لا تتبدل ولا تتغير، قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 62] وقال سبحانه: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: 43].

ويعتبر القصص القرآني الذي يشكل ثلاثة أرباع القرآن مصدرا ثريا لتلك السنن، في الأنفس والآفاق، بما تضمه من عبر تخص حيوات الأفراد والجماعات والأمم.. وللأسف حال التفسير التجزيئي لآيات القرآن دون الاستفادة من بناء وعي سنني في الحياة الفردية و الجماعية. كما يعتبر الابتلاء والتمحيص محور هذه السنن وركيزتها الأساس، فكل السنن القرآنية تهدف إلى نوع من الابتلاء الذي يتغيا الرجوع إلى طريق الله والحذر من التمادي في الغفلة، كما تؤكد النصوص الآتية:

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ} [الأعراف: 94]

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 130]
{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه: 113]

{وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} [السجدة: 21، 22]

وهكذا يتبين، أن غاية امتحان الله تعالى للإنسان بسننه الرجوع إلى طريقه ومنهجه، إذ تعتبر سنن الله من الآيات التي يذكر بها عباده حتى يرجعوا إلى طريق الاستقامة المكلفون بالسير عليها ابتداءً.

ولأهمية السنن في القرآن الكريم، نجد الله تعالى يربي من خلالها الجماعة الإسلامية الأولى، تربية حية، بالمواقف والأحداث العملية، ثم يتحول ذلك التعليم والتوجيه العملي الواقعي إلى درس قرآني لكل الأجيال اللاحقة، مثال ذلك حادثة الهزيمة في معركة أحد، وكيف تعامل القرآن معها

وهي التي تم تسجيلها قرآنيًا في قوله سبحانه: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران: 137 - 140]

يعلّمنا القرآن الكريم من خلال هذه الآيات أن سنن الله جارية وماضية، في الأولين وفي زمن الرسول ﷺ وستبقى ثابتة وقائمة في حياة الإنسان، فقد كان القرآن ينزل مخبرًا عن قصص السابقين لأخذ العبر منها، ومواكبًا لما يجري من أحداث مواكبة تفاعلية توجه وترشد المؤمنين في مواقف الحياة وأحداثها. وترسخ بهذا المنهج سنن الله الثابتة التي لا تحابي أحدا. ففي غزوة بدر وقعت الهزيمة بالمسلمين، فلربما ظنوا أنهم بعد انتصارهم في معركة بدر في تلك الظروف المعروفة سيجعلهم المنتصرين دائما وأبدا لانتمائهم الإيماني أو غير ذلك، ولكن الله تعالى علمهم الدرس وهم في المعترك، يقول سيد قطب : (لقد أصاب المسلمين القرع في هذه الغزوة، وأصابهم القتل والهزيمة. أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير. قتل منهم سبعون صاحبياً، وكسرت رباعية الرسول - ﷺ - وشج وجهه، وأرهمقه المشركون، وأثخن أصحابه بالجراح.. وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر، حتى لقال المسلمون حين

أصابهم ما أصابهم: «أَنْتَى هَذَا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟! والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول.

والسنن التي يشير إليها السياق هنا، ويوجه أبصارهم إليها هي:

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ. ومداولة الأيام بين الناس. والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين. وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال، والمواساة في الشدة، والتأسية على القرح، الذي لم يصبهم وحدهم، إنما أصاب أعدائهم كذلك، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدياً، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة بعد لهم، والدائرة على الكافرين. «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» ..

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.¹

نقلنا هذا النص بطوله لبيان مقدار و أهمية ترشيد حياتنا بالسنن القرآنية - وقد صار جلياً أن سنن الله تعالى منظومة متكاملة تشكل نسقاً عاماً في الخلق والتسخير والاستخلاف، الأمر الذي لا يمكننا استيفائه في هذا الإطار البحثي، غير أننا وارتباطاً بموضوع الحياة

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ص478-479

يمكن أن نقترح مثالا لما يمكن أن تشكل فكرة القراءة الشبكية للسنن ذات الموضوع الواحد من وعي سنني نسقي؛ وإن كان جزئيا إلا أننا بينا في المبحث الأول من هذا الفصل أهمية المدخل الموضوعي، ثم مدخل السورة. وفيما يلي مثال تطبيقي للأول، على أمل تقديم مثل تطبيقي للثاني في المبحث الأخير من هذا الفصل، حين نعرض لنماذج من السور القرآنية، يتبين من خلالها تكامل الموضوعات القرآنية وتنوع أساليبها ضمن وحدة السورة..

تتشابك موضوعات عدة وتتكامل في تقديم صورة واضحة عن سنن الحياة في القرآن الكريم. فلم يرد الله تعالى ابتداء أن يكون علمنا بالحياة قاصرا، فيقف عند حدود الظاهر منها، { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم: 7] . وقد عرضنا لطرف من تلك الموضوعات حين تحدثنا عن الحياة الدنيا والآخرة والحياة الطيبة، وقد أخذنا في ذلك التصورات الأساسية في الموضوع .. وفي ما يلي استكمال لما يمكن اعتباره سننا فرعية مكملة لمعنى الحياة في القرآن، فمنها:

- سنة تغيير النعم:

جاء في مختار الصحاح أن : (النِّعْمَةُ الْيَدُ وَالصَّنِيعَةُ وَالْمَنَّةُ وَمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ. وكذا النُّعْمَى فَإِنْ فَتَحْتَ النُّونَ مَدَدْتَ فَقُلْتَ النُّعْمَاءُ. وَالنَّعِيمُ مِثْلُهُ. وَفُلَانٌ وَاسِعَ النِّعْمَةِ أَيْ وَاسِعُ الْمَالِ)¹

والنعم في القرآن ذكرت في سياقات متعددة، استخلص منها ابن الجوزي رحمه الله عشرة أوجه، ملخصها العام أن : (النعمة ما يحصل للإنسان به التمتع في العيش)² وأما تغيير النعم في آيتين من القرآن الكريم، الأولى في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: 53]، والثانية في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]

¹ الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999، ص278.
² ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الرازي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص597

والآيتان معا؛ تبينان حكم الله تعالى النافذ بثبات نعمه التي أنعمها على عبده، وعدم تغييرها ما لم يغير هو ما بنفسه. ذكر الإمام الشنقيطي في الآيتين: (ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبٍ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .. وَقَوْلِهِ: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .. وَقَوْلِهِ: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ .. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ).¹

يترتب عن ذلك، أن المؤمن إذا وجد تغييرا ما في حياته فقد بموجبه نعماً مادية أو معنوية، فق دل ذلك على شيء فعله اعتقاداً أو سلوكاً.. وهو نوع من المثير أو المحفز الذي يدفع المرء إلى التساؤل والمراجعة لما فعل، فيكون على أهبة اليقظة والمراقبة الدائمة، وهو ما يعزز الصلة الإيمانية ويقويها بينه وبين خالقه تعالى.

توقياً لأي تغيير سلبي في النعم التي منحها الله تعالى لعباده، يوجه القرآن إلى شكر النعم، ويعتبر في آيات عديدة أن المقابل لشكر النعم هو الكفر بها، فمن ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7] وهي سنة أخرى من السنن القرآنية التي ترتب على شكر النعم المزيد منها.. فيكون شكر النعم تحصين لها ووقاية من النزول إلى مستوى الابتلاء بتغيير النعم.

– سنة الرزق بين التزكية والطغيان:

يُعرَف الله تعالى عباده باسمه الرزاق، فهو صاحب الرزق والفضل، يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58] ثم يدعو عباده إلى الاسترزاق منه: {قَابِئُغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ} [العنكبوت: 17] ثم يبين معادلة الرزق والتقوى في قوله سبحانه: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3] كما يربط بين الاستغفار

¹ الشنقيطي، أضواء البيان، ج2، ص104

وبعض أنواع الرزق في قوله عز وجل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3]. من جهة أخرى؛ يبين الله تعالى طبيعة الإنسان في التصرف مع المال، فهو يحب المال حبا شديدا جبلة، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: 20] وقال سبحانه: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: 8].. ومن هنا نفهم، إلحاح التوجيه الرباني على الإنفاق من المال، وجوبا (الزكاة) وتطوعا، فالإنفاق يكاد يكون من أكثر التوجيهات القرآنية لعباد الله المؤمنين، فهو نوع من التطهير والتركية لهم، كما في قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: 103] ولذلك كان الجهاد بالمال من أرقى أنواع الجهاد وتعبيرا عن الرسوخ في الإيمان. ولكن حين يتشبث العبد بجللته في حب المال، يفقد عظمة هذا الدرس ودوره في صياغة الإنسان وتجديد إيمانه. ومن لم يأخذ بسنة الإنفاق تطهيرا وتركية، سقط في سنة الطغيان {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ} [العلق: 6، 7]. وكأن الآية توحى بأن هذا هو التصرف الطبيعي للإنسان - بحكم الجبلة - ما لم يرتقي عنه بالإيمان المثمر للعمل الصالح. وقد زود الله تعالى المؤمن ضمن منظومة المفاهيم القرآنية بما يؤهله لصعود ذلك المرتقى الإيماني. فالرزق قليلا أو كثيرا، لدى الإنسان محكوم بسنة الابتلاء ولا دليل فيه على القرب من الله تعالى، والأمر الأخير محدد أساسي بالنسبة للمؤمن، فالله تعالى يقول: {كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: 20]. ثم يصحح الله تعالى ما قد يتوهمه البعض من وجود علاقة بين امتلاك مستوى من الرزق والدرجة عنده سبحانه فيقول: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا} [الفجر: 15 - 17]. لقد بين الله تعالى أن الحكمة من تفاوت الناس في أرزاقهم هي تسخير بعضهم لبعض، فقال سبحانه: {أَلَمْ يَقْسِمُوا رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32]

ثم إن الآية التي تجعل الإنسان مكلفا بالسعي إلى كسب الرزق، تؤكد له أيضا أنه رزق الله، فلا يتعلق بالأسباب فقط، وإنما يبقى تعلقه بخالق الأسباب، ويسعى في طلب الرزق امتثالاً وطاعة له. {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [المك: 15] وهذا التصور الذي تنشئه هذه الآية لوحده كفيل بتشديد حقائق ضخمة في حياة الإنسان، تنعكس إيجاباً في حياته العملية. مع ذاته ومع الآخرين.

إن تأكيد القرآن الكريم على الدعوة إلى الإنفاق باستمرار هو تأكيد على ما فيه مصلحة الإنسان، وهو أمر لا تدركه العقول المادية اليوم لدى قطاع عريض من المسلمين، فكم من الأموال تنفق من الأغنياء على أمراض نفسية وعصبية دون جدوى. وقد أهملت الوصفة القرآنية في الإنفاق الجالب للتطهير والتزكية بما بقي من شر تلك الأمراض، ويفيض على النفس الفرح بالعطاء ومتعة إسعاد المحتاج. مع مراعاة سنة التوازن، قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء: 29، 30]. وسنة التوازن من سنن الحياة التي تستوعب ما هو أشمل من موضوع الرزق والإنفاق، وهو ما سنتعرف عليه في الفقرة الموالية.

– سنة التوازن

تظهر خاصية التوازن في المنهج القرآني باعتبار عدة؛ لعل أبرزها ذلك التوازن الذي يحدثه هذا المنهج في الفطرة البشرية بين ما يزودها به من عالم الغيب، وبين ما يدعوها إلى إدراكه والبحث فيه في عالم الشهادة. يقول سيد قطب رحمه الله: (والفطرة البشرية تستريح لهذا ولهذا، لأن كليهما يلبي فيها جانباً أصيلاً، مودعاً فيها وهي تخرج من يد بارئها. وقد علم الله أن الإدراك البشري لن يتسع لكل أسرار هذا الوجود، ولن يقوى على إدراكها كلها، فأودع فطرته الارتياح للمجهول، والارتياح للمعلوم، والتوازن بين هذا وذاك في كيانه، كالتوازن بين هذا وذاك في صميم الوجود)¹

¹ قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، ط 15، 2002، ص 119

وكذلك التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية.. وتفيد هذه الخاصية المسلم في إحداث التوازن بين سعيه لاكتشاف حقائق الكون وسننه في الحياة، اعتمادا على الأخذ بالأسباب والعمل وفق السنن التي أودعها الله تعالى في الكون.. إلا أنه لا يربط الأسباب بالمسببات بل بخالفهما معا. وهو بهذا الاتزان يبقى موصول القلب بالله تعالى، دائم التطلع إليه رجاء وخوفا، وحبا وأنسا لمن بيده القلوب، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: 24]

كما يكون التوازن من أهم خصائص المنهج القرآني باعتباره معيارا أساسيا في التعامل مع أمري المادة والروح؛ ومن ثم، بين الدنيا والآخرة. ذلك المزلق الخطير الذي أودى بحضارات إلى الهلاك حينما اعتمدت بعدا أحاديا في تكوين الإنسان؛ فنزعت مرة إلى الروحانية، وأخرى إلى المادية. في حين أقام المنهج القرآني التوازن بينهما حين قرر الوزن الحقيقي لكل من الدنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى: {اَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 77]

وانتقالا من الصورة الكلية للتوازن في القرآن، إلى تفاصيل الحياة اليومية نجد للتوازن نماذج متعددة في تفاصيل الحياة اليومية، فهناك توازن في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67]. وكذلك التوازن في أداء الشعائر التعبدية في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْقَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 9 - 11]. وتصل درجة العناية بالتوازن في حياة الإنسان إلى أدق تفاصيل حياته المتعلقة بالأكل والشرب، فقد وجه الله تعالى إلى عدم الإسراف فيهما

ضمانة للعافية ودوام الصحة، فقال سبحانه: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: 31]

وبعد، فهذه مجرد إشارات لبعض السنن المرتبطة بمفهوم الحياة في القرآن، وهي كذلك مرتبطة بباقي مكونات الرؤية الكونية، وتتكامل بينها داخل النص القرآني لتشكّل نسقاً منظومياً فريداً، لا يمكن فصل بعض عناصره عن بعض باعتباره نسقاً عضوياً وظيفياً. وما قدم من أمثلة أمّلت منهجية إجرائية قاصرة، لكننا نروم من خلالها إلى بعث قضي الوعي السنني، والتنبيه إلى أهميتها وخطورة التغافل عنها، وما يترتب عن ذلك، و مقصودنا انتهاء هو تقريب القرآن إلينا واستعادته في حياتنا عبر إعادة الالتحام المباشر به لأنه هو المنهج ذاته، بترتيبه، وأسلوبه وطرائق عرض حقائقه. لذلك يحسن بنا أن نختم موضوع سنن الابتلاء في الحياة من خلال القرآن بكلام لسيد قطب يقول فيه: (كان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه، يصور الأحداث، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه، فتتكشف المواقف والمشاعر، والنوايا والضمائر. ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور، عارية من كل رداء وستار؛ ويلمس فيها مواضع التأثير والاستجابة؛ ويرببها يوماً بعد يوم، وحادثاً بعد حادث؛ ويرتب تأثيراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد).

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن، يتنزل بالأوامر والنواهي، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة؛ إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات؛ فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة، ولا تتضح نضجاً صحيحاً، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر في القلوب، وتنقش في الأعصاب؛ وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث. أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالاته؛ وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطرق، مطاوعة للصياغة!)¹

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص49

المطلب الرابع: الكون في الرؤية القرآنية

الكون في الرؤية القرآنية آية من آيات الله الكبرى، و معرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول. و القرآن الكريم لا ينفك يدعو الانسان الى التأمل في آيات الله في الكون بعين بصيرته، حين يألف البصر الرؤية و يعتادها فتتعطل حواسه عن إدراك سر وجوده و تتلبد مشاعره. و بأسلوبه الساحر يخرج الانسان من تجمد العادة الى تجدد الرؤية و التأمل للنظر في كتاب الكون، ومن ذلك ما جاء في الآيات الآتية:

- {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: 164]

- {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام: 95 - 99]

- {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا } [النبا: 6 - 16]

إن غاية القرآن الكريم من هذه الآيات هي لفت إنتباه الإنسان الغافل الى طبيعة علاقته بهذا الكون الشاسع المتنوع المتجدد المعطاء..و ودعوته إلى الانتفاع بما سخر له في الكون، لأنه من أجل الإنسان، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: 29]

ولا يتأتى للإنسان تسخير قوى الكون إلا بقراءة السنن و القوانين الكونية مدركا المفاتيح و آليات التسخير .

لقد خلق الله الكون مسخرا للإنسان و إدراك أدوات العلم تجعل القراءة أشد وضوحا و أكثر شفافية فيثق الإنسان في قدراته التي تؤهله لحسن استغلال هذا الكون و الانتفاع بعناصره و مكوناته لتسيير حياة الإنسان و تيسير مهمته في الأرض المتمثلة في البناء والعمارة و العبودية.

إن إطلاق العنان للحواس وتسخير أدوات العلم في النظر الى الكون وسبر أغواره وتعرّف قوانينه يجعل الإنسان يستشعر العلاقة بين الأسباب والنتائج وبين الأفعال والغايات، وبين العلوم وثمراتها ، يقول ماجد الكيلاني: (ولا زالت الشعوب والعناصر البشرية التي لا تحسن تسخير الكون واكتشاف قوانينه فريسة التخلف والمرض والجهل بينما الشعوب التي احسنت مخاطبة الكون باللغة التي يستجيب لها لغة القانون تحيط قحط الصحاري الى خصب وحرها إلى برودة ، وصقيع المناطق المتجمدة الى دفء وعمران .. وتركب الفضاء وتعبّر المحيطات وتخترق الجبال وتروض مظاهر الكون العاتية وتضاعف الدخل وتوفر الصحة والرخاء وتطور سائر مظاهر الحضارة والتكنولوجيا المتقدمة)¹

وبهذا، يشهد الإنسان دقة خلق الكائنات وقوانين وجودها، وتقلب أحوالها، ومن خلال ذلك. يتحقق من عظمة التربية الإلهية لعوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد فيقوده كل ذلك إلى اليقين في قدرة الله وإحاطته بكل شيء فيستمد من ذلك قيم التعظيم والشكر

¹ الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، ص 136

والاطمئنان والإحسان والجد والسعة، قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53]

يقول سيد قطب: (المنهج القرآني لا يفرد فصلا مستقلا لتصوير " حقيقة الكون"، فكل ما ورد عن هذه الحقيقة إنما جاء في سياق تقرير " حقيقة الألوهية" - وكذلك الشأن في " حقيقة الحياة" وحقيقة الإنسان" - فكلها جاءت في سياق "حقيقة الألوهية" وآيات الله في الأنفس والآفاق)¹

ويضيف قائلا: (وهو كون مقدر مدبر، ومسخر مسير.. إن كل شيء فيه مخلوق بمقدار . وكل شيء مخلوق بحكمة، ومخلوق لغاية. وإن كل شيء فيه محسوب بحساب ليؤدي وظيفته، ويحقق الغاية من خلقه. كذلك كل حركة فيه محسوبة بحساب دقيق، وموزونة بميزان لا يخطئ. كذلك هو مسخر مسير بأمر الله في الكبيرة والصغيرة. وكل حركة فيه موجهة ومتحققة بقدر من الله خاص، لحكمة خاصة، وغاية معلومة.. إنه لم ينشأ عبثا ولم يترك سدى، وهو لا يخضع في حركاته وظواهره لحتمية آلية، ولكنه يخضع لمشيئة وقدر..²

¹ قطب ، سيد، مقومات التصور الإسلامي، ص323

² قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، ص337

المبحث الثالث: مقاصد الرؤية القرآنية في التنمية البشرية

المطلب الأول: المقصد العام للرؤية القرآنية وأثره في تشكيل نمط الحياة

- المقصد العام للرؤية القرآنية

بعد تعرّفنا على العناصر الأساسية المشكلة للرؤية الكونية القرآنية، تحصل لدينا من خلال تلك الرؤية مجموعة من الحقائق الأساسية عن الإنسان وارتباطاته الأساسية في الوجود، وما يتأسس عليها من توجهات عامة ومعايير أساسية في بناء أي عمل يهدف إلى تنمية هذا الإنسان وتدبير وجوده في الحياة بما يجعلها أفضل. إن الإنسان مخلوق مكرم، ويعيش في كون مسخر له من أجل أن يحيا في الدنيا حياة طيبة؛ قوامها الإيمان بالله والعمل الصالح، وذلك ما يؤهله لينال جزاءه الحسن عند الله في الحياة الباقية. ولكن، قبل بلوغه ذلك المقام، سيكون عليه أن يقطع رحلة العبور في هذه الحياة الدنيا التي استخلفه الله تعالى فيها. وتلك هي المهمة الأساسية من وجود الإنسان في هذه الأرض، المهمة التي تتغنى الإصلاح والإعمار لهذا الكون. ذلك أن الاستخلاف في معناه العام؛ هو القيام بواجب الخلافة أو النيابة عن الله في الأرض للحكم بين العباد كما ذهب إلى ذلك الكثيرون استنادا إلى قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30]. و القرآن يتضمن استعمالات أخرى لهذا اللفظ بصيغة "خلائف" الواردة 4 مرات منها قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 165]. وبصيغة "خلفاء" الواردة 3 مرات، منها؛ قوله تعالى: { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} [النمل:

[62]. والصيغتان معا تفيدان معنى التتابع الزمني والوراثة و الإحلال محل قوم آخرين¹. ويخلص الدكتور العضاوي من آيات الاستخلاف بصيغها المتعددة إلى ارتباط مفهوم الاستخلاف عموما بالتزام الشريعة، إذ يقول في هذا الصدد: (إذا كان بنوا آدم خلفاء الله في الأرض بحكم الجعل الإلهي فكلفوا أجمعون برعاية الكون وتدبير أمر الإنسان والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية، فإن أحقهم وصفا بمضمون الاستخلاف لفظا ومعنى الذين ينفذون أوامره بين الخلائق ويعملون بتبصر ورشاد على الحكم بشريعته)². غير أن ما خلص إليه الدكتور العضاوي يتعلق بالاستخلاف في مفهومه العام؛ حين يتحقق واقعا في المجتمع، الأمر الذي لا ينجح ما لم يمر عبر تحقق معنى الاستخلاف في حياة الأفراد. فيكون حمل منهج الله في الحياة هو مظهر هذا الاستخلاف، الأمر الذي نرمي إلى بيانه لارتباطه المباشر بموضوعنا عن التنمية البشرية. إذ يتناغم هذا التوجه مع المنهج القرآني الذي يُشيد مفهومه لتغيير الواقع اعتمادا على تغيير ما بالأنفس. فتنمية الإنسان تبدأ قرآنيا من عالمه الداخلي، وما لم تُنمّ قواه وتُتعهد بالرعاية، لن يجد ما يعينه على تغيير واقعه وتنميته وارتقائه فيه. قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11]

يحدث ذلك التغيير إيجابيا إذا التزم الإنسان منهج الله في الحياة، أو المنهج القرآني، يقول سيد قطب في بيان معالم هذا المنهج: (ويبرز المنهج القرآني "حقيقة الإنسان" ومنشأه ومصيره، ودوره في هذه الأرض، وغاية وجوده، واستعداداته الكامنة التي يواجه بها هذا الدور، ويحقق بها هذه الغاية، والتناسق بينه وبين الكون من حوله، وتسخير هذا الكون - بإذن الله - له، لينهض بالخلافة عن الله في الأرض معانا عليها من الله سبحانه ثم من الكون المتوافق مع استعداداته، والعلاقات بينه وبين خلائق الله في عالم الغيب وعالم الشهادة، والصراع الذي لا بد أن يواجهه مع "الشیطان" ومع نفسه، والكدح الذي لا بد أن

¹ العضاوي، عبد الرحمن، مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2015، ص 88

² العضاوي، عبد الرحمن، مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، ص 90

يكدحه في الأرض، ليؤدي دوره، وينجح في ابتلائه بالحياة و الموت، ويرجع إلى ربه كاسباً مأجوراً¹

وبالتأمل في حقيقة الاستخلاف ووظيفته في حياة الإنسان الدنيوية، نجده فضلاً عن بعده التكريمي للإنسان، يؤدي وظيفة الدافعية و الحافزية للإعمار والصلاح في الأرض، وذلك حين ننظر إلى المكون الغائي في الاستخلاف الإنساني، الذي يضع البوصلة الموجهة لحركة الإنسان في الوجود بما يخدم مصيره في الحياة الباقية. يقول سيد قطب: (يتقرر أن الترقى الوجداني - في الإسلام - يصبح هو الضمان الأول والحافز العميق للترقي في الحضارة المادية واستخدام الطاقات والقوى والأرزاق والمدخرات الكونية في نطاق المنهج الرباني للتصور والحركة. وتلتئم غاية الوجود الإنساني - وهي الحياة - مع تنمية الحياة وترقيتها. بل تصبح تنمية الحياة وترقيتها هي العبادة، وهي جواز المرور إلى الفردوس الآخروي وإلى رضوان الله)²

ويؤكد في هذا الصدد قائلاً: (إن الفردوس الآخروي - في التصور الإسلامي - هو الجزء الإلهي على إصلاح الحياة الأرضية، والإحسان في القيام بالخلافة. وإصلاح الحياة الأرضية يبدأ من إصلاح النفس. وينتهي بإصلاح حال المجتمع كله وإقامة أمره على منهج الله)³

وقد أخبر الحق تعالى، أن الإنسان مزود بقوى إدراكية تؤهله للارتقاء في الحياة وتنمية ذاته باكتساب العلم الذي يجعله إلى جانب الإيمان في أعلى الدرجات، يقول تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11]. كما أخبر من ناحية أخرى أن الإنسان متساو مع بني جنسه في أصل الخلقة والتقويم، إنما يحدث الاختلاف بعد ذلك وفق معياري الإيمان والعمل الصالح، يقول تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ

¹ قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي، ص77

² قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي ص 370

³ قطب، سيد، مقومات التصور الإسلامي ص 369

غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: 4 - 6]. والملاحظ من خلال الآيتين؛ التأكيد على مسألة الارتقاء الإنساني في الحياة من جهة، وشرطية الإيمان في أي ارتقاء ممكن للإنسان، فهو مرة يكون مقرونا بالعمل الصالح حفظا لفطرة الإنسان واستعداداتها التي زودها الله تعالى بها، فلا ترتكس ولا تتحط ولا تتحرف، ومرة يكون مقرونا بالعلم فتتفتح للإنسان بهما درجات في الارتقاء والرفعة، وتعبير "درجات" يوحي بالاستمرارية المفتوحة، فيتضح من خلال ذلك أهمية العلم في إحداث تنمية مرتبطة بالإيمان وبالعمل الصالح.

وبذلك تكتمل العناصر الأساسية المؤثرة لعملية التنمية القرآنية، تنمية ذات الفرد التي تتحول إلى لبنة من لبنات التنمية المجتمعية. وحين يشرع الإنسان في هذا الطريق؛ تتبين له أهمية حقائق القرآن عن نفسه ومحيطه وعالمه.. عالم الأشياء وعالم الأشخاص ثم تتبين له تبعاً لذلك، أهمية ما يرسمه له القرآن من معالم موجهة وآيات مرشدة تصريحا وإشارة وتلميحا.. ويصبح حينها مدركاً لأهمية مفردات القرآن ولغته وأساليبه، وما يشكل في العموم منهجه، ودوره العميق في تكوين اعتقاده وتوجيه مشاعره وإصلاح سلوكه، يفهم ماذا تعني المحبة والصبر والرضا بالقضاء والخوف والرجاء والخشية والخشوع بذكره وصلاته.. إنها القاعدة الإيمانية التي يتأسس عليها البناء كله، بناء إنسان مكلف حر ومسؤول.

إن كسب معركة الرؤية في عالم يعج بالتصورات والرؤى و البرامج العملية المغرية والجذابة لمقاييس الحياة الفضلى في العصر الراهن أمر ليس من السهل نواله، وإنما يحتاج إلى عمل ومثابرة وجهد، وهذا الكسب لن يتحقق ما لم تتحقق استعادة اللغة القرآنية ، وهو ما يدفعنا الآن إلى العمل على تناول موضوع تنمية الإنسان قرانيا اعتمادا على لغة القرآن ذاته. وطرائق القرآن ذاتها.

يقتضي إعادة تأطير ما تطرقنا إليه ضمن إطار اللغة القرآنية التي هي من صميم هذا المنهج. التذكير بما سطرناه في الباب الأول، من أن القرآن لا يتحدث عن لفظ التنمية، وأنه بالمقابل تحدث عن التربية ثم التزكية، وكلاهما يحمل لغويا معنى التنمية.

وأما من حيث المنهج القرآني، فإنه يعتمد أسلوباً تكاملياً تتوحد فيه الرؤية والأهداف والوسائل، ففي سياق قرآني واحد، تحدث القرآن عن ثمرة التزكية وهي الفلاح، وعلاقة ذلك بإيثار الدنيا الفانية عن الآخرة الباقية، يقول تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [الأعلى: 14، 17]. ففي هذه الآية ارتباط بين الغاية الكبرى (الفلاح) وما يؤدي إليها من تزكية في الحياة الدنيا باعتماد أساليب (الذكر والصلاة) وذلك ما لا يمكن تحقيقه في غياب رؤية صحيحة لمعادلة الدنيا والآخرة في القرآن.

يبدأ منهج التزكية في القرآن بالتزام صراط الله المستقيم، وقوامه أداء العبادة لله، فالعبادة غاية الإنسان الكبرى في الحياة، {وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].. والعبادة هي الترجمة العملية للإيمان بالله في حياة الإنسان. وتحديد الغاية من الخلق في العبادة يصبح أمراً طبيعياً في ظل معرفته بالله من جهة، والشعور الذي يملأ الإنسان حاجة وفقر إلى الله الغني القادر والوهاب الرازق والمعطي المانع من جهة ثانية. فيتبين له شدة حاجته إلى ربه و مدى افتقاره إليه وأن العبادة من أجله هو وأن الخالق لا ينتفع بطاعته. ولا تضره معصيته ويعتبر هذا التصور الإدراكي الصحيح للمسألة في غاية الأهمية لما له من انعكاسات مباشرة غير مباشرة في طريقة التعاطي مع أوامر الله تعالى وتوجيهاته، لتتخذ مسار التقرب والتودد والحب للخالق الرحيم والغفور والتواب، وترفع عنها حجاب الغفلة والجهل فتكون ممن يقدر الله حق قدره.

وفي القرآن تتحول العبادة إلى وسيلة يرتجي المؤمن من خلالها تقوى الله، فما لم تثمر العبادة تقوى الله في القلوب وتظهر نتائجها في واقع الحياة، وجب إعادة النظر في تلك العبادة، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 21]. والتقوى من الوقاية، أي تجنب ما يغضب الله تعالى وما يسخطه، وتجنب المعاصي عموماً.. ومن تعاريفها الاصطلاحية: امتثال الأوامر واجتناب المنهيات، و اعتماداً على أصل المعنى اللغوي، يكون التركيز فيها على اجتناب المنهيات أكثر، وهو ما يطهر

الإنسان ويجعله أهلاً للتكريم الإلهي، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13] وأما فعل التزكية، فيتحقق بالنمو في الطاعات... وما لم تتحقق التقوى لن تكون هناك تزكية، فلا يبدأ الإنسان في النماء الإيماني وهو غارق في المعاصي والرزائل والشرور.

– نمط الحياة في القرآن.

يحدثنا القرآن الكريم في سياق تناوله تجربة بني إسرائيل على نوع من الحياة يذكرها القرآن بصفة التنكير "حياة" وذلك في قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 96].. وهي المرة الوحيدة التي يرد فيها هذا اللفظ نكرة في القرآن، وقد استخلص سيد قطب من ضلال هذه الآية نوعية الحياة التي قصد الله تعالى بيانها عن بني إسرائيل، يقول رحمه الله: (أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقيق! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة.. أي حياة!)¹

والأكيد، أن الله تعالى لا يريد لعباده هذا النوع من الحياة، حياة لا ارتباط فيها بالله، ولا بمنهجه.. فما يحدث الاهتمام بهذا النوع من الحياة إلا والإنسان بعيد عن منهج ربه، متعلق بغيره، متجرد من إنسانيته ومستوى التكريم الذي حباه الله تعالى به. وكما نعلم، فلإنسان حاجات معنوية ترتقي بها إنسانيته، وحاجات مادية ذات طابع فيسيولوجي تتعلق بطعامه ومسكنه ولباسه وحاجته للماء والهواء... وهي ضرورية لبقائه، وقد هيأ الله تعالى فيه دوافع تأمين هذه الحاجات بما يحفظ بقاءه.. ولكن، أن يجعل الإنسان ذلك كل همه في

¹ قطب، سيد، في ضلال القرآن ج1، ص92

الحياة، فيغرق في جاذبيتها الاستهلاكية و متعها المادية غافلا عن دوره ورسالته الاستخلافية صلاحا وإصلاحا وإعمارا.. فذلك ما ينتهي به إلى مرتبة الأنعام حين يشترك معها في نفس الأهداف.. التمتع و الأكل.. قال تعالى : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: 12]. إنها صفة الكفر، التي تعني غياب الله من حياة صاحبها، وإن القرآن يشبه هذا النمط من الحياة بحياة الأنعام وهي التي لم تكلف بما كُلف به الإنسان، ولم تُكرم بما كُرم به الإنسان. وسوف نجد أن القرآن لا يعتبر هذا النمط حياة، وإنما يسميه معيشة. وذلك حين يفقد الإنسان منهج الله في حياته فيكون عرضة للسقوط في مهاوي الرذيلة والمعصية، ليشقى بها في حياته الدنيا ويشقى بجزائها في الآخرة، قال تعالى : {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمً} [طه: 124]

وقد حدث في عالمنا المعاصر أن الناس يستهويها نمط الحياة المادية المتطورة تكنولوجيا واستهلاكيا، ويغري طابعها القائم على الوفرة وتيسير ظروف الحياة المادية البعض على اعتبارها النموذج المناسب لظروف العصر كما أشرنا لذلك في الباب السابق. فقد رأينا كيف صار التهافت على نمط الحيا الغربية المعاصرة ساحة تنافس و عنصر جذب. إن فقدان منهج الله في الحياة لا ينفع معه علم بالظواهر المادية فيها، فمهما بلغت حدود استثمارها لتيسير الحياة لن تحل من إشكالاتها سوى القليل.. يعلمنا القرآن درسا من الأمم السابقة في أن التطور المادي ليس كل الغاية في الحياة، يقول سبحانه: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} [الروم: 7 - 10]

الغفلة عن الآخرة إشارة إلى الغفلة عن منهج الله في الحياة.. وهو ما يترتب عنه اختلال في الموازين والقيم حول الوجود والحياة، فتتكون رؤى كونية قاصرة تحكم تصورات الإنسان وتصرفاته في الحياة.. فهو حين يغفل عن الآخرة، تصبح الحياة الدنيا هي الحياة.. كل الحياة.. وقد دعانا الحق سبحانه إلى الإعراض عن مثل هؤلاء، فكيف بمن يتخذهم قدوة في الحياة؟ يقول سبحانه: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [النجم: 29،

[30]

تختلف أنماط الحياة إذن، وتختلف نتائجها في الحياة الدنيا أولاً، وفي الحياة الآخرة ثانياً، يقول تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: 21] وهو أمر يغفل عنه الكثير منا حين يعتقد أن التزام منهج الله في الحياة يرتبط في نتائجه بالحياة الآخرة فقط.

يرتقي القرآن بالإنسان من حياة يتشارك معه فيها الأنعام غاية وسلوكاً.. إلى حياة مبنية على معيار الترجيح بين الدنيا والآخرة، ويقدم له من الأمثلة والبراهين والأدلة ما يدفعه إلى ترجيح مصلحته المرتبطة بحياة الآخرة، لكن، مع إدراك أهمية الحياة الدنيا في كونها المعبر إلى تلك الحياة الآخرة المرجوة، لأنها دار الابتلاء كما أوضحنا، أو قاعة الامتحان المرتبط بزمان مؤقت لا بد من اجتيازه ولا بد.. وقد بينا من قبل أن ترجيحات الحياة الآخرة في القرآن لا تهدف إلا إلغاء الدنيا تماماً كما اعتقد وفعل البعض في تجربتنا الصوفية التاريخية.. إن حسن الموازنة والنجاح في الابتلاءات التي جعلها الحق تعالى سنة في هذه الحياة الدنيا، هو ما يأخذ صاحبه إلى مرتبة الحياة الطيبة متقيّاً ظلال الإيمان والعمل الصالح فيها.

المطلب الثاني: المقاصد الخاصة للرؤية القرآنية في التنمية البشرية

أ- التزكية الإيمانية

أشرنا من قبل، إلى فكرة اعتماد أدبيات التنمية البشرية المعاصرة على مقولة "اعرف نفسك أولاً"، ثم بينا في الفصل السابق أن الإطار الإسلامي والمنهج القرآني يقتضي معرفة الإنسان لربه أولاً. وهي المعرفة التي تتأسس عليها معرفته بنفسه وبالأخرين و بالكون.

وعلمنا في مبحث سابق أن الإيمان ليس كلاماً يقال باللسان، حين يكون محور حياة المؤمن في علاقاته بربه وبذاته وبالأخرين والكون المحيط به. انطلاقاً مما أثبتناه من وجود دور عميق وأساسي للإيمان بالله في بناء الإنسان على مستوى تصوراتهِ ونفسيته و سلوكياته، قال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 29]. ولما كان الأمر كذلك، لم يكن من المقبول أن يتنافر الإيمان بالله مع مقتضياته في الواقع، فقد يدعي الإنسان الإيمان وهو يعمل بخلاف مقتضاه في حياته، لمثل هؤلاء توجه الحق سبحانه كاشفاً ومحذراً {بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 93]. إذ يعتبر حديث القرآن المتنوع عن صفات المنافقين وكشف نوعية ادعاءاتهم في الإيمان أمر لافِت من الناحية التربوية القرآنية. فالقرآن يؤكد على كشف أساليب الإنسان في مخادعة الغير ومخادعة الذات، ويفضح حالة التذبذب التي تعترى الإنسان حين لا يكون إيمانه ثابتاً أو راسخاً.. صحيح أن هناك حالات ضعف تصيب الإنسان المؤمن، لكن القرآن يحسم بصرامة أهمية الخروج من التردد في الإيمان بالله، ويضرب أمثلة عديدة بحال المنافقين محذراً من سلوك مسلّكهم، كما في قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: 19]

ويشهد واقعنا المعاصر، أننا اليوم، في أمس الحاجة لإعادة قراءة آيات الله تعالى في موضوع النفاق. فما نعيشه من الوقائع و نلاحظه من التصرفات يرتبط في الغالب بمواصفات

الاضطراب والتردد والارتياب حين يتخذ الإنسان في الحياة أولياء بنية الاستقواء بهم والاستتصار والاسترزاق، وما إلى ذلك، مما هو شائع في سلوكياتنا اليومية من تصرفات انتهازية ووصولية، تظهر أكثر ما تظهر، تحت مطرقة ضغوطات الحياة الاقتصادية... و في غيرها من الحالات التي تبينها آيات القرآن لتساعدنا على فهم ذواتنا وإدراك حقيقة إيماننا. فتكشف نفوسنا الضعيفة أمام الإغراءات والشهوات التي هي من مقتضيات الابتلاء في هذه الحياة، فحينها، وحينها فقط. يعرف المؤمن مقدار إيمانه، وحقيقة نفسه، ودرجة الله عنده، التي تعكس أيضا درجته هو عند الله.

إن الظروف والتحويلات العميقة التي تحدث في عالمنا المعاصر، وتؤثر محليا في الوقت ذاته، سواء على المستوى الثقافي والتربوي والتعليمي والإعلامي... تخلق في الغالب حالة التذبذب التي تطغى على الإنسان العربي المسلم في الكثير من الأحيان، وتنشئ في عقله وتصوراته تناقضات لا حصر لها، تبقى في معظمها في دائرة المسكوت عنه، لكن أثرها العملي يظل ماثلا للعيان. مثل هذه الحالة، وهي السائدة في معظم الأحيان لا يمكن من خلالها بناء تنمية أو تحقيق تزكية في الإيمان.. ومعلوم أن تزكية الإيمان هي أساس كل تزكية للإنسان في الحياة. لأن الإيمان بالله تعالى هو الذي يحدد وجهة الإنسان في الحياة. وجهة؛ تتحدد على أساسها كل الصلات والعلاقات والأهداف والتدابير... فهي وجهة تتحدد بموجبها كل الارتباطات وكل المعايير والقيم التي تحكم المعتقدات والتصرفات في الحياة... لأنها تنطلق من محور الصلة بالله التي هي أساس كل شيء بعد ذلك، يقول محمد قطب: (وإيجاد الصلة بين القلب البشري وبين الله، الصلة الدائمة التي تدفع القلب إلى الرجوع لله في كل لحظة ، واستشارة دستوره في كل أمر، هو القاعدة الرئيسية للتربية الإسلامية، التي بها يتم كل شيء، ومن دونها يصبح كل شيء خواء)¹

وقد تقرّر فيما سبق أن الابتلاء و التمحيص سنة قائمة ودائمة إلى يوم القيامة. ولو تأمل المرء، لوجد هذه الابتلاءات تكاد تكون يومية في شؤونه وأمره.. فالابتلاء سنة الأنبياء

¹ قطب، محمد، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، 1997، ص35

الكرام ومن معهم، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْنِئَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214] وقال سبحانه: {وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَرُزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: 10، 11]

من أكبر وأهم حقائق القرآن عن الإيمان أنه متحرك، وفق درجات معينة من الزيادة والنقصان، وتتحدد درجته بحسب متغيرات الحياة وابتلاءاتها التي تمحص حقيقتنا الإيمانية بطريقة مستمرة ودائمة.. إذ يجعل الله تعالى من سنة الابتلاء العملية في الحياة، فرصة للمؤمن لاختبار إيمانه، ومن ثم، تصحيح صلته بربه، والسعي للاستزادة من الإيمان ليكون طاقة له في مجابهة الحياة. ومن أمثلة تلك المقاييس لاختبارية في القرآن، ما جاء في قوله تعالى: {قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [آل عمران: 167] مثل هذه الآية وغيرها في القرآن الكريم لها دور في كشف الحالة الإيمانية قربا أو بعدا، من خلال توصيفها الدقيق للحالة ضمن سياقها العملي في واقع الحياة.

فالقرآن يدعو إلى التزام الإيمان الحق، والثبات على الإيمان في مواقف الحياة المختلفة، مما يؤدي إلى بعث حالة من اليقظة الدائمة والمستمرة في الإقبال على الله تعالى والارتقاء إليه، فالإيمان يوقظ المشاعر الإنسانية في الإنسان، وأهمها الشعور بمراقبة الله تعالى الذي يقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 16 - 18] فيكون في حذر دائم، وفي يقظة مستمرة ضد الوقوع في ما يغضب الله سبحانه، وضد الشيطان وإغوائاته.. وهذا ما يفسر دعوة المولى عز وجل عباده المؤمنين مخاطبا لهم بصفة الإيمان، وداعيا إياهم إلى الإيمان، وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ

بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ
آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْ عَرَضِهِمْ عِنْدَ الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعًا { [النساء: 136 - 139]

في هذا السياق، تتبين أهمية التزكية الإيمانية، وأثرها على تصورات وسلوكيات
الإنسان، التي تجعله يترقى في مدارج الإيمان. وفي القرآن آيات تشهد لتزكية إيمان المؤمن،
حين يخبر الحق سبحانه عن أعمال تؤدي إلى زيادة الإيمان، وعن مواقف تزيد من إيمان
أصحابها، ومن الآيات في ذلك: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ { [الأنفال: 2 - 4]

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ { [التوبة: 124، 125]

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا
زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا { [الأحزاب: 22]

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ { [الفتح: 4]

وقد بين الله تعالى أن من سنن الزيادة في الإيمان والهداية الاستعداد القبلي لطلب
الهداية، قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ { [يونس: 9]، وقال سبحانه: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ
[التغابن: 11]، وقال كذلك: {وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [الحج: 54].
فالاستعداد الإيماني له دور في التلقي الإيجابي للمزيد من الهدى بينما يحول مرض القلوب
دون تحقيق نفس الإفادة بل يزداد أصحابها رجسا إلى رجسهم {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ

يَقُولُ أَكُنْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ { [التوبة: 124، 125]

ومن أمثلة الموقف العملي الذي يزيد صاحبه إيمانًا، ما حدث في واقعة صلح الحديبية، حين غضب بعض الصحابة من بنود الصلح، فجرت مواقف عصبية وحرجة تتعلق بالتحلل من العمرة والرجوع إلى المدينة، فلم يكن ذلك مقبولا في النفوس، وهو موقف من المواقف التي يترتب عنها في الغالب شق الصف وتنازع الرأي وانقسام المجتمع.. لكن، الله تعالى الخبير العليم بما في قلوبهم أنزل من القرآن ما يثبت لهم به صدق إخلاصهم ونصرتهم لدينهم لا لأنفسهم، فجاءهم المدد منه سكينه في القلوب وزيادة في الإيمان، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: 4]

وفي غزوة الأحزاب أيضا، وحين اجتاحت صفوف المسلمين السنة النفاق والشقاق، تخويفا من العدو، وتخيلا وتوهينا.. تصدت لها قلوب الصادقين وألستهم مفصحة عن إيمان لا يتزعزع وعن قلوب لا تخش إلا الله: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22] فهؤلاء لديهم إيمان يواجهون به الجسام من الأحداث والمواقف التي قد تتحول أحيانا إلى فرصة لتقوية الإيمان وزيادته.

إن موقف التخاذل ذاته الذي يمارسه المنحطون والانتهازيون في كل زمان ومكان، هو ذاته الموقف الذي يزيد عباد الله الصادقين إيمانًا بربهم، ولم يكن الأمر أمر ابتلاء هين أو بسيط لقد وصف الله تعالى تلك الواقعة في قوله: {إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} [الأحزاب: 10 - 14]

في هذه الوقائع العملية، يؤكد القرآن على أهمية وضرة الاختبار الإيمانى الذى يتحول إلى مصدر لزيادة درجة إيمان صاحبه، وذلك لمن سار على نهج الله تعالى واهتدى بهديه وثبت على إيمانه فى المواقف وواجه به التحديات.. فىكون أولى بالزيادة فى الإيمان والارتقاء فى مقامات الإحسان.. وفى مثل هؤلاء نزل قوله سبحانه: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران: 173]

هذا هو الإطار الذى ينبغى أن نفهم فيه قضية اعتبار الإيمان وجهة للإنسان فى الحياة. إن الإيمان طاقة تعمل فى معترك الحياة اليومية، ومصدق ذلك، أن الله تعالى دعانا لطلب الهداية إلى صراطه المستقيم الوارد فى سورة الفاتحة التى تقرأ على الأقل 17 مرة فى اليوم، ولا نفهم قيمة هذا الطلب الدائم والمتجدد إلا حين يعلمنا الله سبحانه أن من مؤشرات اختبارنا فى الحياة قول إبليس : { فَبِمَا أَغْوَيْنَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف: 16، 17]

وتجدر الإشارة إلى أنه من علامات تزكية الإيمان فى القرآن، تزكية القلوب. والقلوب فى القرآن أوعية المشاعر كما رأينا فى مبحث الإنسان فى القرآن، فهى محل الإيمان والكفر والحب والكره الرحمة والقسوة واللين والغلظة ... وفى ذكر القرآن لأنواع القلوب ومراتبها وفى ذلك ما يحفز على تطهيرها، وتزكيته بما ينقلها من حالة القلب المريض والقاسى إلى القلب السلم والمنيب.. وبيان ذلك أن تطهير القلب يورث الوجل بذكر الله، وزيادة الإيمان بتلاوة آياته، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال: 2]. وزيادة الإيمان أكبر علامة من علامات تزكية الإنسان. فهى القاعدة الأساس التى تنمو من خلالها كل قوى الإنسان وطاقاته. فالوجل الحقيقى من الله يترجم حقيقة فى واقع الحياة بعدم الخوف من أحد سواه. لأن القلب يصير مطمئنا بذكر ربه، { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }

{ [الرعد: 28]. وتحصيل القلب المطمئن مسعى أساسي من مساعي المؤمن بالله، لأنه حصانة له من مدخل كبير من مداخل الشيطان؛ ألا وهو التخويف، يقول تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 175]، ويقول سبحانه: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268] والشيطان كما علمنا صنفين، جن وإنس، لذلك يذكر الله تعالى من ممارسات شياطين الإنس ما يصف نفس الدور والمهمة في تخويف المؤمن وتثبيط عزمته، يقول تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

إن طمأنينة القلب بربه وانسراحه لهدية يعني في الواقع قدرة صاحبه على مجابهة خوالج القلق والهم والغم، ذلك أن الطمأنينة سكون النفس سكونا قائما على الثقة في الله والركون إليه والكفاية به.. وهي معاني قميئة بطرد وساوس اليأس والاضطراب والارتباب.. بل يزداد المؤمن المطمئن يقينا وإيمانا بمعرفته لهذه السنن والابتلاءات والمداخل الشيطانية للإنس والجن معا.. يحدث ذلك حين تكون القلوب صادقة وتوجهها إلى الله تعالى خالصا. لذلك بين لنا الحق سبحانه كيف مدّ عباده بهذا الفضل بزيادة الإيمان حين واجهوا بإيمانهم أحداثا جساما وثبتوا على إيمانهم فلم يرتابوا ولم يتزعزعوا.

كما نجد في القرآن توجيهها من الله تعالى لعباده إلى عدم ترك قضية إصلاح القلوب هملا، لأن طول الأمد كفيل وحده بتقسيتها، فينبهنا إلى وجوب تعهد هذه القلوب بالرعاية والإصلاح بما يجعلها تنمو في الإيمان بالله سبحانه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 16]

ومن الوقائع العملية التي يقدمها القرآن علامة لطهارة القلب ما جاء في قوله سبحانه في طرق التعامل مع المرأة في سياق الحديث عن زوجات الرسول ﷺ ، والمسجل في قوله سبحانه: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } [النور: 31]

[الأحزاب: 53]. يتأكد أن صيانة القلوب والإبقاء على طهارتها هدف قرآني في تركية الإنسان. لأن وضعية الحديث مع امرأة أجنبية مدخل من مداخل وسوسة الشيطان الذي يهدف إلى إمرض القلوب وإماتتها . ونحن في عصر ابتلينا فيه باهتمام الإنسان المبالغ فيه بتطهير مظهره جسدا ولباسا ومسكنا.. وهو أمر حسن إذا أخذ مسلك الاعتدال. والأسلوب التزكوي القرآني يعتمد في توجيهنا على الجمع بين طهارتي الظاهر والباطن، وطهارة الباطن هي الأساس.

ربط المنهج القرآني الزيادة في الإيمان بموقف تعبدي محض {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2] وربط الزيادة في الإيمان بموقف عملي في واقع الحياة وضمن سياق اختباري للمؤمنين ، قال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22]. كما جعل القرآن الإيمان سببا للرفعة، وذلك في قوله تعالى : {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11].

فيتضح مما سبق، أن فرصة المؤمن المطمئن إلى ربه في زيادة إيمانه واطمئنانه بربه تحصل من خلال طريقين؛ طريق ذكر الله وتلاوة آياته (مرحلة الإعداد الإيماني) وطريق مواجهته لواقع الحياة ومتطلبات الاستخلاف وسنة الابتلاء في الواقع (مرحلة المواجهة) فتظهر ثمار زيادة الإيمان في الحالتين.. وفي ظني أنها في الحالة الثانية أقوى وأشد رسوخا، لأنها تحدث في قلب معارك الحياة.. وهذا هو طريق الاستخلاف وسنة البلاء، لا طريق الانزواء والانعزال في الزوايا لممارسة خداع الذات من خلال تكرار أذكار معينة لأوقات طويلة..

وبذلك، يجني المؤمن ثمرة إيمانه، سكينة وطمأنينة، وثباتا في المواقف ورسوخا في القيم، هو أبعد أن يكون قلقا على المستقبل أو أن تسيطر الأوهام على قلبه وعقله؛ وهو واثق

أنه على الحق، لا يعرف اليأس مطلقاً لأن اليأس قرين الكفر في القرآن. وهو ما يقودنا إلى الحديث عن تزكية الجانب الوجداني للإنسان.

وللأسف، فقد جعلت كتب التراث من قضايا العقيدة نوعاً من الترف الفكري الذي يغرق صاحبه في لجج من الآراء والاستفهامات التي لا تثمر معرفة نافعة ولا إيماناً صحيحاً. ومن ثم، لم تكن قضايا الإيمان في وجداننا وأذهاننا بذلك الثقل الذي تحمله معاني هذه الكلمة، ولم تكن بذلك الرصيد الذي توفره في مجابهة أعباء الحياة وابتلاءاتها المتعددة والمستمرة.. وما لم تتحدد هذه الوجهة تحديداً خالصاً في حياة الإنسان ضل سعيه فيها وحبطت أعماله التي ظنها شيئاً: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103، 104]

ب - التزكية الوجدانية

أولى القرآن الكريم عناية كبيرة للجانب النفسي لدى الإنسان ، واهتم ببسط أبعاده وزواياه بهدف إدراك مداخل المشاكل وأمراض النفوس ، التي تكون تبعا "للتصورات وأحوال الإيمان والمعتقدات ، ومجموع القناعات التي تحرك سلوك الإنسان ، وتثير فيه أنواعاً من المشاعر والانفعالات تحدد منهجه في الحياة .

عرض القرآن لفطرة الإنسان ولخلقه ومراحلها ، وتحدث عن القلب والعقل والروح والنفس ، كما وصف أنماط الشخصيات وتحدث عن آفات القلب واللسان ، وبسط الحديث عن حاجياته الفطرية ، التي تدفعه إلى أنواع معينة من السلوكات والأفعال وردود الأفعال وتطبع مشاعره وتحدد انفعالاته .

لقد خلق الإنسان بحسب الطرح القرآني مزوداً بمجموعة من صمامات الأمان إضافة إلى فطرته، تهفو نفسه للتوحيد و قراءة كتاب الكون، و التفاعل مع كتاب الوحي و الانفعال معه ..

لكنه أيضا مزود بمجموعة من الاحتياجات التي تحرك سلوكه و تطبع أفعاله و أفكاره ،للتجاذبه بين الطاعة و المعصية ، الإصلاح و الفساد، و هي احتياجات بشرية تضمن من جهة حفظ نوعه ،و من جهة أخرى تضمن ذلك التدافع نحو التعمير و التمكين .أذكر منها حاجيات دفع الجوع و العطش و العري و حاجيات النوم و الجنس و التكاثر...

فمن الآيات التي عرضت لذكرها :

قوله تعالى {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} [طه: 117 - 120]

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قریش: 3، 4]

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا } [الفرقان: 47]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21]

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} [لقمان: 14]

{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: 212]

و لأن منهج القران منهج توازن و تناغم، فإنه لا يترك هذه الاحتياجات هملا بدون توجيه أو تنظيم ، بل إنها محط اختبار و ابتلاء، فينشأ نوع من المجاهدة مع ما ألهم به الله النفس من ملهات الفجور و التقوى. فإما أن يطغى سلطانها و يقوى، أو يضعف و يتهاوى. و ذلك صراع المؤمن للتوفيق بين احتياجاته و ضوابط الإيمان في قلبه .

لقد زين للناس حب الذات و كراهية الآلام ، لذلك لا يُرى الإنسان الفطري إلا و هو مجتهد في جلب مصالحه و درء المفاسد عن نفسه، و الوفاء بحق ضرورات الحياة يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل الأنفس بمقتضى الإيمان أو الهوى.

فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها، وزين لها حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ... وملهمات الفجور السالبة التي جعلها الله تعالى خصائص فطرية في النفس البشرية (الهلع-الضعف-العجلة-الكبر-الشح-البخل-الحسد...) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمرا عسيرا على الإنسان ...

ومجال الابتلاء هذا "زينة الحياة الدنيا" يخلق نوعا من التدافع. والكثير من الانفعالات والمشاعر التي يعرضها القرآن عرضا ، في السبيل الوصول بالإنسان الى صحة نفسية متوازنة تخول له القيام بمهمته.

يذكر القرآن الكريم مشاعر الخوف و الترقب، مشاعر الحزن و الغضب و الغيظ و الحسرة و كلها انفعالات تعتري الإنسان، لأنها طبيعية بشرية، و قد تصبغ شخصيته و تطغى عليها، و لأهمية آثار الجانب الشعوري على سلوك الأفراد فقد أولاه القرآن الكريم عنايته، و لفت الأنظار إليها من خلال عرض مجموعة من المواقف الحياتية التي تولد عنها عدد من الانفعالات المختلفة الإيجابية منها و السلبية... في هذا السياق، نذكر منها على السبيل المثال لا الحصر، الآيات التالية :

{فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} [طه: 40]

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: 127]

{ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ} [العنكبوت: 33]

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]

{فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكِنَّا لَا تَحْزِنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} [آل عمران: 153]

و غيرها من الآيات، التي ذكرت مشاعر الحزن في سياق النهي مرة، و النفي مرة، إذ الحزن غير مطلوب أو مرغوب، و لذلك فالمؤمن حينما يتلو مثل هذه الآيات، يدرك أن الحزن يحرك الأشجان و يؤثر سلبا في الإنسان، و أن الحزن لا يلائم الإنسان الذي يؤمن بالقضاء و القدر، و يثق في قدرة الله و حكمته، و حسن تدبيره... قال تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المجادلة: 10] فالشيطان يصور للإنسان صورا، و يحرك مشاعر الغضب و الشك لديه ليجعله حزينا ، لذلك يعلم المسلم الفطن على طرد كل ما يسبب أحزانه، من سوء ظن بالله، بل و سوء ظن بالناس، يقول تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62] ويقول سبحانه: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: 48]. ويقول عز من قائل: {فَمَنْ تَبَعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38]

فهذه الآيات على اختصارها تحمل من المعاني ما يفوق الوصف. و تؤكد لنا على الدوام متين العلاقة بين الإيمان و المشاعر، فإن للمعتقد سلطة مؤثرة على انفعالات الإنسان و أحاسيسه، فمع اتباع هدى الله ينتفي الخوف و الحزن، لأن الإيمان يولد الثقة بالله و الأنس به و الحرص على مرضاته بصالح العمل و جميل الإمتثال، فتعم السكينة، و تنزل الطمأنينة. تلك هي معالجة القرآن لما يعترى الإنسان من مشاعر سلبية قد تكون مدمرة.

والإيمان بالله من شأنه أن يوازن بين الانفعالات في مقابل ما يلاقيه الإنسان في معترك الحياة. إذ مع وجود الإيمان، تنتفي مشاعر الخوف والقلق والحسد وسوء الظن... وغيرها من الانفعالات السلبية التي لا تتواءم مع معاني الأمان والطمأنينة ، والثقة في الله وفي ما عنده، وحسن الظن به...

فالتوكل مع حسن التدبير ينافي الركون إلى الأرض مع الخوف، والرجاء ينافي القنوط والقلق ، والانس بذكر الله ينافي الوحشة والشعور بالوحدة، إذ إن معرفة صفات الله تولد الطمأنينة والانشراح والسكينة ، فتشكل حصانة نفسية لصاحبها لأن يمتلكه الحزن أو الخوف }

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة: 40]

فهذه الانفعالات على فطريتها. تتحول الى مشاعر عائقة، تشل حركة المؤمن وتعوق مهمته فتأتي آي القرآن تارة لتصحيح تصورات الإنسان حول معنى الحياة الدنيا في مقابل الحياة الآخرة ، و تارة حول معنى الابتلاء وحتميته، وحول حقيقة الثبات والادعاء في مواقف الاختبار {الْبَلَاؤُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 155]. وتارة لترشيد التوقعات { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: 2] وتارة أخرى لتوجيه ردود الافعال : {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 155، 156] {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر: 44] {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: 5]

وهكذا يكون الإيمان الحق حاجزا "واقيا ضد الأمراض النفسية والمشاعر السالبة" أو علاجاً لبعضها أو مخففاً "للبعض الآخر . والرضا بالقضاء والقدر يولد منتهى الاستسلام لمشئنة الله تعالى الحكيمة . واليقين يولد الشعور بالرضا . {وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} [البقرة: 216] والصد بالصد {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: 216] ومنتهى العلم يفضي الى منتهى التسليم {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]. إن الإيمان يبني لدى صاحبه مناعة نفسية تقوي طاقة التحمل لتصمد في وجه الابتلاءات والشهوات والشبهات . صابرا . مستبصرا . يدرك ما هو مقبل عليه بروح ثابتة إذا أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر .

ج- التزكية القدرات العقلية

الانسان في القرآن على ما هو عليه، مؤهل بامتياز لإدراك غاية وجوده، ومعرفة مصدر هذا الوجود، وطبيعة علاقته بما يعينه على فهم معنى الحياة والمسؤولية وتبعاتها،

والتبصر بالعوائق والابتلاءات والفتن، وتسخيرها في نمائه وزيادة خبرته. والعقل أداة التفكير والتعقل والتذكر وهو مناط التكليف وآلة ادراك وجود الله تعالى من خلال آثاره في الكون.

ولأن أداة العلم في القرآن الكريم مرتبطة بوظيفة العقل ومنافذه (الحواس) والتي اختزلها الله تعالى في قوله (اقرأ). كانت وظيفة الإنسان المسؤول والمكلف الذي يقصده القرآن بالخلافة هو الذي لا يعطل وسيلة القراءة في الكون لأنها وسيلة الإدراك والوعي والفهم التي تتحقق معها الغاية من العلم وتدور معها وجودا وعدما، وهي غاية الإيمان والعبادة التي تتحقق بتجدد القراءة وتنوعها وامتدادها بغير انقطاع، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَافَعْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق: 6 - 8]

كما يعتبر القرآن أن من أهم أسباب شقاء الإنسان، سوء استخدامه لأدوات الإدراك التي زوده الله تعالى بها، وأنه بتلك الغفلة ينحدر إلى مرتبة ما دون البهائم، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179]

تبين الآية أن الإنسان يمتاز بالتكليف الرسالي، متمثلا في الإيمان بالله، وهو الجانب الذي بافتقاده لا تكون لحياته معنى، فهذا هو الخيط الفاصل بين الإنسان والبهائم.. فهو حين لا يسير على هدى الله سبحانه يصرف اهتمامه لإشباع غرائزه فقط تماما كالأنعام، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: 12].

ينزل الإنسان من درجة الإنسانية التي كرمه الله تعالى بها حين تكون منتهى آماله في الحياة الدنيا مشتركة بينه وبين الأنعام. فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم {نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} [الحشر: 19] ومن الذين قال تعالى فيهم {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: 175، 176].

وأصل البعد الرسالي للإنسان في القرآن هو الذي ذكره الله تعالى في قوله {قَالَ اهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 123،
124]...

وبالعودة إلى سياق قصة الاستخلاف وسجود الملائكة التي تناولتها هذه الآية،
وبالدخول في أجواء الحوار الذي دار بين أطرافها جميعا. نستخلص ما يمكن اعتباره مؤهل
الاستخلاف الإنساني متمثلاً في العلم. فحين أبدت الملائكة استفهامها الذي يحمل نوعاً من
الاعتراض على جعل الإنسان خليفة بسبب سفك السفاء والفساد في الأرض، لم يجبههم الله
تعالى عن ذلك إثباتاً أو نفياً. وإنما ذكر حقيقة من الحقائق عن هذا الإنسان المستخلف،
سوف تكون أبرز نقاط قوته وهي العلم. فقال سبحانه: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا
سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا
أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ} [البقرة: 30 - 33]

ومعنى ذلك أن هذا الإنسان سيكون مسلحاً بالعلم، فالعلم هو نقطة قوته، إنه علم
يتقدم ويتطور باستمرار من مساحات المجهول إلى مساحات المعلوم عبر الجهد المبذول في
ما سخره الله تعالى للإنسان من قوى إدراكية زوده بها منذ اللحظة الأولى لخلقه. يقول الله
تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]. فالله تعالى زود الإنسان بالعدة اللازمة للقيام بواجبه
الاستخلافي، وهي حواس الإدراك التي توفر له إمكانية الترقى والتنمية في الحياة الشخصية

و الاجتماعية. فلا غرو أن تتبدى أولى سور القرآن نزولاً بالأمر بالقراءة، التي هي وسيلة العلم وأداته.

من هنا، كانت أهمية العلم بالله ضرورية في حياة الإنسان ومن هنا أيضاً تتبدى لنا أهمية تلك الصفة المحورية للإنسان في القرآن صفة الإيمان بالله. الذي أراده الله تعالى أن يؤسس على العلم، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: 19].. وفي القرآن من الشواهد على مكانة العلم والعلماء ما يشكل اهتماماً استثنائياً وخاصاً. وبيان ذلك؛ أن القرآن نزل على أمة بدوية في الصحراء، غارقة في الجهل والخرافة، وكان أول أمر فيه بالقراءة، مما يستدعي التوقف والتدبر والتفكير.. فكون مصدر هذا القرآن هو الرب تعالى، يجعل كل ملحظ في المضمون أو السياق الترتيبي له الأهمية القصوى.. ومن هنا تبدو أهمية البحث في الحكمة وراء الأولوية في هذا الأمر الإلهي. فقد يكون الأنسب في تصورنا القاصر، أن يخاطب أمة غارقة في الظلم بوجوب العدل "اعدل"، و أن يخاطب أمة ضالة بعبادة الأصنام بوجوب التوحيد "وحد" إلى غير ذلك من الاعتبارات التي قد تبدو لنا ذات أهمية وأولوية.. ولكن الله تعالى الخالق والعليم بما خلق، يأمر هذه الأمة بتلك المواصفات بالقراءة، وهو أمر يتكرر مرتين في بداية سورة العلق، داعياً في القراءة الأولى أن تكون باسم الله، وفي القراءة الثانية أن تكون بالقلم لاكتساب العلم.. وقد سجلنا من قبل حين عرّفنا بالإنسان في القرآن، ما جاء في قصة استخلاف الله تعالى لآدم عليه السلام، وتكريمه بسجود الملائكة له، وقد كان الاختبار في ذلك المشهد بالعلم حين أبدت الملائكة نوعاً من الاعتراض على استخلاف آدم بسبب سلوك الإفساد وسفك الدماء، وقد بين الحق سبحانه مؤهلات هذا الإنسان متمثلة في العلم المتجدد والقدرة على التعلم.. وفيه إحياء أن هذا العلم سيكون وسيلة للترقي في الإنسانية، والارتقاء عن صفات الإفساد وسفك الدماء.. وهو ما يتأكد في آيات قرآنية أخرى، تبين مكانة العلم، ورفعة شأن العلماء، فالله تعالى يشهد على وحدانيته نفسه والملائكة والعلماء، يقول سبحانه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18] والله تعالى يخص الإنسان الذي يجمع بين الإيمان

والعلم بالرفعة والدرجات العلى، يقول في ذلك: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: 11]

ومما يبرز مكانة العلم في القرآن أيضا، وروده في حوالي 750 مرة في القرآن. ذلك أن القرآن الذي أنزله الله تعالى، أنزله بعلمه، يقول تعالى: {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء: 166]. ومقصود القرآن من الاهتمام بالعلم جلي واضح في ثنايا القرآن الكريم. فإذا كان الإيمان بالله هو أهم مقاصد رسالة الإسلام، فإن هذا الإيمان لا يكون متينا ومستقيما إلا إذا بني على علم صحيح، يقول تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } [محمد: 19].. وإذا كانت تزكية المؤمن تتحقق بالزيادة في درجة إيمانه، فإن ذلك لا يتحقق بدون علم، إذ العلم بالله مورث لخشيته، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28].. والعلم في القرآن هو كل ما ينفع الإنسان في أمور حياته الدنيا والآخرة، فقد يؤهله لتدبير شؤون الفرد أو المجتمع كما ورد في قصة يوسف عليه السلام، حين بين الحق سبحانه أن يوسف أصبح مكيئا لدى العزيز بصفات وخصال أهمها العلم، {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: 55، 56]، وقد يكون العلم خاصا بإدراك رسالة الله واستيعاب حقيقتها وما تخلقه من حالة إيمانية تزيد في خشوع المؤمن بربه، يقول تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } [الإسراء: 107 - 109]. كما ويستنكر الله تعالى إمكانية المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم/ {أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر: 9]

وكما رأينا في مبحث الإنسان في القرآن، فقد زود الله تعالى الإنسان بأدوات الإدراك من سمع وأبصار وأفئدة، ورأينا كيف يعتبر القلب محور الكيان الإنساني، وأن من وظائفه التعقل.. وحواس الإدراك العقلية من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان، ويزري الحق سبحانه

بمن لا يستخدم نعمة العقل، ويعطلها عن وظيفتها، لأنه بدل أن يرتقي بها، ينحط بتعطيلها إلى مرتبة دون الدواب والأنعام، يقول تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179].

جاء في تفسير المنار: (ذُكِرَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ (الفقه) فِي عِشْرِينَ مَوْضِعًا مِّنَ الْقُرْآنِ تِسْعَةَ عَشَرَ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ نَوْعٌ خَاصٌّ مِنْ دِقَّةِ الْفَهْمِ، وَالتَّعَمُّقِ فِي الْعِلْمِ، الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَاعُ بِهِ، وَأَظْهَرُهُ نَفْيُ الْفَقْهِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُدْرِكُوا كُنْهَ الْمُرَادِ مِمَّا نَفَى فِقْهُهُ عَنْهُمْ، فَفَاتَتْهُمْ الْمَنْفَعَةُ مِنَ الْفَهْمِ الدَّقِيقِ، وَالْعِلْمِ الْمُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَوْمٍ شُعَيْبٍ لِّنَبِيِّهِمْ: مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ (11: 91) وَإِنْ تَرَأَى لِعَیْرِ الْفَقِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ كُلَّ مَا يَقُولُ فَهَمًّا سَطْحِيًّا سَادَجًا؛ لِأَنَّهُ يُكَلِّمُهُمْ بِلُغَتِهِمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُونُوا يَبْلُغُونَ مَا فِي أَعْمَاقِ بَعْضِ الْحُكْمِ وَالْمَوَاعِظِ مِنَ الْغَايَاتِ الْبَعِيدَةِ لِعَدَمِ تَصَدِيقِهِمْ إِيَّاهُ، وَعَدَمِ احْتِرَامِهِمْ لَهُ، وَلِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِتَقَالِيدِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ الصَّادَةِ لَهُمْ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِيهِ وَالْإِعْتِبَارِ بِهِ)¹

ويقول سبحانه: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: 44]

يقول الشعراوي تعليقا على هذه الآية: (كأن الحق سبحانه يقول: أنتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ وكلمة {أَكْثَرُهُمْ} [الفرقان: 44] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل، وهذا من قانون الاحتمال، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العدا، وانتهى الأمر بهم إلى أن أسلموا وحسن إسلامهم، إذن: كان فيهم مَنْ يسمع، وَمَنْ يفكر ويعقل؛ لذلك قال: {أَكْثَرُهُمْ} [الفرقان: 44] ليحمي هذا الحكم، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض، هذا دِقَّةٌ في تحري الحقيقة)². وقريب من هذا المعنى صرح به القرآن في وصف من لا يستخدمون عقولهم قائلا: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ

¹ رشيد رضا، محمد، تفسير المنار ج9، ص 352.

² الشعراوي، محمد متولي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997، ج17، ص10453

الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ { [الأنفال: 21 - 23]، يقول سيد قطب في تعليقه على الآية: (ولفظ «الدواب» يشمل الناس فيما يشمل، فهم يدبون على الأرض، ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام، فيلقي ظله بمجرد إطلاقه ويخلع على «الصم البكم الذين لا يعقلون» صورة البهيمة في الحس والخيال! وإنهم لذلك! إنهم لدواب بهذا الظل. بل هم شر الدواب! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتا مفهومة. إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية.

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به. فهم شر الدواب قطعاً.¹

إن القرآن يريد للإنسان أن يرقى لمستوى إنسانيته الذي بدأ بتكريمه في الملائكة الأعلى، وجعل من العلم مناط ذلك التكريم.. وهو يربط بين تزويد الخالق سبحانه الإنسان بحواس الإدراك وما يترتب عن استخدامها والانتفاع بها من تحقق شكر الله على تلك النعم، يقول تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [الملك: 23] ويقول سبحانه: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78].. ومن أجل الانتفاع بتلك النعم الإدراكية، أرشد الحق تعالى العباد إلى التفكير والتدبر في آياته، سواء في الأنفس أو الآفاق، كما أرشد إلى التدبر في آيات القرآن.. ففي آيات الكون دعا القرآن إلى التفكير في مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وعظمته، فمن ذلك قوله سبحانه: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي

¹ في ظلال القرآن ج 3 ص 1493

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 65 - 69]

صحيح أن أسلوب التفكير الذي يدعو له القرآن غايته الكبرى، إدراك عظمة الخالق، وإخلاص العبودية له، لكنه في الآن ذاته يخلق حالة من اليقظة الفكرية التي تنعكس في مختلف نشاطاته العملية، لا سيما حين يدخل القرآن في حالة حوارية مع المشركين مطالباً لهم بتقديم الحجج والبراهين على ما يدعون في عباداتهم واتباع آلهتهم، يقول تعالى: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148] وفي هذا السياق أيضاً نهى القرآن عن المجادلة بغير علم، ومن ذلك قوله سبحانه: {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: 3]

ومن أنواع التفكير التي يدعو إليها القرآن، التفكير في مصارع الغابرين من الأمم السابقة، من أجل النظر في وعواقبهم، و الاعتبار بمصائبهم، يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: 13، 14].. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [النمل: 69]

كما يتحدث القرآن عن آيات الأنفس، حيث يوجه الله تعالى الإنسان إلى التفكير في عالمه الداخلي، أصله وتكوينه، وأحواله مما يكون له أبلغ الأثر في الاعتبار، يقول تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20، 21].. {وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [الروم: 8]

وأما في آيات القرآن، فقد دعا سبحانه إلى التدبر، وهو الأسلوب الوحيد الذي يعتبره القرآن أداة في التعامل معه بعد الأمر بالتلاوة، يقول تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ

مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا { [النساء: 82]، ويقول سبحانه: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا { [محمد: 24]

ولتنمية حاسة التفكير، دعا القرآن الإنسان إلى استخدام البصر بالنظر والرؤية في ما
حوله: { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ { [الأعراف: 185].. {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا
فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ { [ق: 6 - 11].. {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا { [الإسراء: 99]

ودعا إلى حسن استخدام الفؤاد أو القلب باعتباره محل الصفة العاقة في الإنسان، {
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ { [الحج: 46].. {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ
الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا
أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ { [الأعراف: 179]

تبدأ خطوات التفكير الصحيح في القرآن بإدراك مسؤولية الإنسان عن طريقة
استخدامه لحواس الإدراك التي زوده الله تعالى بها، يقول سبحانه: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا { [الإسراء: 36].. ثم الحفاظ على
هذه النعم مما قد يفسدها ويعطل دورها ووظيفتها، فتحريم الخمر حتى لا يلبس العقل ويؤثر
في عمله.. ثم التزام الفكر بالثبوت وعدم التسرع " فتبينوا" {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ
الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا { [النساء: 83].. { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ

يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
[يونس: 39]

وتتبين أهمية التفكير فيما ذكره الدكتور زياد خليل الدغامين: (التفكير بوصفه ملكة إنسانية تبعث في الإنسان القدرة على اختيار الأحسن والأصوب من كل ما يجده أمامه، أو إزاء ما يعرض عليه من عقائد ومذاهب وأفكار، وأخلاق وسلوك وتصرفات. وهي ملكة يمكن أن يرتقي بها الإنسان في حال استثمارها فينال أعظم مرتبة، ويتقياً أسمى منزلة، ويمكن أن يضل بتعطيلها، أو توجيهها وجهة إبليسية خاطئة، فيكون أتقه مخلوق في هذا الوجود)¹

والتفكر يثمر الفقه، والفقه هو حسن الفهم أو دقة الفهم، وحين لا يستخدم الإنسان حواسه الإدراكية يفقد الوصول إلى هذه النعمة، التي تجعل الإنسان يحسن الاختيار والقرار في أمور حياته المصيرية قبل الصغيرة، لذلك وصف الحق سبحانه اختيارات المنافقين بكونها تعبر عن قلة أو عدم فقههم، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 127]. وقوله سبحانه: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: 7]...

¹الدغامين، زياد خليل محمد، " منهج القرآن الكريم في صياغة تفكير الإنسان " ، علوم الشريعة والقانون، المجلد32، العدد1، 2005

الفصل الثالث

أدوات المنهج القرآني وأثرها في تزكية الإنسان

المبحث الأول: أدوات تفعيل القرآن في حياة الإنسان

المطلب الأول: القرآن تلاوة وتعلّما

سبق أن ذكرنا ان المنهج القرآني منهج متكامل، تتداخل فيه الغايات والوسائل، فلا يمكن عزل بعضها عن بعض، وإنما تشكل رزمة عمل موحدة. وهو أمر ضروري استحضاره هنا، حين الحديث عن برنامج عملي للمنهج القرآني. إذ يحسن بنا التذكير في هذا المقام ببعض النقاط التي مرت معنا في الرؤية القرآنية، ومقاصدها التي يأتي الحديث عن برنامج عملي كأداة لتحقيقها.. فقد رأينا كيف يشكل القرآن رؤية حياتية للإنسان قوامها المعرفة بالله تعالى والإيمان به، والمعرفة بالإنسان وطبيعته وما يكتنفها من ضعف وافتقار وحاجة.. والمعرفة بالحياة وما تقوم عليه من سنة الابتلاء، ثم رأينا كيف تتحقق التزكية في كل من الحالة الإيمانية والنفسية والعقلية وعلى مستوى نمط الحياة.. يأتي البرنامج العملي القرآني بعد ذلك ليكون صمام الأمان في مسألة ديمومة الصلة بالله تعالى.. بإدامة اليقظة وتوقي السقوط في درك الغفلة.. فيقدم المنهج القرآني من الأدوات والوسائل ما يحقق للمسلم ذلك بأفضل فعالية ممكنة في حياته.. من تلك الوسائل الدعوة إلى تلاوة الآيات وإقامة الصلاة والإكثار من ذكره سبحانه، مع التزام كل الأوامر واجتناب كل النواهي قدر المستطاع. كما يقيم المنهج القرآني أسلوب الاقتداء بالصالحين من العباد وسيلة لدعم الاستقامة والنجاة من داء الغفلة.. من أجل ذلك، وجب الالتزام ببرنامج عملي يتضمن محطات يومية أسبوعية وسنوية وعمرية، هنا يصبح الحديث عن مقاصد الصلاة والصوم وصلاة الجمعة أهم بكثير من الحديث عن اختلافنا في جزئيات أدائها وتفاصيل ذلك، كما

ويصبح الحديث عن حكمة التوقيات المرتبطة بأداء هذه الشعائر وعلاقة ذلك بالسعي في الأرض أمراً ذا أهمية بالغة.

كان من علامات انحطاط المسلمين في التاريخ الإسلامي كما وقفنا على ذلك في المبحث التراثي نزوعهم إلى التمثهه وتتبع الأفكار والآراء على اختلافها وتشعبها على حساب القرآن الكريم الذي أصبح مهجوراً كما نبه إلى ذلك ابن القيم في زمنه وغيره كثير.. فقد كان التعليم يبدأ بالفروع التي لا تنتهي أبداً. ومحاولة الاقتراب من معاني القرآن تحتاج لاستجماع الشروط والمؤهلات التي وضعها العلماء وأوصلها بعضهم إلى خمسين علماً. ولذلك جاء معظم التفسير الموروث على اختلاف مذاهبه واتجاهاته؛ غنيا بالأقوال والمذاهب والآراء التي تدور في فلك المعلومات والمعارف اللغوية والتاريخية والفقهية.. والتي تضخمت حتى صارت حجاباً كبيراً مانعاً من الوصول إلى القرآن ذاته. وهو ما أعجز الناس عن الارتباط المباشر بالقرآن وتدبره ذلك التدبر الذي يستثمر بالضرورة في واقع الحياة.

و فكرة تفسير القرآن فكرة خاطئة من الأساس. فكون القرآن كتاباً مكنوناً، فهو متجدد العطاء بتجدد الأزمان. وهو روح من أمر الله متجاوز للأبعاد الظرفية الزمانية والمكانية التي توطر الحياة البشرية في لحظة تاريخية ما. ومن ثم، لا يمكن للتفسير البشري النسبي أن يوطر المطلق القرآني. ولو كان لأحد أن يفعل ذلك لكان النبي ﷺ أول مفسر للقرآن، ولكنه لم يفعل.

أورثنا ذلك كله، صلة سطحية وشكلية بالقرآن الكريم - كتاب التغيير الأول - وأصبح غاية ما يطمح إليه المهتمون بالقرآن والمعتنون به؛ قراءته جمعا للحسنات من عدد حروفه، وحفظه، وتجويده.. وأما علاقة القرآن بالحياة، واستحضاره وتدارس معانيه في الشأن اليومي للإنسان، فقد صار عزيزاً جداً. هكذا تعطلت عملية التدبر المأمور بها قرانياً، وهكذا تعطل دور القرآن في حياتنا، فقد عطل التفسير التراثي عملية التدبر القرآني، مع ترسيخ قناعة لدى الناس، مفادها؛ أن حفظ القرآن وتجويده من أعظم ما ينفع صاحبه يوم لقاء ربه، ففي ذلك منتهى الغاية. يقول الدكتور مجدي الهاللي: (لم ننتبه إلى وظيفة القرآن الأساسية والمتفردة،

ولم نفكر في روح القرآن الغائبة وأثره المفقود بيننا، وظننا أن ما نفعله مع القرآن، من تشجيع على حفظه، وكفالة المؤسسات القائمة عليه هو قمة خدمتنا للقرآن¹. ويؤكد أيضا أن (من أخطر الممارسات التي ساهمت في فتح القرآن وتخفيف هيئته في القلوب: الإسراع في حفظ حروفه، فقد رسخ في أذهان المسلمين ضرورة حفظ القرآن بعضه أو كله، وأن مجرد حفظ حروف القرآن ترفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وتجعله من أهل القرآن ورفيقا للسفرة الكرام البررة، وأنه سيستمر في درجات الجنة حتى آخر آية كان يحفظها....)²

من أجل تصحيح الصلة بالقرآن الكريم (الوحي الإلهي) نعيد ربط الصلة بمضمون آياته في الموضوع ذاته. وسوف يتبين لنا أن القرآن الكريم لم يترك أمر التعامل معه ومع آياته هملا، بل أخبر منذ نزوله على النبي ﷺ وفي آيات عديدة عن طرق الإفادة منه والاهتداء به. وأول ما يسترعي انتباهنا في القرآن كثرة الآيات التي تنتقد مسالك السابقين من أهل الكتاب في التعامل مع وحي ربهم. فقد نعى القرآن فعل أهل الكتاب في تعاملهم مع كتاب ربهم من نواح عدة، أولها عدم العلم به وسلوك مسلك الظن والرغائب في التعاطي معه، ثم التكسب من ورائه، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: 78، 79] كما نعى الله تعالى سلوك التبعض الذي صدر منهم في عدم قبول الوحي جملة واحدة، فتوعد الذين يبعضون كتابه بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} [البقرة: 85]. و مثل الله عز وجل أيضا في القرآن الكريم لحال أهل الكتاب الذين حملوا علم التوراة ولم ينتفعوا به بأسوأ وأقبح مثل، فقال: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ

¹ الهاللي، مجدي، غربة القرآن، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 2013، ص 150

² نفسه ص 133

يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ} [الجمعة: 5]

ليس ذلك فقط؛ بل حين أراد الحق سبحانه أن يوجه أمة القرآن لواجبهم نحو القرآن
وتجنب الأساليب الخاطئة في التعامل مع الوحي زمن النبي ﷺ، ذكرهم أيضا بحال أهل
الكتاب و محذرا هذه الأمة من سلوك مسلك السابقين من الأمم، في ترك كتاب ربهم وعدم
المبادرة للانتفاع به ، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ } [الحديد: 16].

ونرى أن تعدد الآيات حول التحذير من الوقوع في تجارب الأمم السابقة في التعامل
مع الوحي الإلهي يؤكد أهمية هذا الموضوع وخطورته في الآن ذاته، كما تؤكد الآيات التي
تحدثت عن كيفية التعامل مع القرآن وتحقيق الاستفادة المثلى من هذا الكتاب الكريم، ليكون
نبراسا لنا في الحياة، وتتحقق أوصافه في حياتنا العملية، نورا وهداية وبيانا وشفاء وبرهانا..
ذلك ما سنعمل على استخراجهِ في خطوات عملية واضحة.

وظيفة النص القرآني أن يعرف الإنسان بذاته أولا، فهو حبل الله الممدود له من عالم
الغيب، ليكشف له سر وجوده، ومعنى وجوده في الحياة الدنيا، ودوره فيها، وغاية كل ذلك.
إن الإنسان في العادة يطرح مثل هذه الأسئلة في صغره باعتبارها فطرية في كينونته. ثم
يتلقى إجابات عنها ويضمّر ذلك لصالح مجريات العادة في الفكر والسلوك، ولن تطفو مثل
تلك الأسئلة بعد ذلك إلى أن يستبصر طريقه استرشادا بالوحي، أو تلم به حيرة التيه في
الوجود. ومن عجيب توصيف القرآن لدوره وتأثيره الذي لا نلقي له بالا أن يقول الله تعالى
عنه : {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: 21]، يقول سيد قطب رحمه الله تعليقا على الآية:
(هي صورة تمثل حقيقة. فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه
بحقيقته. ولقد وجد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ما وجد، عند ما سمع قارئاً يقرأ:

«وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّفِّ الْمَرْفُوعِ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ» ... فارتكن إلى الجدار. ثم عاد إلى بيته يعود الناس شهرا مما ألم به! واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا. ويقع فيه من التغيرات والتحويلات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام. أو أشد. والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ..» والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانههم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى¹

فطبيعة القرآن أنه روح من أمر الله، جعله الله نورا لهداية الخلق، لينير للإنسان طريقه في الحياة، وهو ما يجعله حيا حقيقة، إذ لا حياة على وجه الحقيقة بغير نور الله سبحانه، قال تعالى: {أَوْمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122] يقول الدكتور الشاهد البوشيخي تعليقا على الآية: (الإنسان بدون قرآن ميت، حتى تحل فيه روح القرآن، بالقرآن يتم إحياء الإنسان، فأول علاقة بين القرآن والإنسان هي علاقة الروح بالجسد)²

ومن ذلك أيضا قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: 52، 53]

فوصف القرآن بالروح هنا له دلالة عميقة جدا في بيان حقيقته ودوره بالنسبة للإنسان، إذ من المتعارف أن الإنسان بلا روح يكون مجرد جسد أو جثة بالأحرى، لأن الروح هي

¹ قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط23، 1994، ج5، ص6، 3532

² البوشيخي، الشاهد، القرآن والإنسان أية علاقة، مطبعة أنفو، فاس، 2009، ص29

التي بها قوام حياته، وكذلك يكون القرآن روحا لأنه يحيي الإنسان الحياة الحقيقية ويضفي عليها معنى الوجود وحقيقته وغايته، فالإنسان بدون قرآن ميت والقرآن هو الروح الذي يحييه و ينير له طريق الهداية.

تبين الآية 151 من سورة البقرة إحدى الوظائف الأربع للرسول، وذلك في قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 151]، فتحدد لدينا أربعة أمور في التعامل مع كتاب الله تعالى، وهي:

- التلاوة/ القراءة: هناك مواضع عديدة في القرآن الكريم تتضمن الدعوة إلى تلاوة آيات الله تعالى مما يبين أهمية هذا الفعل ومحوريته في علاقة الإنسان المؤمن بالقرآن؛ فقد ربط الله سبحانه بين تلاوة الآيات والغاية منها وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق: 11] و تتأكد تلك الأهمية حين يدعو القرآن إلى ضرورة توفير الأجواء المناسبة التي تساعد على تحقيق الاستفادة المرجوة من تلاوته، وفي ذلك يقول تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204] وقد تحدث علماء المسلمين عن هذا الفرق بين درجة الاستماع ودرجة الإنصات الواردة في الآية، فالاستماع مرتبة سابقة ومهيئة للدخول في مرحلة الإنصات التي تعتبر أدق في استيعاب معاني ما يتلى من القرآن، ورد ذلك في شأن الجن أيضا حين انتقلوا من مرحلة الاستماع للقرآن إلى مرحلة الإنصات، قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} [الأحقاف: 29]

كما بينت الآيات القرآنية من سورة المزمل أن قراءة القرآن في قيام الليل ينبغي أن تكون صفة دائمة، مهما كانت الانشغالات التي هي من ضرورات الحياة و في علم الله تعالى ، قال سبحانه: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ

مِنْهُ} [المزمل: 20]. وفي الآية ملحظ توجيهي هام، لمن يرى الاكتفاء بقراءة القرآن وقيام الليل عن القيام بشؤون الحياة وضرورتها من أعمال وكسب على عادة الرهبان.. فلو كان ذلك ممكنا لأقره الله تعالى في هذه الآية واعتبره حجة وبرهانا لأصحاب ذلك التوجه. لكن سورة المزمل التي جعلت من قيام الليل موضوعا رئيسيا لها، تحدثت عن التخفيف والتيسير بسبب تلك الأعمال، ولم تتحدث عن تعطيل الحياة من أجل قراءة القرآن، لأن القرآن لا يُقرأ ابتداء إلا من أجل دوره في الحياة.

وقراءة القرآن ينبغي أن تكون بمنهج الإقبال على الله سبحانه طلبا للهداية واتباعا لنهجه وطريقه، لا من أجل الجدل والمماحكة، فللقرآن مفاتيح لا يعطيها إلا لمن يستحقها، فهو هداية لكن ليس للجميع، إذ تخبرنا الآيات الأولى من سورة البقرة أنه للمتقين فقط، الذين أقبلوا عليه طالبين الهداية، باحثين عنها خائفين من تضييع طريق الهدى والنور، قال تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] وقال سبحانه: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15، 16] والعجيب أن القرآن الكريم يتحدث في غير موضع عن تصريف الآيات للناس بطرق متعددة ومداخل متنوعة من أجل هدايتهم كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: 54]، وكذلك في قوله سبحانه: {وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: 105] فهذه الآيات وأمثالها تبين رحمة الله الواسعة في تصريف الآيات للناس، لكن، حين لا يكون منهم إقبال على القرآن، أو يستكبرون عنه أو غير ذلك من موانع الهداية، يصرف الله قلوبهم عن الهداية، كما في قوله سبحانه: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: 127] بل إن الله سبحانه يعاقبهم على ذلك الإعراض والتمادي فيه بجعل غشاوة على أعينهم وأكنة على قلوبهم، فلا يهتدوا به أبدا ، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [الكهف: 57]

فالهداية تتحقق لمن جاء يسعى إليها، والله أعلم بقلوب عباده. أما الغافلون
المستكبرون في الأرض، فالقرآن يعاملهم من جنس طريقتهم القائمة على التكذيب دون علم،
يقول عز وجل عن هؤلاء: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ
يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 146]

فإذا فهمنا ذلك، تبين لنا أهمية الارتباط بين التلاوة الحقة للكتاب والإيمان به الوارد
في قوله سبحانه: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: 121]، كما تبين خلل من يتوهم تعلق الأمر بتجويد القرآن،
يقول بان ناصر سعدي: (يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنَّ عليهم به منة مطلقة،
أنهم {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله،
ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب،
الذين عرفوا نعمة الله وشكروها)¹

واقتضت مشيئة الله تعالى، أن يتم الارتقاء بكتابه الكريم، وترقية الحياة وتنميتها من
خلاله؛ من خلال تدارس آياته. والتدارس: مصطلح التدارس دلت عليه الآية 79 من سورة
آل عمران في قوله سبحانه: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْوَاقٌ خَالٍ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ تَفَرَّقَتْ
الشُّعُوبُ } [آل عمران: 79] وهذه الآية وإن كانت وردت في سياق الحديث عن وظائف
الأنبياء، حيث الدراسة لكتاب ربهم وتعليمه للناس من مهامهم العظمى، كما ورد أيضا في
الآيات الأربع التي تبين المهام الأربع للرسول؛ المتضمنة لتلاوة الآيات والتركية و تعليم
الكتاب وتعليم الحكمة.. إلا أن تلك المهام شرف لمن يسير على نهج الأنبياء ويقتدي بهم

¹ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة، ط 2005، ص 65

في حياته. فالتدارس الوارد في الآية، نوع من التعليم للكتاب ، يقول الدكتور فريد الانصاري رحمه الله تعليقا على الآية السابقة: (فالدراسة والتدارس إذن: هو تتبع صيغ العبارات ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد و الغايات، من كل آية وسورة، وتعلم ذلك كله ترتيبا وتفسيرا، بما فيه ضبط ألفاظه وآياته وسوره؛ للتعرف على أسرار وحكمه. وذلك جماع ما كان يفعله جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ في ليالي رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله صلى اله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة"¹

تشير الرواية لتي أوردتها الأنصاري عن التدارس الذي كان يتم بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ إلى ما سبق تسجيله في بداية هذا المبحث عن موضوع ترتيب القرآن، إذ تظهر هنا علاقته بالمدارس وطيدة وذات أهمية جلية. فلا شك أن الطبيعة التركيبية للنص القرآني هي أحد مقتضيات الدعوة إلى التدبر؛ ذلك أن مسألة إعادة الترتيب الوقفي لآيات القرآن، لا يتم فتحها إلا من خلال التدبر. وبيان ذلك، أن الناظر في سور القرآن وآياته، يجد نفسه أمام محيطات شاسعة من العلوم والمعارف المتعددة والمتنوعة المداخل والأساليب ووسائل العرض ... غير أن المدقق في تلك الموضوعات جميعها يدرك أن الإنسان هو محورها الأساس، وهو المقصود بها ابتداء وانتهاء.. فكيف يفيد الإنسان من القرآن في ظل تركيبته المصحفية كما أعيد ترتيبها قصدا وأريد لنا أن نقرأها على ذلك الأساس من الترتيب. ذلك أن القرآن لا يعرض معارفه مصنفة أو مبوبة حسب موضوعات بعينها، حتى وإن كان له تصنيف بحسب السور المتفاوتة الطول والقصر، ففي الغالب الأعم تتضمن هذه السور موضوعات على طريقة من التداخل والتنوع، ففيها الحدث التاريخي ممتزجا بمعارف غيبية ومعززا بقصة أو مثل أو كلاهما مع ذكر سنن نفسية أو كونية...وذلك في إطار سياق

¹ الانصاري، فريد، مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، دار السلام، القاهرة، ط2، 2010، ص69

للعرض يجعل الموضوعات حية مليئة بالمواقف والأحداث والأشخاص ليقدّم من خلال ذلك كله هدايته إلى الناس، {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: 9]

أمام هذا المعطى الموضوعي، وبتطور المدارس القرآنية الحديثة والمعاصرة، تم إيجاد آلية للبحث القرآني أكثر تناسبا مع طبيعته القائمة على الوحدة البنائية الكاملة، حيث ظهرت الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم، كبديل منهجي قادر على تجاوز ملفات منهجية التجزيء والتبعض التراثية. وهذه الآلية هي الدراسة المصطلحية التي تقوم على دراسة مصطلح من مصطلحات القرآن الكريم بهدف الخروج بفكرة متكاملة عن موضوعه، وذلك باستفتاء القرآن من أوله إلى آخره في الموضوع المطلوب دراسته وتكوين فكرة قرآنية عنه من خلال رصد الآيات المتضمنة له لفظا ومعنى، والتعرف على سياقات ورودها داخل النص القرآني اعتمادا على منهج الاستقراء وما يتطلبه من أدوات إحصائية وتتبع معاني الكلمات في المعاجم اللغوية ، ومعاني ورودها القرآنية، وتحليل أوجه العلاقات بينها ..إلى غير ذلك مما هو متعارف عليه في هذا الشأن.

المطلب الثاني: القرآن تدبرا ومجاهدة

القرآن كتاب لم ينزل ليكون حكرا على فئة دون أخرى، إذ باعتباره روحا من أمر الله يتضمن بموجب ذلك عناصر الهداية والرشد للناس كافة. وتأثيره لا يتوقف على جانب دون آخر. ولا شك أن العرب الذين نزل عليهم أول الأمر لم يكونوا أهل فكر وثقافة بين الأمم المحيطة والمجاورة، بل كانوا الأقل في ذلك بين الأمم. ومع هذا فقد لمس القرآن قلوبهم ، وزلزل كياناتهم ، وأحدث فيهم تغييرا غيروا به مجرى التاريخ الحضاري. ذلك أن للقرآن خصائصه التي تقدح زناد النور في التلقي المباشر لمن يقبل عليه صادقا. فإذا كان التدارس للكتاب خاصا بالأنبياء ومن سار على نهجهم من المتفقيين الذي يندرون قومهم إذا رجعوا إليهم. فإن التوجيه الذي وجهه القرآن لكافة الناس في التعامل معه هو ذاك الذي يكون مصاحبا لقراءته على مستوى الممارسة الفعلية ملخصا في "التدبر"، فالتدبر هو الكلمة التي تختزل عمق العلاقة التي يؤسسها القرآن مع الإنسان. إذ تكتمل الصورة الإرشادية الإلهية لمنهج التعامل الأمثل مع القرآن الكريم اعتمادا على الآيات الداعية إلى ممارسة التدبر فيه، وذلك من خلال قوله تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: 68] وقوله سبحانه: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82]، وقوله كذلك: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24].

يقول عبد الرحمن حسن : "التدبر عند أهل اللغة هو التفكير، ولكن مادة الكلمة تدور حول أواخر الأمور و عواقبها وأدبارها، فالتدبر هو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هذا نستطيع أن نفهم أن التدبر هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومرامييه البعيد)¹، فمعنى تدبر القرآن هو التفكير والتأمل في آياته من أجل إدراك معانيها وغاياتها. فكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة، لذلك يعتبر أمر الله بالتدبر

¹ الميداني، عبد الرحمن حسن حنيفة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات، ط 4، (دمشق: دار القلم، 1430-2009م)، ص10.

القرآني من أهم مقاصد نزول القرآن، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29]

يقول الطاهر بن عاشور (والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلائل الدلائل على ما نصبت له. وأصله أنه من النظر في دبر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادية ذي بدء).¹

ويضيف ابن عاشور: (تدبر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غايته أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. والتدبر يتعدى إلى المتأمل فيه بنفسه، يقال: تدبر الأمر. فمعنى يتدبرون القرآن يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله وثانيهما أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق. وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبر هنا على المعنى الأول)²

وتبرز الحاجة إلى تدبر القرآن استنادا إلى طبيعته وخصائصه أيضا، فهو لا يقدم أجوبة مفصلة لموضوعات محددة لأنه ليس كتاب معارف ومعلومات، إنه يقدم نفسه كتاب هداية، وطريقته المتبعة لا تقوم على استعراض المعلومات بقدر ما تقوم على عرض وقائع وأحداث، وتقرير حقائق وسن أحكام ضمن سياقات تجارب إنسانية تفاعلية حين النزول أو قصص سابقة أو أمثال... هنا تصبح المعلومة موظفة في إطار تحقيق مقصد أو قيمة أو مبدأ... فيأتي الخطاب القرآني بأساليب متعددة متباينة مما يظنه البعض تكرارا، وإنما يكون الغرض لمس قلوب وأمزجة وطبائع مختلفة من الناس باختلاف أفكارها وتجاربها وميولاتها.. وهذه الطريقة التي يتبعها القرآن لها نتائج عملية على المستوى التربوي في بناء الإنسان وترقيته. والتدبر ممارسة عملية لا تدرك حقيقة الإدراك إلا من خلال التطبيق الفعلي، وهي

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، 1984. ج18، ص87

² ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، المرجع نفسه، ج5، ص137

عملية لا تؤتي ثمارها الحقيقية إلا حين تمارس في جدل دائم ومراوحة مستمرة بين آيات القرآن المسطورة وحركية النشاط الإنساني في واقع الحياة.

وقد وفق الله عز وجل أقواما في ذلك فسجلوا لنا تجاربهم مع القرآن، فكان مما يقوله ابن القيم رحمه الله عن أهمية التدبر وفوائده: (ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته - من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها ... تثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتُعد أركانه، وتُريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، ... وتعطيه فرقا ونورا يفرق به بين الهدى والضلال، والغنى والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعادة وانشراحا وبهجة وسرورا، فيصير في شأن، والناس في شأن آخر)¹.

وحين يتدبر الإنسان القرآن يجد من الحقائق ما لم يظهر لصاحب القراءة السطحية، وتبدأ بعض الإشكالات الذهنية تتبدد، وبعض المعاني والحقائق الربانية تُسكب في القلوب. ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره الدكتور مصطفى محمود رحمه الله عن قضية ما يلمسه البعض من تكرار في القرآن، إذ يقول في هذا الصدد: (وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي .. الكلمة فيه أشبه بالخلية .. فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي، ومع ذلك فهي لا تتكرر أبدا.. وإنما تتنوع وتختلف.. وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبدا برغم ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهدا جديدا.. وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل.. وأنها تتفرع تفرعا عضويا.. تماما مثل البذرة التي تعطي جذرا وساقا ثم أغصانا ثم أوراقا ثم براعم ثم أزهارا ثم ثمارا، وهي في كل مرة لا تخرج عن كونها نبات البرتقال.. ولكنها عبر هذا التفصيل تعطينا في النهاية حقيقة نبات البرتقال.. وذلك هو الترابط العضوي أو المعمار الحي.. والقرآن بهذا

¹ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق أحمد فخري الرفاعي و عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، (د.ت) 451/1.

المعنى يشبه جسما حيا.. والكلمة القرآنية تشبه كائنا حيا أو خلية جنينية حية، فهي تتفرع عبر التكرار الظاهر لتعرض مشاعد يكمل بعضها بعضا)¹

وهكذا ، فكل سورة من سور القرآن تمثل زادا مختلفا لهذا الإنسان، وقد بينا أهمية التعامل مع القرآن من منطلق السورة كوحدة أساسية، فهناك سور قصار وسور متوسطة وسور طوال ، وكل يغترف بحسب طاقته واستمداده. يقول فتحي ملكاوي: (ليس ثمة تزكية لا تبدأ بالقرآن وتنتهي إليه. وليس ثمة تزكية لا تبدأ بالنفس الإنسانية وتنتهي بها، لذلك أصبحت تزكية النفس هي المظلة العامة لكل أشكال التزكية... فمن أراد التزكية فعليه بالحياة في ظلال القرآن، ورحم الله من عاش في ظلال القرآن، وسجل لنا بعض الخواطر والانطباعات عن الحياة في ظلال القرآن وبيّن أنها نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه)². يشير الدكتور فتحي ملكاوي في هذا النص إلى مقدمة سيد في ظلاله الوارفة، والتي عبر فيها عن بعض ثمار ما عاشه من حياة في تجربته التدبرية في ظلال القرآن، ولأهميتها بالنسبة لنا أيضا في هذا السياق، ننقل منها بعض الفقرات :

(الحياة في ظلال القرآن نعمة . نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

وعشت - في ظلال القرآن - أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال. ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هذا الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحماة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟

¹ محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 4

² ملكاوي، فتحي حسن، منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط2013، ص113

وانتهيت من فترة الحياة - في ضلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم.. إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله..¹

وفي القرآن أيضا إبراز لعواقب الإعراض عن آيات الله وعدم التدبر فيها، فيبين الله سبحانه ما يحل بصاحبها من انحطاط في القيمة، تجعله يوصف بالكلب في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]، فيخشى على من قرأ القرآن ولم يتدبره ويتأثر به ويعمل به أن يلحقه شيء من ذلك .

كما أخبر القرآن الكريم إلى ما يتطلبه التعامل مع القرآن في واقع الحياة من جهاد مستمر ، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 50 - 52]

واختلف المفسرون إلى من يرجع الضمير في «صرفناه»؛ فمنهم من أرجعه إلى الماء باعتباره المذكور في الآية قبلها، ومنهم من أرجعه إلى القرآن. ورجح سيد قطب رحمه الله أن الضمير عائد على القرآن، قائلا: (لأنه لا شك في أن قوله: «وجاهدكم به» يعنى القرآن فهو لا يجاهدكم بالماء. والذي يجعل الضمير الثاني راجعا إلى القرآن يجعل الضمير الأول كذلك)².

و المجاهدة بالقرآن لا تكون قتالا، يؤكد ذلك أن الآية من سورة مكية حيث لم ينزل الأمر بالقتال بعد. فأصل كلمة الجهاد من الجهد ويدل في أصله اللغوي على المشقة، يقال:

¹قطب، سيد، في ضلال القرآن، ج1، ص12-15
² قطب، سيد، في ضلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط23، 1994، ج5، ص2570

جهدت نفسي، وأجهدت، أي: حملتها من المشاق على غير عاداتها. وفي قوله تعالى: "جاهدوهم به" أي بالقرآن.

وتصور لنا الآية بهذا التعبير - جاهدوهم به - ضراوة المعركة التي كان يخوضها القرآن في عالم الأفكار والتصورات، وما يكتنفها من مواجهة الشبهات من جهة، وتقديم الهدايات القرآنية من جهة أخرى. في ساحة معترك دائم ومستمر. وقد سجل لنا القرآن طرفا مما لقيه النبي ﷺ والمؤمنون من بعده في سبيل ذلك، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: 33 - 35]

ويبقى السؤال هو كيف نجاهد بالقرآن اليوم ؟ إن أول جهاد وأهم جهاد، جهاد النفس والهوى، فإذا كان تدبر القرآن يعين ابتداء على جهاد النفس والهوى اهتداء إلى سبل الله {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69] ، فإن الجهاد ينتقل بعد ذلك من ساحة النفس إلى ساحة المجتمع حيث جهاد تبليغ رسالة الله و جهاد تعليم القرآن والمحااجة به في معترك الحياة أمام المذاهب والأفكار والنظريات. ومن ذلك، مواجهة حالة التيهان والروغان التي تظهر في سلوكيات المسلمين اليوم، وتجعلهم فاقدين للخصوصية معتبرين ما هم عليه من التوضع في ما يسمى المنطقة الرمادية دليل نكاه وعنوان نجاح. وإذن، فيكون من الجهاد بالقرآن، الدخول بمفاهيمه وتصوراته وقيمه في الحياة إلى ساحة الاجتماع البشري، و محاوره المبطلين و السعي لإقامة الحجة على الأفكار والتصورات المنحرفة. وفي ذلك تقوية لإيمان صاحبه بالقرآن . يقول الأستاذ سيد قطب: (حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان؛ لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس؛ وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح

له أبدأ وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبدأً بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراتهِ وبعاداتهِ وطباعهِ وانفعالاتهِ واستجاباتهِ، ما لم يكن ليبلغه أبدأً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة¹

ذلك أن القرآن - النور - لا يظهر نوره إلا بإقامة النماذج القدوات الحية في المجتمع، لتكون معالم الطريق إليه استقامة وثباتاً واعتزازاً بانتمائها الإيماني ومصدرها القرآني. الذي هو مصدر القوة في هذا الجهاد - جاهدكم به - يقول سيد قطب: (وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان، والتأثير العميق، والجاذبية التي لا تقاوم، ما كان يهز قلوبهم هزاً، ويزلزل أرواحهم زلزلاً شديداً فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً)².

ولذلك أيضاً، دعا الله تعالى إلى أخذ الكتاب بقوة والاستمسك به، قال تعالى: { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الزخرف: 43]، وقال سبحانه: { الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } [الأعراف: 170]

يعيش المسلمون اليوم تدهوراً في جل مجالات الحياة من أهم أسبابه تدهور العلاقة بالقرآن الكريم الذي مثل مرجعيتهم الأساسية منذ نزوله. فرغم الاهتمام بتلاوته وترتيله وسماعه وحفظه، لا تزال روح القرآن غائبة على مستوى السلوك الفردي والجماعي وعلى صعيد الأمة الحضاري، رغم أنه كان في القرون الأولى للإسلام مؤثراً في سلوك المسلمين ومحركاً أساسياً لحضارتهم. فكيف نحول فهمنا للقرآن اليوم إلى هداية على مستوى الفرد وإلى نهوض حضاري؟

فالقرآن الكريم هو أساساً كتاب هداية: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً." وتحقق هدايته يتحدد من خلال معرفة الهدف من القراءة، ومنهجية التعامل مع آيات الكتاب.

¹ قطب، سيد، هذا الدين، دار الشروق. القاهرة. الطبعة السابعة عشرة، 2001، ص12

² قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج5، ص2571

فعلى مستوى الهدف والغاية، لا بد أن يكون الهدف الاساسي من التلاوة هو تحقيق الهداية الشاملة المؤدية إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، فإذا اعتبر المسلم القرآن أساسا كتاب بركة أو لربح الحسنات، حول الهدف الأساسي لكتاب الله وحجب نفسه وقلبه عن المعاني الأساسية للقرآن والمقاصد التي أنزل من أجلها ولم يحقق من تلاوته إلا البركة والحسنات التي تلاه من أجلها. لذلك فإنه من الضروري استحضار نية البحث عن الهداية في كل تلاوة وتدبر للكتاب الحكيم .

أما على مستوى المنهجية فلا بد أن يكون منهج التلاوة على سبيل التلقي أي أن ينزل المسلم على قلبه آيات القرآن كأنها تنزل عليه أول مرة. يقول د.فريد الأنصاري رحمه الله في كتابه(مجالس القرآن): (وتلقي القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْرِ؛ إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنـزله الآن غضا طريا! فيتدبره آيةً، آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيا في عصره وزمانه" (!)¹

و حتى تكون هذه الهداية شاملة، لا بد أن تكون قراءة القرآن مرتبطة ومقتربة بقراءة كتاب الله المنشور وهو الكون بمختلف ابعاده و مكوناته، إذ أن هذا الكون هو مجال تطبيق الهداية البشرية ومحور الاستخلاف والتعمير الذي يهدف إليه الهدى القرآني. فكل قراءة للوحي منفصلة عن العلوم الكونية ستؤدي إلى الانفصام بين الدنيا والآخرة وبالتالي إلى تعطيل مهمة الإنسان في الكون فتكون الهداية المحصلة منغلقة عن الذات، أنانية، مخالفة للهداية القرآنية المنفتحة التي تعطي ثمارها الطيبة للإنسانية جمعاء .

إن الدعوة القرآنية إلى تلاوة القرآن ليست اعتباطا. فموضوعات القرآن على اختلافها وتنوعها؛ مبنوثة في ثناياه مع ما يتخللها من قصص وأمثال وسنن كونية ونفسية ..وكل ذلك ضمن سياق نسقي متكامل لا يمكن تجزيئه أو التعامل معه على غير ذلك الأساس، ففي القرآن المنهج المتكامل الذي يجمع بين آيات الأحكام ومقاصدها، ويتضمن التعريف بالله

¹الأنصاري، فريد، مجالس القرآن، ص 75

سبحانه ويذكر حقائق الإيمان وسنن الوجود والابتلاء، وقصص السابقين مع ضرب الأمثال.. كل ذلك ضمن نسق كلي أحكمه الحق سبحانه، ودعا إلى تلاوته من أجل تدبره والانتفاع منه. إذ تمثل سور القرآن الكريم وصفات متنوعة ومتعددة، شاملة لكل أبعاد الحاجة الإنسانية في الحياة. ومن ثم، يكون الاغتراف منها الدائم والمستمر نوعا من الغذاء الذي يحتاجه كل إنسان لاستقامة حياته، مع بيان نوعية الطريقة التي يتم بها تناوله. التدبر. وهو غذاء حامل لصفتي الوقاية و العلاج في الآن ذاته، لأنه معد لهذا الإنسان الضعيف الخطاء والمأمور بالتوبة والإنابة في كل وقت وحين.

يقوم القرآن الكريم إذا تلوناه حق تلاوته بإعادة تشكيل وعي الإنسان وتحويله من مجرد كائن يعيش على هامش الكون إلى الخليفة المسؤول عن هذا الكون، إذن فبتحقيق الهداية الفردية، نكون بنينا الإنسان الصالح المهتدي بآيات الله والمسؤول على الكون وهو الإنسان الذي يستحق لقب ومهمة الاستخلاف. هذا الإنسان يمثل اللبنة الأولى من لبنات الحضارة. إذ أن الحضارة هي نتاج تفاعل الإنسان مع الكون ومع الزمن، والقرآن في جل آياته يتحدث عن هذا التفاعل: عن كفيته ، ومنهجه ، مؤسسا لرؤية قائمة على الوسطية والتوازن بين الحرية والمسؤولية بين الخصوصية الفردية و الروح الجماعية، بين الروحانية والمادية. هذه الرؤية إذا تدبرها وعمل بها المسلمون فسوف تكون نتيجتها حضارة عالمية تتجاوز محدودية وقصور رؤية الحضارة الغربية المعاصرة والتي تؤدي إلى كوارث على مستوى الفرد والمجتمع والبيئة.

المبحث الثاني: أثر استثمار أدوات المنهج القرآني في تزكية حياة الإنسان

المطلب الأول: التزكية بالصلاة وذكر الله

لقد بين الله تعالى أن الغاية من خلق الإنس والجن هي العبادة. ولكن، حين فهمت العبادة فهما ضيقا، أفرزت اتجاهات طرقية صوفية منسحبة من الحياة، ولا تؤمن بالابتلاء في واقع الحياة. ذلك أن عبادة الإنسان لربه، شاملة لكل تصرفاته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162] .. وهي آية تدل على أن كل ما يقوم به الإنسان ينبغي أن يكون فرعا منضبطا لأصل التوجه إلى الله وتوحيده بالعبادة. فتكون الحياة منسجمة ومتاغمة ومتوافقة بين ما يعتقد الإنسان، وما يفعله ويرغب في تحقيقه والوصول إليه من الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

فالعبادة هي مفتاح الطريق إلى تحقيق الإيمان بالله، وهي وسيلة التذكير الدائمة للمؤمن بمرجعية الله في حياته، وأهمية الإبقاء على الصلة به توكلا ورجاء وخوفا وإنابة وتوبة...وليست العبادة في الإسلام نسكا منعزلا في الزوايا والمساجد، وإنما هي تحرك في معترك الحياة ببوصلة تجعل رضى الله غاية الأمانى والصلة به عبر أنواع العبادات المختلفة تكسب صاحبها طاقة حية يتحرك بها مثل قبس نور في الظلمات فلا يجهل ولا يظلم ولا ييأس ولا يقلق ولا يرتاب، فتكون تلك العبادات شحنات من نور يضيء الطريق ويسكب الطمأنينة واليقين في قلب المؤمن بربه.

الإيمان يستلزم عبادة الله في شتى مجالات الحياة، إذ نجد بعد كل خطاب بصيغة "يا أيها الذين آمنوا" أمر واجب التنفيذ أو نهى واجب التحريم، وبين الوجوب والتحريم درجات من الأحكام كما هو مقرر لدى علماء الأصول، ومن أمثلة ذلك:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 208]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [البقرة: 278]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء: 59]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (27) وَعَلِمُوا أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَأُولَٰئِكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [الأنفال: 27، 28]

وبالمقابل حذر سبحانه من نسيان الله { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [الحشر: 19] مبينا أن ذلك من الاستجابة والخضوع للشيطان {اسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: 19] وقوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 124] وقوله كذلك: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [الزخرف: 36] وقوله عز وجل: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: 67]. وكذلك قوله سبحانه: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [الحشر: 19] .

تدل هذه الآيات مجتمعة على مدى خطورة انقطاع صلة المسلم بربه أو ضعفها. وفيها بيان ما يترتب عن نسيان الإنسان لله تعالى، حيث يكون ذلك سببا في أن الله ينسيه نفسه، وهكذا فمن حيث الحرص على مصالح ضيقة يراها الإنسان أهم وأولى من الالتزام بمنهج الله والثبات عليه. تكون العقوبة والعقوبة في الضياع والخسران. لذلك خص الله تعالى الذكر من بين العبادات بوصف الكثرة في آيات عديدة قال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الأحزاب : 41-42] وقال : { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت : 45].

وللأسف، فقد ترسخ في الثقافة العامة لدى المسلمين عبر تاريخ الانحطاط، أن ذكر الله هو التردد لبعض الكلمات عبر طقطقات المسابح وغيرها. والغريب أننا في كل مرة، نجد إخراج وصفة من الوصفات الإلهية الفعالة في حياة المسلم من حالة المقصد الإيجابي في الحياة إلى حالة العطالة والتجميد، وإشاعة التقليد. فبدل أن يكون لذكر الله فعل الإحياء للقلب من الغفلة، واستمداده نوره من الله الحي. ليتحول النور إلى حياة الإنسان، وينعكس على تصرفاته في الحياة. فذكر الله لا يكون له دور في غياب الممارسة الاستخلافية في شؤون الحياة، وما تقتضيه من الخوض في معتركاتها والتعامل مع تقلباتها، بما فيها من تباين المصالح بين الناس، وتنافس الفرص، وتزيين المحرمات، ففي خضم تلك المعارك تبرز الحاجة إلى الثبات على المبادئ، والبقاء على عهد العبودية والطاعة لله... هنا فقط تظهر أهمية ذكر الله ويعظم دوره في شؤون الحياة، فيؤدي دوره كما أراده الله ضمن سنة الاستخلاف الإنساني.

- الصلاة:

الصلاة باعتبارها صلة بالخالق، حاجة فطرية في الإنسان، ولما كانت كذلك وجدنا تعابير طقسية لها في مختلف الشعوب والجماعات، ابتدعها الإنسان في غياب الدين الصحيح - ليمارس الارتباط بقوة عليا في الوجود. لذلك كان حريصا على ممارستها رغم عدم صحة ذلك.

بدورنا، ورثنا من الفقهاء كلاما موسعا عن أحكام الصلاة وتفاصيلها وجزئياتها وكل تدقيقاتها القريبة والبعيدة وعقوبة تاركها وما إلى ذلك. وورثنا من سادتنا الصوفية حديثا عن أسرار الصلاة ومعانيها القلبية ودلالات أحكامها الظاهرة.. وهي معاني عظيمة لولا أنها دارت ضمن إطار أخروي بعيد عن واقع الحياة.. ولكن الذي لم نرثه كان هو معاني الصلاة في واقع الحياة العملية. كيف تحضر الصلاة في دنيا الواقع وعلاقاتها وتشابك مصالحها وارتباطاتها. ذلك ما لم يحدثنا عنه سوى القليل من علمائنا الأفاضل.

ولما كانت الصلاة التي تقدم للمسلم المعاصر باعتبارها واجبا فقط، منزوعة الصلاحية والتأثير، فقد لجأ بدوره لطقوس من ذلك النوع حين قدمت له التنمية البشرية بوجهها الموسوم بالطاقة الروحية يتكون بالنسبة له فلسفة للنجاح في الحياة.. فنحن إذن في حاجة لاستعادة الصلاة المسلوبة منا .

ففي مجتمعنا الإسلامي، يحرص الآباء على توجيه أبنائهم لأداء الصلاة، ويحرص الأبناء في المقابل على عدم الاستمرار في أدائها غالبا. يبذل الآباء جهدا ترغيبيا وترهيبيا في إقناعهم بأهمية الصلاة.. وفي الغالب تأتي النتائج سلبية.

في المدرسة، يكرر المعلمون نفس التوجيهات أو التعليمات للأبناء عن الصلاة، هذه المرة مقرونة ببرنامج دراسي يتعلمون منه كيفية أداء الصلاة ابتداء من الطهارة الصغرى والطهارة الكبرى، إلى تفاصيل الفرائض والسنن والمبطلات والمكروهات، كما يحرص على ذلك المعلمون والمربون، ومن ورائهم بعض برامج الإعلام والتوعية الدينية عن أهمية الصلاة وضرورة أدائها، والتي غالبا ما يتم حصرها في أنها سبب لقبول الأعمال، فبدونها لا يقبل عمل. ويتركز التوجيه على أهمية أدائها، لأنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.. وأغلب مشاكل التربية في الأجيال المعاصرة تعنتها في الاستجابة لمثل هذه التوجيهات وغالبا ما يتم ذلك على مضض إلا في ما نذر. لذلك تكثر شكاوى الآباء في هذا الجانب، حول عصيان الأبناء وعدم حضور الصلاة في اهتماماتهم مهما حاولوا إقناعهم أو اقتنعوا هم أنفسهم بالحكمة من مشروعيتها، وأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر.. فكل ذلك لا

يسترعي اهتمامات الشباب الطامح إلى حياة منطلقة، مستبطنًا في ذهنه لتمثلات النجاح والسعادة ونماذجها البشرية الحاضرة في واقعه وفي العالم من حوله الذي يطلع على مستجداته وأخباره بين يديه في كل حين.. وفي معظم الأحيان تكون تلك النماذج القريبة منها والبعيدة لا علاقة لها بالصلاة. هنا تصبح الصورة النمطية عن النجاح والناجحين، والسعادة والسعداء في الإعلام الليبرالي المعولم هي المرجع والمعتمد في تشكيل الشخصية وتحديد أهدافها وخططها في الحياة. الصلاة؟ أمر جيد، لكن يبدو أنه سابق لأوانه الآن.. هناك في مرحلة زمنية قادمة إن شاء الله سيحين وقتها المناسب. وقد تكرست في الواقع صورة نمطية لمن يؤدون الصلاة وأعمارهم وهيئاتهم بما في ذلك أوضاعهم الاجتماعية. ثم إن الأبناء حين يصدرن تلك السلوكات يقومون - في الغالب - بإعادة إنتاج نفس دور الآباء - الناصحون اليوم - نظريًا على الأقل. سوف نجد فئة أخرى كانت أفضل استجابة من سابقتها، وقررت الالتزام بدينها الذي تعتبر الصلاة علامته المميزة في واقع الناس بحكم أدائها اليومي خمس مرات. وغالبًا ما تجد هذه الفئة مشاكل من حيث الانقطاع عن الأداء والضعف... فما السبب في ذلك؟

في بحث ميداني أجريته على حوالي 160 تلميذا من تلاميذ الصف الثانوي التأهيلي، بغرض فهم تمثلاتهم عن الصلاة، طُلب منهم الإجابة عن أحد سؤالين وفق الاختيار الذي يناسبهم، وهما:

- السؤال الأول: لماذا أصلي؟

- السؤال الثاني: لماذا لا أصلي؟

أعطيت للتلاميذ حرية الجواب بذكر أكبر عدد ممكن من الأسباب، دون كتابة الأسماء. فكانت النتائج كما يلي:

- نسبة اختيار السؤال متعادلة تقريبا، 54 بالمئة اختاروا الجواب عن السؤال الأول، و46 بالمئة اختاروا الجواب عن السؤال الثاني.

- معظم أجوبة السؤال الأول اتفقت على أن ما يدعوهم للصلاة هو : أنها واجبة، وتقرب إلى الله، ولإرضاء الله، ولأنها تنتهي عن المعصية.. وهناك من أخبر بعدم معرفته لماذا يصلي؟ مع ملاحظة أبدأها العديدون منهم، أنهم يقطعون الصلاة مرة بعد أخرى ثم يعودون.

- معظم أجوبة السؤال الثاني، تركزت حول سبب واحد يحول دون أداء الصلاة، وهو ضيق الوقت، أو عدم وجود الوقت.. بالإضافة إلى أسباب أخرى ذكرت؛ كالشيطان والتكاسل والعجز عن الوضوء.

تركز هذه المؤشرات الافتراض الذي نفترضه، بخصوص ما ذكرناه في أساليب التربية والتعليم للنشء على الصلاة. التي تركز على الفرضية والوجوب، بدلا من التركيز على الأهمية ، أهمية الصلاة بالنسبة لمن سيصليها. وفي حالة وجود حديث عن الأهمية، غالبا ما يقتصر على فائدة الصلاة الأخروية، في أنها تدخل الجنة وتتقذ من النار. وأنها أول ما يحاسب عليه العبد... إن ذلك لم يقدم للطفل فائدة الصلاة في حياته الآن، وما ذا يمكن أن تقدم له؟ وفيما تنفعه في الدنيا؟ فهو يتعلم كيفية الأداء، ولا يتعلم لماذا ينبغي أن يصلي. وتأتي الطامة الكبرى حين نُقدم له توجيهات من مربين ومعلمين لا يمثلون قدوة مناسبة لما يقولون. فيتربى النشء على الازدواجية ، وأن يقول كلاما ويفعل نقيضه..

إن نقطة الانطلاق في تصحيح هذا الوضع يكون من خلال التساؤل عن موضوع الصلاة في القرآن. لماذا هذا الأمر المتكرر بأداء الصلاة الذي يكاد يغطي كل سور القرآن؟ ولماذا يمكن للمسلم أن يُعفى من أداء معظم العبادات لعذر كالمرض في الصيام، وعدم القدرة في الحج.. ولا يُعفى ن الصلاة حتى وهو يحارب في ساحة القتال والخوف يحيط به من كل جانب..؟ ولماذا يكون أول جواب الداخلين إلى سقر عن سبب دخولهم النار فيكون أول ما يذكرونه من ذلك عدم إقامتهم الصلاة، قال تعالى: { يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ } [المدر: 40 - 43] أليس في ذلك ما يعبر عن أهمية استثنائية لهذه العبادة في القرآن؟

يتأسس الجواب عن هذه الأسئلة، اعتماداً على ما تم تسطيره في مرتكزات الرؤية الكونية القرآنية. الرؤية التي - كما رأينا - تزود المسلم بتفسير وجوده وغايته، وتعرفه بربه وبنفسه، وبأنه في هذه لحياة للابتلاء والاختبار.. وأن الشيطان عدو متربص به في كل لحظة وحين.. فيدرك مدى ضعفه افتقاره إلى ربه، وأن لا عاصم له من فتن الدنيا ابتلاءاتها سوى تعلقه بربه، والتماس القوة عنده والطمأنينة في جنبه.. واستدامة الصلة به.. وقد أخبرنا الحق سبحانه، في سياق الآيات التي تخبر عن صفات الإنسان السلبية من هلع في نفسيته يُترجم جزعا عند المصائب والشروع ومنعا عند امتلاك النعم والخيرات، ثم استثنى من هؤلاء فئة المصلين الدائمين في صلاتهم، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: 19 - 23]

تناول المرحوم محمد أبو القاسم حاج حمد موضوع الصلاة الدائمة من خال تناوله هذه الآية إلى جانب آية الصلاة الوسطى في قوله سبحانه: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: 238]. مبينا أن اختلافات الفقهاء في الصلاة الوسطى وما ذهبوا إليه في اعتبارها صلاة العصر لا يقوم على حجة واضحة، لأن صلاة الفجر أشق منها إن كان الأمر يتعلق بالمشقة. ثم يحاول عبر تحليل للآيات القرآنية مجتمعة أن يخرج بخلاصة وافية عن معنى الصلاة الوسطى في القرآن، يقول في ذلك: (ماهي هذه الصلاة الوسطى التي يشدد الله عليها رغما عن التشديد على كل الصوات ولو في جو الحرب. إذن هي أخطرهن شأنا، وأكثرهن قابلية للغفلة عنها، إنها تجمع بين قيمتها وبين إمكان إغفالها بما لا يشابه الصلوات الأخرى.

إنها صلاة إذا غفل الإنسان عنها توعده الله العزيز الحكيم (بالويل)، فكيف يكون الويل عقابا على مجرد (غفلة) إن لم تكن هذه الغفلة المعنية معادلة لأسوأ ما يأتيه الإنسان من سلوك بشري؟

التذكير الاستثنائي الصلاة الوسطى هو تذكير ينقض (السهو)، ونقض السهو هذا يرد تحديدا في سورة الماعون حيث يقول الله : {قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون: 4 - 7]. وهنا بيت القصيد، الويل للمصلين، ولا يكون الويل لمن يأتي الصلاة تقربا لله، وإلا لما أتى الصلاة وكان شأنه شأن الغافلين الآخرين. وكلنا نسهو في الصلاة، حيث تخطر الخواطر وتأتي الواردات، من الطفل في المستشفى إلى السيارة التي تنتظر الإصلاح. فهل الويل للمصلي وهو يسهو في صلاته بالضرورة؟ وهل يكون الويل لإنسان يصلي لربه فيسهو غصبا؟

إنه الويل لمن يسهو عن صلاته، وليس الويل لمن يسهو في صلاته. فالساهي عن (صلاته) هو رجل مصل يؤديها في أوقاتها، وقد يسبق غيره إلى المساجد فجرا وعصرا، ولكنه يسهو (عنها) بعد أدائها. يسهو عن الفجر إلى أن يأتي صلاة الظهر فيصلّيها، ثم يسهو عنها إلى العصر الذي يصلّيهِ ثم يسهو عنه وهكذا دواليك. يسهو (عن) الصلاة بين كل صلاتين، فيسهو عن الصلاة الوسطى وهكذا له الويل.

كيف يكون السهو عن الصلاة ؟ لقد أوضحه الله العزيز العليم: {الذين هم يراءون ويمنعون الماعون}. قدّروا إنسانا يتوضأ ويقف بين يدي الله معلنا بالشهادة التزامه الكامل بشرائع الله وحكمه وتوجيهاته، ويتلو في صلاته كافة الآيات التي تأمر بالتقوى والرفقة باليتيم، والحض على طعام المسكين. ثم يقوم بعد الصلاة ليأخذ أموال اليتامى القصر في ذمته، ويقوم بعد الصلاة وبعد دعائه لله بالرحمة فلا يرحم أحدا. هذا يسهو عن صلاته. هذا يكذب بالدين، يتخذ الدين والشعائر جنة ومطية يكذب بها، أي بالدين يكذب. يتخذ الدين وسيلة للكذب. يخفي حقيقته الآثمة بأدائه للشعائر . إنه المنافق. إنه في الدرك الأسفل من النار)¹ .. ثم يضيف موضحا، ومفرقا بين معنى المحافظة على لصلاة ومعنى ديمومة الصلاة: (لقد شدد الله، الخلاق العليم، على الصلاة الوسطى لأنها صلاة (الحقيقة) التي تكشف السلوك العملي للإنسان ما بين مواقيت كل صلاتين، فجعل الله الخلق الحسن ما بين الصلاتين في

¹ حاج حمد، محمد أبو القاسم ، العالمية الإسلامية الثانية، دار الساقى، بيروت، ط3، 2012، ص 527-528.

السلوك العملي للإنسان (امتدادا) للصلاة نفسها. بذلك لا تنقطع صلاة الإنسان. بذلك تصبح الصلاة (دائمة) في ديمومة ودينونة لا تنقطع، {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: 23] وتأتي ديمومة الصلاة مقترنة بأداء مسلكي معين: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} [المعارج: 19 - 27]. هذه هي مواصفات (الديمومة) على الصلاة، والديمومة تتحقق عبر (الصلاة الوسطى) بالرأفة على السائل والمحروم، بالرحمة مسلکا، والرحمانية خلقا، ومن دون ذلك، نسهو عن الصلاة الوسطى فيكون الأمر رياء: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون: 6، 7]

فالمطلوب أمران: الأمر الأول هو المحافظة على الصلوات في مواقيتها: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: 34] والأمر الثاني الديمومة على تلك الصلوات التي أدّيناها {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}. فأن تحفظ صلاتك للصلاة التي تليها يعني أن تدوم عليها مسلکا وأخلاقا، أما اتخاذ الركوع السجود مطية للمظهر فالأفضل منه الشرك والكفر، ولن تكون مثل هذه الصلاة سوى عذاب للمنافق في دنياه قبل آخرته.¹

إن ديمومة الصلاة كإجراء عملي يقوم به المسلم، هي التطبيق العملي للإيمان بالله وفق الرؤية القرآنية، ذلك الإيمان الذي تحدثنا عن حقيقته وعن أهميته في حياة المسلم، لا يمكنه الصمود في الابتلاءات التي تختبره في كل لحظة وحين، ما لم يكن مؤسسا على ركائز متينة تجعله قويا في معترك الحياة، يمد صاحبه بالطاقة المطلوبة في كل وقت وحين.. وليس سوى الصلاة تعبيرا عن صلة عملية دائمة بين العبد وربّه.. هذه المرة ليست صلاة في محراب زاوية ينقطع صاحبها عن العالم ليشعر بعروجه في "المقامات". ولكنها صلاة في محراب الواقع ومضمار الحياة.. وقد أرسل الله تعالى رسله الكرام، ليعيشوا مع الناس تجربة الحياة ويكونوا لهم قدوة في تلك التجربة لا في الصوامع والأديرة. فهم ممن

¹ حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، دار الساقى، بيروت، ط3، 2012، ص 528-529

يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، قَالَ تَعَالَى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان: 7]. ثم رد عليهم سبحانه في السورة ذاته بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: 20]

إن نداء الرحمن الحبيب إلى قلوب المؤمنين، بالحض على إقامة الصلاة، وربطه سبحانه في مقدمة سورة المؤمنون الصلاة بالفلاح ودخول الجنة ضمن صفات للمؤمنين، تبينت خلالها قيمة الصلاة، مرة لما ذكرت في أول الصفات؛ {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}. ومرة، حين تم التأكيد على المحافظة عليها من بين سائر الصفات الأخرى، وذلك في الآية التاسعة من سورة المؤمنون "وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ"، مما يبين أهميتها الاستثنائية، يقول تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: 1 - 12] ..

و الآيات التي تبين مكانة وأهمية الصلاة في القرآن عديدة، وتجعل من الصلاة فرصة عظيمة للوقوف بين يدي الله حمدا لذاته الكريمة وشكرا على نعمه العظيمة. واعترافا بالتقصير واستمدادا للرحمة منه سبحانه، واستعانة به تعالى على ابتلاءات الدنيا وحوادثها وخطوبها المدهمة.. إنها فرصة عظيمة يمنحها لنا الخالق الوهاب للنعم سبحانه خمس مرات في اليوم ومن أراد أن يتطوع نفلا دونما واسطة من أحد ولا انتظار. فكيف لا نستثمر هذه المنحة الإلهية العظيمة في حياتنا؟ يقول أحمد بسام ساعي: (أليس من الظلم ألا نعطي "وجبات" الصلاة اليومية من وقتنا، ما نعطيه لوجبات طعامنا؟ أليس من الظلم لأنفسنا أيضا ألا نستمتع بوجبات صلاتنا كما نستمتع بوجبات طعامنا؟ ولماذا نغدق على وجبة المعدة ثلاثين دقيقة من وقتنا أو أكثر؛ ثم نبخل بمثلها على وجبة الروح؟ وأيها الأهم لنا يا

ترى؟ إنك لو خسرت وجباتك المادية، ربعها، نصفها، أو حتى كلها، فلن تموت من الجوع، ولكن لو خسرت وجباتك الروحية فيمن أن تفقد كل شيء. حتى وجباتك المادية لن تكون قادرا على الاستمتاع بها حق الاستمتاع إذا شعرت أنك بعيد عن منحك هذه الوجبات..¹

هذا مقام الخشوع إذن، فمن وقف بين يدي ربه مدركا لحقيقة نفسه، وحقيقة من يقف بين يديه، أعانه ذلك على الخشوع في صلاته. وقد ركز القرآن في بيان حقيقة الإنسان على محورية القلب في كل ما يصدر عنه. ومن ثم كان الإقبال على الله بالقلب من أعظم القربات. لأنه أحد أسباب جلب الخشوع في الصلاة، والخشوع هو جوهر الصلاة وحقيقتها وروحها الذي به يتحقق الفلاح {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: 1، 2]

وحين ذكر الله تعالى أوصاف عباده المؤمنين في مقام المدح لم يذكر المصلين بل صفة الخشوع. {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35].

من أجل أن نصلي صلاة حقيقية خاشعة لله. سوف يكون علينا إعادة موضوعة "الصلاة" ضمن إطار الرؤية الكونية القرآنية التي انطلقنا منها. ليفهم المسلم سبب أدائه للصلاة ابتداء. لقد عرف ربه وتعرف عليه من خلال أسمائه وصفاته الدالة على كماله وجلاله وقدرته وإحاطته بما يجعله المستحق للطاعة والامتثال بالعبادة والذكر.. ومن ذلك الصلاة. الصلاة باعتبارها صلة تربطه بالخالق العظيم، تقربه إليه وتوطد علاقته به، إنه في حاجة إلى ذلك بالتأكيد، فقد عرف ضعفه وافتقاره وحاجته للصلة بربه ، للركون إليه والاستقواء على الشدائد به...حينها فقط يتخلص من واجب الصلاة كعبء ثقل ، وواجب ممل يضطر لأدائه بين حين وآخر فقط لأن له منفعة فيما بعد الموت.

¹بسام ساعي، أحمد، إدارة الصلاة: إعادة اكتشاف الركن الثاني في الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط1، 2015، ص33

إن هذه المعركة ينبغي كسبها في ضمير الإنسان وعالمه الداخلي، لأنه متى استقرت حقيقة الإيمان في القلب خرجت أشعتها النورانية في الوجود وانعكست في الواقع عملاً صالحاً وسمتاً حسناً في الهيئة..

و قد جعل الحق سبحانه الصلوات المفروضة مؤقتة بأوقات محددة بخمس مرات في اليوم. ومن تأمل في ذلك، و استحضر سنة الابتلاء في الحياة، أدرك بعضاً من حكمة المولى عز وجل في ترتيب أوقات الصلاة. إذ بصلاة الفجر يفتح العبد يومه متوكلاً على ربه راجياً في عفوه ومغفرته، مستعيناً به على قضاء حوائجه ... ثم ينغمس في أمور حياته الدنيوية. و يدرك من رزقه الله تعالى بصيرة أن كل لحظة من اللحظات تكاد تحمل له ابتلاء، حتى تلك التي تظهر في صورة نعمة.. وما عليه إلا أن يديم صلاته في معمعة الحياة، ويتشبث بأخلاق إيمانه صبراً واحتساباً، وشكراً واستجابة.. فإذا جاءت صلاة الظهر، انتشلت من ذلك العالم، ليتزود بطاقة إيمانية أخرى تعينه على الاستمرار، وتزيده إيماناً إلى إيمانه. وكل ذلك يجعله في صلة دائمة بربه..

ثم يكون للصلاة بناء على ضبط مواقيتها، دور أساسي في ترتيب أوقاتنا وبرمجة حياتنا على نظام معين، نظام مضمون النتائج الإيجابية في حياة الإنسان، كونه صادر عن الرب تعالى، العليم بمن خلق. فليس عبثاً أن يبدأ يوم المسلم بالاستيقاظ لصلاة الفجر في ذلك الوقت بالتحديد، وهو يوم في حد ذاته منحة إلهية من الله العظيم، في آية من آياته المستوجبة للتفكير والتعظيم له سبحانه، يقول تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: 42].

وقد اعتاد الناس في زمننا أن يبرمجوا حياتهم على ما يستهلكون من برامج إعلامية، أو وسائط التواصل الاجتماعي التي تجعل منهم في العادة مبرمجين في حالة مفعولية لا فاعلة. وغيرهم يبرمج نشاطاته في الحياة على مواعيد تجارته وطبيعة عمله.. يقول أحمد بسام ساعي: (مثلما تحت الأمواج المتدافعة صخور الشاطئ على مرّ الأيام والسنين؛ هكذا

تمارس فينا الحياة، متمثلة بالزمن والإلفة والتكرار والاعتقاد، عملية الحث في صخور ما حققته الصلاة في نفوسنا من قوة وتوازن وتنقية من أدران الحياة اليومية، فتحاول هذه العناصر الدنيوية بمواجهها المتلاحقة برمجتنا وفقا لخط أهوائها، ساعة إثر ساعة، ويوما بعد يوم، وعاما بعد عام، بحيث لا نشعر أننا قد تغيرنا مع الزمن، وابتعد بنا المطاف عن النسخة الفطرية الأصلية من البرنامج الإلهي الموضوع لنا..¹ ثم يدعونا الكاتب بعد ذلك إلى استعادة البرنامج الإلهي في حياتنا، بما يمكننا من استعادة صلاتنا الحقيقية.. وهو أمر لن يتحقق بأسلوب التربية على أداء الصلاة كواجب طبعاً.. بل يدخل ضمن ما يمكن اعتباره صلة الحب لله التي وصف الله تعالى عباده المؤمنين بها، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]. وصلاة الحب مختلفة تماما عن صلاة الواجب القائمة على العادة والتكرار. بل هي نوع من دخول المؤمن في محراب التفكير والتدبر.. التفكير فيما يقوله ويفعله في الصلاة والتدبر في آيات ربه المتلوة في الصلاة، وقد مر معنا كيف يكون ذلك بالنسبة للقرآن وسوره. يقول أحمد بسام ساعي: (ليس السؤال إذن هل أديت الصلاة أم لا؟ على أهمية هذا السؤال وخطورته؛ بل السؤال يجب أن أطرحه على نفسي بعد كل صلاة هو: هل تسلمت جائزتي التي رُصدت لي من هذه الصلاة؟ هل استمتعت بها حقا وأنا أتملى، فيها وبعدها، ما تذوّقت لتوي من ثمارها الدنيوية، و أتلّمّظ لما ادّخرت لآخرتي من ثمارها المرجوة، أم كانت لي مجرد واجب أؤديه..²

فالاستمتاع بالصلاة لا يدركه إلا من سلك طريق الحب لله . وإذا أراد المؤمن أن يعرف مقدار حبه لله، قارن كيف يعامل الله تعالى ويعامل باقي محبوباته في الحياة، وقارن بين انقطاع صلته بالله وانقطاع صلته بأحد أحبائه في الحياة .. ساعتها، يدرك عمليا قدر الله حقيقة في قلبه ومقدار حبه له، فاللهم بلغنا مقام حبك واجعله في قلوبنا أشد وأقوى من أي حب آخر في حياتنا.

¹ بسام ساعي، أحمد، إدارة الصلاة: إعادة اكتشاف الركن الثاني في الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط1، 2015، ص58
² بسام ساعي، أحمد، إدارة الصلاة: إعادة اكتشاف الركن الثاني في الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط1، 2015، ص37

المطلب الثاني: التزكية بالقُدوة

القُدوة الصالحة حاجة من الحاجات الإنسانية الأساسية في حياة الإنسان، يؤكد القرآن على أهميتها في سورة الفاتحة، بالنظر لما تحتله هذه السورة من مكانة تجعلها في افتتاح القرآن وواجبة في ركعات الصلاة. فحين يطلب الإنسان الهداية إلى الصراط المستقيم، يوضح السياق البعدي الفئة المخصوصة بهذا الصراط، وهي "الذين أنعمت عليهم" وفيها إشارة إلى التماس الهداية في نموذج حي مشخص في الواقع، كما فيها إشارة إلى أهمية الاجتهاد في العبور من هذا المسلك، والوصول فيه إلى مرتبة القُدوة الصالحة، وهي المعبر عنها بالإمامة في دعاء عباد الرحمن الوارد في سورة الفرقان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].. وفي ختام الفاتحة تحذير من اتباع طريق المغضوب عليهم أو الضالين..

ولأهمية القُدوة وضرورة الاقتداء، أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالاقتداء بالأنبياء قبله، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90].. ثم جعله سبحانه المثل الأعلى لكل من عاصره أو جاء بعده، ممن آمن برسالة ربه، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].. وأما عن كيفية الاقتداء به ﷺ في حياتنا، فتخبرنا عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن). فالنبي محمد ﷺ جسّد القرآن في اعتقاده ومشاعره وسلوكاته.. فكان بذلك مجسّداً للمنهج الإلهي متكاملاً في صورته البشرية..

وإذن، فنحن نتوفر على ميراث القُدوة النبوي لكل الرسل الذين تحدث عنهم القرآن وفي مقدمتهم رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام، بالإضافة إلى سير الصحابة الكرام ومن سار على هديهم واهتدى بنهجهم.. ومجتمعنا الحالي هو أشد وأحوج إلى تمثيل قُدوة النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله وصحابته الكرام، فكلهم منارات الهدى ومصابيح الدجى.. لكننا ينبغي أن نؤطر هذا المفهوم - القُدوة - قرآنياً حتى نخلّصه من شوائب ما علق به في مذاهب التراث الإسلامي، وما تلبس به من معتقدات خرافية وطرقية أخرجته من دائرة التأثير

الإيجابي المفترضة فيه، وأدخلته في دوامة الإنسان الكامل وطبقات المريدين وغير ذلك من المتاهات التي لا أصل لها قرآنيا ولا صلة لها به. ومثال ذلك ما جرى في التعامل مع سير الصحابة الكرام، إذ جرى من جهة الإسراف في التمجيد والإطراء المبالغ فيه، والذي كاد يخرجهم عن إطار الخلق البشري، مع حشد هائل من الروايات التقديسية ظاهرة الوضع، والتي تجعل أولئك الصحابة من عالم الخيال الذي لا صلة له بالواقع.. وهم بتلك المبالغات وما تحويه من أساطير تاريخية يحولونهم بوعي أو بدون وعي إلى نماذج غير صالحة للقوة في الحياة.. إذ تظهر المسافة بينهم وبين الإنسان العادي خارج دائرة العد و الحساب.. وبالمقابل، جرى من البعض تبخيس قدرهم، والتقليل من شأنهم، واختلاق روايات لنسب الاتهامات لهم، وهو إثم حمل وزره الشيعة بما قدموا من صورة لصحابة رسول الله ﷺ تطعن في الإسلام جملة، بل وتطعن حتى في نبي الإسلام وما بذل من جهد ضخم في بناء الأمة الإسلامية وإنتاج ذلك الجيل القرآني الفريد..

وأمام مثل هذه التطرفات المتضادة الاتجاه، نحتاج إلى إعادة ضبط البوصلة في موضوع القدوة اعتمادا على القرآن، ونأخذ مثالا لذلك الصحابة الكرام.. فقد ورد الحديث عنهم في ختام سورة الفتح، بما يرسم صورة مشرقة لملاح تلك الفئة التي اختارها الله عز وجل لصحبة رسوله الكريم، فنالت شرف تلك المصاحبة، وارتفع بها قدرها عند الله تعالى وعند الناس، يقول تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 29]

نعم، لقد أثنى الله عز وجل على صحابة رسول الله ﷺ بما لا يبقى بعده قيمة لثناء، وبلغ من ثنائه عنهم ذكره لأحوالهم وصفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، ولكن ذلك كله، لم يرفعهم إلى درجة التقديس، ولم يخرجهم عن دائرة البشر، ولا نالوا من الله تعالى صكا مباشرا

لدخول الجنة، أو الإغفاء من واجبات والتزامات منهج الله في الحياة. لقد نالوا ما نالوا من الرفعة والحظوة والمباركة عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ، وبقي المنهج الإلهي قائما في حياتهم، بكل التزاماته وضوابطه، ومن أبرزها التزامهم بالإيمان والعمل الصالح حتى ينالوا المغفرة والأجر العظيم؛ شأنهم في ذلك شأن سائر العباد، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} ويبقى الاختلاف في مقامات الجنة بحسب درجات الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: {لَوِ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأحقاف: 19]

والقرآن حافل بالحديث عن مواصفات المؤمنين الصادقين، وصفات المحسنين والمتقين من عباده، وهي نماذج للتأسي والقدوة في الحياة كما هو الأمر حين يعرض صفات عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان، يقول تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقُولُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِمَنْتَقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: 63 - 67] تتظهر أهمية هذه الصفات في شموليتها صورا متعددة من مواقف الحياة ومناشطها، من طريقة المشي فوق الأرض إلى قيام الليل، وبيان كيفية الإنفاق ثم الابتعاد عن الخطايا والحرص على التوبة من الذنوب... إلى غير ذلك مما يبين قيمة القدوة وأهمية تعرّف صفاتها وعلاماتها المميزة لتكون منارة للاقتداء و التأسي بها في الحياة.

وتعتبر قصص القرآن منبعاً ثرياً لمن رغب في الاقتداء بمن اختارهم الله عز وجل لحمل رسالته، لا يعني ذلك أنهم معصومون من الوقوع في الخطأ كما يروج في ثقافتنا الموروثة.. لأن ذلك مخالف للحقائق التي ذكرها القرآن عن ثلثة من الأنبياء وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ. إذ تشهد آيات معاتبة الله سبحانه لنبيه في قصته مع الأعمى (سورة عبس) أو في تعامله مع الأسرى وما ينزل من القرآن حينها توجيهها ونصحا وترشيداً.. لولا ذلك، ما كان يمكن اعتبار أنبياء الله تعالى صالحين للاقتداء. حين يتم وضعهم في قالب تقديسي يجعل منهم فئة معصومة، اعتماداً على قوله سبحانه: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67]. لكن سياق الآية يتحدث عن العصمة في تبليغ الرسالة.. والغرض من دعوتنا لتصحيح تلك التوجهات بيان واقعية الإسلام التي تقوم على إمكانية الخطأ وأهمية التوبة، منعا لتسلل مشاعر اليأس والإحباط حين يجد الإنسان نفسه قد استغرقته الذنوب، وأصبح بينه وبين الهدى مفاوز حسب تصوره لنماذج القدوة وطهاراتهم وصفائهم وكمالهم .. فيصاب بالإحباط، في حين أن النسق القرآني يقدم حديثه عن الأنبياء بتوازن يُظهر وسطية واعتدالاً رغم أنهم أفضل خلق الله تعالى..

بُنيت فكرة هذا البحث على حقائق في الواقع العملي لحياة المسلمين المعاصرة، حيث لوحظ مدى الافتتان الكبير بالتنمية البشرية و أدبياتها ودوراتها التدريبية، و مقدار الذوبان في أطروحاتها عن الحياة والنجاح والسعادة... إلخ. وقام اختيارنا المنهجي على بناء جدل صاعد من الواقع إلى القرآن؛ و هو ما جعلنا نستخدم مصطلح التنمية البشرية الذي راج في عالمنا العربي خلال العقدين الأخيرين خاصة، وخلق حالة من الزخم لدى الفئام من الناس. وصار يختزل - حاليا - أزمة المسلم المعاصر على مستوى منهج الحياة.

من هذا المنطلق، اكتسب سؤالنا عن مدى إمكانية وجود منهج قرآني في التنمية البشرية راهنيته. بالرغم من أن القرآن لا يحمل تعبيراً لفظياً يخص التنمية البشرية كمصطلح، لكن تعاملنا مع هذا المصطلح كان على مستوى المفهوم. فمفهوم التنمية البشرية يقع ضمن المحور الأساسي للقرآن من حيث موضوعه (الإنسان)، ومن حيث غايته (السعادة/ الحياة الطيبة). بذلك، يتحول القرآن كله إلى كتاب شامل لموضوعات التنمية البشرية ومؤطر لغاياتها. فارتأينا اعتماد مضمون هذا المصطلح الذي يشكل موضوعه وغايته مشتركا مع القرآن الكريم مع اختلاف في المعايير و"الحقائق".

لقد شكل اهتمامنا بالمنهج مفتاح الولوج لمعالجة قضيتنا حين تساءلنا في مقدمة البحث عن إمكانية وجود منهج قرآني في التنمية البشرية؛ ثم رأينا من خلال مجريات البحث أن الجواب عن هذا السؤال يتوزع في شقين أساسيين. فالشق الأول يتعلق بالمنهج، وقد أثبتنا أهمية الوقوف عند مصطلح "المنهج" الذي تطور واغتنى في سياق معارك الفصل والوصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية منذ عصر النهضة الأوربي. تطور ساهم في توسيع دلالات المفهوم وتنويع مجالات استخدامه مما انعكس على تعدد الأبنية اللفظية الدالة عليه، فنجد البراديغم المعرفي والرؤية الكونية و النموذج الإدراكي وصورة العالم...وقد تبين أن ما حدث من تحولات جذرية على المستوى الفكري والثقافي الأوربي ابتداء من عصر النهضة ساهم في بلورة منهج وضعي برؤية مادية؛ ظهرت أولى معالمه على مستوى مصادر المعرفة

وأصولها حيث تم قصرها على الطبيعة=المادة واعتبار كل مصدر آخر للمعرفة متجاوزا وينتمي إلى مراحل سابقة من تاريخ الفكر البشري. وظهرت ثاني معالمة فيما تشكل من رؤية كونية جديدة للإله والإنسان والكون والحياة تعززت بأفكار الداروينية والفلسفة النيتشوية وغيرها من المذاهب والأفكار، التي ساهمت في توطيد الرؤية الضيقة للعلم وحدوده؛ حين كرس مفهومها له، يقصي كل ما لا يمكن خضوعه لمعايير التجربة والحس والمشاهدة. وكان المتضرر الأكبر من ذلك العلوم الإنسانية عموما ومنها على الأخص تلك التي تعتبر أكثر التحاما بتفسير السلوك الإنساني وهي علوم النفس، التي أقيمت على أسس بيولوجية لتحكي ميكانيكية الكون النيوتونية؛ دونما اهتمام بتقديم إجابات عن الأسئلة الجوهرية العميقة المرتبطة بالوجود الإنساني، خصوصا وأن الإجابات التي كان يقدمها الدين في التجربة الأوربية لم تكن مستساغة ولا مقبولة في ظل التطور العقلي والعلمي الذي كان يتنامى باستمرار، فانتهدت هذه المغامرة ببلورة رؤية انحسارية واختزالية للإنسان في بعد أحادي مادي، سوف يتغذى بأفكار ونظريات تعيد النظر في أصل الإنسان وتفسير وجوده. هكذا قدمت الداروينية فكرة الأصل الحيواني للإنسان من جهة، وفكرة التطور القائم على الصراع من أجل البقاء والاستمرار من جهة أخرى. الأمر الذي تطور عبر الداروينية الاجتماعية التي عممت المقولة الداروينية على دراسة الظواهر الاجتماعية البشرية لتفسير ما يؤدي لارتقاء وتطور مجتمعات دون أخرى. ثم جاء نيتشه ليعلن ميلاد الإنسان الأعلى ويتحدث عن موت الإله ليصبح الإنسان مرجعية ذاته.

وبالرغم من بعض النجاحات التي حققتها العلوم الإنسانية في الغرب اعتمادا على المنهج الوضعي، إلا أنها دخلت في أزمت متلاحقة بسبب عدم كفايتها في حل مشكلات الإنسان القائمة والمتجددة. فالإقتصار على العلم بالمنهج التجريبي مصدرا وحيدا للمعرفة، أوقعها في تقديم تفسيرات اختزالية للظاهرة الإنسانية؛ قاصرة على البعد المادي في الإنسان، باعتباره الجانب الوحيد الذي يمكن إخضاعه لمعايير المنهج التجريبي؛ فرضيات وتجارب واستنتاجات. فأنتج ذلك الاتجاه نوعا من الخلل في فهم حقيقة الإنسان، بإنكار أو إغفال بعده

المعنوي والروحي. حيث لا مرجعية خارج الإنسان وإدراكه العقلي. وهو ما أدى إلى البحث عن صيغ روحية واستجلابها سعياً إلى إقامة نوع من التوازن لمعادلة كفة الوضعية المادية. وذلك فيما عرف بظاهرة النزوع إلى الديانات الشرقية الآسيوية لما تتميز به من طابع روحاني صرف.

أما الشق الثاني من الجواب عن ذلك التساؤل فيقع ضمن مجال "التنمية البشرية". وهو مفهوم وإن كان يبدو جديداً اليوم، فإن مضمونه عميق الجذور في التجارب الحضارية المختلفة بما فيها الحضارة الإسلامية، ففكرة التنمية البشرية قديمة جداً، ولها مرجعيات في الأديان والمذاهب الفلسفية، وهي عنصر جوهري في ظهور الحضارات عبر التاريخ، وتشارك جميعها في السعي إلى تفعيل مناشط الكينونة الذاتية لتحقيق أسمى الغايات المرجوة في الحياة، بناء على الرؤى الكونية التي تقدم في إطارها تلك المصوغات الفكرية والعملية، وبحسب السقف المعرفي للبشرية في كل عصر. والتنمية البشرية المعاصرة تقع ضمن مجال العلوم الإنسانية، التي بنيت في سياق التحولات الفكرية في عصر النهضة الأوروبي، وانتهت ببلورة رؤية كونية مادية وضعية لا مجال لوجود الدين أو الإله فيها. فكل ما يرتبط بأمور الدين صار يعتبر غيبيات من مرحلة الفكر اللاهوتي وفق تقسيم أوغست كونت. وأضحى الكون بذلك ساحة صراع وتنافس لا بقاء فيه إلا للأقوى، والأذكى، والأغنى ... اعتماداً على الداروينية الاجتماعية، وتبدل القيم والأخلاق..

في هذا السياق حاولت التنمية البشرية أن توفر الصيغ الحياتية والنماذج البشرية المثلى انطلاقاً من تلك الرؤية المادية الوضعية. وهي رؤية لم تستطع الصمود طويلاً؛ إذ سرعان ما لاحت الحاجة إلى البعد الروحي للإنسان من أجل استعادة توازنه في الحياة، فتم تبيئة المفاهيم الروحية للفلسفات الدينية الشرقية القديمة؛ الصينية والهندية، بما يتناسب مع نمط الحياة الغربية والأمريكية خاصة. وبموجب ذلك، دخلت طقوس هذه المذاهب الروحية إلى أدبيات التنمية البشرية ونمط الحياة الغربية، تحت مسميات عصرية من قبيل "التأمل" و "قانون الجذب" وغيرها.. وأصبحت بذلك التنمية البشرية عبارة عن خليط من مخرجات

المنهج الوضعي، برؤيته المادية، مدعمة بالرياضات الروحية للديانات الشرقية. وتقدم ما تراه حولا ممكنة لتنمية الإنسان وتحقيق نجاحه ورفاهيته في الحياة.

ومما أكد أيضا حاجتنا إلى منهج قرآني في التنمية البشرية، ما عكسته اجتهادات رواد التنمية البشرية العرب في تحويل برامج التنمية البشرية الغربية إلى وصفات عالمية عابرة للقارات من أجل ترويج نمط حياة "نموذجي" من خلال التنمية البشرية. عملوا على توطينه وتبنيته في العالم العربي الإسلامي من منطلق التبعية التلمذية للغرب دونما تمحيص للمنهج وللرؤية الكونية التي تغلف هذه المفاهيم تغليفا كاملا، وقد رأينا كيف اتبع كل من الراشد والفقي خطوات التنمية البشرية كما كانت تتلاحق موجاتها في العالم الغربي بدءا من الاهتمام بالتقنيات وكشف قوانين الحياة والمهارات المطلوبة للارتفاع بها، إلى الإغراق في ميدان الطاقة الحيوية وقانون الجذب وغيرها من الأمور الاعتقادية التي تأسست في التجربة الغربية على فراغ روحي قائم، لكن رواد التنمية البشرية ظلوا أوفياء وأمناء على نقل تلك الأفكار إلى العالم العربي والإسلامي ، فلم تظهر عندهم فروق في مصادر المعرفة بين التوراة والإنجيل والقرآن، ولم يظهر عندهم كذلك تمييز بين تجارب الأنبياء وتجارب بعض الشخصيات التاريخية أمثال بوذا وكونفوشيوس، وانعكس كل ذلك في مضامين أطروحاتهم التي تختلف عن مثيلاتها في الغرب بإضافة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لترصيع علوم التنمية البشرية وجعلها أكثر إقناعا في البيئة الثقافية العربية والإسلامية. وسائرهم في ذلك قطاع عريض من النخب الدينية والمثقفة، فلم يشذ عن هذه القاعدة إلا النزر اليسير.

ولم يكن ممكنا مباشرة العمل في عرض المنهج القرآني دون الإجابة عن تساؤل آخر من الأسئلة التي أثرت في إشكالية البحث، وهو الاستفهام عن غياب نموذج المنهج القرآني في التنمية البشرية في واقعنا المعاصر؟ وذلك بالرغم من التأكيد على علاقة التنمية البشرية بالقرآن الكريم باعتباره منهج حياة شامل ومتكامل.. وفي سياق الجواب عن ذلك، تبين حدوث انحرافات تدريجية عن تعاليم القرآن ومصدريته كمنهج للحياة، وكان من أبرز الأسباب تقسيم العلوم الإسلامية، وانفراد كل طائفة بشق من الاهتمام بآيات القرآن.. فانتهت

تلك التجربة إلى تكريس الاهتمام بقراءة "طقوسية" "تبركية" رأينا كيف ساهم الموروث الإسلامي في توطيدها من زوايا عدة. لعل أبرزها التناول التجزيئي للقرآن، وعزل مضامينه عن واقع الإنسان لصالح معارك فكرية جانبية انتهت إلى تخنيط المضمون القرآني في حياة الناس، وتعطيل دوره في تنميتهم. فقد تلاشى البعد المقاصدي للقرآن تدريجيا من حياة المؤمنين به، ففقدت بذلك علوم العقيدة والفقه والسلوك المستمدة منه القدرة على مواكبة مستجدات الحياة. فلما ورث المسلم المعاصر هذا الفهم، أصبح يعيش حيرة في اختيار نماذج الحياة الناجحة، مترددا بين ما يقدمه خطاب ديني تقليدي دخل مرحلة الأفول منذ قرون، وما تقدمه حضارة حديثة براقعة آخذة في النمو والازدهار المادي المتزايد باستمرار. أي أن المسلم المعاصر بتعبير أبي القاسم حاج حمد يعيش بين استلابين؛ استلاب لاهوتي واستلاب وضعي.

فكان من نتائج ذلك التعطيل للمنهج القرآني في حياة المسلم، تشويش مصدريته المعرفية، وذلك بما وفرت المرويات الشائعة في القرون الهجرية الأولى من رصيد ضخم استند عليه أتباع المذاهب والطوائف في تكريس رؤاهم الجزئية وتعضيدها، فتشكلت تلك المدارس وأنتجت رؤى اختزالية سلبية و انتكالية تنظيرية مشوهة في العموم عن تلك الرؤية التي أسسها القرآن الكريم ودعمتها تعاليم نبيه الكريم ﷺ. وإذا كان ذلك التشويش لمصدرية القرآن بسبب عمليات التجزيء لآياته وإهدار بعده المقاصدي في المنظومتين الفقهية والكلامية؛ فإن المنظومة الصوفية التي نُظر إليها بإيجابية؛ لما حملته من معالم إحياء المقاصد الرسالية للقرآن غيرت مفهوم العلم جملة إلى ما اعتبرته علم مكاشفة، وحولت القرآن بموجب ذلك التوجه المتحرر من قيود اللغة ومعايير الفهم الإنساني إلى دليل كامل على مقولاتها باستخدام طرق تأويلية خاصة؛ أنتجت في النهاية تلك المصوغات من المفاهيم والمضامين التي تكاد تناقض الإسلام جملة.

ساعدنا ذلك على الدخول إلى الباب الثاني، بوعي لأزمة المنهج من ناحيتين، الوضعية والتراثية. فعملنا على إعادة النظر في المصدرية القرآنية بما يجعلها خالصة من أي تشويش

مذهبي أو تاريخي نسبي، ثم أبرزنا مقومات التنمية البشرية في القرآن الكريم بما تعتمد عليه من معجم لغوي خاص يعكس خصوصية المنهج القرآني و يساهم في إحياء معاني ذات حقائق ضخمة في الرؤية الكونية القرآنية مثل الإيمان بالله، والحياة الطيبة، والاستخلاف الإنساني والإعمار والتزكية.. وهو ما مهد للحديث عن مرتكزات الرؤية القرآنية متمثلة في الله والإنسان والحياة والكون..

تكتسب الرؤية الكونية القرآنية أهميتها من كونها رؤية مرتبطة بالإنسان وغاية وجوده، وهي تقدم إجابات عن طبيعة مهمته وعلاقاته، ولقد تمكن الرعيل الأول زمن النبوة وبعدها من إدراكها فتحولوا إلى أداة بناء وتغيير وامتدت آثارهم إلى أقصى بقاع العالم.

ومع مرور الزمن تشوهت معالم الرؤية لتقف عجلة التقدم والنماء والبناء، وتتحرف مفاهيم الإيمان وتتقطع الصلة بالقرآن الكريم تدبرا وفهما وتفعيلا ...

ومن هنا، تراكمت مظاهر الأزمة في الرؤية الكونية لدى الإنسان، وصار يستورد من العالم الغربي ما يسد به الثغرة، ولكن هيهات؟

إن أهمية الرؤية الكونية تتجلى أساسا في كونها ينتظم تحتها ثلاث غايات رئيسة تحدد المنطلق الصحيح وفق السنن الكونية.. وهي المعرفة بالله التي تقود إلى المعرفة الحقة بالنفس، فيستوجب ذلك تعظيم الله تعالى وعبادته وطاعته، واستشعار رقابته في المحيا والمعاش كله. فتتضح أمامه الوجهة ويتحول الإيمان إلى محرك وعهد بين العبد وربّه، لتختبر النفوس في مواقف الابتلاء والاختبار، وينم سلوك الافراد عن مدى عمق إيمانها، في تناغم وتلازم يفضي اولها لآخرها. ثم الإنسان الذي هو موضوع الخلافة، والتمكين والتسخير ف هذا الكون، وقد بسط القرآن الحديث عنه من نواح عدة تتكامل فيما بينها لتكتمل الصورة وتتحدد الملامح بين ما هو فطرة مؤهلة للتوحيد، و قدرات متنوعة مهمتها النهوض بمهمة الاستخلاف والعمارة والتكليف.... وبين صفات خلقية من الضعف والعجلة والجدال والهلع والشح...يبسطها القرآن لأجل إدراكها وترويض النفس على مخالفتها وحسن

إدارتها والسعي بها نحو التغيير والاعتدال، وهي جانب من صفاته التي تدل على بشريته، والتي لا تنقص من تكريم الله تعالى له واختصاصه بالاستخلاف وبالرسالة.

على أن هذا الإنسان قد أمده الله بما يعينه على مهمته، إضافة إلى الفطرة ونقصه به القلب، فتحدث القرآن عن أنواع القلوب، وذكر القلب السليم والقلب الذي أصابه الران والقلب المطمئن الساكن، ليحدد القرآن أن محل الاختبار هو هذا القلب مختزن الإيمان والإدراك والعقل

ثم المعرفة بالحياة، إذ جاءت الحياة في القرآن الكريم بصيغتين: الحياة الدنيا والحياة الآخرة وهما موضوعان تاهت فيهما مدارك الإنسان عبر الأزمان بين تغليب لأحد الطرفين، على أن منهج القرآن واضح في الجمع بينهما، مع إدراك بخس الأولى وتفاقتها بالنسبة للثانية، ولكنها في الوقت ذاته تستمد قيمتها من اعتبارها دار ابتلاء وعمل وتعمير بالصالح والخير. بدون النجاح فيها لا يمكن العبور للحياة الباقية في الجنة. كما نجد في القرآن مفهوما خاصا للأحياء والأموات يتمثل في المؤمن والكافر، إذ الإيمان حياة للنفوس والقلوب، والكفر بمثابة موت للنفوس البشرية وإن كانت ترى بين الأحياء تعيش وتتنفس.....

وحتى الغنى والفقر في القرآن الكريم يخالفان موازين الناس في الحكم بالسعادة والشقاء، إذ مصطلح السعادة في القرآن موقوف على الجزاء بالجنة، حيث السعادة بنيل الخلود وإشباع جميع الاحتياجات الانسانية، أما في الحياة الدنيا فالإيمان والعمل الصالح والعمل بقوانين الكون وسننه وشرعية الوحي تحقق الحياة الطيبة ومشاعر السكينة والطمأنينة والرضا

ولا يتأتى ذلك إلا بقراءة سنن القرآن، كسنة تغيير النعم وسنن الرزق، وسنة التوازن، وسنن المشاركة (الزيادة_الشكر) (النصر_المناصرة) وسنن المعية (العسر واليسر).....

وكما رأينا فللقرآن معجمه الخاص به، في الحديث عن الارتقاء بالإنسان، بما يحقق نماءه الشخصي، ويكون باصطلاح التزكية، الذي يعتبر لفظا قرانيا خالصا يفيد النماء والزيادة. وغالبا ما ترد في القرآن بمعنى المبادرة لأجل غاية يذكرها القرآن وهي الفلاح.

وهكذا يكون كل عمل تعمير وتمكين وإصلاح يرجى منه الترقى والارتقاء، بالتزام الصراط المستقيم هو تركية. بما في ذلك نمط الحياة وطبيعة الرؤية وغايتها، إذ كل سعي وتهافت وتدافع لا يجعل الله غايته هو تعب لا طائل منه وعمل يفنقر إلى المعنى والروح. وبما في ذلك التزكية الإيمانية، التي تعني الزيادة والارتقاء على مستوى العقيدة والإيمان ليصل به الإنسان إلى مرتبة الإحسان أو المراقبة، أي استحضار المراقبة الالهية في كل الأحوال. فلا يخشى في الله لومة لائم، و حينما يصبح الإيمان بالله هو المحرك في معترك الحياة، تهون كل الشدائد وتتلاشى البهجة الزائفة الشاغلة (زينة الحياة الدنيا) لأن الإيمان يصل الدنيا بالآخرة، ويعمق الانتماء ويبني الشخصية ويحدد المواقف. فيتحول إلى طاقة دافعة ونور مرشد وبوصلة موجهة.

وهذه التزكية الإيمانية لا سبيل لتحقيقها إلا بموصول العبادة والذكر الذي يزيل أدران القلوب ويمد بالطمأنينة، فتتبدد المخاوف والشكوك، ويزداد الثبات على الحق.

كما نجد التزكية الوجدانية التي تعنى بتطهير الاعتقاد والقناعة وتصويب التصور، الذي يحرك سلوك الإنسان، وتتولد عنه مشاعر شتى وانفعالات متضاربة فينشأ عن الإيمان بالله نوع من التوازن النفسي تواكبه التزكية العقلية التي تصحح المفاهيم والقراءات، وتوجه العقل وأدوات العلم نحو الغاية من الخلق بالإصلاح والنماء والإعمار، وفق قراءة تفكيرية متجددة للكون لا تتقطع لعالم الغيب والشهادة، ترقى بالإنسان نحو إنسانيته، وتواكب فطرته، وبدونها يسقط من مدارج إنسانيته ليكون في مرحلة ما كالأنعام، أو أضل.

إن هذه الرؤية المتناغمة كفيلة بتحقيق إشباع فكري ووجداني وعقلي قمين بتحقيق حياة متوازنة طيبة..

تؤكد أهمية المنهج القرآني في جانبه العملي أو الأداتي، والذي لا ينفصل عن مقاصد الرؤية القرآنية ضمن النسق القرآني، غير أن الاقتضاء المنهجي جعلنا نفرده بفصل أخير من الباب الثاني، لنشير من خلاله فقط إلى أهمية تفعيل مفاتيح المنهج القرآني وأهمها مفاتيح التلقي

عن القرآن تلاوة تعليمًا وجهادًا وتدبرًا، وكذلك تفعيل وسائل استدامة الصلة بالله تعالى من خلال الصلاة والذكر مع اتخاذ القدوة الصالحة .. مع تصحيح الصور السلبية الموروثة في هذا الجانب من خلال التزام المنهج القرآني.

وبذلك أكدنا عملياً على أن القرآن منهج حياة.. منهج يستوعب قضايا التنمية البشرية المعاصرة وغاياتها ويرقى بها إلى مقاصد أسمى. ليس فقط باعتبار مصدريته الربانية التي هي من أبرز خصائصه، بل لأن غايته الأساس هي الارتقاء بالإنسان من حال إلى حال أفضل منها. وحين يعبر القرآن عن هذا الانتقال بأنه تحول من الضلال إلى الهدى، ومن الموت إلى الحياة، ندرك حجم وعظم التنمية التي يتحدث عنها القرآن، وندرك من خلال ذلك أيضاً؛ حجم التجني الذي نرتكبه حين نهمل دوره في حياتنا لفائدة برامج التنمية البشرية المعاصرة، المرتكزة على روافد ودعائم من علوم وفلسفات ومذاهب فكرية ودينية متعددة ومختلفة. وقد كان ذلك بمثابة الجواب عن سؤالنا الإشكالي حول إمكانية وجود منهج قرآني للتنمية البشرية ومدى راهنيته في واقعنا العربي.

غير أن العمل لم يكتمل لأسباب منها ضيق الوقت المخصص لموضوع شاسع الأطراف، يروم إعادة قراءة القرآن بمداخل منهجية ومعرفية تحمل شيئاً من الجدة. وقد كان موضوع التنمية البشرية مدخلاً مناسباً لهذا المشروع الذي بدأت تتضح لي معالمه مع نهاية العمل في هذه الأطروحة بما تم تثبيته من مرتكزات الرؤية القرآنية، وما تم فتحه من ملفات أولية عن أدوات تفعيل المنهج القرآني تحتاج إلى مزيد من الجهد في استجلاء عناصرها. ونرى أن استكمالها وإعادة تركيبها ضمن النسق الكلي القرآني سوف يكشف عن آفاق واعدة على مستوى استعادة الدور القرآني في حياة المسلم من الناحيتين التعليمية والتربوية، ومد جسور هذه المقترحات نحو آفاق مؤسساتنا التعليمية العمومية والخاصة، أملاً في استعادة بوصلتنا القرآنية في الحياة العملية حتى يكون سيرنا فيها على استقامة. وحسبنا وضع هذه اللبنة في هذا المقام.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

لائحة المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- 2- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد، كتاب الزهد، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999.
- 3- ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو، كتاب فيه ذكر الدنيا والزهد فيها والصمت وحفظ اللسان والعزلة، تحقيق عبد العلي عبد الحميد، الدار السلفية، ط1، 1983.
- 4- ابن أبي يعلى، أبو الحسين محمد، طبقات الحنابلة، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكة المكرمة، (د.ط)، 1999.
- 5- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي:
 - تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001.
 - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984.
- 6- ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر:
 - الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، (د.ط)، 1983.
 - طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق مكتب التوثيق والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2005.
 - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق أحمد فخري الرفاعي و عصام فارس الحرساني، دار الجيل، بيروت، (د.ت) .
- 7- ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم:
 - درء تعارض العقل والنقل، الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1991.
 - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مكتبة المعارف، الرياض، 1972.
- 8- ابن جزى الغرناطي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1416 هـ.
- 9- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، الزهد، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.

- 10- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996.
- 11- ابن عاشر، أبو محمد عبد الواحد بن أحمد، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، تحقيق أمين محمد مصطفى عبد الصمد، دار ابن حزم، بيروت، 2009.
- 12- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، 1984.
- 13- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1994.
- 14- ابن عجيبة، أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله قرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي، القاهرة، 1419 هـ
- 15- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (د.م)، (د.ت).
- 16- أبو بكر محمد، أحمد محمد إبراهيم، التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2007.
- 17- أبو حجاج، يوسف، حقيقة وأسرار العلاج باليوغا، دار الكتاب العربي، ط1، 2009.
- 18- أبو سليمان، عبد الحميد:
- أزمة الإرادة والوجدان المسلم، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004.
 - الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط1، 2009.
- 19- أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005.
- 20- أبو عبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن، تحقيق مروان العطية وحسن خرابة ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1995.
- 21- الانتصاري، فريد:
- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة، ط2، 2015.
 - الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، منشورات رسالة القرآن، مكناس، (د.ط)، 2007.
 - مجالس القرآن: مدارس في رسائل الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، دار السلام، القاهرة، ط2، 2010.
 - مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، منشورات رسالة القرآن، (د.م)، ط1، 2006.
- 22- إبان ماكديرموت، ويندي جاجو، مدرب البرمجة اللغوية العصبية، مكتبة جرير، الرياض، ط4، 2008.
- 23- ب.ك.ناريان، فلسفة اليوغا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1986.

- 24- بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، (د.ط).
- 25- بروني وير، أهم خمسة أشياء يندم عليها المرء بعد الموت، ترجمة ونشر وتوزيع مكتبة جرير، ط، 2014.
- 26- بسام ساعي، أحمد، إدارة الصلاة: إعادة اكتشاف الركن الثاني في الإسلام، دار الفكر، بيروت، ط1، 2015.
- 27- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- 28- بورن، إدموند، التغير العالمي من أجل بشرية أكثر نجاحاً، ترجمة سماح خالد زهران، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015.
- 29- البوشيخي، الشاهد، القرآن والإنسان أية علاقة، مطبعة أنفو، فاس، (د.ط)، 2009.
- 30- بيرينتون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي خطاب، عالم المعرفة، ع82، 1984.
- 31- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان، تحقيق ومراجعة وتخريج: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2003.
- 32- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق محمد أحمد شاكر وآخرون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1365هـ.
- 33- الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.
- 34- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط4، 1990.
- 35- حاج حمد، محمد أبو القاسم :
- ابستمولوجية المعرفة الكونية: إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004.
 - إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية، موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، فئة مقالات.
 - العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى، بيروت، ط2، 2012.
 - القرآن والمتغيرات الاجتماعية، دار الساقى، بيروت، ط1، 2011.
 - منهجية القرآن المعرفية، دار الساقى، بيروت، ط1، 2013.
- 36- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه، شرح وتحقيق: أحمد بن فارس السلو، تعليقات الحافظين المؤتمن الساجي والتقي ابن الصلاح، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003.
- 37- حجازي، مصطفى:
- إطلاق طاقات الحياة: قراءات في علم النفس الإيجابي، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 2012.
 - علم النفس والعولمة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط1، 2010.

- 38- حمدي، أيمن، قاموس المصطلحات الصوفي، دار قباء، القاهرة، (د.ط)، 2000.
- 39- حنا تادرس، خليل، أسرار اليوغا الصينية والهندية، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- 40- حنان قصبي و محمد الهلالي، في المنهج، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2015.
- 41- دبلو داير، واين، قوة العزيمة: تعلم كيف تحقق رغباتك بطريقة خاصة، مكتبة جرير، الطبعة 2، 2008.
- 42- دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2006.
- 43- دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث : ترتيب السور حسب النزول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2000.
- 44- دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محود قسم و السيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، (د.ط)، 1988.
- 45- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999.
- 46- راسل، برتراند، الفوز بالسعادة، ترجمة سمير عبده، دار منشورات مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، 1980.
- 47- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ.
- 48- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1990.
- 49- روس، جاكين، مغامرة الفكر الأوربي: قصة الأفكار الغربية، ترجمة أمل ديبو، مراجعة زهيدة درويش، أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2011.
- 50- الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، (د.ط)، 1995.
- 51- زروق، أحمد، قواعد التصوف، ضبط وتعليق محمود بيروتي، دار البيروتي، دمشق، ط1، 2004.
- 52- الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
- 53- زيعور، علي، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس، (د.م)، ط1، 1984.
- 54- سترومبرج، رونالد، تاريخ الفكر الأوربي، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- 55- ستيف بافيستر وأماندا فيكرز، علم نفسك البرمجة اللغوية العصبية، مكتبة جرير، الرياض، ط3، 2008.
- 56- السجلماسي المالكي، سيدي أحمد بن المبارك، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2002.
- 57- السكندري، أحمد ابن عطاء الله، التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغل، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط1، 2007.

- 58- سكريبك غار ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012.
- 59- السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين:
- طبقات الصوفية، تحقيق وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
 - عيوب النفس ومداواتها، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي و عبد العزيز شرف، دار الشروق، (د.ط)، 1981.
- 60- سليغمان، مارتن، السعادة الحقيقية، مكتبة جرير الطبعة الأولى 2006.
- 61- سليمان فياض، الأنمة الأربعة، كتاب الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث دولة قطر. (د.ط)، (د.ت).
- 62- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة، ط 2005،
- 63- السهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة. (د.ط)، (د.ت).
- 64- شارما، روبن، الراهب الذي باع سيارته الفيراري، مكتبة جرير، الرياض، ط5، 2011.
- 65- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- 66- شبار، سعيد، الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، مركز دراسات المعرفة والحضارة، دار الإنماء الثقافي، الرباط، ط1، 2014،
- 67- شريعتي، علي، الإنسان والإسلام، ترجمة عباس الترجمان، مراجعة علي حسين شعيب، دار الأمير، ط2، 2007.
- 68- الشعراوي، محمد متولي، خواطر حول القرآن الكريم، مطابع أخبار اليوم، (د.ط)، 1997.
- 69- الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1995.
- 70- الشهرستاني، الملل والنحل، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992.
- 71- صاحب بن عباد، أبو القاسم اسماعيل الطالقاني، المحيط في اللغة ، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط1، 1994.
- 72- صالح الرقب، محمود الشويكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، ط1، 2006.
- 73- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط24، 2000.
- 74- الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1989.
- 75- صلاح الراشد، صالح:

- قانون الجذب: النظرية والتطبيق لأخطر قانون كوني، كيف تجذب ما تريد لحياتك؟، مركز الراشد، الكويت، (د.ط)، 2010.
- كيف تخطط لحياتك، مركز الراشد، الكويت، (د.ط)، 2004.
- 76- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
- 77- طريف الخولي، يمنى:
- فلسفة العلم في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2009.
- مشكلة العلوم الإنسانية وتقتين حلها، مؤسسة هندواي، القاهرة، (د.ط)، 2012.
- 78- عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج، دار أبي رقرق، الرباط، ط1، 2007.
- 79- عبد الجواد أبو حلاوة، محمد السعيد، علم النفس الإيجابي: ماهيته ومنطلقاته النظرية وآفاقه المستقبلية، إصدارات المؤسسة العربية للعلوم النفسية، ع 34 ، 2014.
- 80- عبد الرحمن، طه، بؤس الدهرانية: النقد الانتمائي لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014.
- 81- عبد اللطيف، نبيل، فلسفة القيم نماذج نيتشوية. المكتبة الفلسفية، دار التنوير. (د.ط)، (د.ت) .
- 82- العضراوي، عبد الرحمن، مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2015.
- 83- العلواني، طه جابر:
- إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 2009.
- معالم المنهج القرآني، دار السلام، القاهرة، ط1، 2010.
- نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهادي، بيروت، ط1، 2004.
- 84- عمارة، محمد، معالم المنهج الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1991.
- 85- عويضة، كامل محمد، فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
- 86- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد:
- إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت) .
- المنقذ من الضلال، تحقيق محمود بيجو، مراجعة محمد سعيد رمضان البوطي و عبد القادر الأرناؤوط، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، (د.ط)، (د.ت) .
- ميزان العمل، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط1، 1964.

- 87- الغفيلي، عبد الله بن سليمان، ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف، دار المسير، الرياض، ط1، 1998.
- 88- الفارابي، أبو نصر، إحصاء العلوم، القاهرة، دار مكتبة الهلال، ط1، 1996.
- 89- الفاروقي، اسماعيل راجي، التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة، ترجمة محمد السيد عمر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط1، 2016.
- 90- فخر الدين الرازي، محمد بن عمر التيمي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ.
- 91- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.م)، (د.ط)، (د.ت).
- 92- فروم/ إيريك:
- الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة لطفي فهم، سلسلة عالم المعرفة، ع140، 1989.
- فن الوجود، ترجمة إيناس نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 2011.
- 93- فريديريك، لونوار، السعادة رحلة فلسفية، ترجمة خلدون النبواتي، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس ، ط1.
- 94- الفقي، ابراهيم، قوة الذكاء الروحي، ثمرات للنشر والتوزيع، ط1، 2011.
- 95- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د.ط)، 1996.
- 96- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- 97- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ
- 98- القشيري، عبد الكريم بن هوزان، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، (د.ط)، 1989.
- 99- قطب، سيد:
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، ط15، 2002.
- السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط13، 2001.
- في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط23، 1994.
- معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، (د.ط)، 2008.
- مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط4، 1993.

- هذا الدين، دار الشروق. القاهرة. الطبعة 17، 2001.
- 100- قطب، محمد:
- دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2006.
- لآله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2010.
- منهج التربية الإسلامية ج1، دار الشروق، بيروت، (د.ط)، 1997.
- 101- كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت. (د.ط)، (د.ت).
- 102- الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحق، التعرف لمذهب أهل التصوف مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، (د.ت).
- 103- كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع168، 1992.
- 104- الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، مؤسسة الريان، بيروت، (د.ط)، 1998.
- 105- مجموعة من علماء الأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط3، 1992.
- 106- محسن، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، بيروت، ط3، 2000.
- 107- محمد امزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2008.
- 108- محمد عارف، نصر، (تحرير) قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، مجموعة مؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (د.ط)، 1996.
- 109- محمود عثمان، صلاح، الداروينية والإنسان : نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف بالأسكندرية، الاسكندرية، 2001.
- 110- محمود، زكي نجيب، عربي بين ثقافتين، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1993.
- 111- محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- 112- مراد هوفمان، خواء الذات والأدمغة المستعمرة، ترجمة عادل المعلم ونشأت جعفر، مكتبة الشروق الدولية، مصر الجديدة، ط2، 2011.
- 113- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ط.ت).
- 114- المرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي، مراجعة عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2001.
- 115- المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002.

- 116- ملكاوي، فتحي حسن:
- منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط، 2013 .
- منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة خاصة بالمغرب، 2012.
- 117- المودودي، أبو الاعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب محمد كاظم سباق، دار القلم، (د.م)، ط5، 1971، المؤذن، ماجدة، شفاء الإنسان بسور القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (د.م)، (د.ت).
- 118- موران، ادغار، هل نسير إلى الهاوية؟، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2012.
- 119- الموصلي، المعافي بن عمران، كتاب الزهد، دراسة وتحقيق وتعليق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1999.
- 120- الميداني، عبد الرحمن حسن حنكة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات، ط4، دمشق، دار القلم، 2009م.
- 121- ميرفي، جوزيف، قوة عقلك الباطن، مكتبة جرير، ط8، 2013.
- 122- نتشه، فريديريك، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، ط1، 1993.
- 123- النقيب، عبد الرحمن، في مسيرة إسلامية المعرفة، دار السلام، القاهرة، ط، 2010.
- 124- هازار، بول، أزمة الضمير الأوربي، ترجمة جودت عثمان و محمد المستكاوي، مطبعة الكاتب المصري، القاهرة، ط1، 1948.
- 125- الهلالي، مجدي:
- غربة القرآن، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 2013.
- نظرات في التربية الإيمانية، (د.م)، (د.ت)، (د.ط)
- 126- هيجل، العقل في التاريخ، ج1، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 2007.
- *المجلات:
- 127- مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المجدية للعلماء، ع3، 2016.
- 128- مجلة الترتيل، محور الترتيل في القرآن المجيد منهج وبناء، الرابطة المجدية للعلماء، ع1، يونيو 2013.
- 129- مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، ع8، مجلد2، ربيع 2014. من إصدار المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. قطر.

- 130- مجلة علوم الشريعة والقانون، الجامعة الأردنية، المجلد 32، العدد 1، 2005.
- 131- سلسلة الفلسفة والعلم، قضايا العلوم الإنسانية: إشكالية المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- *الندوات والمؤتمرات:
- 132- ندوة " إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، تحرير عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط3، 1998.
- 133- ندوة " قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية"، تحرير نصر محمد عارف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.
- 134- ندوة "العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟"، من تنظيم الرابطة المجدية للعلماء بمدينة أكادير، يومي 1314 ربيع الثاني 1431 هـ الموافق 3031 مارس 2010م، ونشرت طبعتها الأولى عن دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط.
- 135- ندوة "جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه"، المجلد الرابع، مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المجدية للعلماء، الرباط، ط 1، 2013.
- 136- المؤتمر العالمي الرابع للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع " المصطلح القرآني وعلاقته بمختلف العلوم" الذي أقامته مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)، بالتعاون مع الرابطة المجدية للعلماء، وجامعة القرويين، والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، والمجلس العلمي المحلي بفاس، ومركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض، وجمعية الثقافة الإسلامية بتطوان، بمدينة فاس المملكة المغربية، أيام 131415 أبريل 2017م.
- * مراجع أجنبية ومواقع الكترونية:

- 137- Depression : A Global Crisis, world mental health day, october,10,2012.
www.Wfmh.org
- 138- DURKHEIM , EMILE, EDUCATION ET SOCIOLOGIE ; Une édition électronique réalisée à partir du livre d'Émile Durkheim (1922), Éducation et sociologie. Texte préparé par JeanMarie Tremblay, sociologue, 15 février 2002.
- 139- Johann, hari, lost connections : uncovering the real causes of depression and the unexpected solutions. (electronic edition).
http://www.alfowz.com/documents.php?action=documents&id=5
- 140- http://articles.latimes.com/2011/aug/30/business/lafirobertgreene20110726

- 141- <http://hdr.undp.org/>
- 142- <https://www.allaboutspirituality.org/newage.htm>
- 143- <https://www.hespress.com/artetculture/339630.html>
- 144- www.library.tafsir.net

المحتويات

5.....	تقديم.
17.....	الباب الأول: التنمية البشرية بين المنهج الوضعي والمنهج القرآني
18.....	الفصل الأول: المنهج الوضعي وإشكالياته من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية
19.....	المبحث الأول: مفاهيم حول المنهج والمنهج القرآني والتنمية البشرية
19.....	المطلب الأول: مفهوم المنهج والمنهج القرآني
33.....	المطلب الثاني: مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالقرآن الكريم
33.....	1 - مفهوم التنمية البشرية
38.....	2 - اتجاهات التنمية البشرية
52.....	3 - التنمية البشرية والقرآن الكريم
60.....	المبحث الثاني: جذور المنهج الوضعي في العلوم الإنسانية وآثاره في التنمية البشرية
60.....	المطلب الأول: الجذور الفكرية للمنهج الوضعي في العلوم الإنسانية
75.....	المطلب الثاني: أثر المنهج الوضعي في التنمية البشرية المعاصرة
75.....	1 - التأثير على مستوى العلوم الرافدة للتنمية البشرية
81.....	2 - التأثير على مستوى نمط الحياة
91.....	الفصل الثاني: التنمية البشرية في الواقع العربي المعاصر وأسباب تعطيل المنهج القرآني
92.....	المبحث الأول: الواقع العربي المعاصر وإشكالية المنهج من العلوم الإنسانية إلى التنمية البشرية
92.....	المطلب الأول: الواقع العربي المعاصر وأزمة المنهج في العلوم الإنسانية
103.....	المطلب الثاني: الواقع العربي المعاصر وأزمة المنهج في التنمية البشرية
106.....	1- تبينة التنمية البشرية من خلال تجربة الدكتور صالح الراشد
113.....	2- تبينة التنمية البشرية من خلال تجربة الدكتور الدكتور إبراهيم الفقي
121.....	المبحث الثاني: أزمة تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية؛ الأسباب والتجليات
121.....	المطلب الأول: أسباب تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية
125.....	أ - علم الكلام وأثره في تعطيل المنهج القرآني
129.....	ب - الاتجاه الفقهي وأثره في تعطيل المنهج القرآني
132.....	ج - الاتجاه الصوفي وأثره في تعطيل المنهج القرآني
150.....	المطلب الثاني: تجليات تعطيل المنهج القرآني في الحياة الإسلامية

الباب الثاني: معالم المنهج القرآني في التنمية البشرية.....	160
تمهيد.....	161
الفصل الأول: المنهج القرآني في التنمية البشرية؛ مداخل معرفية ومنهجية.....	163
المبحث الأول: القرآن الكريم؛ مداخل منهجية.....	164
المطلب الأول: المصدرية القرآنية؛ المفهوم والسياق.....	164
المطلب الثاني: مداخل منهجية في التعامل مع القرآن.....	174
المبحث الثاني: مقومات وخصائص المنهج القرآني في التنمية البشرية.....	187
المطلب الأول: خصوصية المعجم القرآني في التنمية البشرية.....	187
المطلب الثاني: الخصائص العامة للمنهج القرآني في التنمية البشرية.....	200
الفصل الثاني: الرؤية الكونية القرآنية ومقاصدها في التنمية البشرية.....	207
المبحث الأول: مقدمة حول الرؤية الكونية القرآنية.....	208
المطلب الأول: الرؤية الكونية القرآنية وأهميتها.....	208
المطلب الثاني: سورة الفاتحة منهج حياة وخلاصة الرؤية القرآنية.....	216
المبحث الثاني: مرتكزات الرؤية القرآنية في التنمية البشرية.....	225
المطلب الأول: الله تعالى في الرؤية القرآنية.....	225
4- العلم بالله في القرآن الكريم:.....	225
5- الإيمان بالله في القرآن الكريم.....	232
المطلب الثاني: الإنسان في القرآن الكريم.....	256
المطلب الثالث: الحياة في القرآن.....	279
2- الحياة في القرآن بين الدنيا والآخرة:.....	279
3- الحياة الطيبة في القرآن.....	283
4- سنن الحياة في القرآن.....	287
المطلب الرابع: الكون في الرؤية القرآنية.....	299
المبحث الثالث: مقاصد الرؤية القرآنية في التنمية البشرية.....	302
المطلب الأول: المقصد العام للرؤية القرآنية وأثره في تشكيل نمط الحياة.....	302
المطلب الثاني: المقاصد الخاصة للرؤية القرآنية في التنمية البشرية.....	310
أ- التزكية الإيمانية.....	310
ب - التزكية الوجدانية.....	318

ج- التركيزية القدرات العقلية.....	323
الفصل الثالث: أدوات المنهج القرآني وأثرها في تركية الإنسان	332
المبحث الأول: أدوات تفعيل القرآن في حياة الإنسان	333
المطلب الأول: القرآن تلاوة وتعلما.....	333
المطلب الثاني: القرآن تدبرا و مجاهدة.....	343
المبحث الثاني: أثر استثمار أدوات المنهج القرآني في تركية حياة الإنسان	352
المطلب الأول: التركيزية بالصلاة وذكر الله.....	352
المطلب الثاني: التركيزية بالقدوة.....	365
خاتمة.....	369
لائحة المصادر والمراجع.....	378

